مدخل إلى :

الأنثروبولوجيا

(علم الإنسان)

تأليف

نخبة من أعضاء هيئة التدريس

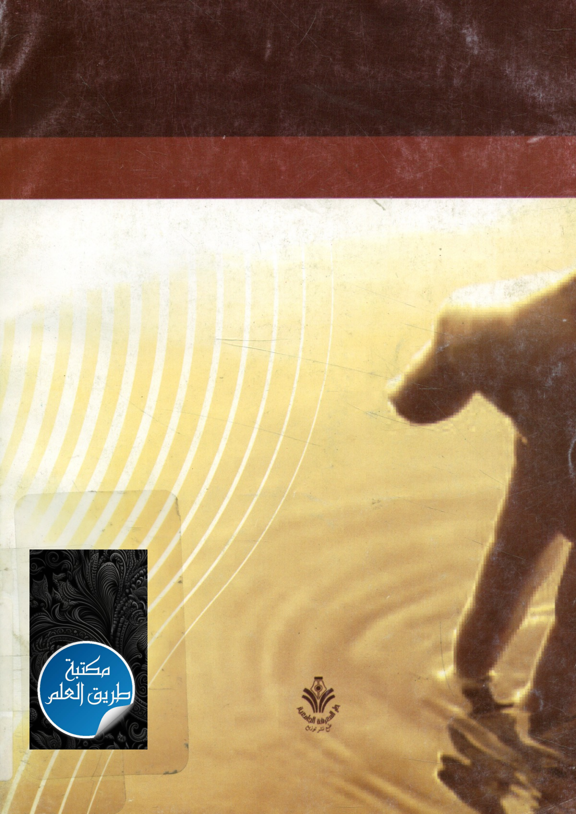
تحرير

دكتور مصطفى عمر حمادة

رئيس قسم الأنثروبولوجيا

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية





دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع
مكتبة
طريق العلم

مدخل إلي:
الأنثروبولوچيا
(علــم الإنســان)

تأليف

نخبة من أعضاء هيئة التدريس

تحرير

دكتور مصطفي عمر حمادة

رئيس قسم الأنثروبولوجيا

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

2013



كتاب

عدد الصفحات : 210

المؤلف :

عنوان الكتاب : نخبة من أعضاء هيئة التدريس بقسم الأنثروبولوجيا

الإدارة : ٣٦ ش سوتير - الأزريطة - أمام كلية الحقوق
جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

تليفون : 163 70 48 00203 فاكس : 454 30 48 00203

محمول : 913 1666 0122 002

الفرع : ٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - الإسكندرية

Email: darelmaarefa@gmail.com
d_maarefa@yahoo.com
Web site: www.darelmaarefa.com



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة الآية: ١٠٧)

مقدمة

يُعد كتاب مدخل إلى الأنثروبولوجيا: النظرية والمجال ، محاولة موضوعية ومنهجية جاءت من خلال جهد جماعي مشترك لنخبة من السادة أعضاء هيئة التدريس المتخصصين فى الدراسات الأنثروبولوجيا فى العديد من فروع العلم.

ويهدف هذا الكتاب إلى تعريف القارئ المبتدئ والدارس المتقدم بأهمية علم الأنثروبولوجيا ودوره فى مواجهة العديد من القضايا المجتمعية وأيضاً الإنسانية.

ويحتوى الكتاب على عشرة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان «**فصل تمهيدي**» وكتبه الأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى الأستاذ المتفرغ بالقسم، وعرض فيه لموضوع الأنثروبولوجيا من حيث التعريف والفروع المختلفة لعلم الأنثروبولوجيا ومجالات الدراسة الخاصة بكل فرع من فروع العلم.

أما الفصل الثانى فقد حمل عنوان «**أشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا**» وكتبه السيد الأستاذ الدكتور مصطفى عمر حمادة القائم بعمل رئيس القسم. وقد عرض فيه لمنهج البحث الأنثروبولوجي، وطرق وأدوات البحث المستخدمة فى علم الأنثروبولوجيا، وكذلك المنهج والنظرية فى البحث الحقلى فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية.

أما الفصل الثالث فهو يحمل عنوان «**الملاحظة في الأنثروبولوجيا الإجتماعية**» وكتبته السيدة الدكتورة مرفت العشماوى عثمان الأستاذ المساعد بالقسم، وعرضت فيه للملاحظة وقواعد إجرائها، كما تعرضت أيضاً لمزايا لملاحظة وعيوبها وكذلك أنواع الملاحظة وعرضت من ناحية أخرى لنماذج من الدراسات التى إستخدمت أداة الملاحظة. وأخيراً عرضت لثبات الملاحظة، وكذلك أخلاقيات القائم بالملاحظة.

أما الفصل الرابع فحمل عنوان «**الأنثروبولوجيا الثقافية: المجال والموضوع**» وكتبته أيضاً السيدة الدكتورة مرفت العشماوى عثمان، الأستاذ المساعد بالقسم

وأشتمل على مجال الأنثروبولوجيا الثقافية وشمل كل من الأنثروبولوجيا ، اللغويات وعلم آثار ما قبل التاريخ (الأركيولوجيا) وأيضاً الأنثروبولوجيا السيكولوجية وتعرضت بعد ذلك لموضوع الثقافة من حيث المعنى العام، ومفهوم الثقافة فى الأنثروبولوجيا والإتجاهات المختلفة فى تحديد مجال الثقافة، وعناصرها وأيضاً خصائصها.

أما الفصل الخامس والذى يحمل عنوان «**الأنثروبولوجيا الاجتماعية**» فقد كتبته السيدة الدكتورة نادية أحمد محمد، المدرس بقسم الأنثروبولوجيا وعرضت فيه لنشأة الأنثروبولوجيا ، والاتجاه الوظيفى فى الأنثروبولوجيا، ثم تعرضت لتطور الأنثروبولوجيا ومجالها المجتمعى، وكذلك البناء الاجتماعى كموضوع هام وحيوى فى مجال الدراسة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وأخيراً عرضت لعلاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالأنثروبولوجيا الثقافية.

أما الفصل السادس، والذى يحمل عنوان «**مدخل إلي الأنثروبولوجيا الاقتصادية**» فكتبته السيدة الدكتورة سلوى السيد عبد القادر، المدرس بقسم الأنثروبولوجيا، وتعرضت فيه لنشأة وتطور علم الأنثروبولوجيا الاقتصادية كفرع من فروع الأنثروبولوجيا العامة، كما تعرضت للمجالات الموضوعية .والتطبيقية لهذا الفرع من فروع العلم، ثم أخيراً عرضت لعلاقة علم الاقتصاد ببعض العلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الأنثروبولوجيا والاجتماع.

أما الفصل السابع فجاء بعنوان «**البناء الاجتماعي للمؤسسات الطبية**» وكتبته السيدة الدكتور فادية فؤاد حميدو، المدرس بقسم الأنثروبولوجيا ، وعرضت فيه لمفهوم البناء الاجتماعى وأهمية هذا المدخل فى دراسة المؤسسات الطبية، وكذلك تعرضت للعلاقات الاجتماعية داخل المؤسسات الطبية وبخاصة فى المستشفيات الجامعية، مثل علاقة الأطباء بالإدارة، وأيضاً كافة عناصر البناء الاجتماعى داخل المستشفيات.

أما الفصل الثامن، والذى يحمل عنوان «**المراحل العمرية للمرأة: دراسة في الأنثروبولوجيا**» فكتبته السيدة الدكتورة هندومة محمد أنور الأستاذ المساعد

بالقسم، وتعرضت فيه لمرحلتى البلوغ والمراهقة، والموقف الثقافى منهما، ونظرة الثقافة لكل مرحلة من المراحل التى تمر بها المرأة وبخاصة مرحلتى البلوغ والمراهقة، كما عرضت لموقف الثقافة أيضاً من مرحلتى الحمل والإنجاب، ودور الثقافة فى فهم كل مرحلة من هذه المراحل التى تمر بها المرأة.

وجاء الفصل التاسع بعنوان «**العلاقة بين الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية**»، وكتبه الأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى، الأستاذ المتفرغ بالقسم وتعرض فيه للخدمة الاجتماعية وممارستها المختلفة، والعلاقة بين الخدمة الاجتماعية والانثروبولوجيا ، كما عرض لأوجه التشابه والاختلاف بين كل من الخدمة الاجتماعية وعلم الأنثروبولوجيا.

وأخيراً جاء الفصل العاشر ليحمل عنوان «**الأنثروبولوجيا الفلسفية: النشأة والاهتمامات**» وكتبه الأستاذ الدكتور محمد عباس إبراهيم والذى أوضح فيه نشأة الأنثروبولوجيا الفلسفية، وناقش موضوع الحرية عند بول ريكور، وأنثروبولوجيا الحرية، وكذلك الأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية، وأخيراً عرض لموضوع الأنثروبولوجيا ومضمون الأسطورة.

وأخيراً جاء هذا الكتاب نتاج لجهد جماعى لهذه النخبة من السادة أعضاء هيئة التدريس بقسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية وهو ليس إلا محاولة متواضعة لنقدم من خلالها عرضاً مؤجزاً للأنثروبولوجيا، بأعتبارها مدخلاً لدراسة الإنسان والمجتمع والثقافة من ناحية ، وبأعتبارها موضوعاً هاماً فى مجال النظرية والتطبيق من ناحية أخرى...

والله الموفق .... وعلى الله قصد السبيل

المؤلفون

الإسكندرى فى ٢٠١٢/٩/٥

الفصل الأول

مدخل تمهيدي في الأنثوبولوجيا

دراسة الإنسان

- نمو وتقدم علم الانسان

- علم الإنسان والعلوم الاجتماعية (والعلم الاجتماعي)

اولا: علم الإنسان الطبيعي أو الجسمي أو الفيزيقي.

ثانيا: الأنثروبولوجيا الاجتماعية

ثالثا: علم الإنسان الثقافي (الأنثروبولوجيا الثقافية)

الفصل الأول

مدخل تمهيدي في الأنثروبولوجيا(*)

دراسة الإنسان:

واجه الإنسان منذ خلق بمجموعة من التساؤلات كلها كانت تثير التعجب مثل من هو هذا الإنسان؟ من أين أتى؟ لماذا قام بممارسة بعض الأفعال؟ ولماذا يترك بعض الأفعال الأخرى وغيرها من الأسئلة الكثيرة. والتى كان من نتائج الإجابة عليها أن بذل الإنسان كل جهده حتى كوّن التاريخ الإنسانى وفى بعض الأحيان كان يجد الإنسان بعض الإجابات عن بعض الأسئلة المحيرة فى الأساطير وفى الفولكلور.

ويعد علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) العلم الذى إستطاع الإجابة على تساؤلات الإنسان من خلال القرون الماضية من عمر الإنسان على الأرض وذلك لأن الأنثروبولوجيا هى دراسة الإنسان وثقافته وهو العلم الذى يهتم فى المحل الأول بدراسة الإنسان العاقل وأتباعه نظراً لأن عالم الإنسان المتخصص هو نفسه عضو فى الجماعة الإنسانية التى يقوم بدراستها وقد يكون من الصعب عليه فى بعض الأحيان تحقيق الموضوعية التى يمكن أن يحققها علماء آخرين مثل علماء النبات والحيوان وقد يتحمل الأنثروبولوجى أعباء دراسة الإنسان من وجهة نظر موضوعية وحيادية وعلمية ويهدف إلى أن يصل إلى فهم حقيقى وغير منحاز واضعاً فى الإعتبار الإختلافات الإنسانية(1).

نمو وتقدم علم الإنسان

ويعد علم الإنسان فى شكله الجديد من العلوم الحديثة نظراً لأن الإنسان سيثير دائماً مجموعة من التساؤلات عن نفسه وعن أصله الأول وقد أخذ علم الإنسان فترة طويلة من الزمن حتى ظهر كعلم مستقل وقد ساعد تقدم الإنسان وإكتشافه أساليب الإتصال ووسائل المواصلات الحديثة فى تقدم العلم ونموه.

(*) كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى الأستاذ بقسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

علم الإنسان والعلوم الإجتماعية (والعلم الإجتماعي)

حاول الإنسان قبل القرن الثامن عشر معرفة سلوكه وسلوك الآخرين وقام بتحليلها. ونظراً لأن الأنثروبولوجيا كعلم لا تهتم بالإنسان بمفردها كما أنها لا تشارك العلوم الإجتماعية وإنما أيضاً يشترك معها أيضاً العلوم الطبيعية فهناك إرتباط دائم بين الأنثروبولوجيا البيولوجية وبين علم الإقتصاد وعلم الإجتماع كما وأن الأنثروبولوجى يرحب بكل إسهامات هؤلاء العلماء وذلك للوصول إلى تحقيق الهدف العام لعلم الإنسان نفسه ألا وهو فهم الإنسان ويقدم نتائج بحوثة ودراساته المختلفة من أجل تحقيق صالح الإنسان.

إن نظرة الأنثروبولوجى للإنسان نظرة واقعية لأنه فى الوقت الذى ينظر إليه على أنه مخلوق إجتماعى فإنما ينظر إليه ككائن بيولوجى أيضاً إنه ينظر إلى السلوك الإنسانى ولكنه لا يحدد لنفسه جانباً واحداً من هذا السلوك فهو ينظر إلى السلوك الكلى والأنثروبولوجى يستطيع بما إكتسب من مهارات أن ينظر نظرة شاملة إلى هذا العضو البيولوجى الثقافى ألا وهو هذا الإنسان الذى كرمه الله على بقية المخلوقات.

ويعتبر علم الإجتماع Sociology من أقرب العلوم لعلم الإنسان نظراً لأن كلا من العلمين يهتم بالدور الذى يقوم به الإنسان من خلال وجوده فى محتوى إجتماعى وكل من الأنثروبولوجى والإجتماعى يحاول فهم العادات والتقاليد الخاصة بالشعوب التى تنتمى إلى ثقافات معينة لكن الأنثروبولوجى يتميز بإهتمامه الخاص بالبحث عن القوانين العامة للسلوك الإنسانى وذلك عن طريق دراسة كل جوانب السلوك الإنسانى وليس كما يفعل المتخصص فى علم الإجتماع من خلال عينة أو نماذج محددة من الجماعة. كما وأن الأنثروبولوجى ينظر إلى الإنسانية ككل ولا يحدد نفسه فى دراسة ثقافية واحدة كالثقافة الغربية كما أنه يرى أنه من الضرورى لكى يصل إلى فهم أعمق للسلوك الإنسانى يجب عليه أن يدرس الإنسان فى كل مكان ومن ثم فإن الدراسات الأنثروبولوجية إمتدت إلى دراسة كل الثقافات الإنسانية الأخرى. فضلاً عن أنها تركز على ميادين أخرى كثيرة كميدان ثقافة الإنسان فى مرحلة ما قبل التاريخ بإعتبار أن دراسة هذه المرحلة هى أساس دراسة الثقافات الإنسانية المختلفة.

إن ما يستطيع أن يتوصل إليه الأنثروبولوجى من نتائج تعد تحديات للنتائج التى

يتوصل إليها كل من الإجتماعي والسيكولوجي، والإقتصادي ومن هنا تلعب الأنثروبولوجيا دوراً إيجابياً وهاماً[٢].

يستخدم الأنثروبولوجيون مصطلح الأنثروبولوجيا Anthropology معرباً من اللغات الأجنبية وترجع إلى اليونانية القديمة Anthropos بمعنى الإنسان Logia ومعناها علم أو دراسة ومن هنا يتضح أن مصطلح الأنثروبولوجيا يعني دراسة الإنسان.

فالإنسان هو هذا المخلوق العجيب الذى تفرد له دراستنا فى هذا العلم مجالاً هاماً دون تقيد بالزمان والمكان فيقوم المتخصص فى هذا الفرع بدراسة أجداده وأصوله وأسلافه منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا كما أنه يدرس الإنسان فى أى مكان من العالم الذى أصبح بفضل التقدم العلمى قريباً جداً.

- نظرة الأنثروبولوجيين إلى الإنسان:

قسم الأنثروبولوجيون (علماء الإنسان) هذا العلم إلى فروع رئيسية بحسب نظرتهم إلى الإنسان على الشكل التالى:

أولاً النظرة إلى الإنسان بإعتباره كائن حي مخلوق ضمن المخلوقات الأخري فظهر فرع الأنثروبولوجيا الجسمية أو الطبيعية أو الفيزيقية Physical Anthropology.

ثانياً: النظرة إلى الإنسان بإعتباره إجتماعي بطبعه يعيش فى جماعات مختلفة ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوجيا الإجتماعية Social Anthropology.

ثالثاً: النظرة إلى الإنسان على أساس أنه حامل للثقافة وناقل لها عبر الأجيال ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوجيا الثقافية Culture Anthropology.

وسنتناول هذه الفروع الرئيسية بالتفصيل:

أولاً: علم الإنسان الطبيعي أو الجسمي الفيزيقي (الأنثروبولوجيا الفيزيقية) Physical Anthropology.

هي دراسة الجانب الطبيعي والفيزيقي في الإنسان، ودراسة جسمه وتطوره وإختلافاته البيولوجية. وهذا الفرع من علم الإنسان يهتم بتوضيح أوجه التشابه والإختلاف والتباين وإتجاهات التغير فى الأفراد والجماعات فى الماضى والحاضر.

ويرجع الإختلاف والتباين إلى الإختلافات الوراثية وإلى تأثير عوامل البيئة الكامنة فى الوراثة.

يهتم الأنثروبولوجيون الفيزيقيون بالقيام بالبحوث والدراسات التى تلقى الضوء على كثير من المفهومات التى لم تكن معروفة من قبل والتى تميز مجالات عديدة داخل هذا الفرع الهام من دراسات علم الإنسان، ومن أهم هذه المجالات نذكر ما يلى:

- **علم العظام وعلم الأسنان: Osteology & Dentistology**

تعد دراسة العظام والأسنان من أهم إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية نظراً لأنها الأجزاء الرئيسية بالنسبة للحفريات، كما وأنها تحكى قصة التطور: فالجمجمة توضح شكل الفرد وحجم المخ، أما الهيكل العظمى فيحدد الشكل العام للجسم الإنسانى، حجمه، وترتبط أجزاء الجسم بالعضلات التى تساعد على أداء الحركة ونستطيع عن طريق دراستنا للهيكل العظمى أن نعرف وظيفة أجزاء الجسم المختلفة.

الأيكولوجيا البشرية Human Ecology

تحدد الإيكولوجيا البشرية وسائل تكيف الإنسان لظروف الحياة التى تختلف طبقاً للسن، والنوع، والأصول العرقيه، وهذا يعنى توضيح كيفية التعامل بين الإنسان البيئة فى ضوء العوامل الكثيرة مثل العوامل البيولوجية، والتشريحية والفسيولوجية، والباثولوجية..الخ.

ويزداد أهمية التفاعل الإنسانى مع البيئة نظراً للتغير الذى يحدث بسرعة نتيجة لما يقوم به الإنسان من دور فعال فى تغيير ملامح كل ما يحيط به.

- **علم الأجنة والنمو Embryology & Growth**

مما لا شك فيه أن هناك تغييرات كثيرة يمر بها الإنسان عبر أعماره المختلفة لها تأثيراتها المستمرة على كل الملامح البيولوجية البشرية، ودراسة النمو لا تبدأ بميلاد الطفل وإنما تبدأ قبل ولادته ويهتم بها علم منفصل هو علم الأجنة الذى يتابع عملية نمو الطفل والجنين داخل رحم الأم كما يتابع علم الأنثروبولوجيا الفيزيقية عمليات النمو المختلفة بعد الولادة وذلك بإجراء المقاييس الأنثروبومترية لمتابعة الأطفال فى جميع الأعمار لملاحظة التغيرات التى تحدث بعد الميلاد. مثل النمو الفيزيقى فى الحجم

(الوزن والطول) ونمو بعض الأعضاء تحدد الملامح الخاصة بالبلوغ والقدرة على أداء بعض الأعمال وغيرها.

- **تكوين الجسم وبناؤه** Body Composition & Build

يعمل الأنثروبولوجي الفيزيقي مع المتخصصين في إستخدام التحليل الإشعاعي أو عن طريق إستخدام الموجات الصوتية وذلك بهدف تحديد ما بداخل الجسم الإنساني الحي من مكونات وتأثيرها في بناء الجسم وقوته أو ضعفه.

البيولوجيا الجزئية Molecular Biology

يسهم الأنثروبولوجيون الفيزيقيون في تحديد السمات الفيزيقية للبشر والمخلوقات الأخرى وتحديد أوجه الإختلاف والتشابه بين الإنسان وهذه المخلوقات بإستخدام بعض التحليلات البيولوجية مثل فصائل الدم وتحديد نسبة الهيموجلوبين وغيرها.

علم الوراثة البيوكيميائية Biochemical Genetics

ترجع الأختلافات في قدرة الجسم أساساً إلى التركيب الجزئي لخلايا الجسم والكمية التي سينتجها من الخلايا وهذه كلها ترجع إلى مورثات بيولوجية. ويهتم هذا الفرع من علم الإنسان الفيزيقي بالسؤال عن هل الأمراض التي تظهر في بعض الشعوب سببها الإختلافات الموروثة؟ أم ترجع إلى ما تتغذى عليه هذه الشعوب من طعام؟ وقد إكتشفت الدراسات الفيزيقية في هذا الصدد أن إنتشار مرض البول السكرى بين بعض الشعوب لا يرجع إلى عوامل الوراثة فحسب وإنما أيضاً يرجع إلى عوامل أخرى مثل التغذية.

التطور الخفي Micro Evolation

يستخدم مصطلح التطور الخفي لوصف العمليات التي تؤدي إلى التباين والإختلاف بين الشعوب من نفس الأنواع خلال فترة قصيرة من الزمن. وتتدخل عمليات التباين والإيكولوجيا بصورة مباشرة في تحديد أوجه التباين بين الشعوب كالإنحدار السلالي وإختلاف المناخ والتغذية والأمراض التي تؤدي إلى حدوث هذه الإختلافات.

- **الرئيسات** Primatology

يهتم علم الإنسان الفيزيقي بعقد المقارنات بين الإنسان وغيره من الحيوانات

الثديية الشبيهة به أو الرئيسيات غير البشرية وذلك من أجل تحديد أوجه الإختلاف من الناحية التشريحية وأيضاً تحديد أوجه التباين في السلوك.

وقد أثبتت الدراسات التي تمت على الرئيسيات بأن التماسك الإجتماعي داخل القردة يرجع إلى كل من السلوك العدواني والسلوك التعاوني القائم على الصداقة.

الأنثروبولوجيا الفيزيقية التطبيقية

Applied Physical Anthropology

يقدم الأنثروبولوجيون الفيزيقيون خبراتهم من أجل حل المشكلات التي تواجه الإنسان والمتعلقة بالأمراض وتحديد الجانب المتوارث من هذه المشكلات أو تحديد العوامل الايكولوجية البيئية.

بجانب ذلك فإن الانثروبولوجيا الفيزيقية تسهم في موضوعات تطبيقية كثيرة تحق الأمان والرفاهية والراحة للإنسان فهي تساعده في إختيار الملابس المناسبة، والمفروشات والأثاث والسيارات، وأماكن العمل وأيضاً في تصميم كثير من المنتجات التي يستخدمها الإنسان، ويظهر ذلك في مجال صناعة السيارات والطائرات بوضوح.

وعلى العموم فإن الموضوع الرئيسي لعلم الإنسان الفيزيقي هو الإنسان وهو المخلوق العاقل الوحيد الذي تحدد له علوم البيئة والوراثة تأثيرها بالتفاعل الإجتماعي والثقافي(٣).

ثانياً: الأنثروبولوجيا الإجتماعية Social Anthropology

يعد علم الإنسان الإجتماعي الفرع الثاني من أفرع علم الإنسان، وهذا الفرع يتعامل مع الإنسان بإعتبار أنه عضو في جماعة إنسانية، وأنه إجتماعي بطبعه لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن الآخرين إلا في حالات المرض النفسي الخطير والمرض العقلي أو في حالات السجن الانفرادي.

وتختلف الجماعات التي ينضم إليها الإنسان بحسب نموه نفسه ومن خلال وجوده داخل هذه الجماعات فهو يكون علاقات إجتماعية يمكن تجريد هذه العلاقات الإجتماعية Social Relation في شكل نظم إجتماعية وأنساق إجتماعية أكبر نتعرف عليها عندما ندرس الجماعات الإنسانية المختلفة دراسة مركزة، هذه الدراسة تساعدنا

على الفهم بطريقة أفضل لمكونات البناء الإجتماعى Social Structure لهذه الجماعات الإنسانية المختلفة.

مرت الأنثروبولوجيا الإجتماعية بمراحل تاريخية أهمها مرحلة القرن الثامن عشر الميلادى وهذه المرحلة مهدت لظهورها وإستفادت من بعض دراسات المفكرين أمثال المفكر الفرنسى Montesquieu فى كتابه روح القوانين I'Espirt des Lois حيث أشار إلى ان المجتمع ونظمه الإجتماعية ترتبط بعضها إرتباطا وثيقا ويؤثر بعضها فى البعض الآخر ولا يمكن فهم أى نوع من القوانين إلا فى ضوء دراستنا للعلاقات القائمة بين القوانين المختلفة مثل القانون الدولى، والقانون الدستورى، والقانون الجنائى، والقانون المدنى كما أنها جميعاً مرتبطة بالحياة الإقتصاديه والإجتماعية فى مجتمع معين.

وإستفاد التراث الأنثروبولوجى من المفكر سان سيمون Saint Simon الذى يعد بحق أول من فكر فى ضرورة إنشاء علم يدرس المجتمع يقوم على العلاقات الإجتماعية كما نبه إلى ضرورة دراسة الوقائع والحقائق Social Facts كما هى وليس التصورات عنها، وأسهم فى ظهور الأنثروبولوجيا فى هذا القرن كل من داڤيد هيوم David Hume وآدم سميث Adam Smithحيث نظرا إلى المجتمع على أساس أنه نسق طبيعى.

وقد ظهر فى القرن الثامن عشر الإهتمام بدراسه لمجتمع البدائى فصدرت كثير من الأحكام العامة التى اعتمدت على الظن والتخمين نتيجة الإعتماد على كتابات الرحالة والمستكشفين وبعض الكتب الدينية كالعهد القديم

يعد القرن التاسع عشر الميلادى قرن نشأة الأنثروبولوجيا الإجتماعية حيث صدرت مجموعة كبيره من الكتب الهامة فى هذا القرن حددت، إلى حد كبير معالم الموضوع الأساسى للدراسة نشير هنا إلى أهمها:

القانون القديم Ancient Law للسير هنرى مين H.Maine والثقافة البدائية Primitive Culture للسير ادوارد تايلور E. Tylor والزواج البدائى Primitive Marriage لماكلينان Mclennan والمدينة العتيقة La Cite Antique لفوستيل دى كولانج Fustel de Coulange وغيرها.

وقد كانت هذه المؤلفات والكتب ثمرة هوايات هؤلاء العلماء ولم تصدر عن تخصصاتهم وذلك نظراً لعدم ظهور تخصص الأنثروبولوجيا الإجتماعية بعد. وأهم ما يميز القرن التاسع عشر ظهور إتجاه جديد فى الدراسة وهو تفسير الظواهر الإجتماعية والنظم الإجتماعية من ز اوية جديدة لم تكن معروفة من قبل هذه الزاوية هى التفسير الإجتماعى فعلى سبيل المثال فإن الزواج الخارجى الإغترابى Exogamy لا يرجع إلى أسباب نفسية وإنما يرجع إلى أسباب أجتماعية وهى تأصل عادة وأد البنات عند بعض المجتمعات الإنسانية.

سمى علماء هذا القرن بعلماء المقاعد الوثيرة Armchair Anthropologists نظراً لعدم قيامهم بدرسة ميدانية وإعتمادهم على أقوال الرحالة ورجال الإدارة من المستعمرين الأوروبيين، تميزت هذه الفترة من القرن التاسع عشر بظهور مدرسة النشوء والتطور وكان يبحث أصحابها عن نشأة وتطور النظم الإجتماعية كالأسرة والدين وقد أثارت نتائج الدراسات التى قام بها أصحاب هذه المدرسة الكثير من التعليقات من علماء الأنثروبولوجيا الإجتماعية اللاحقين وذلك بسبب صعوبة دراسة الأصول والبدايات الأولى وإهتمام العلماء الآن بالبحث عن وظيفة النظم الإجتماعية والأدوار التى تقوم بها وتأثيرها فى البناء الإجتماعى.

يشهد نهاية القرن التاسع عشر إستكمال عناصر الأنثروبولوجيا الإجتماعية حيث قام العلماء بتصنيف المجتمعات على أساس أبنيتها الإجتماعية بدلاً من ثقافتها وكان لظهور هذا الإتجاه الخطوة الحاسمة لكى تستقل الأنثروبولوجيا الأجتماعية عن فروع الأنثروبولوجيا الأخرى وأصبح موضوعها الأساسى هو العلاقات الإجتماعية وليست الثقافة بجميع عناصرها المادية والمعنوية.

وكان لإستخدام منهج الدراسة الحقلية أو الميدانية Field Work الأثر الكبير فى بلورة هذا الفرع والهام. ويرجع الفضل فى ذلك إلى البعثة الناجحة التى قام بها هادون Haddon لدراسة مضايق توريس Torres Straits فى المحيط الهادى وإستغرقت عامين من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٠٠ حيث اعتبرت الأنثروبولوجيا الإجتماعية تخصصاً جديداً يقوم على أساس الدراسة الميدانية وهى العنصر الجوهرى فى تكوين هذا الفرع وتدريب الطلاب وبرغم كل ما قدم إلى هذه الرحلة من أوجه النقد إلا أنها

هيأت الأذهان إلى أهمية الدراسة الحقلية فقام علماء آخرون بمتابعة البحوث والدراسات الحقلية أمثال مورجان Morgan وبواز Boas ، وريفرزRivers ، وسلجمان Silgman ، ومالينوفسكى Molinowski وغيرهم.

ومع بداية الربع الأول من القرن الحالى شهدت الأنثروبولوجيا الإجتماعية فترة التخصص والتوسع والإنتشار فقام فريق آخر من العلماء بدراسات حقلية منهم رادكليف براونRadcliffe - Brown الذى درس الإندمان The Andaman Islanders كما قام مالينوفسكى بدراسة جزر التروبرياند ووضع كتابه الضخم Argonouts of The Western Pacific والذى استمرت دراسته لمدة أربع سنوات تعلم فيها لغة الأهالى أنفسهم فجاءت دراستهم أكثر دقة كما أصبحت الدراسات الحقلية أكثر رسوخاً ووضع لها القواعد والأسس والأساليب التى يجب إتباعها.

وشهد النصف الثانى من القرن العشرين إزدهاراً فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية حيث بدأ تدريب مجموعة كبيرة من الأنثروبولوجيين الإجتماعيين وانتشرت الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية من ميلانيزيا وبولنيزيا لتتجه لدراسة بعض قبائل السكان الأصليين فى استراليا واهتم العلماء بدراسة الجانب السياسى للمجتمعات التى سميت بالمجتمعات البدائية فى افريقيا فدرس إيفانز بريتشارد قبائل الأزاندى والنوير، ودرس فورتس بعض قبائل ساحل الذهب (التاليرزى Tallersi)، ودرس نادل قبائل نوبى Nobeفى نيجيريا وغيرها من الدراسات.

كما قامت كثير من المؤسسات العلمية تساعد الباحثين الأنثروبولوجيين على القيام بدراساتهم الحقلية فى خارج أوطانهم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مؤسسة ولبرايت الأمريكية، ومؤسسة فورد الأمريكية، ومؤسسة ورنرجرين الأوروبية وغيرها من المؤسسات العلمية فضلاً عن المنح الكبيرة التى قدمتها الجامعات الأوروبية والأمريكية للباحثين الأنثروبولوجيين.

وظهرت مدارس علمية فى مجال علم الإنسان الإجتماعى من أهمها المدرسة الإنتشارية Diffusionist التى إهتمت بالبحث عن إنتشار العلاقات والنظم الإجتماعية التى كثيراً ما تستعار وتنتقل من مكان إلى آخر وبناء على رأى هذه المدرسة فإن تشابه النظم الإجتماعية والعادات فى المجتمعات المختلفة لا ينشأ عن النمو التلقائى الناتج عن

تشابه الإمكانيات الإجتماعية والطبيعية للإنسان بل قد ينشأ عن الإستعارة وانتشار تلك النظم الإجتماعية من مجتمع إلى آخر.

كما ظهرت أهم مدرسة فى علم الإنسان الإجتماعى وهى المدرسة الوظيفية التى تعد بحق من أقوى مدارس الأنثروبولوجيا الإجتماعية والتى ينتمى إليها معظم الأنثروبولوجيين الإجتماعيين فى العالم وهى تهتم بالكشف عن وظائف النظم الإجتماعية وينظر أصحاب هذه المدرسة إلى أن المجتمعات الإنسانية لها بناؤها وهذا البناء يتكون من جماعات وأنساق إجتماعية ونظم إجتماعية وعلاقات إجتماعية يعتمد بعضها على بعض وتتساند وظائفها داخل هذه الأبنية الإجتماعية التى لها طبيعة مستمرة ودائمة رغم التغير الذى قد يحدث داخل عناصرها.

وقد شهدت الفترة التى نعيشها الآن إزدهار الأنثروبولوجيا الإجتماعية وإهتمامها بدراسة كل المجتمعات الإنسانية التقليدية والقروية والحضرية بمناهجها وأساليبها المتميزة كما شهدت أيضاً تعاوناً بينها وبين فروع علم الإنسان الأخرى بل وبينها وبين العلوم الإجتماعية والإنسانية كعلم الإجتماع وعلم النفس(٥).

ثالثاً: علم الإنسان الثقافي (الأنثروبولوجيا الثقافية)

Culture Anthroplogy

أما الفرع الثالث من علم الإنسان الثقافي والذى يدرس الإنسان بإعتباره كائن ثقافي حامل للثقافة ويعيش فى كنفها وتحافظ عليه ويحافظ عليها كما أنه ناقل لها عبر الأجيال المختلفة. ونظراً لأن هذا الفرع يهتم بالسلوك الإنسانى فإنه يهتم بماضى الإنسان وحاضره.

والثقافة ذلك الكل المركب الذى يتكون من العرف والتقاليد والمعتقدات والعادات والقيم والممارسات وكل ما أوجده الإنسان من إختراعات وإبتكارات إلى غير ذلك. ويمكن تمييز جانبين هامين فى الثقافة هما: الجانب المعنوى اللامادى والجانب الآخر هو الجانب المادى الذى يشمل كل مخترعات الإنسان فى الناحية المادية من الحياة.

ويهتم المتخصصون فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ماضى الإنسان وقد عرفت هذه الدراسة بالدراسات الأركيولوجية، كما يهتم بالوقوف على ثقافة الإنسان

الحاضرة فيما يعرف بإسم الأنثولوجيا، ويبذل جهداً خاصاً فى فهم الثقافة وذلك عن طريق ما يعرف بإسم اللغويات أو الأنثروبولوجيا اللغوية وسنتناولها بشئ من التفصيل.

(١) علم آثارها ما قبل التاريخ Pre-history أو الأركيولوجيا Archaeology

يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية القديمة أو الثقافات البائدة التى ليس لدينا عنها تاريخ مكتوب، ويعرف علماء الإنسان الثقافى الاركيولوجيا بأنها دراسة الماضى، أو دراسة الإنسان فى عهوده القديمة وهى تركز على البقايا والمخلفات الثقافية التى تركها الإنسان.

ويعمل الأنثروبولوچيون الإركيولوچيون ضمن فريق عمل يهتم بالزمن والمسافة ويقوم الأركيولوچيون بعمل حفر سواء كان محلياً أو إقليمياً عن طريق بحث يتم طبقاً لخطوات معينة. وهم مثل الاثنوجرافيين يتعرفون على المواقع الغير معروفة والمنعزله وهذه المواقع جزء من نسق اجتماعى كبير. وإذا قمنا بفحص الوسائل الرئيسية التى يستخدمها الاركيولوچيون فى دراسة أنماط السلوك فى الثقافات الغابرة والتى تعتمد على البقايا المادية. وهم يستخدمون طرقاً مختلفة لكى يكتشفوا البقايا من محتويات عديدة مثل المقابر والمواقع الاركيولوجية والمناطق الأخرى. ويحاول الاركيولوچيون جمع المعلومات حول مستويات اجتماعية من الماضى كالوحدات السكنية، والقرى، والإنساق الاقليمية.

ويستخدم الاركيولوچيون أنواعاً من الأساليب الميدانية، احداها هو المسح الذى يسير وفق نظام معين ومجموعة من الخطوات المنظمة والحفر، ويعطى المسح الذى يستمر فى اقليم فرصة للاركيولوچيين الذين يسجلون المعلومات التى يتم جمعها من أنماط التجمعات فى منطقة كبيرة.

وتشير أنماط التجمعات إلى توزيع المواقع فى منطقة محددة كما وأن المسح الاقليمى يحدد أنماط التجمعات وذلك عن طريق إثارة مجموعة من الاسئلة مثل أين تقع هذه المواقع؟ ما هو حجمها وسعتها؟ وما هى أنواع المبانى التى تمت فى هذه المواقع؟ وما هو عمر الموقع؟ حقيقة أن المسح المنظم Systematic Survey يعتمد على السير فى المنطقة كلها وتسجيل المواقع وتحديد كل حجم لهذه المواقع على أساس الأشياء المادية الاركيولوجية الموجود على السطح ويقدر القائم بعملية المسح Surveyer

الفترة الزمنية التى وجدت فيها هذه المواقع (تحديد زمن وجود الموقع) وليس من السهل أن يتم مسح يغطى مناطق كبيرة.

وقد يواجه الاركيولوچى بعض الصعوبات عند قيامه بعملية المسح فهو لا يستطيع أن يمسح مساحات كبيرة من الأرض كلها كما وإن وجود الغابات الضخمة تعد عقبة أمام الاركيولوچى فضلاً على وجود أجزاء من مسح المنطقة يكون من المتعذر بلوغه أو التأثير فيه كما وإن التصاريح التى يحصل عليها الاركيولوچى للقيام بمسح لا يعترف بها ملاك الأرض التى يتم مسحها. كما وأنه فى معظم الأحيان تعتمد المسوح عن الصور الجوية أو تحليلات الأقمار الصناعية للمساعدة فى تحديد خرائط المواقع المطلوب فيها وكلها وسائل مكلفة للغاية.

وباستخدام المعلومات الاقليمية يستطيع الاركيولوجيون أن يجدوا الإجابة عن بعض الاسئلة الكثيرة عن مجتمعات ما قبل التاريخ التى كانت تعيش فى منطقة معينة كما أنهم يستخدمون أنماط المعلومات الخاصة بالمواقع لكى يعتمدوا على الظن والتخمين بالنسبة للسكان وفى تحديدى المستويات الاجتماعية المعقدة. من خلال معرفة مجتمعات الصيادين أو الفلاحين القريبة ومن المعروف لديهم أن عدداً صغيراً من السكان هم الذين يعيشون فى معسكرات أو فى قرى صغيرة فى تصميم هذه المواقع كما وأن فى أحيان كثيرة توجد مثل هذه المواقع متبعثرة إذا ما نظرنا إليها ومع زيادة التعقيدات الاجتماعية فقد أصبحت التجمعات أكثر تحديداً وقد لعبت التجارة أو الحرب فى الماضى كعوامل اجتماعية دوراً هاماً فى تحديد هذه المواقع (فى قمم التلال أو مجارى المياه، أو طرق التجارة) وفى المجتمعات المعقدة تتكون التجمعات السكنيه من مواقع ظاهرة بطريقة هيراركية (هرمية) كما وأن بعض هذه المواقع كبير وبها اختلافات معمارية أكثر من الأخرى وقد تكون المواقع السكنية أفخم من ناحية العمارة (كمساكن الصفوة، والمعابد، المبانى الادارية، أماكن للمقابلات). وتبدو كمراكز اقليمية تسيطر على المواقع الصغرى والتى هى فى الواقع أقل منها فى مستوى العمارة.

وقد تبدأ بعد تحديد المواقع عملية هامة وهى عملية الحفر Excavation. وأهمية الحفر أننا نصل إلى المعلومات الاركيولوچية عن الماضى السحيق عن طريقه والذى من خلاله يستطيع العلماء أن يكتشفوا البقايات remains عن طريق الحفر من خلال

معرفة طبقات الأرض ودراسة طبقات الأرض يسمى الاستراتيجرافيا Stratigraphy وعن طريق معرفة الطبقات الرسوبية يتكون الموقع الاركيولوجى وهذه الطبقات نستطيع عن طريقها تحديد الزمن القريب للأشياء المادية التى قد نجدها عند الحفر. وهذا الزمن القريب على مبدأ المطابقة Superposition فى سلسلة متتالية منتظمة من الطبقات المختلفة وإن الطبقة الاقدم دائماً تكون فى أسفل الحفرية وتقع دائماً البقايا المادية بمعرفة زمنها فى قلب البحث الأركيولوجى.

.. إن التسجيلات الاركيولوجية غنية وإن الحفر عمل ضرورى ومكلف حتى أن أى إنسان لا يستطيع أن يقوم بإمكانيات المادية بحفر موقع بدون معرفة إن المواقع التى يتم حفرها يمكن أن تصبح فى خطورة خوف عليها أو ربما تدمر أو أنها تضيف اهتمامات بحثيه معينه. وإن ادارة المصادر الثقافية أو عقد البحث الاركيولوجيا يجعل الاركيولوجى دائماً يركز على الحفر فى المواقع الاركيولوجية التى يمكن أن تتأثر بالتنمية الحديثة. ومن المعروف أنه يجب القيام بدراسات اركيولوجية لتحديد الجدوى من الحفرية فإذا فرض أن هناك موقع يراد الحفر فيه وهناك مخاطرة كما وإن هذا الموقع سيستخدم مستقبلاً فى مشروعات التنمية التى لا تتوقف فإن حصول الاركيولوجى عن المعلومات الخاصة بهذا الموقع تعد مكافأة حقيقية للجهود التى يبذلها الاركيويولوجى كما وإن اختيار موقع للحفر يكون مناسباً للاجابة عن مجموعة من الاسئلة التى وضعها الاركيولوجى. وكل هذه الأمور يجب أن تراعى عند اعداد ميزانيه البحث الاركيولوجى الميدانى. وإذا اعطينا مثالاً يوضح ذلك نجد أن الانثروبولوجيين الاركيولوجين عندما يبحثون ويدرسون أصول الزراعة وهذه لا تحتاج منهم إلى القيام بحفر فى مساحة كبيرة وقد يجد الاركيولوجى أن إحدى قمم التلال محاطة بسلسلة من المبانى وهذه تحدد فترة مناسبة بعد ظهور المجتمعات القروية نظراً لأن الاركيولوجى يعلم بأن المجتمع الزراعى أو المجتمع القروى قد ظهر قبل ظهور هذه المبانى كما وإن الاركيولوجى قد يبحث عن موقع لقرية صغيرة تقع بالقرب من أراضى زراعية أو بالقرب من مصدر مياه ومن ثم يكون مثل هذا الموقع مناسباً كما أنه ينبئ بمادة يتم الحصول عليها مبكراً عن المجتمعات القروية.

ومن المعروف لدى الاركيولوجى أنه قبل القيام بعملية حفر الموقع يجب أن ترسم

خريطة تحدد السطح الذى يمكن للاركيولوجى أن يتخذ فى ضوء هذه الخريطة تحديد مكان الحفر ثم يتخذ قراره بالحفر فى هذا المكان المحدد. وإن عملية جمع مواد السطح عند موقع معين تتشابه مع عملية يقوم بها الانثروبولوجى عندما يقوم بعملية المسح الميدانى فى مجتمع محدد.

وقد يحدد الأُركيولوجى ويرسم شبكة grid تمثل هذا الموقع وتقسمه ثم يحدد بعد ذلك مجموعة من الوحدات المتساوية فى الحجم لأجزاء الشبكة تحدد وتترك علامة واضحة عن الموقع الحقيقى. وإن وجود هذه الشبكة تساعد الباحثون فى تسجيل الموقع تماماً من خلال بعض الملامح التى توجد فى الموقع. وفى ضوء فحص المواد الموجودة فى سطح الموقع يستطيع الأركيولوجى من خلال عملية الفحص إجراء حفرياته فى اتجاه هذه المناطق من الموقع والتى تقدم له معلومات تشبع اهتمامه. وعندما يتم اختيار منطقة الحفر فإن الاجراءات التى تتخذ: هى استخدام جزء يتكون من متر واحد وجزء آخر يختار عشوائياً أو كيفما اتفق من حيث المستويات أو من حيث الدراسة الاستراتجرافية (الدراسة الجيولوجية) لطبقة الموقع وإن تحديد الموقع بما فيه من ملامح يمكن تسجيله من خلال ابعاد ثلاث.

وقد يتم الحفر عشوائياً ومن ثم البدء من السطح ويتكون من كمية محددة من التربة (من ١٠سم-٢٠سم) يتم ازالتها من وحدة الحفر حتى يصبح لكل مستوى حجم متساو وتعد هذه الطريقة الديكتيكية للحفر طريقة سريعة للقيام بالحفر مادام كل شئ سيتم ازالته عند عمق معين فى الحال. وإن الحفر بطريقة عشوائية تحكمية arbitrary للمستويات المختلفة تستخدم فى تحديد عمق الترسيبات الخاصة بالموقع وتكوين وإنشاء كورونولوجى (تقسيم للوقت) rough Chronology(*) تقريباً للموقع.

ومما لا شك فيه أن عملية الحفر تحتاج إلى عمل مكثف وإلى طرق علمية دقيقة حيث يتم الحفر من خلال الاستراتجرافيا (دراسات الطبقات جيولوجيا) وهى دراسة طبقة بعد طبقة. حيث تختلف كل طبقة عن الطبقة الأخرى من حيث اللون والبنية الخاصة بها ويتم خلع كل طبقة بعد أُخرى وهذا الأسلوب يمدنا بمعلومات أكثر عن محتوى الحفريات fosils وهنا يعمل الاركيولوجى ببطء أكثر لكى يفسر كل طبقة ويعطى تسميات لكل طبقة من الترسيبات ومن ثم نصل إلى مجموعة متتابعة ومتعاقبة

وهذا يختلف عن عملية الحفر العشوائية حيث يحدث خلط فى مكونات هذه الترسيبات معاً وقد تساعد الدراسة المسبقة لعلم الطبقات الجيولوجية الطبيعية الباحث الاركيولوچى مساعدة كبيرة. وعندما يتم الحفر فإن الاركيولوچى يتخذ الاجراءات بحيث يزيل ويضع فى حقائب كل الحفريات التى تمت بمعرفته من كل أرض قبل أن ينتقل إلى مستوى آخر أسفل من المستوى السابق. وإن أى حفر يكشف بقايا ماديه متباينة مثل السيراميك، الحجارة، العصر الحجرى، عظام الإنسان أو الحيوان وبقايا النباتات وإن هذه البقايا يمكن أن تكون صغيرة وهشة لذلك يمكن وضع التربة المنزوعة فى أحجبة سلكية screens حتى نستطيع أن نكتشف البقايا الصغيرة مثل عظام الاسماك وبقايا النباتات الكربونيه. وقد يستخدم الاركيولوچى أسلوباً علمياً يسمى التعويم flotation فيستخدم الماء فى عينه من التربه المخزونه فإن المياه تتخلل لأن للأحجبة عيون دقيقه فعندما يذيب الماء التربة فإن بقايا النباتات الكربونية تطفو إلى السطح أما البقايا الثقيلة فى الوزن مثل عظام الاسماك والبقايا الأخرى فإنها تنزل إلى القاع. ومن الجدير ملاحظته أن النبات تؤخذ من عدد محدد من التربة الرسوبية مثل أرضيات المبانى القديمة أو المقابر، أو أماكن النفايات Trashpits والمدافئ hearths وغيرها(٦).

وهناك فرق واضح بين ما يقوم به عالم الآثار التقليدى الذى يبحث فى الآثار التى تركها اليونانيون أو المصريون أو البابليون أو الآشوريون وغيرهم وبين الاركيولوجى لأن الأول يقوم بمحاولة تحقيق وتأكيد التاريخ المدون، أما الاركيولوجى فإنه يعمل فى ظروف مغايرة ويستهدف مادة أكثر غموضاً وإبهاماً ويبحث عن البقايا المدفونة للشعوب القديمة ويقوم بإجراء الحفريات المناسبة وله أساليبه الخاصة التى يستخدمها للوقوف على الحقائق الخاصة بماضى الإنسان.

وقد أستطاع الاركيولوچى تطوير أساليبه ومناهجه وإستخدام العلم من أجل التوصل إلى حقيقة ما يدرس فاستخدم التحليلات الكاربونية وأشعة إكس كما أقام النماذج وقدم الوصف الملائم لأهم خصائص البقايا والمخلفات وبحث وظيفتها وحاول وضع تاريخ دقيق لها بإستخدام عنصر مشع هو الكربون المشع ورمزه ك١٤ وغيرها من العناصر الأخرى ثم وضع التصورات المختلفة التى تكشف عن طرق الحياة المتمايزة لهذه الثقافات وعقد المقارنة بينها وبين الثقافات الأخرى التى عاشت فى زمن مساو لهذه الثقافة فى مناطق أخرى من العالم.

ويمكن القول بأن الأركيولوچيين قد قطعوا شوطاً بعيداً من حيث مساهمتهم في الكشف عن تاريخ الثقافة الإنسانية وأن هدفهم الاسمى هو الوصول إلى المراحل المبكرة من تاريخ الإنسان وثقافته وتحديد عمره على الأرض(٧).

(٢) الاثنولوچيا Ethnology

يدرس هذا الفرع ثقافات الشعوب الموجودة وقت الدراسة الآن كما يدرس الشعوب التى لديها تسجيلات مكتوبة لإخباريين عاشوا فى تلك الثقافات.

والاثنولوچى يدرس ثقافة المجتمع أو المجتمعات التى يبحثها فيدرس النظم الإجتماعية والسياسية السائدة والدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية وكذلك المثل العليا والأفكار.

وقد حدث خلط بين الأنثروبولوچيا الإجتماعية والاثنولوچيا فى الماضى أما الآن فقد تم تحديد موضوعات كل منهما بدقة.

ويجدر الإشارة إلى أن هناك فرقاً واضحاً بين الاثنوجرافيا Ethnography والاثنولوچيا فالإثنوجرافيا هى الدراسة التسجيلية للشعوب دون تحليل لهذه الثقافات أو عقد المقارنة بينها وبين الشعوب الأخرى. بينما الأثنولوچيا تهدف إلى عقد المقارنة بين الثقافات حتى نستطيع التوصل إلى ما نسميه بالعموميات Universals أو إلى قوانين عامة تحكم السلوك الإنسانى. كما وأن الاثنوجرافيا مرحلة ضرورة فى الدراسات الانثروبولوچية الحقلية. ويحاول المتخصص فى مجال الاثنولوچيا دراسة آثار الإتصال بين الثقافات المختلفة وتصنيف هذه الثقافات إلى مجموعات أو مناطق ثقافية فى ضوء مقاييس معينة توضع لتحقيق هذا الغرض وعلم الاثنوجرافيا يمكن وصفه بأنه المبحث الذى يضع خارطة نوع الحياة الاجتماعية البشرية. أنه «أرشيف» أو مشروع سجلات الامكانات البشرية، الذى يزودنا بمعارف عن التنوع الفعلى الذى كان مستهل كتابنا هذا. ويتمثل القطاع الأكبر من هذا الأرشيف فى صورة حزم كبيرة وأعنى دراسات تسجيلية تؤلف كتباً عن هذا الشعب أو ذاك والفكرة هنا هى أن أى أسلوب من أساليب الحياة هو أسلوب مركب ومتداخل الجوانب على نحو معقد ودقيق بحيث يستلزم الأمر معالجة مكثفة للكشف عن تفاصيله. وعلاوة على هذا فإن هذه الدراسات التسجيلية إنما تنبثق بدورها من دراسة ميدانية مستفيضة وتفصيلية نسبياً، أو تمثل دراسة مكثفة

كجماعة صغيرة إلى حد ما وتجرى هذه الدراسة على أساس علاقات مواجهة مباشرة تمتد لفترة قد تتجاوز الأشهر إلى سنوات. وهذا الأسلوب فى البحث والتقصى يتجاوز كثيراً مجرد جمع البيانات ذلك لأنه يركز القيمة كلها فى البحث الميدانى ذاته باعتبار أن الخبرة الأساسية مصدرها فقط المعارف الانثروبولوچية بل الباحثين الانثروبولوچين أيضاً(٨).

ويجب على الانثروبولوچى الا يقتصر على عمليات الحصر والإحصاء وسرد هذا أو ذاك من جوانب حياة الناس: حيازتهم للأراضى، وحجم العائلات ونوع الغذاء..الخ بل يتعين عليه الإلمام بالكيفية التى يرتبط الناس بعضهم ببعض ولعل أفضل وسيلة لذلك وهى الوسيلة الوحيدة فى الحقيقة هى الارتباط شخصياً بالناس كعضو مسئول داخل الوضع الاجتماعى.

ويوصف هذا النهج غالباً بعبارة «الملاحظة بالمشاركة» Participant observation والتى يفضل مايكل كاريذرسMichael Carrithers تسميتها «التعلم من خلال المعايشة» engaged Learning ، وذلك حتى ندرك طبيعة العملية فى تداخلها ونفاذها بشكل حتمى لا مناص منه. ويتعلم الباحثون الانثروبولوچيون كيف يحكم الناس على بعضهم بعضاً من خلال الحكم على أنفسهم أو من خلال كونهم جزءاً وثيق الصله بالمشهد الذى يستجيبون له ويتفاعلون فيه على نحو مباشر وحقيقى وروحى مع أحكام الناس عن بعضهم لبعض وإن جاء هذا التفاعل غالباً مقترناً بحاله من القلق والحيرة ولهذا يجد الباحثون الأنثروبولوچيون أنفسهم مضطرين إلى تعلم شئ عن الأحكام الجمالية بنفس الطريقة التى يتعلم بها الأطفال مستخدمين ذات الأدوات والمعدات(٩).

وتتضمن المناهج الاثنوجرافية الملاحظة Observation والتى تعد أساس التقرير البنائى الذى يتقدم به الباحث كما تحتوى المناهج الاثنوجرافية على الملاحظة بالمشاركة والمقابله والجينولوچيات، والعمل مع الاخباريين ودراسة تواريخ الحياة. ويعتبر البحث الانثروبولوچى بحثاً طويلاً وممتداً Longitudial ومن ثم قد يحتاج الباحث إلى أخذ رأى المستشارين المتخصصين. وقد اعتاد الباحث الاثنوجرافى ألا يتحدث كثيراً عن الموضوعات التى يقوم بدراستها أو يعلن عن قيامة بإجراء بعض التجارب لأنه يعلم أنه يجرى دراسته فى مجتمعات محلية حقيقية ويكّون الباحث علاقات شخصية مع كثير من السكان المحليين الذين يقوم بدراسة حياتهم اليومية(١٠).

(٣) الأنثروبولوجيا اللغوية (*) Linguistic Anthropology

فرع هام من أفرع الأنثروبولوجيا الثقافية يهتم بعنصر حيوى من عناصر الثقافة وهو اللغة، الوسيلة الوحيدة للإتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان كما أنها أداة نقل الأفكار أو التعبير عنها بكلمات أو إشارات أو رموز أو صور أو أشكال وغيرها(٢).

واللغة ليست إهتمام اللغويين فحسب بل يهتم بعض العلماء المتخصصين فى مجال الأنثروبولوجيا اللغوية، وبعض التخصصات الأخرى كالفلسفة والمنطق وعلم النفس.

والأنثروبولوجى اللغوى يهتم فى البحث عن أصول اللغات وأشكالها الرمزية ومحاولة إعادة البناء اللغوى لبعض اللغات بغرض الوقوف على المجموعات اللغوية التى تشترك وترجع إلى أصول متشابهة كالمجموعة السامية مثلاً والتى تضم اللغة العربية واللغة العبرية وغيرها.

وقد قسم الأنثروبولوجيون، اللغويون والعلماء اللغات الإنسانية إلى فصائل وعائلات يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات لغوية قرابية فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل وما إلى ذلك ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة. وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.

وأشهر نظرية قسمت اللغات على هذه الأسس هى نظرية ماكس مولر MaxMuler التى ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل وعائلات هى العائلة الهندية - الأوربية، العائلة السامية - الحامية، والعائله الطورانيه.

ويظهر أن اللغات الهندية - الأوربية هى أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً، أو يتكلم بها الآن جميع سكان أوربا والأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا ماعدا بعض جماعات قليلة بأوربا البسكية أو الفينية أو المجريه أو التركية...الخ، وأيضاً ما عدا السكان الاصليين للأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا - الذين إنقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير آخذ فى الإنقراض أو بدأ يتكلم اللغة الهندية - الأوربية التى يتكلم بها كذلك قسم كبير من سكان أسيا:الهند، إيران، أفغانستان، الكردستان، القوقاز الأوسط، أرمينيا..الخ.

والشعوب الناطقة بهذه العائلة اللغوية هى أرقى الشعوب حضارة فى العصر الحاضر وأعظمها نشاطاً وأكبرها شأناً وأكثرها إنتاجاً فى مختلف فروع الحياة وأكثرها تأثيراً فى الحضارة الإنسانية الحديثة.

وتأتى بعدها العائلة اللغوية الحامية – السامية وتشغل منطقة أصغر كثيراً من المنطقة التى تشغلها الفصيلة الهندية الأوربية حيث أنها لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا – وجزءاً من شرقها (إلى درجة عرض ٤جنوب خط الاستواء) فمنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو متراً مربعاً بها قسم كبير صحراوى (ببلاد العرب وشمال أفريقيا).

وعدد الناطقين بها لا يتاجوز عددهم عُشْر سكان أوربا.. ولكن هذه العائلة اللغوية تتميز عن العائلة الهندية الأوربية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبى.

كما وإن الناطقين باللغة السامية الحامية مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة وتتفق فى أساليب الحياة وفرع الحضارة والنظم الاجتماعية.

ويجمع بين اللغات السامية والمجموعة الأولى من هذه الفصيلة، كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف وما إلى ذلك وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة.

أما المجموعة الثانية وهى اللغات الحامية فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية – البربرية – الكوشيتيه) أى وجه للشبه والقرابة اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية باعتبارها مجموعة متميزة وهذا مجرد اصطلاح لا يتفق فى شئ من حقائق الأمور مما جعل العلماء يقسمون هذه العائلة إلى السامية والمصرية والبربرية والكوشيتيه.

وقد أطلق ماكس مولر وبونسن Bunsen اسم اللغات الطورانيه على طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التى لا تدخل تحت العائلتين السابقتين كالتركية والتركمانيه والمغولية والمنشورية والفينقيه..الخ ومن ثم فاللغات الطورانيه ليست إذن فصيلة أو عائلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمه وهى عدد من لغات لا يؤلف بينها الا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى إحدى الفصيلتين السابقتين(١١).

لعل أهم ما يميز الإنسان – صانع الثقافة –عن الحيوان الذى لا ثقافة له إن للإنسان لغة صوتيه يعبر بها تعبيراً رمزياً عن سائر أنماط ثقافته وبهذا كانت اللغة أهم وأعظم العوامل التى أدت إلى تقدم الثقافة وإذا أمكن لأنواع من الحيوانات كالقردة أو الخيل أو الكلاب عن طريق التعلم الشرطى conditioning أن تدرك العلاقات بين الكلمات والأعمال أو الأشياء كطاعة الأوامر حسبما يشاهدون من مدربى هذه الحيوانات إلا أنها لا تنتفع من هذه القدرة فى علاقاتها مع بعضها البعض، وإذا استطاعت بعض أنواع من القردة بما لها من أجهزة فسيولوجية شبيهه إلى حد كبير بمعدات النطق لدى الإنسان إلا أنها لا تستطيع تعلم النطق ولا التفويه بالكلمات أبداً وقد أعلن العالم (د.بلوچ) استاذ علم الأحياء بمعهد ماكس بلانك الأمريكى أخيراً أنه فشل فى تدريب قرد من المرتبه العالية على الكلام بعد أن حصل على القرد فور ولادته وعزله داخل بيت خاص فى المعهد حيث بدأت التدريبات المكثفة عليه لمدة عامين كاملة وكان يتم ذلك لمدة ٦ ساعات يومياً واشترك فى التجربة ستة من المساعدين وكانت النتيجة أن القرد لم يستطع اطلاقاً نطق كلمة واحدة وكل ما تعلمه هو محاكاة حركات وإشارات العالم ومساعدته فحسب وهى حركات تصاحب أصوات القرد التى تسمع فى العادة.

ولقد لعبت اللغة أهم أدوارها فى بناء التراث الاجتماعى البشرى عن طريق نقل الأفكار والمعارف والاتجاهات والرموز بسهولة ودقة ولولا قيامها بهذا الدور ما قدر للثقافة أن تظهر إلى عالم الوجود وهنا يظهر الفرق واضحاً بين التراث الاجتماعى لدى الإنسان وبين الحيوان عندما يفر فى ساعات الخطر نتيجة دافع فطرى كحب البقاء والحفاظ على الحياة.

واللغة تهتم بنقل الأفكار والمثل والمعايير وتتحدث عن السلوك الملائم لتحقيقها ابتغاء زيادة كم التراث الإنسانى فاللغة لا تتحدث عن الواقع الحالى الراهن فحسب وإنما عن تصور الإنسان وتخيلاته وطموحه فى المستقبل(١٢).

وينظر الأنثروبولوچى إلى اللغة بإعتبارها كائن حى يولد وينمو ويزدهر ويكبر ويصل إلى مرحلة الشيخوخة كما أنها قد تهاجر من مكان إلى آخر بهجرة أصحابها ومحدثيها.

ودراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم وبتأثيرها على هذه اللغة ومصادر هذه اللهجات وهل هى ترجع إلى لغات إنقرضت؟ كما هو الحال فى بعض لهجاتنا

المحليـة التى تحـتوى على بعض الكلمـات من اللغـة المصـرية القـديمـة فيـحـاول الأنثروبولوجى اللغوى إلقاء الضوء عليها كما يـدرس تأثير الحروب فى إنتشار بعض اللغات وأثر التبادل الإقتصـادى والثقافى على اللغة وإلى غير ذلك ن الموضوعات التى تهم المتخصصين فى مجال علم الإنسان اللغوى(١٣) .

هوامش الفصل:

(1) William A.Haviland, Anthropology, Holt, Rinehart and Winston Inc. 1974 P.5.

(2) Ibid., PP. 7-10.

(3) Gabril Ward Lasker. Physical Anthropolgy, Holt Rinehart Winston Inc. New York, 1973 PP. 1-2.

(٤) راجع أحمد أبو زيد (المترجم) الأنثروبولوجيا الإجتماعية لمؤلفه أ.أ.. ايفانز بريتشارد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

(*) الكرونولوجيا Chronology وهو تقسيم الزمن إلى فترات، ثم تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني.

(5) Conrad Phillip kottak. Anthropology, The Exploration of Human, Diversity Mcgraw Hill N.Y. 2002 PP. 44-47.

(٦) فاروق اسماعيل، الأنثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠، ص ٣١.

(7) Stocking G.W., Jr ed.) Observers observed: Essays on Ethnographic Fieldwork, Madison wis: University of wisconsin Press 1983.

(8) Carrithers, M. Why Humans Have Cultures?, Oxford University Press, 1992.

ترجم عالم المعرفة الكتاب ونشره ١٩٨٢ أنظر صفحة ٢١٩ وما بعدها.

(9) Conard Phillip kottak Anthropology The Exploration of Human Op. Cit. P. 54.

(١٠) عاطف وصفي، مرجع سابق، ص ٣٦ .

(١١) انظر علي عبد الواحد وافي علم اللغة دار نهضة مصر - الطبعة التاسعه بدون تاريخ - نشر ص ١٩٦ - ص ٢٠٦.

(١٢) زكي اسماعيل - الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي - دار الزهراء - الرياض ٢٠٠٢، ص ٩١-٩٢.

(١٣) راجع فاروق اسماعيل مرجع سابق، ص ٣٨-٤٢.

الفصل الثاني

إشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا

(المنهج، النظرية، طرق البحث)

- مقدمة
- أولا: مناهج البحث الأنثروبولوجي
- ثانيا: طرق وأدوات البحث الأنثروبولوجي
- ثالثا: بين المنهج والنظرية في البحث الحقلي الأنثروبولوجي

الفصل الثاني

إشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا (*)

إن القاعدة الأساسية التي نحاول الإعتماد عليها في مناقشة طرائق البحث الأنثروبولوجي وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هي معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الإختيار بين البدائل النظرية المتاحة. وينتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة، لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة العلمية الإنسانية بصفة عامة هي أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفة من الباحثين، وهي أكثر أيضاً من مجرد جمع الوقائع، كما أنها أكثر من منظور واحد لرؤية العالم الأنثروبولوجي، فلا يمكن مثلاً أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤدياً إلى المعرفة النظرية، فهناك فارقاً كبيراً بين «الوقائع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تعد هي المطلب الأساسي للمعرفة ولتقويم النظريات، فكثيراً ما يخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الأنثروبولوجي هي مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه، حقيقة أن البحث الأنثروبولوجي يعطي للباحث السبل والإجراءات التي يسترشد بها في جمع المعلومات والبيانات، لكن القضية الأساسية تكمن في تساؤل هام مؤداه: ما هو املعني الحقيقي وراء هذه البيانات أو المعلومات؟ فنحن نقرأ عدداً كبيراً من البحوث التي تجعلنا نقف على بعض الوقائع والبيانات أو المعلومات، لكننا لا نستطيع أن نتعرف على معنى هذه المعلومات، إذن، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات، أو حتى تطور أساليب الحصول عليها، لن يؤدي في حد ذاته إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظري المنهجي، الذي يهتم بالتفسير والتأويل والتحليل وإكتشاف المعاني، وبين ما يعرف إصطلاحاً باسم النزعة الأمبيريقية Empiricism التي تتجه أساساً نحو تصوير مهمة علم الأنثروبولوجيا بصفة خاصة، والعلوم الإنسانية بصفة عامة، على أنها البحث من أجل الوقائع أو البيانات الوصفية (الأثنوجرافية) Ethnographic Data، لذلك فإن

(*) كتب هذا الفصل السيد الدكتور مصطفى عمر حمادة، رئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الإمبريقية حين تتعرض لمعنى النظرية، فإنها تعرفها فى حدود هذه النزعة أيضاً على أنها تعميم يعتمد على الوقائع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها.

وعموماً، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج، تحتاج، دون شك، إلى تصورات نظرية دقيقة. فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم أن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها، وإنما طبيعة الموضوع الذى نتناوله بالبحث هى التى تحدد إختيارنا للمنهج الملائم. ومن هنا يمكننا القول بأننا لا نستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ. وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسس نظرية، ويجب تبريرها وفهمها فى إطار هذه الأسس[١].

ولعلنا نجد أن من أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات، ذلك التمييز الحاسم الذى يبدو فى هذه الأيام بين المنهج الكمى، المنهج الكيفى، باعتبارهما طريقتين منفصلتين، أكثر منهما متكاملتان.

إذن المناهج تعد باختصار شديد طرق لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص ولعل ذلك يجعلنا ننظر إلى المنهجين على أنهما يمثلا طرقاً مقترحة لحل مشكلات جمع البيانات، واستخدام أدوات البحث، الأمر الذى يجعلنا فى النهاية نركز الاهتمام على مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوعالمشكلة موضوع البحث والدراسة. ويمكن أن نخلص من ذلك إلى نتجتين أساسيتين الأولى: هى أن المناهج هى أدوات أو طرق تخدم أغراضاً ملموسة، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقضى تنوع أساليب حلها وتناولها، وهذه الغاية هى التى تحدد الحاجة إلى إستخدام الحلول أو المناهج الكمية أو الكيفية. والثانية: أن المناهج لا تستخدم إستخداماً مجرداً، ولكنها تستخدم باعتبارها أساس لمشكلات مادية ملموسة نحاول التوصل إلى حلول لها.

ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لإشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا فى التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة فى الدراسات الأنثروبولوجية، وسوف تأتى المعالجة على النحو التالى:

أولاً – مناهج البحث الأنثروبولوجى.

ثانياً – طرق وأدوات البحث فى الأنثروبولوجيا.

ثالثاً – بين النظرية والمنهج فى البحث الأنثروبولوجى الحقلى.

أولاً - مناهج البحث الأنثروبولجي:

تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة فى إجراء البحوث والدراسات الأنثروبولوجية، لعل من أهمها:

أ – المنهج التاريخي.

ب – المنهج المقارن.

ج – المنهج البنائي الوظيفي.

أ - المنهج التاريخي:

يستخدم مصطلح التاريخ الإجتماعى Social History للإشارة إلى دراسة التذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخاصة به، وتطور النظم الاجتماعية، والتحول فى المفاهيم والقيم الاجتماعية، وقد ارتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادى Economic History، وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسى، ويرجع الفضل فى ذلك إلى كل من إبن خلدون، والعالم الإيطالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الإجتماعي، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديد» حيث استطاع أن يحول الاهتمام فى التاريخ السياسى للحروب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية.

أما العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون، فقد عرّف التاريخ تعريفاً اجتماعياً فى مقدمته بقوله «يهدف التاريخ إلى إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للإنسان، يعنى حضارة الإنسان، ويهدف كذلك إلى تعريفنا للظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة، وإلى معرفة الحياة البدائية والأخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع. لذلك رأى أن علم العمران البشرى يهتم بدراسة التاريخ الاجتماعى على هذا النحو، بحيث يبحث فى مسائل الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى وما يلحق بها من عوارض.

ومنهج التاريخ الاجتماعى عند إبن خلدون، أو الدراسة الاجتماعية للتاريخ يعد منهج ديناميكى بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية

وإنتقالها من حالة إلى أخرى، ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هى إختلاف على مر الأيام والأزمنة وإنتقال من حال إلى حال، ويرجع هذا الإختلاف أو التباين فى أحوال المجتمعات إلى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية، ذلك أن المجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهى بمرحلة الإضمحلال، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة.

وفى الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافى Cultural Histor ، فيذهب ميتلند Maitland إلى أن : «الأنثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئاً على الإطلاق» وأكد بول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة فى مؤلفه «منهج الأثنولوجيا»، ويذهب بيركت سميث K. Birket Simith إلى أن «الحاضر لا يمكن فهمه إلا كنتاج للماضى» لذلك فإن المشكلة الحيوية للإثنولوجيا – كما يفهمها – يتعين أن تكون مشكلة تاريخية كذلك إفتتح سابير E. Sapir مقاله الكلاسيكى الشهير عن «منظور الزمان» بقوله «إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الإعتراف بأنها علم تاريخى أساساً. فالمعلومات التى نحصل عليها يتعذر فهمها سواء فى ذاتها أو فى صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للأحداث التى تضرب بجذورها فى الماضى السحيق، ومن الضرورى أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخى للوقائع بوصفها الهدف الإثنولوجى الخاص بالباحث.

وعموماً، فإن مصطلح التاريخ الثقافى يكتسب معناه الحقيقى ودلالته فى ضوء علم المناهج، وتنقسم المناهج فى هذا الصدد قسمين: قسم أنثربولوجى، قسم وضعى تاريخى.

أما القسم الأنثروبولوجى فهو يعطينا المداخل التى يمكن بواسطتها الكشف عن إعتبارات الزمان وصياغتها فى تصورات ثقافية محددة، أما القسم التاريخى فهو الوسيلة التى بواسطتها ستصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التى ندرسها، والنتاج النهائى لذلك كله هو التاريخ الثقافى.

وهكذا تحتل الثقافة فى الأنثروبولوجيا مكانة رئيسية، ويعد البحث التاريخى للثقافة مطلباً هاماً وحيوياً بالنسبة للأنثروبولوجيا الثقافية، ويعكس هذا الإهتمام دراسة نشأة

الثاقفة وتطورها وأصولها، وعملية إعادة بناء تاريخ الثقافة، وتقوم هذه الدراسة على أساس دراسة توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التحقق من مدى إمكانية حدوث إحتكاكات وإتصالات بين الوحدات الثقافية، بل يمكن أن تكشف أيضاً التتابع الزمنى الذ يظهرت فيه هذه الإحتكاكات والإتصالات.

أما علماء التأويل التاريخى للثقافة من أمثال كروبير Kroeber فإنهم يرون أن التاريخ هو فى جوهره محاولة لإعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة، وليس معالجة التتابعات الزمنية، ولهذا اعتقد أنه يمكننا الإعتماد على المنهج التاريخى فى دراسة الأحداث والوقائع الحالية، وكذلك فى دراسة الظواهر التى تحدث فى زمن محدد، وهو ما يعرف باسم الدراسات المتزامنة Synchronic ، هذا فضلاً عن دراسة الظواهر التى تحدث فى أزمان متعددة Diachronic فكأن ماهية التاريخ لا تنحصر فى عنصر الزمن كما أن الذى يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلى لأية مجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين بالذات. وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى إعتبارها عنصر الزمان إلى جانب عنصر المكان، وهذا هو المحك الأساسى الذى تقوم التفرقة عليه بين العلم والتاريخ، ولا شك أن هذا الإصرار على أهمية المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية (٢).

وعلى ذلك، فإن الاهتمام بتاريخ الإنسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الأنثروبولوجية وقد تمثل ذلك فى الدراسات المقارنة للمجتمعات والنظم الاجتماعية، وفى محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها، فقد إعتمد كل من فولتير Voltaire وجوستاف كلم Gustav Klemm وسير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان J. F. Mclenain وباخوفن Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges ولويس مورجان L. H. Morgan وإدوار تايلور E. B. Taylor اعتمدوا جميعاً على المصادر التاريخية فى إقامة علم اجترماع مقارن عن الثقافة والمجتمع. وإذا انتقلنا إلى الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية المعاصرة سنجد أيضاً إهتمام واضح بالمصادر التاريخية فيما يعرف إصطلاحاً باسم «الذاكرة الثقافية» Memory Culture حيث تحاول المدرسة التاريخية أن تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل.

ويعتمد علماء الأنثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية في تحقيق أهدافهم هي:

١- الوثائق المكتوبة Written Documents:

فبرغم الصعوبات التي تواجه الإعتماد على هذه الوثائق، وخاصة في المجتمعات التي لا توجد عنها وثائق مدونة، إلا أن محاولات حديثة تبذل لجمع مادة يمكن الإعتماد عليها في تكوين بعض المعلومات المنظمة عن هذه المجتمعات.

٢- التراث الشفهي Oral Traditions:

حيث يغطي التراث الشفهي أنواع متعددة من الظواهر والأنظمة والعلاقات الاجتماعية، ويمكن أن نعثر على التراث الشفاهي من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية، حيث تكشف عن أهمية الإعتماد على هذا المصدر في البحوث التاريخية الأنثروبولوجية.

٣- البحث الحقلي Field Work:

حيث يمثل البحث الحقلي القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدراً رئيسياً للمعلومات، وجزءاً رئيسياً من تدريب الباحث الأنثروبولوجي، وذلك بهدف إبراز الوظائف المختلفة للأنساق الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها إلى جانب تقديم وصف دقيق ومتكامل للحياة الاجتماعية في مجتمع أو ثقافة معينة، وهذا لن يتم إلا من خلال إجراءات وأساليب البحث الحقلي.

ب - المنهج المقارن:

يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق على علم الأنثروبولوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته، حيث أن أي بحث أنثروبولوجي ينطوي بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة في البحث الأنثروبولوجي، حيث يقصد به عادة دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية في مجتمعات مختلفة، أو أنماط محددة من المجتمعات، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذي يطرأ عليها، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض.

أما عن مجالات البحث المقارنة في الأنثروبولوجيا فهي تتلخص فيما يلي:

(١)- دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الاجتماعي، ويشمل ذلك أيضاً دراسة السلوك السياسي للأفراد مثل التصويت في الإنتخابات وغيرها، وكذلك دراسة السلوك الإجرامي ومعدلات الجرائم في المجتمع وأنماطها في مجتمعات مختلفة.

(٢)- دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية، والإتجاهات السيكولوجية والاجتماعية في مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسة الطابع القومي National Character [٣].

(٣)- دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات Organisations وخصوصاً التنظيمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية والتنظيمات السياسية والصناعية والمهنية في مجتمعات مختلفة.

(٤)- دراسة النظم الاجتماعية Social Institutions ، والتي بالضرورة تنقسم إلى أقسام فرعية، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أي دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة، ثم دراسة الأنساق الثقافية قبل المعتقدات الدينية، ودراسة العمليات التي تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية، ودراسة النظم الفرعية مثل العادات والفولكلور، وهي دراسات ذات صلة وثيقة بالأنساق الثقافية.

(٥)- تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها، فعادة ما تتم المقارنة بين المجاتمعات وفقاً للنمط الرئيسي السائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجودة فيها.

أما الصعوبات المنهجية والنظرية، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عدداً من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالي:

(١)- مشكلة إختيار وحدة المقارنة التي على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية في البحث.

(٢)- مشكلة تحديد المؤشرات التي تقارن على أساسها بين المتغيرات، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعاً لاختلاف وحدة المقارنة.

(٣)- مشكلة إمكانية المقارنة Comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة.

(٤)- مشكلة المعاينة Sampling، فالعينات الصغيرة نسبياً لوحدات المقارنة تثير تساؤلاً عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموماً هى مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلى، ففى الدراسات المقارنة التى تهدف إلى إختبار الفروض أو القضايا العامة، فتكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصلى الذى تنتسب إليه مسألة بالغة الأهمية.

وهذه الصعوبات المنهجية تختلف عادة باختلاف المادة اللازمة للتحليل المقارن(٤).

ج - المنهج البنائي الوظيفي :

بعد أن تطورت الأنثروبولوجيا فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت إتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التى صاحبت إستخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقاً تقليدياً، وبذلك ظهر ما يعرف الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية باسم «الإتجاه الوظيفى»، الذى أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر فى إطارها وسياقها الكلى، لهذا فهم يتبعدون عن المقارنات التى حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائى عزلاً تحكمياً.

لكن الشئ الملاحظ فى الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لازالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل يصعب الإستغناء عنها فى دراساتهم، لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإتجاه الوظيفى يهدف إلى التوصل إلى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم فى المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وإلى تصنيف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها، والمقارنة بينها فى محاولة لإكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية، ومعنى ذلك أن الوظيفة سوف تستعين بالطريقة المقارنة استعانة مباشرة لتحقيق أهدافها. ومن هنا اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيماً قوياً بعد أن كتب نادل Nadel بعض الدراسات الأنثروبولوجية، والتى أكد فيها على الحاجة الملحة والماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية فى مواقف صناعية تمكننا من المقارنة بينها، وهو يؤكد أن علماء الأنثروبولوجيا يتمسكون دائماً بالسياق الأشمل، ويتمكنون من عزل العناصر عن سياقها دون أن تفقد معناها (٥).

لذلك حاول المنهج البنائي الوظيفي المزاوجة بين المنهج المقارن، والإتجاه الوظيفي في الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية في سياقها الكلي من ناحية، والتعرف على الأدوار والوظائف التي يؤديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية أخرى، لمعرفة طبيعة البناء الاجتماعي Social Structure للمجتمع ككل.

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطي مثالاً لتلك الدراسه الشهيرة والرائدة في مجال الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية، والتي قام بها مالينوفسكي Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتفسيرها في إطار بنائي ووظيفي، تلك الدراسة التي ضمنها كتابه الذي يحمل عنوان Argonuts of the Western Pacific الذي نشره في عام ١٩٢٢، حيث استخدم المنهج البنائي الوظيفي في دراسة النشاط الاقتصادي الذي يمارسه سكان جزر التروبرياند والذي يعرف بنظام الكولا Kula System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة في نوع من التحالف أو الإتفاق يهدف إلى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طويلة من ا لصدف الأحمر، و «أساور» من الصدف الأبيض، ويتألف نسق التبادل في أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر في إتجاه واحد لا يتغير حول محيط الدائرة التي تنظم تلك الجزر، بينما تنتقل الأساور في الإتجاه المضاد، وهذه السلع لا تحمل قيمة عملية على الإطلاق بقدر ما لها من قيمة شعائرية وطقوسية، كما أنها تتصل إتصالاً وثيقاً بالمركز الذي يحتله الفرد في المجتمع (٦).

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة في الأنثروبولوجيا، وبخاصة في المدرسة الأمريكية، تنظر إلى الثقافة عموماً، باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة، بل والمتباينة في نشأتها، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلاو مالينوفسكي، حيث تتخذ الوظيفة عنده جانبين الأول : يذهب إلى أن كل ثقافة هي عبارة عن كيان كلي وظيفي متكامل شبيهة بالكائن الحي، ولا نستطيع أن نفهم أي جزء من أي ثقافة إلا في ضوء علاقته بالكل. الجانب الثاني: هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الإنسانية، وتفسير وجودها في المجتمعات(٧)، وهنا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية، في حين يوجه «رادكليف براون» R. Brown

اهتمامه إلى دراسة المتمع لا إلى الثقافة، فيؤكد أن المجتمع يتكون من أجزاء متداخلة وظيفياً، وهو بذلك يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١ - الوصف الدقيق للأداء الوظيفي للأبنية الاجتماعية الموجودة في المجتمعات الإنسانية، مؤكداً على دورها في الحفاظ على البناء الاجتماعي.

٢ - التصنيف المنهجي للظواهر الاجتماعية

٣ - صياغة القوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

لذلك فإن المنهج البنائي الوظيفي يهتم اهتماماً كبيراً ببناء الثقافة، والعلاقة القائمة بين أجزائها، كما يهتم أيضاً بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما، والتي تتساند مع بعضها تسانداً وظيفياً.

ثانياً- طرق وأدوات البحث الأنثروبولوجي:

لقد أصبحت الأنثروبولوجيا علماً يعتمد على مناهج متخصصة في البحث، إلى جانب أنها أصبحت فناً بممارستها بعض الطرق والأدوات الفنية الدقيقة في إجراء بحوثها الحقلية. هذا فضلاً عن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الإنسانية. وقد أصبحت الفكرة القائلة «بأنه يتعين على الأنثروبولوجي أن يبحث بنفسه عن البيانات التي تحتاج إليها دراساته بدلاً من الإعتماد على كتابات الرحالة، فكرة شائعة في أواخر القرن التاسع عشر، فقد قام فرانز بواس Boas بدراسات عن الإسكيمو بين عامي ١٨٨٣ - ١٨٨٤، ثم قام هادون Hadon في إنجلترا على رأس بعثة جامعة كمبردج لدراسة منطقة مضايق توريس Torres Straits في المحيط الهادي بين عامي ١٨٩٨ - ١٨٩٩، وكانت هذه المرحلة علامة مميزة في تشكيل الأنثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع، ويعتمد على الخبرة الحقلية، باعتبارها عنصراً جوهرياً في تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم(٨).

أما عالم الأنثروبولوجيا الشهير مالينوفسكي، فهو الذي عمل على تدعيم البحث الحقلي في ميدان الأنثروبولوجيا، فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriand في ميلانيزيا أمضى فيها أربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨، وهي فترة تطول كثيراً عن المدة التي أمضاها أي باحث أنثروبولوجي من قبل، كما كان مالينوفسكي أول أنثروبولوجي يستخدم لغة الأهالي في إجراء البحث، وكان كذلك أول من عاش مع

الأهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة. وترجع أهمية دراسات مالينوفسكى الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب لن يتحقق إلا إذا درست دراسة مركزة، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع يؤلف جزءاً ضرورياً من تدريب الباحث الأنثروبولوجى.

ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Integerati ve Study فى الأنثروبولوجيا لن يتحقق إلا إذا اتصل الباحث إتصالاً مباشراً ووثيقاً بالمجتمع والثقافة التى يتناولها، وهذا ما يعرف بالدراسة الحقلية Field Study، أى أن الباحث عليه أن يعايش المجتمع ويلاحظ نظمه ملاحظة مباشرة ودقيقة.

وعموماً، فإن أهم الطرق والأدوات المستخدمة في البحث الأنثروبولوجي يمكن ذكرها على النحو التالي:

(١) الملاحظة بالمشاركة Participant Observation.

(٢) الاعتماد على الإخباريين Informatnts.

(٣) الإقامة فى مجتمع البحث.

(٤) إجراء المقابلات.

(٥) استخدام أدوات التسجيل (الكتابة، الصوتية، والمرئية ... إلخ).

(٦) دراسات الحالة Case Studies.

أما عن أداة الملاحظة بالمشاركة فهى تتلخص فى أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الأشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبياً، قد تمتد إلى ما يقرب من العام، وذلك للتعمق في فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، وقد استخدمت هذه الطريقة فى البحوث الأنثروبولوجية، وبخاصة فى دراسة مجتمعات كلية وثقافات وأحياء ومدن ومصانع وجماعات، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلاً فإن عليه أن يدرس العمال والإدارة دون أن يتحيز إلى جانب فئة معينة منهم، وهو يندمج فى الواقع الذى يعايشه، ولكنه يحاول قدر المستطاع أن يصوره تصويراً موضوعياً.

وهنا لابد من الإشارة إلى الإلتزام الأخلاقى للقائم بالملاحظة، فإستخدام الملاحظة المشاركة يقتضى من الباحث الإقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والإندماج مع أعضائه، وهو فى هذه الحالة يتعرف على كل ما هو «تحت السطح» Beneath the surface ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند مرحلة كتابة تقرير البحث ونشره، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه الصدق والتزام الصدق المطلق؟ أم أنه يحذف بعض الأمور إلى تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة، والتى استطاع إدراكها من خلال العلاقة الوثيقة التى تطورت أثناء إجراء البحث، وربما يكون فى حذف هذه المعلومات وإخفائها تشويهاً لنتائج البحث، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضرراً لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات، لذلك فإن مواجهة المعضلة يعتمد إلى حد كبير على أخلاقيات الباحث القائم بالملاحظة المشاركة. لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية، والتى من الممكن أن يستفيد منها أعضاء المجتمع أنفسهم فى البرامج التى تهدف صالح أعضاء المجتمع، ولن تضير المجتمع بأى حال من الأحوال.

أما طريقة الاعتماد على الأخباريين: فهو تعتمد على الاستعانة ببعض المرشدين أو بعض الأخباريين Informatnts الذين يكونون فى العادة من السكان الأصلين للمجتمع نفسه، ويقومون بدور أساس يتمثل فى تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمختلف ظواهره، كما يكون لهم دور فى تعليم الباحث الأنثروبولوجي لغة الأهالى، لكن ذلك لا يعنى أن يكتفى الباحث الأنثروبولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التى يحصل عليها عن طريق الأخباريين، بل عليه أن يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أو يقال له، ومن ثم فإنه يتخذ من الأخباريين مدخلاً للإندماج فى المجتمع والتعرف عليه، لذلك لابد أن يستعين الباحث الأنثروبولوجى فى دراسته الحقلية بعدد من الأشخاص الذى نيشغلون مراكز وأوضاع أساسية فى مختلف قطاعات البناء الاجتماعى ويفترض أن يكون لدى هؤلاء الأخباريين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة، وهذا لا يمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على أخبارى أساسى بحيث يعتبره معاوناً أساسياً له فى الدراسة.

ومن بين المواد التى يفيد فيها الباحث الأنثروبولوجى، والتى يحصل عليها من بعض الأخباريين، تلك المادة المسجلة سواء كانت صوراً فوتوغرافية، أو أشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة، أو أفلاماً لبعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية

والثقافية، يمكن أن تفيد الباحث فائدة محققة فى إجراء بحثه والإلمام بعناصر البناء الاجتماعى لمجتمع بحثه.

والإقامة فى مجتمع الدراسة تتطلب ضرورة أن يتعلم الباحث اللغة الوطنية التى يتحدث بها الأهالى، لأنه حين يتكلم لغة المجتمع، فإنه يتعلم فى نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية اللذان يتبلوران فى مصطلحات تلك اللغة وألفاظها، فكل شئ فى حياة الأهالى الاجتماعية يعبر عنه إما فى شكل ألفاظ، أو فى شكل أفعال، أى إما بالقول أو العمل. وحينما يصل الباحث إلى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات يكون قد استكمل دراسة المجتمع.

أما عن المقابلة، فهى أداة للبحث تمثل الحوار اللفظي الذي يتم وجهاً لوجه بين الباحث القائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو مجموعة أشخاص آخرين.

وعموماً، فإن المقابلة تتكون من ثلاث عناصر متميزة هى:

(أ) - القائم بالمقابلة Interviewer.

(ب) - المبحوث Interviewee.

(ج) - موقف المقابلة The Situation of Interview .

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة على نحو يؤثر فى النتائج العامة للمقابلة، ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها، ومدى فهمه لدوافع السلوك، مبلغ وعيه وإدراكه لمختلف العوامل فى الموق فالمحيط به، والتى تدفع المبحوث فى بعض الأحيان إلى الوقوف موقفاً سلبياً من الباحث أو إعطاء بيانات محرفة لا تتسم بالثبات والصدق.

والمقابلة فن يحتاج إلى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول إلى الميدان، والإحتكاك بجمهور البحث، والقدرة على النفاذ إلى دوافع السلوك، ومكونات الشخصية، وأساليب الإتصال والتأثير. لذلك فإن المقابلات التى يعقدها الباحث مع أعضاء المجتمع، من شأنها أن تجعله قادراً على إدراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك والعلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة(٩).

ويستطيع الباحث أن يختار موضوعات المقابلة بالاعتماد على بعض المؤلفات

المتاحة لدى الأنثروبولوجيين، والتى تقدم لهم دليلاً عاماً للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعاً هى «موجز المواد الثقافية» ميردوك Merdouck ١٩٦٠، والدليل الذى أصدره المعهد الملكى للأنثروبولوجيا فى بريطانيا عام ١٩٥١، بعنوان Notes and Queries on Anthropology ويحتوى الدليل الأول على ثمانين فئة عامة تنقسم إلى ٦٢٣ موضوعاً، يضم كل منها ما بين ٥ – ٢٠ موضوعاً متخصصاً للبحث، هذا فضلاً عن أن الباحث يستطيع أن يستعين أيضاً بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل تنشئة الأطفال Socialization، وهى تستخدم جميعاً كأساس للمقابلات.

أما عن الأدوات المستخدمة فى البحث الأنثروبولوجى، فهى متعددة تبدأ بالتسجيل اليومى الكتابى فى جمع المادة الأثنوجرافية Ethnographic Data من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من أدوات جمع المادة، سواء كانت أدوات تستخدم للتسجيل الصوتى (كاسيت) أو تصوير فوتوغرافى للحياة اليومية فى المجتمع، حتى أيضاً التصوير المرئى، أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا المرئية.

أما دراسة الحالة، فهى تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواقف الاجتماعية، وطريقة للتعمق الكيفى فى فهم الظواهر، والحالة التى يدرسها الباحث قد تكون شخصاً أو جماعة مثل الأسرة أو مجتمع محلى. والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلى لكافة جوانب الحالة المراد دراستها، ومن ثم يحاول الباحث أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة، وبخاصة تلك المعلومات التى تتصل بتاريخ حياة الحالة وتطورها. ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالى:

١ – أنها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة المدروسة.

٢ – أنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات.

٣ – أنها طريقة تهتم بالموقف الكلى وبمختلف العوامل المؤثرة فيه والعمليات التى يشهدها.

٤ – أنها طريقة تتبعية، أى أنها تعتمد إعتماداً كبيراً على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالدراسة التاريخية.

٥ – أنها منهج ديناميكى لا يقتصر على بحث الحالة الراهنة.

٦ - أنها منهج يسعى إلى تكامل المعرفة، لأنه يعتمد على أكثر من أداة للحصول على المعلومات.

ثالثاً - بين المنهج والنظرية في البحث الحقلي الأنثروبولوجي:

تواجه البحوث الاجتماعية - عموماً - معضلة منهجية فريدة، ألا وهي أن ظروف البحث فى ميادين هذه العلوم تشكل متغيراً مركباً شديداً يؤثر تأثيراً مباشراً فيما تخلص إليه البحوث من نتائج، ومن ثم يستخدم مصطلح البحث الحقلى Field Research لكى يعنى فى الحقيقة موقفاً منهجياً محدداً وصريحاً يعترف بأن الباحث الاجتماعي يلعب دوراً رئيسياً فى عملية الحصول على البيانات، ويرتبط هذا المصطلح أساساً بأداة بحثية معينة هى أداة الملاحظة بالمشاركة Participant Observation التى تستخدم إستخداماً رئيسياً فى البحوث الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، إذ استطاع الأنثروبولوجيون باستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات، دون أن يحظى هذا التراث - للأسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيرى له، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الأنثروبولوجى فى الدراسة الحقلية، إذ تقتضى من الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن فى المجتمع محل الدراسة، يستطيع معها أن يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة - التى تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية، ويعتقد الأنثربولوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع أكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية وصفاً تفصيلياً دقيقاً، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريراً متكاملاً ومفصلاً عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التى يدرسها.

ومن هنا لابد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية فى البحث الأنثربولوجى الحقلى، أن المشكلات الخاصة بالملاحظة والتفسير والتسجيل وملاءمة البيانات للنظرية تظهر بوضوح فى البحث الحقلى لأن الملاحظة جزء من الميدان الذى يعمل فيه.

والمشكلة المنهجية الرئيسية فى هذا الصدد نتيجة للفروق بين الواقع الطبيعى، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعى كما يصفه العالم الاجتماعى، ولقد حدد الفرد شوتز A. Shutz هذا الفارق فى هذه الفقرة التالية:

«إن هذه الأمور ترجع إلى الحقيقة التى مؤداها أن هناك فارقاً جوهرياً فى بناء الأفكار والمفاهيم التى يكونها المتخصصون فى العلوم الطبيعية».

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعى أن يحدد فى ضوء القواعد الإجرائية للعلم الذى يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضاً الوقائع، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو لبحثه العلمى الذى يقوم به.

ولا يتضمن العالم الطبيعى كما يسكتشفه عالم الطبيعة أية معانى خاصة أكثر من الجزيئيات، أو الذرات، أو الألكترونات كما توجد بالفعل. أما مجال الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعى، أى الواقع الاجتماعى، فإن له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الإنسانية التى تعيش، وتفكر، وتتفاعل فيه. ولقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هذا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعى أن يصوغ مفاهيمه وأفكاره، التى سوف يدرس بها الواقع فى ضوء التفسيرات التى طورها الناس خلال حياتهم اليومية وبدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وأفكارهم، أى منعزلة عن الموضوع الذى يدرسه أصلاً.

وإن كان الملاحظ ليس جزءاً من المجال السلوكى الذى يدرسه. وعموماً فإن الملاحظة كجزء من مجال السلوك الذى يدرسه يصطحب معه مجموعة من المعانى والأفكار الملائمة التى تمكنه من الدخول إلى البيئة التى يدرسها ويلاحظها عند هذه النقطة تواجهه بعض المشكلات، نذكر منها ما يلى:

(١)- إن عليه أن يفسر سلوك الأشخاص الذين يلاحظهم وفقاً للمعانى التى تسود فى حياتهم اليومية.

(٢)- إن عليه أن يكون تصوراً نظرياً يأخذ فى إعتباره قيم وإتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد صلات شخصية متبادلة مع الأشخاص والجماعات التى يدرسها.

(٣)- إنه لن يستطيع أن يكون علاقة اجتماعية حميمة فى الواقع الاجتماعى دون أن يتجاهل ولو جزئياً اتجاهه العلمى.

والواقع أن الإعتبارات السابقة تطرح أمامنا مشكلة رئيسية وهى كيف نثق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقلى فى بحثه من الناحية العلمية وإلى أى مدى نستطيع أن نقيم على أساسها نظريات تفسيرية؟

والحقيقة أننا يجب أن نسلم منذ البداية بأن الواقع الاجتماعى متميز ومختلف تماماً عن الواقع الطبيعى وهذا الاختلاف يقتضى من الباحث موقفاً وإتجاهاً خاصاً يتلائم مع طبيعة الموضوع الذى يدرسه.

وعموماً فإن معظم الدراسات الحقلية الحديثة تلجأ إلى طريقة فى الحصول على المعلومات تحاول بها أن تتجنب الذاتية فى البيانات بقدر المستطاع وتقوم بهذه الطريقة على استخدام ما يعرف بفريق البحث Team work .

ويمكن أن تحقق هذه الطريقة قدراً كبيراً من الدقة والثبات والصدق فى المعلومات التى حصل عليها عن طريق البحث الحقلى.

وهناك مشكلة أخرى تظهر فى العديد من البحوث الحقلية إذ عادة ما تبدأ هذه البحوث بعملية الملاحظة وجمع المعلومات دون أن يوجه الباحث منذ البداية إطار نظرى واضح المعالم وإفتراضات محددة ومفاهيم نظرية مختارة، لذلك يجب على الباحث الحقلى أن يطور هذا الإطار النظرى إما أثناء جمع المعلومات أو حينما يشرع فى كتابه تقرير بحثه.

أما عن تقويم البحث الحقلى، فسوف نحاول التركيز على مميزات ومشكلات طريقة الملاحظة بالمشاركة ومدى فائدتها بالنظر إلى الطرق الأخرى التى تستخدم فى البحوث الأنثروبولوجية.

فقد كتب بيكر Becker وجير Geer مقالاً ناقشا فيه فوائد كل من الملاحظة بالمشاركة والمقابلة، فذهبا إلى أن الطريقتين يكمل أحدهما الآخر فى البحث الحقلى. فالمشاركة المتعمقة تقلل درجة تقنين المقابلة، لكن المشاركة تقدم لنا نظرة أكثر ثراء للعمليات الاجتماعية، وبدون استخدام بعض أنواع الأسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة محدودة جداً بالنسبة لاختبار صحة الفروض.

إن الإستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة فى البحث الحقلى تميل إلى تسجيل ما يقع من حوادث، ذلك باستثناء عدد قليل من الدراسات التى تستعين بهذه الطريقة فى التحقق من صحة الفروض، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والأنثروبولوجيا حول تنشئة الأطفال وأساليبهم فى الثقافات المختلفة(١٠).

لكن ستظل المشكلة الرئيسية هى عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث

– على الأقل– فى توضيح افتراضاته النظرية مبدئياً، وإنما تنحصر مهمة هذه الدراسات فى الغالب فى إضافة العديد من الملاحظات الوصفية فى ميدان العلوم الاجتماعية.

لذلك فعلى الباحث أن يحدد الأسس التى ترتكز عليها إستنتاجاته، والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى:

(١)- على الباحث أن يصوغ بوضوح ما يسعى إلى تحقيقه في بحثه، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة، ويختبر صحة الفروض.

(٢)- المعلوماتُ التى يمكن للباحث الحصول عليها فى البحث الحقلي، يتعين عليه إستكمالها مباشرة، وبخاصة الدراسات الخاصة بالتراث، والتى يحصل عليها من دراسته الميدانية.

(٣)- يجب على الباحث أن يحدد الإجراءات التى تناسب أهداف بحثه، مثل صياغة بعض أسئلة المبحوثين، وتحديد نوعية الصلات التى يتعين عقدها مع مجتمع البحث.

هذه كلها تعد صورة لبعض التوجيهات التى يجب أن يسترشد بها الباحث الحقلى فى ميدان الأنثربولوجيا، لكن الواقع الذى يحدث فعلاً فى هذه البحوث يمكن إيجازه فى القضايا الآتية:

١ – عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث، وحتى عن النتائج التى سيصل إليها، ومعنى ذلك أنه يتجه نحو البحث الحقلى وفى ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية.

٢ – كثير من الباحثين يتجهون للميدان ولديهم أفكار عن نتائج البحوث السابقة، وقد يستخدمون هذه الأفكار فى إساءة فهم المعلومات اتى يحصلون عليها.

٣ – يخلو – أحياناً – تقرير البحث من القصور الزمنى الذى يعنى ضرورة تحديد المراحل التى مرت بها الدراسة الحقلية، وأثر كل مرحلة منها فى تعديل أو تطور أهداف البحث وما خلص إليه من نتائج.

٤ – الإتجاه العام فى الدراسات الحقلية، هو إبراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية أكثر من الإهتمام بإستخدام هذه المعلومات فى تطوير البناء النظرى والأسس المنهجية.

المراجع والهوامش :

(١) محمد على محمد، ١٩٨٣، علم الاجتماع والمنهج العلمى: دراسة فى طرائق البحث وأساليبه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ٣.

(٢) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، ج ١، المفهومات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ١٤٠.

(3) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe, The Fress, p. 228.

(4) Warwick, D., & Samuel Osherson, "Comparative Research Methods," N.J., Prentice Hall, 1973, pp. 34 - 47.

(5) Nadel, Op. cit., p. 230.

(6) Malinowski, B., "Argonauts of the Western Pacific", London Routledge & Kegan Paul, 1992, pp. 22 - 44..

(٧) محمد محمود الجوهرى، ١٩٩٥، الأنثروبولوجيا : أسس نظرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ٢٩.

(٨) أحمد أبو زيد، ١٩٥٦، الطريقة الأنثروبولوجية فى دراسة المجتمع، حوليات كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد العاشر، ص ٣ – ٥.

(٩) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

(10) Becker & Geer, B., "Participant Observation and Interviewing: Acomparison Organisation, 10 . No. 3, 1957, pp. 82 - 32.

الفصل الثالث

الملاحظة في الأنثروبولوجيا والاجتماعية

- مقدمة
- ماهية الملاحظة
- استخدامات الملاحظة
- قواعد إجراء الملاحظة في البحوث الاجتماعية
- مزايا الملاحظة وعيوبها
- أنواع الملاحظة:
  ١- الملاحظة البسيطة. ٢- الملاحظة المنظمة.
  ٣- الملاحظة بالمشاركة. ٤- الملاحظة التجريبية.
- نماذج الملاحظة بالمشاركة في بعض الدراسات الأنثروبولوجية
- ثبات وصدق الملاحظة
- أخلاقيات القائم بالملاحظة-

الفصل الثالث

الملاحظة في الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية(*)

تمهيد:

تعد الملاحظة وسيلة من وسائل جمع المعلومات، ويمكن القول أن كل بحث اجتماعي يستخدم الملاحظة بدرجات مختلفة من الدقة والضبط ابتداء من الملاحظة السريعة غير المضبوطة وصولاً إلي الملاحظة العملية الدقيقة. فالعلم يبدأ بالملاحظة ثم يعود إليها مرة أخري لكي يتحقق من صحة النتائج التي توصل إليها، وهناك فارق بين الملاحظة السريعة العابرة التي يقوم بها الإنسان في ظروف الحياة العادية وبين الملاحظة العلمية التي تمثل محاولة منهجية يقوم بها الباحث بصبر وإناة للكشف عن تفاصيل الظواهر أو عن العلاقات التي تقوم بين عناصرها، وهي تتميز عن الملاحظة العابرة بأن الباحث يقوم بها لخدمة بحث معين، كما أنها مخططة بطريقة واعية من أجل تحقيق أهداف البحث، ثم أن الملاحظات العلمية تثبت وتسجل بطريقة دقيقة بالإضافة إلي أنه يمكن تكرارها وذلك بالعودة إلي ملاحظة الظاهرة موضوع الدراسة مرة ثانية للتحقق من صحتها، وبذلك تصبح مصدراً أساسياً من مصادر الحصول علي البيانات، بل أن البعض ذهب إلي حد اعتبارها منهجاً مستقلاً من مناهج البحث العلمي(١).

والملاحظة العلمية لا تقتصر علي مجرد الحواس بل تستعين بأدوات علمية دقيقة للقياس ضماناً لدقة النتائج وموضوعيتها من ناحية، وتفادياً لقصور الحواس من ناحية أخري(٢).

ولقد كان لعلماء الأنثروبولوجيا في العصر الحديث الفضل في لفت أنظار الباحثين الاجتماعيين إلي أهمية الملاحظة كوسيلة هامة من وسائل جمع البيانات، وكان لخصوبة المادة العلمية التي جمعوها عن الشعوب البدائية أثر كبير في توجيه أذهان الباحثين إلي استخدام نفس الأسلوب في البحث خاصة في دراسة الجماعات الصغيرة.(٣)

كما أن الكثير من صور السلوك اليومي مثل طرق تربية الأطفال، وأساليب تبادل

(*) كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة مرفت العشماوي عثمان أستاذ الأنثروبولوجيا المساعد بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

التحية، والاحتفال بالأعياد، وغيرها من المناسبات الاجتماعية وهى من الأمور المألوفة الطبيعية لدي أعضاء الجماعة ولكنها تسترعي انتباه الباحث والمدرب خاصة إذا كان غريباً عن الثقافة القائمة(٤).

ومما لا شك فيه أن الباحث يشغله منذ البداية وبمجرد إقامته فى منطقة البحث أن هناك معلومات ذات أهمية بالغة متاحة فى سهولة ويسر وبمجرد ممارسة الملاحظة، وغن كان ثمة فروق واضحة بين الأفراد من حيث قدراتهم لأن يلاحظوا أو يتذكروا ويذكر Pelto فى كتابه البحث الاجتماعى أن بعض الأفراد لديهم قدرة بارعة لملاحظة دقائق الموقف. وأن الأفراد يختلفون فى نظرتهم إلي الوحدات والوقائع التى تستأثر باهتماماتهم فالمرأة علي سبيل المثال أفضل من الرجل فى الزينة وما إليها، والمزارع لديه القدرة التى تفوق غيره فى ملاحظته للأدوات والمعلومات الزراعية، وباختصار كل فرد له مجال من الاهتمامات والخبرات الخاصة التى تؤثر فى ملاحظته وإن الباحث الميدانى لابد وأن يكون علي وعى تام بمواطن القوة والضعف فى طريقته فى الملاحظة، وأن يكتشف تحيزه لملاحظة أشياء دون أخري، ولكى ينمى قدراته وأسلوبه فى الملاحظة فإنه فى أمس الحاجة لأن يتعلم كيف يوجه اهتماماته للملامح أو الأشياء التى اعتاد أن يتجاهلها، وبديهى أنه ليس هناك باحثان يستطيعان أن يقدما نفس الانطباعات المتطابقة تماماً لنفس الشيء، إن الملاحظة هى فعل إبداعى وهى نوع من النشاط لا يشير إلي حالة من السلبية أو السكون Passivity ونحن حين نمارسها نمارس عملاً اختيارياً، قد نلاحظ بعض الأشياء دون البعض الأخر(٥).

نخلص من ذلك أن الملاحظة هى فعل إبداعى تستخدم فى كثير من الأغراض منها استكشاف بعض الظواهر، الاستبصار بسلوك معين، تلقى الضوء علي البيانات الكمية فتضيف إليها بعداً كيفياً، كما أنها تعطينا صورة واقعية للظواهر التى نتناولها حيث تصفها بدقة، وتفيد فى الدراسات الكشفية والتجريبية، كما أنها أداة رئيسية فى الدراسات الميدانية والأنثوجرافية والاستطلاعية ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن كل فرد له بعض الاهتمامات والمجالات التى تؤثر علي اختياره وملاحظته، وأن الملاحظة قد تتباين باختلاف النوع فالنساء لديهن القدرة علي إعطاء بعض التفاصيل أكثر من الرجال فى بعض المجالات، وأننا حينما نمارسها إنما نمارس عملاً اختيارياً حيث نلاحظ أشياء دون البعض الأخر.

ماهية الملاحظة:

الملاحظة تعنى فحص الظواهر أو تسجيلها وطبقاً لهذا المعني يمكن أن تكون الملاحظة مباشرة أو غير مباشرة شخصية أو غير شخصية، كما أن أى أسلوب لجمع البيانات يعتبر ملاحظة بما فى ذلك جمع البيانات من السجلات.

كما أنها تشير إلي فحص السلوك مباشرة عن طريق باحث أو مجموعة من الأشخاص يقومون بدور الملاحظين، وتحتاج الظواهر المعقدة إلي درجة من التحليل وتفسير البيانات (٦).

كما أنها تعنى حصر الانتباه نحو شيء ما للتعرف عليه وفهمه، وهى وسيلة هامة من وسائل جمع البيانات(٧).

ويستخدم أغلب الناس هذا الأسلوب فى التعرف علي الظواهر المحيطة بهم، كما يستخدمه الباحثون الاجتماعيون فى الدراسات الاستطلاعية لجمع البيانات الأولية عن جماعة معينة من الناس فى بيئة معينة وتحت ظروف معينة من حيث أوجه نشاطهم وطرق معيشتهم أو دراسة حياة المهاجرين من المناطق الريفية إلي المناطق الحضرية، أو ملاحظة أوجه النشاط التى يمارسها الأهالى فى حى من الأحياء(٨).

وإذا كان بصدد الملاحظة فإن ثمة أربع مسائل جوهرية ينبغى أن نأخذها فى الاعتبار:

١- المادة التى يراد ملاحظتها.

٢- تسجيل هذه المادة.

٣- ماذا يمكن أن نفعل لتوخى الدقة والضبط فى المعلومات التى نحصل عليها.

٤- كيف يمكن بناء العلاقة بين الباحث سوف يواجه منذ البداية صعوبات الاختيار لما سوف يلاحظه أو يجمع عنه المادة، ولا شك أن صياغة موضوعات البحث والتى ترتبت علي القراءات المتعددة وعلي الفروض والتساؤلات التى أعدها الباحث لدراسته توضح نوع المادة الأكثر إتصالاً به، وبالتالى ماذا يلاحظة علي وجه التحديد(٩).

فحينما كنت أقوم علي سبيل المثال بدراسة الطب الشعبى فى منطقة برج العرب كنت أوثق علاقاتى مع المطببين الشعبيين كالنظار وهو الشخص الذى يحدد مدي

الإصابة، والدايات ومجبرى الكسور والفقهاء والشيوخ وبائعى العطارة والقائمين بعمليات الكى والخزم والخرث والختان، وملاحظة كيف تتم تلك الجراحات وأماكن العلاج ونوعية المرضي والمترددين وأدوات العلاج وأماكن نمو الأعشاب الطبيعية التى تستخدم فى العلاج.

أما فيما يتعلق بتسجيل المادة فمن الأفضل أن يسجل الباحث ملاحظته فى نفس الوقت الذي تجرى فيه حتي تقل احتمالات التحيز وضماناً لعدم النسيان، وقد يجد صعوبة فى تسجيل الملاحظات فى حينها لأن ذلك قد يضايق الأفراد أو يثير شكوكهم، كما أن إنهماك الملاحظ فى التسجيل كفيل بأن يشتت انتباهه بين الملاحظة والتسجيل فتضيع حقائق قد تكون علي جانب من الأهمية، ومن الممكن فى مثل هذه المواقف أن يكتفى الباحث بكتابة بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية وفى بعض الأحيان قد يترك الباحث موقف الملاحظة لفترة قصيرة يسجل فيها ملاحظاته بصورة أوفي ثم يعود لاستئنافها إذا لم يكن ذلك يؤثر علي النتائج(١٠).

كما أن أفضل الطرق للحصول علي معلومات قيمة فى موضوع هو أن يكرر الباحث معالجة للموضوع عدة مرات مع أشخاص مختلفين(١١).

أما فيما يتعلق بتوخي الدقة والضبط فى المعلومات فيتمثل هذا فى المشاركة الفعلية فى الحياة اليومية حيث أنها خير طريقة لفهم المجتمع، ولتكن مشاهداتنا ملاحظتنا نقطة بداية لإثارة العديد من التساؤلات مع الإخباريين ثم مقارنة الإجابات التى يدلون بها لنتبين الصدق والكذب فيما يدلون به من معلومات علي أن نحاول دائماً الحصول علي معلومات وثيقة الصلة بموضوع معين من ثلاثة أو أربعة مصادر وأن نتحين الفرصة لتأكيد هذه الوقائع أو المعلومات من واقع التجربة الفعلية، وإذا ما إتسعت منطقة البحث فيجب أن يحصل الباحث علي المادة العلمية من مناطق متعددة حتي يتبين الاتجاه الواضح والعام والسائد فى منطقة الدراسة(١٢).

وإذا كان الباحث الأنثروبولوجى مطالب بأن يدعم علاقته بأفراد المجتمع المحلى وكذلك الإخباريين فإن وظيفته لا تقتصر علي جمع المادة وتسجيلها، بل لقد يستطيع بعد فترة من بقائه فى المجتمع أن يقدم بعض الخدمات أو المساعدات أو تقديم الهدايا الرمزية أو البسيطة فى مواقف خاصة لسكان المنطقة إذا استطاع ذلك، فإن هذا يساعد إلي حد كبير علي مزيد من دعم العلاقات بينه وبين أفراد المجتمع الذى يدرسه، ومع

مرور الوقت ونتيجة للإقامة الطويلة سوف تتاح الفرصة للباحث للمشاركة الفعلية فى إحداث ووقائع الحياة اليومية فى محركاتهم وأسواقهم ومواسمهم الاقتصادية وفى منازعاتهم وبالتالى تصبح لدي الباحث القدرة علي تفهم العلاقات الاجتماعية، ومحتويات الثقافة المادية، والتغيرات التى تطرأ عليها(١٣).

فدراسة المجتمع المحلى دراسة مركزة فترة وتستغرق سنة كاملة وذلك حتي يتسني للباحث دراسه كل مظاهر النشاط الاجتماعى علي مدار تلك السنة، وبذلك يتحقق الشرط الأساسى فى البحوث الأنثروبولوجية الحقلية وهو شرط المعايشة والملاحظة بالمشاركة والاتصال المباشر لخلق العلاقة الحميمة Rappost مع أفراد المجتمع.

نخلص من هذا أن الملاحظة فى فحص الظواهر وتسجيلها وفحص السلوك وتسجيله وحصر الانتباه نحو شيء ما لمحاولة فهمه، ويمكن القول أن أى أسلوب لجمع البيانات يعتبر ملاحظة، كما أنها هى ذاتها وسيلة هامة لجمع البيانات.

وإذا كنا بصدد الملاحظة فينبغى أن نأخذ فى الاعتبار:

المادة التى يجب ملاحظتها: وهى وثيقة الصلة بموضوع الباحث وفروضه وتساؤلاته.

تسجيل هذه المادة: يتم فى حينها وإذا تعذر هذا عليه أن يكتب بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية ثم لا يلبث أن يقوم بكتابة المادة تفصيلياً حينما يعود إلي مكتبه وأن يكرر الباحث ملاحظته حتي يلم بكل جوانب الموضوع، وفى بعض الأحيان قد يترك موقف الملاحظة لفترة إذا وجد نفسه قد اعتاد علي المعلومات ثم لا يلبث أن يعود لاستئناف الملاحظات، ولابد من مراعاة تكرار الملاحظة لنفس الموضوع.

الدقة والضبط في المعلومات:

ولا يتأتي هذا إلا بتكرار الملاحظة ومناقشتها مع عدد من الإخباريين ومقارنة الإجابات لنتبين مدي الصدق وهذا لن يتم إلا بالإقامة الطويلة فى المجتمع وإقامة علاقات طيبة حميمة مع الأهالى، وبذلك يتمكن الباحث من معايشة كل وقائع الحياة اليومية، ومن ثم يتفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية ومحتويات الثقافة والتغيرات التى تطرأ عليها.

وهناك أمور عامة يجب مراعاتها عند الملاحظة منها عدم التحيز، والتعمق والحرص واكتساب ثقة الجماعة موضوع الملاحظة ورسم خطة محددة قبل العمل، وتسجيل الملاحظات وقت حدوثها والاستعانة بالوسائل المختلفة فى تسجيلها، وتدعيم الملاحظات بالصور والخرائط والجداول وغير ذلك، ثم تصنيف الملاحظات حسب الموضوع واستخلاص الفروض الأولية منها وأخيراً التأكد من نتائج الملاحظة عن طريق استخدام الطرق الأخري لجمع البيانات(١٤).

استخدامات الملاحظة:

تخدم الملاحظة الكثير من أهداف البحوث فيمكن استخدامها مثلاً فى استكشاف بعض الظواهر أو الاستبصار بسلوك معين، كما أنه قد تلقى الضوء علي بيانات الكمية فتضيف إليها بعداً كيفياً نوعياً ليمنحها معني خاصاً، وهى تمثل فى هذه الحالة محكاً خارجياً يمكن الاحتكام إليه فى مدي التثبت من مدي صدق البيانات، هى أن كانت تعكس لنا وجهة نظر الباحث إلي حد ما إلا أنها تعطينا صورة واقعية للظواهر التى تتناولها، كما يمكن القيام بالملاحظة فى المواقف الطبيعية دون اصطناع ظروف معينة مثل الملاحظات التى قام بها الباحثون فى التنظيمات الصناعية لدراسة سلوك الجماعات العمل أثناء تأدية أعمالهم وتسجيل شبكة العلاقات الاجتماعية غير الرسمية التى تنشأ بينهم فى موقف العمل وصلة ذلك بالإنتاجية والقدرة علي الإنجاز.

ومن الجدير بالذكر أن تشارلز كولى .C.Cooley قد صاغ جانباً كبيراً من أفكاره حول الجماعات الأولية وما تتميز به من خصائص كالتعاون وحرية التعبير عن الشخصية والعواطف وذلك من خلال ملاحظاته الوثيقة لجماعات الأطفال، ومن الأمثلة أيضاً ملاحظة انفعالات جمهور فى تجمع معين مثل جمهور كرة القدم، أو سلوك الناس خلال الاحتفالات العامة(١٥).

وتفيد الملاحظة أيضاً فى الدراسات الوطفية (الميدانية، الاستطلاعية، الأثنوجرافية) والكشفية والتجريبية(١٦) كما أنها تستخدم أيضاً فى كثير من ميادين علم النفس كعلم نفس الطفل وعلم نفس الشواذ(١٧).

قواعد إجراء الملاحظة في البحث الاجتماعي:

هناك قواعد عامة يمكن الاسترشاد بها عند القيام بالملاحظة وتحليل المواقف الاجتماعية إلي عناصر أولية لها دلالاتها نوجزها فيما يلي:

١-يتعين علي الباحث أن يدخل ضمن مجالات ملاحظاته كل الأشياء أو الوقائع أو الظواهر ذات الصلة بموضوع بحثه، وأن الأشياء التى تركها بدون ملاحظة ليست لها دلالة بالنسبة للدراسة.

٢- إذا شارك فى القيام بالملاحظة أكثر من باحث فمن الضرورى أن يتوجه كل منهم فى جانب معين من الموضوع الذى تجرى عليه الملاحظة فإذا كنا ندرس البناء الاجتماعى فى إحدي القري، فمن الممكن أن يتولي باحث تحليل النظام القرابى، واخر دراسة النظام الاقتصادى وثالث يهتم بالنظام القانونى وهكذا، علي أن يأخذ كل منهم فى اعتباره التساند والاعتماد المتبادل بين هذه النظم المختلفة.

٣- لابد أن يتأكد القائم بالملاحظة من مدي التعارض بين ما يقوله الناس وبين ما يمارسونه بالفعل، أو يتبين عن طريق الملاحظة صحة ما يدلى به أفراد البحث من معلومات دون إشعارهم بأنهم يخفون الحقيقة أو يتهربون منها.

٤- المشتركون فى الموقف الاجتماعى من هم، نوعهم، وضع الفرد ومكانته فى الموقف الذى يخضع للملاحظة، الصلة التى تربط بين الأعضاء[١٨]، نشاطهم، خصائصهم المختلفة، العلاقات المتبادلة بينهم، كيفية ظهور جماعات صغيرة أو فرعية بينهم، أى درجة التفاعل الاجتماعى أو العزلة[١٩].

٥- المكان: الموقف الاجتماعى قد يحدث فى أماكن مختلفة فى المنزل، وفى المصنع، أو فى مكان عام، وبذلك تختلف المواقف باختلاف المكان ومن الضرورى أن يعرف الباحث أنماط السلوك المرغوب فيها وغير المسموح بها فى كل موقف من هذه المواقف[٢٠].

٦- الهدف: هل اجتمع الأفراد لغرض معين، أم اجتمعوا مصادفة، ولو كانت هناك أهداف محددة فما هى: اشتراك فى جنازة، اشتراك فى مناسبة دينية، اشتراك فى حفلة، وكيف يستجيب الأفراد بالنسبة للهدف الذى اجتمعوا من أجله، تقبل، أعراض، وهل هناك أهداف أخري بالإضافة إلي الهدف الأصلى يسعون إلي تحقيقها، وهى تتفق أهداف ورغبات الأعضاء مع بعضها أم تتعارض.

٧- سلوك الأفراد الاجتماعى: ماذا يفعل المشتركون، كيف يتصرفون، ومع من، وبأى الأساليب وبالنسبة للسلوك الاجتماعى يجب أن يهتم الملاحظ:

١- ما هو الحادث المنبه المثير للسلوك وهل كان سلوك الأفراد عن قصد أم استجابة لظرف طارئ.

٢- ما هى الأسباب الظاهرة للسلوك(*)

٣- من هم الأفراد الذين كانوا هدفاً للسلوك؟

٤- ما نوع النشاط المرتبط بالسلوك(حدثى، جرى، جلوس، إشارة)

٥- ما هى المميزات العامة لهذا السلوك، مدى استمراره، غرابته، بعده عن المألوف، تأثيره.

٦- ما هى الآثار المترتبة عليه؟ وما نوع السلوك الذى يتطلبه من الآخرين.

جـ- المدة والتكرار: Frequency and Duration.

متي حدث هذا الموقف، ما هى الفترة الزمنية التى يستغرقها، هل هو موقف فريد غير متكرر أم أنه موقف متكرر الحدوث، ما نوع الظروف التى ساعدت علي حدوثه، هل يعتبر هذا الموقف نموذجاً بالنسبة للمواقف الأخري.

٨- علي الباحث أن يساير العادات والتقاليد السائدة فى مجتمع البحث حتي لا يكون وجوده غير مرغوب، كما أن عليه أن يسجل نتائج اتصالاته بالأشخاص موقف الملاحظة من حيث مدي إيجابياتهم وسلبياتهم وكذلك الفترة التى استغرقتها الملاحظة[٢١].

نخلص من هذا أنه توجد بعض القواعد التى يجب أن يراعيها الباحث عن إجراء الملاحظة وهى أن يلاحظ الباحث كل الأشياء وثيقة الصلة بموضوع بحثه، وإذا شارك فى الملاحظة أكثر من باحث فإن كل منهم يركز علي جانب معين من موضوع الدراسة، وأن يتأكد القائم بالملاحظة من مدي التعارض بين ما يقوله الناس وبين ما يمارسونه بالفعل دون إشعارهم بأنهم يخفون الحقيقة(*).

كما يجب ملاحظة المشتركين فى الموقف الاجتماعى نوعهم وخصائصهم والعلاقات والتفاعل المتبادل بينهم، كما يتم تحديد المكان الذى تمت فيه ملاحظة التفاعل الاجتماعى منزل، سوق، كما نحاول أن نتعرف علي الهدف من هذا التفاعل الاجتماعى وكيف يستجيب الأفراد للهدف الذى اجتمعوا من أجله وسلوك الأفراد فى موقف التفاعل هذا (مناسبة زواج ميلاد وفاة) وخصائص هذا السلوك والإشارة المترتبة عليه، والفترة التى يستغرقها وهل هذا السلوك فريد أم متكرر.

مزايا الملاحظة وعيوبها:

تتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات البحث بأنها تفيد فى جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى فى بعض المواقف الواقعية فى الحياة بحيث يمكن ملاحظتها دون عناء كبير أو التى يمكن تكرارها بدون جهد (٢٢).

كما أنها تسجل الحدث فور وقوعه تلقائياً وتنقله إلي الشخص القائم بالملاحظة (الملاحظ أو الباحث) دون أن يتحتم عليه مقابلة الأشخاص وتسجيل إجاباتهم مما قد يجعلهم فى حرج أو تحيز (*) وهى لذلك تتميز بالمرونة التى تسمح للباحث بتغير وتعديل خطته وفقاً للظروف التى يواجهها(٢٣).

كما تزداد قيمتها خاصة فى الحالات التى يزداد احتمال مقاومة الأفراد لما يوجه إليهم من أسئلة، أو عدم تعاونهم مع الباحث أثناء المقابلة، وهذه المقاومة من الأمور المألوفة خاصة إذا كان التساؤل يتناول أموراً خاصة لا يحب الفرد أن يتحدث عنها أو لا يطمئن الإطمئنان الكافى إلي التعبير عن رأيه فيها فيمتنع عن الاستجابة أو يلجأ إلي تحريفها، وقد لا يجد الأفراد فى الكثير من الحالات الوقت الكافى للاستجابة للمقابلة، أو أنهم لايدركون شعورياً حقيقة اتجاهاتهم ودوافعهم ورغم أن الناس قد يزيفون سلوكهم إذا علموا أنهم موضع ملاحظة إلا أن تحريف السلوك الفعلى عن صورة المألوفة أصعب بكثير من تحريف الألفاظ فقد يريد الباحث مثلاً أن يعرف مدي رضا الأعضاء يترددون فى التعبير عن حقيقة مشاعرهم(٢٤)، ولكن لا يلبث الانطباع أن يبدو علي وجوههم، وكثيراً ما يقوم الأفراد بأنماط من السلوك دون تقدير، وقد لا تكون لديهم القدرة اللغوية أو الكلمات التى تساعدهم علي شرح هذه الأنماط السلوكية، بل لعلهم لا يجدون الأسباب التى يعللون بها هذا السلوك، وهناك من أنماط السلوك ما يعتبر عادياً فى نظر الفرد الذى يقوم به دون أن يسترعي انتباهه، بينما يتمكن الباحث من ملاحظته وتفسيره، فالغريب فى ثقافة من الثقافات كثيراً ما يلاحظ أشياء يعجز المواطنون الأصليون عن ملاحظتها لأنها أمر عادى بالنسبة لهم، كما أن الملاحظة عادة ما تكون مستقلة وغير متأثرة برغبة الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أو عدم رغبته(٢٥).

وهناك حالات متعددة لا يتيسر فيها استخدام طريقة أخري غير الملاحظة مثل طرق الحل الجماعى للمشكلات، أو التفاعل الاجتماعى بين الأطفال فى اللعب(٢٦)، أو

دراسة السلوك التلقائي الذى يمكن أن يصيبه التشوه والتغيرات حاولنا دراسته فى المعمل مثال ذلك ما قام به :بووارز من ملاحظات للعلاقة بين الممرضات والمرضي المسجلين فى قائمة المرضي بمرض مفضى إلي الموت وذلك عن طريق قياس الفترة الزمنية بين دق المريض للجرس المجاور لسريره واستجابة الممرضة لهذا النداء، فظهر أن الممرضات كن يستغرقن وقتاً أطول حين يستجبن لنداء هؤلاء المرضي (مرضي الموت) بالمقارنة إلي المرضي الآخرين.

كما تستخدم الملاحظة أيضاً فى البحوث التى تمنعنا الضوابط الأخلاقية أن نستحضرها فى المعمل مثال ذلك ظروف الحرمان الشديد من الطعام حيث يتعلم الباحث الكثير عن طريق الملاحظة المتأنية وغير المتحيزة، وقد يستاء الباحث مثلاً لسوء معاملة الطفل ولكنه قد يستمر فى دراسة الموقف لملاحظة تأثير مثل هذه الظروف علي الطفل(٢٧).

ومع أهمية الملاحظة إلا أن هناك بعض الحالات التى لا يتيسر فيها استخدام هذه الوسيلة، كالحالات التى يصعب فيها التنبؤ مقدماً بحدوث السلوك موضع الدراسة، أو الحالات التى يكون القيام بالملاحظة فيها أمراً شاقاً إلي حد بعيد(٢٨)، كما هو الحال فى دراسة الخلافات الأسرية(٢٩) أو السلوك الذى لايمكن استحضاره أو إحداثه فى المعمل مثال ذلك دراسة سلوك الزوجين وعلاقتهما أثناء عملية الولادة الفعلية لطفل لهما، وسلوك الناس أوقات الأزمات كحالة الفيضان أو الزلازل أو الحروب(٣٠).

ولقد دلت الدراسات المختلفة أن الملاحظة الدقيقة المثمرة ليست بالأمر الهين، وكما أن الحواس كثيراً ما تخدع الباحث عن رؤية الأشياء كما حدثت فعلاً، وكثيراً ما يكون العقل نفسه مصدر الخطأ فى عملية الملاحظة إذ أنه يحاول ملء الثغرات دون وعى وفقاً للخبرة والمعرفة السابقة ولذا يقول جوته أننا لا نري إلا ما نعرفه وقد يلاحظ الإنسان من الظواهر إلا ما يتصل باهتماماته أو ما يتفق مع اتجاهاته وأغراضه، ويحدث أيضاً أن يخلط العقل بين الفكرة والواقعة أو الحدث بمعني أن الوقائع قد لا تظهر كما هى بل يحيلها العقل إلي أفكار مجردة وهذه الأفكار قد لايكون لها أصل فى الواقع فتكون من خلقه هو(٣١).

ومن عيوبها أيضاً عدم تحديد السلوك الذى يريد الباحث ملاحظته، كما أننا لا يمكننا ملاحظة أشياء حدثت بالفعل، وهى أيضاً مقيدة بفترة الملاحظة فإذا أردنا دراسة تاريخ حياة أى فرد لم نتمكن من ملاحظته مدي حياته، وقد يتحيز القائم بالملاحظة

فلا يسترعي انتباهه إلا كل غريب وشاذ، كما أنه قد يعطى تفسيرات للسلوك بدلاً من وصف السلوك نفسه، ولهذا يجب أن يدرب الباحثون علي الملاحظة والتسجيل دون تحيز أو دون إصدار أى أحكام تشوه الحقائق(٣٢).

كما أن الباحث قد لا تكون لديه القدرة علي إدراك حقيقة الموقف فعلي سبيل المثال أن أحد الأنثولوجيين رأي رجلاً يعتدى علي زوجته بالسياط فى مكان عام فظن أن هذا الرجل يمتهن زوجته ويسيء إليها بهذا الضرب المبرح وغاب عن ظنه أن كلاً من الرجل والمرأة فى هذا المجتمع يعتقد أن الضرب بالسياط Flogging أفضل الطرق لإبعاد المرضى وهذا يعنى أنه يجب علي الباحث الميدانى ألا يأخذ كل شيء يسمعه ورآه علي ما هو عليه وألا يسرع إلي تفسيره لأول وهلة لأنها لا تخبر شيئاً عن دوافع الناس(٣٣).

فالباحث يجب أن يبحث عن المغزي والدافع الحقيقى لأنماط السلوك، كما أنه لا يمكن فهم هذا السلوك إلا من خلال السياق الذى يمارس فيه.

كما يحذرنا كوك Cook وجاهودا من أنه مع مرور الوقت يجد الباحث نفسه مندمجاً فى الثقافة المحلية وهذا يجعله يأخذ كل ما كان يحاول تفسيره ويهتم بتسجيله علي أنها أمور مسلم بها، وذلك علي عكس الحال فى بداية البحث حيث كان كل شيء يسمعه ويراه يجده غريباً عليه ويثير تساؤله، فإذا أراد الباحث أن يتجنب ذلك عليه أن يحاول كتابة تقارير متابعة Progress reports علي فترات متقاطعة، وعن طريق هذه التقارير المتوالية سوف يمكنه اكتشاف مواطن الضعف أو المادة التى يحتاج إليها(٣٤).

كما أن الباحث إذا ما وجد أن الفتور قد أصابه من حيث اهتمامه بالملاحظة فعليه أن يسرع بترك العمل الحقلى لفترة وأن يناقش ملاحظاته مع شخص ما خارج موقف الملاحظة (باحث أو زميل أخر) وهذا الشخص لن يأخذ الأمور علي علاتها وإنما سوف يناقشه ويساعده علي إيجاد جوانب النقص والقصور.

أنواع الملاحظة:

١- الملاحظة البسيطة : Simple Observation

ويقصد بها ملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائياً فى ظروفها الطبيعية دون اخضاعها للضبط العملى، وبغير استخدام أدوات دقيقة للقياس للتأكد من دقة الملاحظة وموضوعيتها(٣٥).

٢- الملاحظة المنظمة Systematic Observation :

وهى التى تخضع للضبط العملى (سواء بالنسبة لموقف الملاحظة أو الملاحظة أو الأشخاص الذين تتم ملاحظتهم) وتنحصر فى موضوعات محددة سلفاً، وتقتصر علي إجابة الأسئلة أو تحقيق الفروض التى وضعها الباحث(٣٦) .

ويشيع هذا الأسلوب فى الدراسات الوظيفية والدراسات التى تختبر فروض سببية لما تتميز به من دقة وعمق(٣٧) .

كما تستخدم فى دراسة جوانب معينة بالذات من الموقف الاجتماعى بدلاً من أن يدرس الباحث مجموعة كبيرة من الأحداث(٣٨) .

وتستخدم هذه الملاحظة لاختبار النظريات والأسس Basis والقوانين، وتشرح لنا معني الحقائق والمواقف الاجتماعية، وتتنوع اجراءاتها ووسائلها بتنوع الظروف، وهى تتميز بأنها أسلوب معين تتوفر له شروط الضبط Control بالنسبة لكل من الملاحظ Observer والأفراد الملاحظين، وتعرف فيه وحدات الملاحظة وما يسجل من مادتها، وتحدد فيه ظروف الملاحظة من زمان ومكان وأشخاص(٣٩) .

وتتم الملاحظة المنظمة أما فى مواقف طبيعية بالنسبة لأفراد البحث وذلك بنزول الباحث بنفسه إلي حيث تجرى الظاهرة التى يدرسها علي طبيعتها، أو بملاحظة الظاهرة فى جو المعمل الصناعى، وكلما كان الموقف طبيعياً كانت النتائج أدق لأن كثير من الظواهر تتغير إذا لوحظ فى جو العمل(٤٠) .

وتتميز الملاحظة المنظمة بأن الملاحظ (الباحث) يضع خطة محددة قبل العمل، وهذه الخطة قد تشتمل علي بعض التجارب العلمية، كما أنه قد يلجأ لاستعمال بعض الأدوات (*) والأجهزة السمعية والبصرية، والعديد من السجلات والوثائق، كما أنه يستعمل المقاييس التى تحدد نسبة الخطأ(٤١) .

والقائم بالملاحظة المنظمة يعمد إلي تصنيف السلوك فى فئات تساعده علي أن يصنف الموقف الاجتماعى بصورة كمية، ويبدأ الباحث عادة وفى ذهنه عدد كبير من الفئات ثم يعضها تحت الاختبار لاستبعاد بعضها واستيفاء البعض الأخر، والفئة عبارة تصف طبقة معينة من الظواهر التى يصنف السلوك وفقاً لها، وغالباً ما يشمل النظام فئتين، ويفيد نظام الفئات فى أنه يمد القائمين بالملاحظة بإطار مرجعى موحد للملاحظة كما يزيد من احتمال ملاحظة الجوانب الرئيسية (العامة وذات الدلالة) فى

السلوك ملاحظة تتسم بالثبات(٤٢)، ومن أشهر الفئات المستخدمة تلك التى استعان بها روبرت بيلز فى تحليل عملية التفاعل داخل الجماعات الصغيرة حيث قسم السلوك الذى يمكن ملاحظته إلي فئة بناء علي تصوره للمراحل التى تمر بها الجماعة حينما تسعي إلي حد مشكلة من المشكلات وهذه المراحل هى:

التعرف علي المشكلة، تقويم وجهات النظر المختلفة بصدد حلها، والضبط أى محاولات الأعضاء التأثير بعضهم فى البعض الأخر، وأخيراً اتخاذ القرار النهائى(٤٣) .

٣- الملاحظة بالمشاركة:

وهى طريقة منهجية فى البحث الأنثروبولوجى ترتبط بمالينوفسكى إلي أن أصبحت عنصراً أساسياً فى الدراسة الميدانية فى الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية المعاصرة، والواقع أن الملاحظة بالمشاركة تكاد تمثل للكثير من الباحثين مرادفاً للبحث فى الأنثروبولوجيا أو الإثنوجرافيا، والملاحظة بالمشاركة طريقة للبحث يتحتم توجيهها إلي دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة والثابتة نسبياً والتى صارت بمثابة المجال المفضل للدراسة عند الباحث الأنثروبولوجى(٤٤) .

ولقد استخدم مالينوفسكى هذه الطريقة فى دراسته لسكان جزر التروبرياند ىمقهمضخفـر فى ميلانيزيا حيث أمضى أربع سنوات، فى دراسة مجتمع بدائى واحد، كما أنه أول أنثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى أنفسهم، وكذلك أول من عاش مع الأهالى بطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة(٤٥) .

ولقد استطاع من خلال دراسته أن يتعرف علي تنظيم الكلى للمجتمع، وتشريح ثقافته من خلال خطة دقيقة ومحكمة تسجل فيها كل أنماط السلوك والحياة، كما عمل علي تدوين كل الملاحظات الدقيقة التى تتعلق بقصصهم وأقوالهم وطرائقهم الفولكلورية وصيغهم السحرية، وهذا لم يتأتي له إلا عن طريق الاتصال المباشر بأعضاء المجتمع وكان هدفه من هذا الوصف لكل مظاهر الحياة لدي السكان هو التعرف علي وجهة نظرهم ونظرتهم إلي العالم الخارجى المحيط بهم(٤٦) .

وبفضل هذه الظروف أمكن له أن يتغلغل فى الحياة الاجتماعية عند سكان جزر التروبرياند وأتى فهمها فهماً عميقاً استطاع معه أن يؤلف عدداً من الكتب (*) المختلفة الأحجام تدور كلها حول وصف هذه الحياة(٤٧) .

فالملاحظة بالمشاركة إذا هى اشتراك الباحث فى حياة الناس الذين يقومون بملاحظتهم، ومساهمته فى الأنشطة التى يقومون بها، ويستلزم هذا النوع من الملاحظة أن يصبح الباحث عضواً في الجماعة، وأن يساير الجماعة ويتجاوب معها وأن يمر بنفس الظروف التى تمر بها، ويخضع لجميع المؤثرات التى تخضع لها(٤٨).

ولاشك أن هذه الطريقة تمكن الباحث من تسجيل الأحداث والسلوك وقت حدوثه(٤٩).

واستخدام الملاحظة عن طريق المشاركة ليس عملية سهلة أو بسيطة وإنما تحتاج إلي مران وتدريب، وقد يفوت الباحث غير المتمرس ملاحظة كثير من مظاهر السلوك الجانبية حيث يكون انتباهه موجهاً إلي موقف أو مشكلة من المواقف أو المشاكل الصعبة المعقدة، أو حين يشارك فى ذلك الموقف عدد كبير من الأشخاص الذين تصدر عنهم أفعال وأقوال متباينة فى وقت واحد، وليس المقصود بالملاحظة عن طريق المشاركة هو مجرد ملاحظة أحداث الحياة اليومية العادية عن قرب أو كثب، إنما المقصود بالمشاركة هنا هو الاندماج الكامل فى حياة المجتمع وهو أمر لا يتحقق إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن تكفى لأن يتقبل المجتمع وجود الباحث واعتباره جزءاً منه، أى أن العنصر المهم هنا هو تقبل المجتمع للباحث واعتياده وجوده فى المجتمع مما يتيح له الفرصة كاملة للمشاركة فى الحياة العامة وفى كثير من أوجه النشاط الاجتماعى اليومى كما لو كان عضواً فى المجتمع(٥٠).

وهذا لا يتأتي إلا بعد مرور الأيام ومحاولته المستمرة للتكيف مع الجماعة المحيطة به والاختلاط بالناس فى حياتهم العامة فى الأسواق والاحتفالات والمناسبات الدينية فضلاً عن تبادل التحية أو الحديث، أو تقويم بعض الخدمات كالمساعدة فى نقل المصابين إلي المستشفي وكل ذلك يعتبر بمثابة الفرصة لبناء علاقة طيبة (حميمة) مع المبحوثين(٥١)، وفى هذا الصدد يذهب جون جونسون إلي القول بأن العلاقات الشخصية القائمة علي الثقة أساس جوهرى بالنسبة لموضوع البحث حيث أنها تمكن الباحث من جمع مادة موثوق فيها إلا أن مفاهيم العلاقات تختلف من شخص لأخر وقد يعتريها التغيير بمرور الوقت. إن بناء العلاقات تختلف من شخص لأخر وقد يعتريها التغيير بمرور الوقت، إن بناء العلاقات مع أحد الأفراد قد ينتج عنه مشاعر سلبية بالنسبة للأخرين فضلاً عن أن بعض التصرفات غير المقصودة قد تثير تساؤلات وشكوك

الأخرين مثال ذلك أن دعم العلاقات مع أحد الأجاويد فى الصحراء الغربية أثار مشاعر التحامل والتحيز لدي الأخرين ممن ينتمون لنفس القبيلة وتفسير ذلك أن الخلاف علي الأرض والأبار اقتضي أن استبعدت قبيلة سمالوس بيتا بأسره فيما يعرف بالبداوة، ومن ثم فإن الدخول فى علاقة وثيقة علي أولئك الذين ينتمون لهذا البيت كان كفيلاً بظهور المشاعر السلبية لدي الأخرين والملاحظة بالمشاركة تمد الباحث أيضاً بالاستبصارات اللازمة لتصميم الاستمارات والاختبارات السيكولوجية كما أنها أداة هامة لاختبار المعلومات الحقلية التى جمعت بالوسائل الأخري المتخصصة(٥٢).

٣- الملاحظة التجريبية:

هناك صعوبتان أساسيتان تعترضان تنفيذ الملاحظة بالمشاركة والمنظمة أولهما أن الموقف الاجتماعى أو الظاهرة التى يقوم بها الباحث بملاحظتها لايمكن التحكم فيها والإحاطة بالظروف المحيطة بها، وثانيهما أن الموقف أو الظواهر موضوع الملاحظة ليست من البساطة حتي يمكن الإحاطة بجميع جوانبها بسهولة، ولكنها عادة ما تكون معقدة ولذلك فعلي القائم بالملاحظة أن يسجل ملاحظته فور حدوثها، وكذلك يصف التفاعل الاجتماعى الذى يحدث بين الأشخاص والسلوك بين الأفراد قبل أن يتغير معالمه وهذا أمر قد يتعذر تحققه، ومن ثم يتجه الباحث نحو السيطرة علي الأوجه المختلفة من الظاهرة والتخلص من بعض العوامل التى قد تؤثر علي خط سيرها فى تطورها الطبيعى وبذلك تكون ملاحظته مركزة علي السلوك أو التفاعل موضوع الدراسة فقط وتحت ظروف قام الباحث بإعدادها فى تجربة(٥٣).

والتجربة هى فحص يشتمل علي معالجة مضبوطة، يقوم به الباحث لدراسة متغيرات معينة، كما ينطوى علي ملاحظة النتائج وقياسها بدقة، ويتدخل الباحث فى التجربة لأن الظواهر المدروسة تلاحظ فى ظل شروط مضبوطة(٥٤).

وإذا تيسر للباحث أن يتحكم فى الجوانب الرئيسية لموقف الملاحظة بحيث يكون فى مأمن من تدخل عوامل مفاجئة غير متوقعة وبحيث يكون علي علم بحقيقة التأثير النسبى لمختلف العوامل فإن الملاحظة فى هذه الحالة تكون أمراً يسيراً يقتصر علي تسجيل حدوث أو عدم حدوث سلوك محدد فمثلاً فى تجارب الأجواء الاجتماعية قام هوايت وليبيت بتكوين جماعات من الأطفال متكافئة فى معظم المتغيرات الهامة ما عدا نمط القيادة أو الجو الاجتماعى السائد سواء كان ديمقراطياً أو أوتوقراطياً أو

فوضوياً، ولوحظ سلوك القادة واستجابات الأطفال مثل عدد مرات استخدامهم اللفظ ضمن بدلاً من اللفظ إنما في كل الأجواء الاجتماعية الثلاثة، كذلك لوحظ استجابات الأطفال لعدوان خارجي، كذلك استجابتهم في حالة غياب القائد، وواضح أن الضبط التام لكافة المتغيرات أمر ليس من السهل تحقيقه في المواقف المعقدة وفي المجتمعات أو الجماعات الكبيرة العدد، لذلك فإن هذا النوع من الملاحظة يستخدم في مواقف الجماعات الصغيرة حين يتجمع لدي الباحث عن طريق الملاحظة (بأنواعها المختلفة) القدر الكافي من البيانات والذي يمكنه من وضع الفروض واختبارها اختباراً دقيقاً تجريبياً فالملاحظة ضرورية قبل إجراء التجربة حيث أن التخطيط السليم للتجارب يتطلب معرفة بالسلوك العادي المألوف(٥٥).

نماذج من الملاحظة بالمشاركة في بعض الدراسات الأنثروبولوجية:

استخدمت هذه الطريقة في دراسة المجتمع المحلي لمدينة ميدلتاون بولاية انديانا في الولايات المتحدة الأمريكية، ويلخص الباحث روبرت ليند وهيلين ليند هدفهما من الدراسة بقولها إنها تعتبر دراسة ديناميكية وظيفية للحياة المعاصرة بمدينة ميدلتاون في ضوء اتجاهات السلوك المتغيرة والملحوظة خلال خمس وثلاثين عاماً، ولدراسة التغير اختار الباحثان سنة ١٨٩٠ لتكون الحد الفاصل بين فترتي الاستقرار والتغير ثم درسا التغير الذي طرأ علي المدينة من س١٨٩٠ – ١٩٢٥ ونشر النتائج التي توصلا إليها في سنة ١٩٢٩ ولقد استخدم الباحثان أسلوب الملاحظة بالمشاركة في دراساتهما لمدينة ميدلتاون، وكانا يجمعان البيانات من جميع الأفراد علي اختلاف أوضاعهم الطبقية ومستوياتهم الاجتماعية وكانا يلاحظان السلوك الفعلي للأفراد في المصانع والكنائس والمحاكم والنوادي والطرق وكانا يحضران الحفلات العامة ويستمعان إلي المحاضرات العلمية والأدبية في الأندية الثقافية المختلفة ويتناقشان مع الأهالي في مختلف المسائل التي تهم المجتمع(٥٦).

واستخدام نلز اندرسون نفس الأسلوب في دراسته للهوبو فاختلط بهم فترة طويلة في الأحراش خلال أوقات العمل وأوقات الفراغ، وتمكن من الحصول علي بيانات متعلقة بأساليب حياتهم وعاداتهم ومعتقداتهم(٥٧)، كذلك دراسة راد كليف براون لسكان جزر الاندمان.

هذه الدراسة استغرقت الفترة بين عام ١٩٠٦–١٩٠٨ وتعتبر بحق أول محاولة

لفحص النظريات الاجتماعية بالرجوع إلي مجتمع بدائي ولوصف الحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع بطريقة تبرز بوضوح النواحي التي تتطابق مع هذه النظريات(٥٨).

كذلك دراسة مالينوفسكي لجزر التروبرياند في ميلانيزيا، والذي درس نظام التبادل المعروف باسم نظام الكولا، ولكنه تطرق إلي دراسة كل النظم الاجتماعية في علاقتها بهذا النظام الذي يقوم علي تبادل بعض السلع المعينة التي لا تتمتع بأية قيمة تجارية أو اقتصادية ولكن لها قيمة اجتماعية وشعائرية تضفي علي من يمتلكها مكانة سامية في المجتمع، تتألف هذه السلع من عقود طويلة من الأصداف الحمراء وأساور من الأصداف البيضاء ويتلخص نسق التبادل في وجود اتفاقات شفاهية تقليدية متوارثة منذ أجيال بعيدة بين سكان جزر التروبرياند علي تبادل هذه السلع بحيث تنتقل العقود في اتجاه معين لا يتغير حول محيط الدائرة التي تنتظم هذه الجزر بينما تنتقل الأسوار في الاتجاه الآخر، وتتوقف مكانة الفرد وعائلته في الحياة الاجتماعية علي نوع السلع التي يحصل عليها أثناء هذه المبادلات خاصة حينما يحصل علي الأصداف النادرة، ولكن يذيع صيته ويرتفع شأنه في المجتمع أكثر حين ينزل عن هذه النفائس لشركائه في نظام الكولا بعد أن يحتفظ بها لنفسه بعض الوقت.

ويختفي وراء هذا التبادل الشعائري تبادل أخر للسلع الاقتصادية ويخضع هذا التبادل لكل القواعد التي تخضع لها العمليات التجارية ويصاحب كثير من المساومة علي تحديد قيمة هذه السلعة الاستهلاكية.

ولقد اضطر مالينوفسكي في دراسته لنظام الكولا أن يدرس قيمة النظم التي تسود في المجتمع فعرض لوصف الجزر والعلاقات الاقتصادية والقرابية والسياسية التي تقوم بينها، والدور الذي يلعبه نظام الكولا في تقوية هذه العلاقات والروابط، ووصف الرحلات البحرية، وسير القوارب في اتجاهين متضادين لتبادل العقود والأساور وتطرق إلي وصف بناء القوارب والسحر الذي يمارس أثناء هذه العملية باعتباره عامل أساسي في نجاح بناء القوارب وفي نجاح الرحلة وبالتالي في نجاح عملية التبادل والتغلب علي الأخطار والمفاجأت التي قد تتعرض لها. كذلك وجد مالينوفسكي لزاماً عليه في عرضه لتبادل السلع الاستهلاكية وهي في معظمها من درنات اليام وهو نبات يشبه البطاطس أن يشرح طريقة زراعة الحدائق، ونوع المنافسة التي تقوم بين المزارعين للحصول علي درنات كبيرة الحجم، والعناية التي يبذلونها نحو حدائقهم وزراعاتهم

للحصول علي هذه الدرنات علي اعتبار أنه كلما كبر حجم الدرنات التى يحصل عليها المزارع دل ذلك علي مهارته بفنون الزراعة مما يضفى عليه شهرة واسعة، كما درس أيضاً السحر والتعاويذ السحرية المتعلقة بالزراعة(٥٩).

كما توجد دراسة أوسكار لويس بعنوان لافيدا وهى تعنى بحياة أسرة من بورتوريكو تعيش ثقافة الفقر فى مدينتى سان جوان ونيويورك فى الولايات المتحدة، ولقد اعتمدت الدراسة الميدانية علي المزاوجة بين الطرق التقليدية التى تعتمد علي الملاحظة بالمشاركة من خلال الإقامة الطويلة، والمعيشة فى المجتمع، وطريقة دراسة الحالة وتاريخ حياة الأفراد، كما اعتمدوا فى تحقيق فروضهم علي الدراسات الكمية.

ولقد بدأ أوسكار لويس فى مقدمته لدراسته الحقلية بعرض للظروف الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية التى عاشها مجتمع بورتوريكو فى مرحلة ما قبل الانضمام إلي الولايات المتحدة ثم انتقال إلي مظاهر التقدم الاقتصادى والصحى التى طرأت علي المجتمع مع استمرار الفقر والتأخر فى بعض الأحياء أو المناطق السكنية فيما يعرف بجيوب الفقر، ولقد عرض لبيان مدي السهولة التى أحاطت تقبل مجتمع بورتوريكو للثقافة الأمريكية وأرجع هذا إلي افتقار المجتمع إلي الأصول الثقافية أو العرفية أو التاريخ الثقافى.

والكتاب هو تسجيل لحياة أسرة من أسر محدود الدخل التى يقيم البعض من أعضائها فى أحد الأحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتوريكو إحدي الولايات المتحدة الأمريكية ويقيم البعض الأخر فى مدينة نيويورك، وقد حاول المؤلف أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تمثلهم هذه الأسرة إلي أذان الفئات السكانية والاجتماعية فى المجتمع الأمريكى من الذين يندر أن يسمعوا بوجود مثل هذه الأسر بظروفها الاجتماعية السيئة، كما صور أيضاً نوع الحياة فى كثير من المناطق المحرومة والهامشية فى ذلك المجتمع والتى يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطي، فلقد كان هدف لويس خلق نوع من الاتصال بين جماعات الفقراء فى المجتمع الأمريكى وشخصيات الطبقة الوسطي من المهنيين مثل المعلمين والباحثين الاجتماعيين والأطباء ورجال الدين وغيرهم ممن يحملون المسئولية نحو المشروعات التى تعالج الفقر وذلك من خلال فهم أفضل لطبيعة الثقافة فى المجتمع الفقير مما يؤدى فى النهاية إلي تبنى نظرة بمزيد من التعاطف مع الفقراء ومشكلاتهم فضلاً عما يقوم

علي أساس هذا من مشروعات إنشائية فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمهنية فى تلك المناطق.

ويعتبر كتاب لافيدا من البحوث التى اعتمدت علي اختيار عينة مكونة من مائة أسرة تعيش فى أربعة من الأحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتوريكو، وهى تهدف فى النهاية إلي دراسة مشكلة التكيف والتوافق بين الجماعات الأسرية والتغيرات التى تطرأ علي الحياة الأسرية للمهاجرين، كما تهدف إلي تقديم دراسة مقارنة تعتمد علي الوحدات الأسرية فى ثقافتين متمايزتين إحداهما هى الثقافة الأمريكية والأخري هى الثقافة المكسيكية.

ولقد كان الأساس الذى قام عليه اختيار الوحدات الأسرية (العينة) هو انخفاض الدخل، ووجود الأقارب فى نيويورك، والرغبة فى التعاون مع الباحث وتزويده بكل المعلومات، وإن كان قد واجه مشكلة تمثلت فى اتساع المدي الذى يتوزع من خلاله الدخل الفردى للمقيمين فى تلك الأحياء الفقيرة، فقد كان البعض منهم يمتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل أجهزة التبريد والتكييف والتليفزيون والسيارات، ومن ثم فقد عمد إلي أن تضم العينة المختارة أسراً تنتمى مستويات دخولها إلي كل الفئات.

ولقد استخدم لويس طريقة الملاحظة بالمشاركة فى محاولة الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية التى يقوم بها أعضاء الزمر الاجتماعية بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد، فمن خلال المشاركة فى مناسبات الزواج والوفاة والميلاد والذهاب إلي السوق والتردد علي مجلس كبار السن والزعماء المحليين، وزيارة منتديات الشبان ووحدات الإنتاج فيستطيع الباحث أن يحصل علي الكثير من المعلومات الحقيقية عن العلاقات القرابية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع.

ولقد حاول لويس القيام بدراسة كلية لحياة الأسرة من خلال الملاحظة والتسجيل التفصيلى للأحداث والمناقشات ومظاهر التفاعل للأحداث ومظاهر التفاعل الاجتماعى التى تحدث فى يوم معين فى حياة الأسرة ويتم اختيار هذا اليوم علي أساس عشوائى أو متعمد فربما كان يوماً عادياً من أيام الأسبوع أو يوماً مميزاً مثل الميلاد أو التعميد أو القيام بشعائر الدفن أو الزواج أو الانتقال إلي مسكن جديد.

ولقد اتبع المؤلف فى دراسته طريقة المزاوجة بين المنهجين الذين يتمثل إحداهما فى التسجيل الواقعى لروتين الحياة اليومية الذى يقوم علي أساس الاختيار العشوائى

المتعمد ليوم معين وملاحظة مظاهر السلوك الذى يصدر عن أشخاص فى مواقف التفاعل المتنوعة، وما يرتبط بتلك المظاهر السلوكية من أنواع العلاقات التى تقوم بينهم وبخاصة العلاقات القرابية والاقتصادية أو تلك العلاقات القائمة علي أساس السلطة كالعلاقات بين الزوج والزوجة وبينهما الأبناء والأخوات وأقارب الأسرة عن طريق الأم والأب والأشخاص الذين يتفاعلون مع الأسرة فى مجال العمل والتبادل الاقتصادى والجيرة(٦٠).

ثبات وصدق الملاحظة:

تعتمد بعض نظم الفئات فى إثبات صدقها علي ما يسمي بالصدق الداخلى فنحن جميعاً يمكن أن نتفق علي مدلول السؤال أو إعطاء المعلومات ومن ثم فلا حاجة إلي البحث عن محك خارجي.

وإذا كان المقصود بالصدق هو مدي قياس الملاحظة لما يفترض قياسه، فإن الملاحظة قد يلجأ فى حالة عدم وجود محك خارجى مناسب إلي تحديد مدي اتفاق الدرجات التى يقدرها مع ما يمكن أن نتوقعه فى ضوء إطار نظرى محدد مثل الافتراض بأن إتاحة الفرصة للتعبير المباشر عن مشاعر العدوان يقلل من تكرار وتواتر الاستجابات العدوانية فإذا كان قد ثبت صدق هذا الافتراض بوسائل أخري غير الملاحظة، أمكن أن نطبق نظام الملاحظة المبنى علي هذا الافتراض.

ويسعي الباحث إلي الحصول علي أعلي درجة من الدقة فى إجراءات الملاحظة وذلك بالتغلب علي الصعوبات التى تعترضه وقد تؤثر علي معامل ثبات مقاييسه وسنذكر أهم العوامل التى يجب علي الباحث مراعاتها:

١- يجب علي الباحث تحديد الإطار المرجعى لمادة ملاحظته، علي أن يكون هذا التحديد واضحاً ولا يحتمل الشك فمثلاً لو أراد الباحث ملاحظة جماعة فى موقف يجابه هذه الجماعة كحل مشكلة يجب علي الباحث أن يحدد الإطار الذى سيحدد فيه فئات سلوك الجماعة، مثل سلوك الفرد بالنسبة لاستجابات أفراد الجماعة، أو ما يقصد الفرد نفسه من سلوكه ومن الجائز استخدام الأثنين.

٢- يجب علي الباحث تحديد وحدات ملاحظته هل هو فرد أو جماعة، كما يقوم أيضاً بتحديد الوحدات الزمنية التى سيجرى فيها ملاحظته(٦١).

أخلاقيات القائم بالملاحظة:

يتعين أن نشير بداءة إلي القيام بالملاحظة ليس أمراً يسيراً بل أنه يحتاج إلي تدريب ومران كافيين بحيث نضمن درجة ملائمة من الثبات والصدق خاصة إذا كنا نستخدم عدداً من الباحثين الميدانيين، كما ينبغي أيضاً أن نختار القائمين بالملاحظة من بين الأشخاص الذين يتمتعون بدرجة ملحوظة من الالتزام الأخلاقي(٦٢).

واستخدام الملاحظة بالمشاركة يقتضي من الباحث الإقامة الكاملة في مجتمع الدراسة والاندماج وهو في هذه الحالة يتعرف علي كل ما هو تحت السطح ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند كتابة تقرير البحث ونشره، فهل يخضع في سلوكه لمتطلبات العلم التي تقتضي منه التزام الصدق المطلب، أم أنه يحذف بعض الأمور التي تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة التي استطاع إدراكها من خلال العلاقة الوثيقة التي تطورت أثناء إجراء البحث، وربما يكون في حذف المعلومات أو إخفائها تشويهاً لنتائج البحث، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضرراً لأولئك الذين حصل منهم علي المعلومات أن مواجهة هذه المعضلة يعتمد إلي حد كبير علي أخلاقيات الباحث الاجتماعي القائم بالملاحظة، ويلجأ بعض الباحثين لمواجهة هذه المشكلات إلي تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية، وما سوف تنتهي إليه هذه المهمة من كتابة تقرير علمي عن مجتمعهم، وإن هذا التقرير لن يضير بأي فرد في المجتمع، وإنما هو يحاول أن يكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية ككل، وأنه من الممكن أن يتم الاستعانة بهذا التقرير في بعض البرامج التي تهدف إلي صالح أعضاء هذا المجتمع(٦٣).

وليس ضرورياً أن يتضمن التقرير أسماء أفراد المجتمع أو اتجاهاتهم الفكرية، وإنما الهدف من هذه المعلومات معرفة الاتجاه العام السائد في المجتمع.

هوامش الفصل:

(١) محمد على محمد ، ١٩٨٣ ، علم الاجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص٤٥٢ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، ١٩٦٦ ، أصول البحث الاجتماعى، مطبعة لجنة البيان ، القاهرة ، ص٤١٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص٤١٥ ، ٤١٦ .

(٤) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ،تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ، ص٥٦.

(٥) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، قراءات فى علم الإنسان الإنسان ، البيئة، الثقافة، مطبعة الجمهورية ، اسكندرية ، ص٢٧ ، ٢٨ .

(٦) نخبة من أساتذة قسم الاجتماع، ب.ت ، المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ، ص٣٠٧.

(٧) أحمد زكى بدوى ، ١٩٧٧ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت ، ص٣٠٥ .

(٨) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص٤١٩ .

(٩) فاروق اسماعيل ، ١٩٧٥ ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية : دراسة فى التمثيل الثقافى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ، ص٢٠ ، ٢١.

(١٠) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(١١) فاروق اسماعيل ، ١٩٧٥ ، المرجع السابق، ص٢٢ .

(١٢) فاروق اسماعيل، ١٩٧٧ ، التغير والتنمية فى المجتمع الصحراوى : دراسة انثروبولوجية فى منطقة امتداد مريوط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية، ص٢٠ .

(١٣) نفس المرجع السابق، ص٢١.

(١٤) أحمد أبو زيد ، ١٩٩١ ، المجتمعات الصحراوية فى مصر البحث الأول شمال سيناء- دراسة إنثروبولوجية للنظم والأنساق الاجتماعية ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ص٣٦ .

(١٥) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق، ص٢٦١ ، ٢٦٢ .

(١٦) محمد على محمد ، المرجع السابق، ص٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(١٧) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص٤١٦ .

(١٨) نفس المرجع السابق، ص٤١٩ .

(١٩) محمد على محمد ، المرجع السابق، ص٤٥٤ .
(٢٠) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق، ص٤٢٤ .
(٢١) محمد على محمد ، المرجع اسلابق ، ص٤٥٤ .
(٢٢) نفس المرجع السابق، ص٤٥٤ .
(٢٣) تم محاولة الوصول إلي الوظيفة الكامنة من خلال فهم العوامل الاجتماعية والثقافية والمثيرات والمنبهات المسببة للسلوك .
(٢٤) محمد على محمد ، المرجع السابق، ص٤٥٥ .
(*) لاحظت أثناء الدراسة الميدانية فى مرحلة الدكتوراة أن الأمهات فى المجتمع القروى يتركن صغارهن يتبولن ويتبرزن بحرية خلف المنزل أو فى الحقل ومع تقدم الصغير فى السن وبتوجيه الأم يتعرف علي المكان المخصص لذلك ، وإن كانت الكثير من الأمهات قد ذكرن أنه يتم تعويد الأطفال على الجلوس على القعادة منذ الشهر الخامس ومنذ سن العام أو العام ونصف يتم تعويد الصغير على استخدام المرحاض .
أنظر : مرفت العشماوى: دورة الحياة عند الفرد: دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى المجتمع القروى والحضرى برشيد.
(٢٥) عبد الباسط محمد حسن: المرجع السابق،ص ٤١٦,
(*) أتاحت لى دراسة العادات والتقاليد الشعبية المرتبطة بالوفاة فى مجتمع رشيد ملاحظة سلوك النساء فى حالات وفاة الأقارب، الملابس التى يتم ارتداؤها، الأطعمة التى تقدم، كيف يتم الإعلان عن حالة الوفاة، مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن، زيادة المقابر وتوزيع الصدقات علي الفقراء وغيرها من الأنماط السلوكية.
أنظر: مرفت العشماوى، المرجع السابق.
(٢٦) محمد على محمد: المرجع السابق، ص ٤٥٣
(٢٧) غريب محمد سيد أحمد: ١٩٨٠، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧,
(٢٨) نفس المرجع السابق، ص ٢٦٣,
(٢٩) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٧,
(٣٠) أحمد عبد الخالق، ١٩٨٩، أسس علم النفس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ١٢٧ .
(٣١) غريب محمد سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٥٧,
(٣٢) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤١٦,
(٣٣) أحمد عبد الخالق، المرجع السابق، ص ١٢٧,

(٣٤) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤١٦، ٤١٨.
(٣٥) غريب سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٦٤.
(٣٦) فاروق إسماعيل، ١٩٩٤، علم الإنسان: الأنثروبولوجيا، مطبعة الجمهورية، ص ٥٨.
(٣٧) نفس المرجع السابق، ص ٥٩.
(٣٨) أحمد زكى بدوى، المرجع السابق، ص ٢٩١.
(٣٩) نفس المرجع السابق، ص ٢٩١.
(٤٠) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤٢٩.
(٤١) محمد على محمد، المرجع السابق، ص ٤٥٦.
(٤٢) غريب سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٦٠.
(٤٣) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤٢٩، ٤٣٠.
(٤٤) المذكرات التفصيلية، الصور الفوتوغرافية، الخرائط، دليل العمل، الاستمارة، الإحصاء، المقابلات.
(٤٥) غريب سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٦٠.
(٤٦) عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤٣٦.
(٤٧) محمد على محمد، المرجع السابق، ص ٤٥٦.
(٤٨) شارلوت سيمور، سميث، ١٩٩٨، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية ترجمة محمد الجوهرى وأخرون، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ص ٦٤٩، ٦٦٥.
(٤٩) أحمد عبدالباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٤٢٠.
(٥٠) فاروق اسماعيل ١٩٩٥، المرجع السابق، ص ٢٤.
(٥١) أحمد أبوزيد، ١٩٩١، المرجع السابق، ص ٣٦.
(*) أثناء دراستى الميدانية فى مرحلة الدكتوراه فى موضوع دورة الحياة عند الفرد دراسة مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى المجتمع الحضرى والقروى برشيد كنت أحرص علي التواجد فى الأماكن العامة كالسوق والنادى الاجتماعى كما كنت أحرص أيضاً علي مشاركة السيدات فى المناسبات الاجتماعية المختلفة كالخطبة والزواج وحفلات الختان التى تقام للأطفال الذكور ومناسبات سبوع الزواج والميلاد وكذلك مناسبات الوفاة حيث أتاحت لى الملاحظة بالمشاركة الحصول علي المادة الأثنوجرافية عن كل عادات وتقاليد دورة الحياة والتى تعكس وجهة نظر الأهالى إزاء تصرفاتهم ونظرة الباحث نفسه إلي تلك الثقافة.

(٥٢) فاروق اسماعيل، ١٩٩٥، المرجع السابق، ص ٢٥، ٢٦.

(٥٣) عبدالله عبد الغنى غانم، البحث الأنثروبولوجى تطوره ووسائله وصعوباته فى فاروق أحمد مصطفي وأخرون، ١٩٩٥، بين النظرية ونماذج الدراسات الأنثروبولوجية: دراسات فى علم الإنسان، مطبعة التونى، اسكندرية، ص ٧٢.

(٥٤) محمد على محمد، المرجع السابق، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

(٥٥) نخبة من أساتذة قسم الاجتماع، المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٥٦) غريب سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٥٧) نفس المرجع السابق، ص ٤٢١.

(٥٨) إيفانز برتيشارد، المرجع السابق، ص ٩٧، ٩٨.

(٥٩) أحمد أبو زيد: ١٩٧٥، البناء الاجتماعى، مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الأول، المفهومات، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ١٠٧٨، ١٠٩.

(٦٠) محمد عبده محجوب: ١٩٨١، مقدمة فى الاتجاه السوسيوأنثروبولوجى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ١٣٨، ١٤٥.

(٦١) غريب سيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٦٢) محمد عل محمد، المرجع السابق، ص ٤٥٨.

(٦٣) مصطفي عمر حمادة، إشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا، فى نخبة من أعضاء هيئة التدريس ٢٠٠٠، الأنثروبولوجيا فى المجالات الموضوعية والمنهجية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ١٢٠.

الفصل الرابع

الأنثربولوجيا الثقافية

المجـال والمـوضوع

١ - المجال :

أولاً : الاثنولوجيا .

ثانيًا : الاركيولوجيا أو علم الآثار .

ثالثًا : اللغويات .

رابعًا : الانثروبولوجيا السيكولوجية .

٢ - الموضوع : الثقافة :

- المعني العام للثقافة .

- الثقافة ومفهومها فى الانثروبولوجيا .

- الاتجاهات المختلفة فى تحديد مجال الثقافة .

- خصائص الثقافة .

١ - مكتسبة ٢ - الاستمرار . ٣ - التكامل

٤ - التعقد ٥ - أداة للتكيف ٦ - اشباعية

٧ - انتقائية ٦ - اجتماعية ٩ - التنوع والنسبية

- الرمزية والرمز والثقافة .

- التغير الثقافى .

الاحتكاك أو الاتصال الثقافى .

التغيرات الاجتماعية .

التجديد .

- التحوير - الاختراع - تجريب واختبارات عادات غريبة - الاستعارة الثقافية .

الفصل الرابع

الأنثروبولوجيا الثقافية(*)

Cultural anthropoligy

١- المجـــال

هى ذلك الفرع الرئيسي من الانثروبولوجيا الذى يضطلع بدراسة مختلف ثقافات الإنسان ، فالإنسان على ما يقول مالينوفسكى Malinowski فى مقالة عن الثقافة "Culture" هو كائن له شكلة الفيزيقى وتراثه الاجتماعى وسماته الثقافية ، والانثروبولوجيا الثقافية تدرس الإنسان كما يعيش فى ثقافة ، إذ أن الطفل حين يولد زنجى الأصل وحين ينقل إلى فرنسا فلسوف يشب بطريقة تتمايز تماماً عما قد يكون عليه إذا كان نفس الطفل قد نشأ فى الغابة موطن ثقافته الأصلية ، .

وفى هذا المعنى أيضاً يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت Descartes فى مقاله عن المنهج ، ولما تأملت فى أن الرجل نفسه ، بنفس عقله إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسيين أو ألمانيين فإنه يصبح مختلفاً عما يكون لو أنه عاش بين صينيين أو كانيباليين (أكلة لحوم البشر) ، معنى ذلك أن الإنسان فى كل مكان وزمان له ثقافته وتراثه الاجتماعى ، وهذا التراث أو تلك الثقافة هو المجال الرئيسى فى الإنثروبولوجيا الثقافية (١) .

والانسان كائن ثقافى حامل للثقافة ويعيش فى كنفها وتحافظ عليه ويحافظ عليها ، كما أنه ناقل لها عبر الأجيال المختلفة ونظراً لأن هذا الفرع يهتم بالثقافة وبالسلوك الإنسانى فإنه يهتم بماضى الانسان وحاضره (٢) .

ولما كانت ثقافة الانسان هى التى تمكنه من الاتصال بالآخرين سواء جماعته المحلية أو الجماعات الأخرى المحيطة بما لها من خصائص اجتماعية فى بيئاتها المتباينة ، لذا كان أحد أهداف الانثروبولوجيا الثقافية هو دراسة هذا التباين أو التشابه الثقافى وأصولها ونموها وتطورها (٣) .

مجالات العلم :

تنقسم الانثروبولوجيا الثقافية إلى فروع رئيسية وهى :

أولاً : الاثنولوجيا Ethnology .

ثانياً : الاركيولوجيا أو علم الآثار Archaeology .

(*) كتب هذا الفصل د. مرفت العشماوي عثمان العشماوي أستاذ مساعد الانثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

ثالثاً : اللغويات Linguistics .

رابعاً : الانثروبولوجيا السيكولوجية Psychological Anthropology .

أولاً : الأثنولوجيا Ethnology :

هى علم دراسة الشعوب وهذا ما يعنيه الأصل اليونانى إثنوس Ethnos وهو الأصل الذى صدرت عنه كلمة اثنولوجيا وتعنى كلمة Ethnos اليونانية دراسة الشعوب (٤) .

والاثنولوجيا يعرفها كروبير Kroeber بأنها علم الشعوب وثقافاتهم وتواريخ حياتهم فتهتم برصد العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبيئاتها ، والعلاقات المتبادلة بين الكائنات البشرية وثقافاتها ، والعلاقات المتبادلة بين الثقافات المختلفة .

فالاثنولوجيا تسخر طاقاتها لاستنتاج التفسيرات التى تتعدى مجرد الوصف مؤكدة على التحليل Analysis والمقارنة Comparison (تحليل ومقارنة ما أفضت إليها الاثنوجرافيا) وذلك بهدف التنظير Theorizing أو التعميم Generalizing (٥) .

وتهتم الاثنولوجيا بالدراسات المتعلقة بأصول الثقافات والمناطق الثقافية وهجرة الثقافة وانتشارها والخصائص النوعية لكل منها ولهذا كان يعبر عنها بالانثروبولوجيا الثقافية (٦) .

كما يشير هذا المصطلح أيضاً إلى المدخل التاريخى لدراسة الثقافات . أما الآن فإن هناك اتجاه لتعريف الاثنولوجيا على أنها استراتيجية عامة فى البحث من أجل معرفة الثقافات وأن الصلة بين الاثنوجرافيا والاثنولوجيا إنما تكمن من أن تلك الأخيرة هى نوع من الدراسات النظرية التى تستهدف التحليل النظرى للمادة الاثنوجرافية المعطاة عن ثقافة ما (٧) .

وكانت الاثنولوجيا إلى عهد قريب جداً تختلط بالانثروبولوجيا الاجتماعية ، وكانت الموضوعات التى يدرسها علماء هذا الفرع من البريطانيين هى التى يدرسها علماء الانثروبولوجيا الأوربيون والأمريكيون ، وكانت الانثروبولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا يعتبران فى نظر علماء القرن التاسع عشر علماً واحداً ودراسة واحدة لأن كل منهما بحث الثقافات والمجتمعات الإنسانية ، وبعد أن اتجهت أنظار العلماء إلى العناية بالدراسة الوظيفية Functional approach لنظم الجماعات ، وتوجيه مزيد من الاهتمام إلى الأبنية الاجتماعية وبيان العلاقات الوظيفية والتكاملية بين النظم الاجتماعية Social structure وبيان العلاقات الوظيفية والتكاملية بين النظم الاجتماعية ، وإغفال الجانب النشوئى (التطورى) والتاريخى أو التحلل من أهميته

النسبية فى البحوث الاجتماعية ظهر الاتجاه إلى فصل الدراسة الاثنولوجية عن دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية وبذلك استقل كل من فرعى الانثروبولوجيا عغن بعضهما وأن ظلت العناية بدراسة الثقافة وتحليلها أهم ما يشغل أذهان علماء الانثروبولوجيا الأمريكان (٨) .

واستطيع أن أحدد موضوع الاثنولوجيا فى المجالات التالية :

أولاً : ثقافة الشعوب الحالية :

يدرس هذا الفرع ثقافات الشعوب الموجودة وقت إجراء الدراسة « الآن » ، كما يدرس الشعوب التى لديها تسجيلات مكتوبة قام بها اخباريين عاشوا تلك الثقافات. والاثنولوجى حينما يدرس ثقافة المجتمعات التى يبحثها يدرس الدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية والنظم الاجتماعية والسياسية وكذلك المثل العليا والأفكار (٩) .

والاثنولوجيا موضوعها الثقافة أى أنها تركز على دراسة سلوك الانسان أينما وجد سواء فى المنطقة القطبية الشمالية أو فى الغابات الأفريقية ومن ثم فإن الاثنولوجيين يستهدفون تسجيل الأشكال والأنماط السلوكية سواء كان المجتمع بدائياً أو متحضراً بهدف الوصول إلى الخصائص الثقافية للجماعات البشرية المختلفة . وهم يدركون أن الثقافات تختلف باختلاف الزمان والمكان وأن ثمة فوارق واضحة بين الأقزام الذين يعيشون فى غابات إيتورى Eturi فى الكنغو الذى يعيشون على الصعيد وجمع الثمار البرية وقليل من الزراعة ويعرفون تربية الماشية وبين الاسكيمو الذى يعيشون على صيد الكاريبو والدب القطبى ، وأن ثمة فروق بين هؤلاء وبين سكان المناطق الريفية فى المكسيك أو الصين (١٠) .

ثانياً : الثقافة الفرعية :

تهدف الاثنولوجيا فى التقليد الجرمانى والاسكندنافى إلى دراسة أقليات الشعب المحلية (١١)، كما تهتم أيضاً بدراسة الثقافات الفرعية Sub Culture (١٢).

ويقصد بالثقافة الفرعية أن هناك جماعة من الناس يشتركون فى أنماط متميزة من القيم والمعتقدات وتتميز طريقة حياتهم عن الثقافة الكلية التى تسود المجتمع الأكبر فى بعض الأنماط السلوكية الخاصة بهم . ولقد استخدم هذا المفهوم فى أغلب الدراسات التى أجريت على جماعات المراهقين تحت مفهوم الثقافة الفرعية للمراهقين كجماعة متمايزة لها طريقة حياتها وأنماط سلوكها التى تختص بها دون غيرها من الجماعات

الأخرى . وتوجد دراسات حول الثقافة الفرعية للضواحي الحضرية والثقافة الفرعية للجماعات الفقيرة ، والثقافة الفرعية هي نمط من المعيشة يختلف عن الثقافة الكلية أو بمعنى أخر هي نمط من السلوك تتميز به الجماعة الخاصة التي تعيش داخل المجتمع الأكبر ، وقد يختلف سلوك أفراد تلك الجماعات عن سلوك أفراد المجتمع الكلي، ولكن في نفس الوقت تتضمن ثقافتهم الفرعية على عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية ، كما تحتفظ لنفسها بعناصر أخرى تميزها عن غيرها من الثقافات (١٣) .

ثالثاً : تصنيف الشعوب :

مهمة الأثنولوجيا هي تصنيف الشعوب على أساس خصائصها السلالية والثقافية ، وتفسير توزعها في الوقت الحاضر – أو في الماضي – كتحرك هذه الشعوب واختلاطها وانتشار الثقافات (١٤) .

ومن ثم نجد أن فئة معينة من العادات التي يمارسها أحد الشعوب – حين تبين على خريطة توزيع – ذات أهمية خاصة لعالم الاثنولوجيا لأنه يستدل منها على تحرك السلالات والأجناس أو هجرة الثقافة أو اتصال تلك الشعوب بعضها ببعض (١٥) .

ويعتبر تصنيف الثقافات خطوة تمهيدية لازمة للقيام بعقد المقارنات بين المجتمعات البدائية إذ من المفيد أن لم يكن من الضروري البدء بمقارنة الشعوب التي تنتهي إلى نمط ثقافي عام واحد ، أي مقارنة الشعوب التي تنتمي إلى ما أسماه باستيان Basrian المناطق الجغرافية (١٦) .

وتهدف المقارنة إلى التوصل إلى ما نسميه بالعموميات Universals أو إلى القوانين العامة التي تحكم السلوك الإنساني (١٧) .

رابعاً : التشابه والاختلاف بين الثقافات :

أن الاثنولوجي قد يكرس جهوده لمشكلة المشابهة والاختلاف بين الثقافات ، والظروف التي أدت إلى هذا التشابه أو الاختلاف ، أو التي ظهرت في نطاقها هذه الأشكال الثقافية المتباينة ، ربما يجدون في تاريخ هذه الشعوب ما يشير مثلاً إلى اتصالهم في أزمنة ماضية . فظهور الأهرامات في السودان في المناطق المحيطة بمروى أو شمال كسلا أو في شندى ربما يرد إلى التأثير المصري القديم في الفترة من ٥٠٠٠ – ٢٠٠٠ ق . م حيث استعاروا من مصر فكرة اتخاذ الأهرام مقابر لدفن الأسر المالكة (١٨) .

كما توجد في المكسيك أيضاً أهرام تشبه إلى حد كبير جداً الأهرام المصرية ،

فالسؤال هنا يتعلق بأسباب تشابه بعض العناصر الثقافية فى المجتمعات المختلفة والمتباعدة إلى أى حد يمكن ارجاع هذا التشابه إلى تشابه الظروف والملابسات الاجتماعية أو إلى انتشار هذه الملامح من مركز واحد معين وهجرتها من مجتمع لآخر (١٩) .

خامسًا : الخلفية التاريخية للثقافات :

تولى الأنثولوجيا اهتماماً بالخلفية التاريخية للثقافات ، وفى بعض الأحيان يطلق على هذا الشكل من الانثولوجيا اسم التاريخ الثقافى وذلك لأن كل ثقافة هى عبارة عن متصل متغير عبر الزمن ، أما عندما ينصب الاهتمام على المبادئ العامة للنمو الثقافى فيعرف هذا الشكل باسم التطورية الثقافية Cultural evolutionism (٢٠) . وحين يحاول علماء الانثولوجيا إعادة تركيب تاريخ المجتمعات البدائية التى لا تتوفر عنها الوثائق والمستندات التاريخية اللازمة فإنهم يضطرون إلى اللجوء إلى الاستنتاج من القرائن العارضة ليصلوا إلى نتائجهم التى لا يمكن أن تكون أكثر من تخمينات ، فالانثولوجيا إذا ليست تاريخاً بالمعنى المفهوم لأن التاريخ يسجل الأحداث التى وقعت بالفعل كذلك لا يكتفى التاريخ بمجرد تسجيل وقعها ، وإنما يبين كيف وقعت ومتى وقعت ، وغالباً ما يبين سبب حدوثها (٢١) .

وإذا كانت الاثنوجرافيا هى الدراسة الوصفية فهى دراسة أفقية لظاهرة من الظواهر فى سائر أنحاء المجتمعات ، أما الانثولوجيا فهى الدراسة الرأسية لمظاهر الثقافة بشقيها المادى واللامادى مع محاولة التعرف على ماضى تلك السمات ، أى أن انتباه الباحث إنما ينصب على دراسة تاريخ الظاهرات الانسانية وهو يكون اتجاهاً تاريخياً بحتاً . وهذا يعنى أن الدراسة الاثنوجرافية هى دراسة فى المكان Space أما الدراسة الانثولوجية فهى دراسة مقارنة فى الزمان Time خاصة الزمان الماضى (٢٢) .

وينبغى أن نشير هنا إلى الدراسات المتزامنة Synchronic والدراسات عبر التاريخ (المتتابعة) Diachronic فالدراسة المتزامنة هى تلك التى تتعلق بالأحداث والوقائع التى تحدث فى عدد من المجتمعات فى وقت معين بالذات وهى كالدراسة الاثنوجرافية الوصفية ، أما الدراسة الثانية فهى دراسة انثولوجية لأنها تعالج الظاهرة فى ضوء ماضيها وتدرس الوقائع كما تحدث عبر الزمن . وفى الدراسات المتزامنة يكون اهتمامنا بالظاهرة كما هى حيث نهتم بطبيعة الثقافة وبالحياة الاجتماعية . أما الدراسات التى تحدث عبر التاريخ (المتتابعة) فتختص بمعالجة ظاهرة معينة بالذات عبر الزمن حيث ندرس الطرق التى تتغير بها الثقافة وكشف القوانين التى تحكم التغير

الثقافى مما يلقى ضوءاً فى دراسة ماهية الثقافة وتحديد طبيعتها وكيفية عملها . ومن الطبيعى أن تسبق الدراسة المتزامنة كل دراسة تاريخية حيث أن التغيرات التى تحدث فى القوانين العامة لعمليات التغير الثقافى لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً حتى تعرف الوظائف أو الأدوار التى تقوم بها هذه القوانين (٢٣) .

ثانيًا : الأركيولوجيا أو علم الآثار Archaeology :

تشتق كلمة أركيولوجيا من اليونانية Archaios بمعنى قديم وLogia بمعنى دراسة أو علم وعلى هذا يعنى المعنى الحرفى للكلمة « دراسة القديم » (٢٤) .

والأركيولوجيا عمومًا هى دراسة لإنسان على أوسع نطاق بحيث تشتمل هذه الدراسة على محاولة التعرف على حياته اليومية ، عاداته الدينية ، فنونه، صناعاته ، مواطن الاقامة والأنشطة التى مارسها ، علاقته بالبيئة المحيطة. وتهدف الأركيولوجيا إلى إعادة رسم صورة كاملة بقدر الإمكان لماضى الحياة الإنسانية من خلال جمع الأدلة المتاحة متبعة فى ذلك أسلوب المحقق الذى يهتم بكل شئ حتى لو بدى تافهاً أو سطحياً ، كما أنها تستعين بأساليب ومناهج من العلوم الأخرى ، وذلك بعد تطويعها لتلائم طبيعة المادة الأركيولوجية (٢٥) .

فأحد أهم أهداف الأركيولوجيا يتمثل فى إعادة تركيب أسلوب الحياة فى الماضى من خلال الدراسة الدقيقة لبقايا هذا الماضى ومخلفاته . معنى هذا أن ذلك الفرع من المعرفة يتطلب قياسات دقيقة فضلاً عن الوصف الدقيق والشامل هذا بجانب أساليب وتقنيات الحفر والتنقيب . فمهمة الدراسة الميدانية الاركيولوجية تتمثل فى استخدام أساليب تنقيب مدققة وصارمة بهدف إعادة تركيب أكثر اكتمالاً للبعد الزمنى والظروف المعيشية والعلاقات المتبادلة بين البقايا المكتشفة فى وضعها الأصلى (٢٦) .

والاركيولوجيا تشمل الاركيولوجيا التاريخية وهى دراسة المواقع السكانية التى ترجع إلى فترة التاريخ المكتوب وهذه الدراسة تستخدم كل من المادة الاركيولوجية والتاريخية، وليس معنى هذا أنها نوع مختلف من الاركيولوجيا وأن كانت تعتمد على نوع مختلف من المادة ذات طبيعة خاصة ونعنى بها الوثائق التاريخية المتاحة ، ويمكن اعتبار المادة الاركيولوجية ذاتها وثائق تاريخية (٢٧) .

فألواح الطين السومرية ولفائف البردى المصرية والنقوش الرونية المحفورة على الصخر جميعها تعزز معرفتنا للثقافات والحضارات القديمة التى ارتبطت بها (٢٨) .

ويهتم هذا الفرع بالدراسات التتبعية حيث يركز فى الأساس على المجتمعات

والثقافات القديمة ، وكذلك على المراحل الغابرة من الحضارات الحديثة ، وهو يحاول اعادة رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية وتتبع نموها وتطورها عبر الزمان ، ونلاحظ أن الجانب الأكبر مما نعرفه كتاريخ يقوم على وثائق كتبها أفراد عاشوا خلال الأحداث التى كتبوا عنها ومن ثم يستطيع المؤرخ بالاستعانة بمثل هذه الوثائق أن يبين فى أغلب الأحيان السياق الزمنى للأحداث بدقة ، وأن يربطها ببعض على نحو سليم(٢٩) .

كما تشتمل الاركيولوجيا أيضاً على اركيولوجيا ما قبل التاريخ Prehistorio ويهتم هذا الفرع بدراسة الثقافات المبكرة فى الفترات السابقة على كتابة التاريخ ، والاركيولوجى يدرس هذا التاريخ غير المسجل فى ضوء بقايا الصناعة الإنسانية المسماة بالأدوات الصناعية وبقايا الأبنية وكذلك بقايا المتاع التى يعثر عليها مع المتوفى فى مقبرته . ويستخدم مصطلح ما قبل التاريخ للاشارة إلى ٩٩٪ من تاريخ الجنس البشرى، وهذه الفترة طويلة للغاية تقدر بحوالى مليون سنة وأكثر منذ استطاع الانسان أن يصنع الأحداث ، بينما لم يعرف اختراع الكتابة إلا منذ حوالى خمسة آلاف سنة فقط ، وهذا يبين مدى أهمية فترة ما قبل التاريخ نظراً لطولها (٣٠) .

والباحث الاركيولوجى يحاول إذاً اعادة تركيب الشعوب والثقافات – التى لا يوجد عنها تاريخ مدون أو مكتوب – بالأستعانة بالبقايا والمخلفات البشرية والثقافية التى تكشف عنها عمليات الحفر والتنقيب فى الرواسب الجيولوجية ومن حيث إعتماده على القرائن العارضة (٣١) . بحيث يجدد معالم تفكير ذلك الإنسان الأول بتتبع مخلفاته وبقاياه قبل اكتشاف الكتابة وتوصله إلى اللغة(٣٢) .

ويستعين عالم آثار ما قبل التاريخ بعلوم أخرى لدراسة البقايا المادية والهياكل والعظام كعلم التشريح المقارن والبيولوجيا ، أما دراسة المعالم الثقافية للشعوب الماضية فإنه يستخدم علم الانثروبولوجيا الثقافية ، كما أنه عن طريق علم الجيولوجيا يستطيع أن يحدد العصر الجيولوجى لآثاره وحفرياته ، فضلاً عن علم الحفريات والتاريخ وذلك حين يدرس سائر الأجناس والثقافات الإنسانية متبعاً للمنهج التاريخى . فهذا العلم هو اثنولوجيا لشعوب ما قبل التاريخ (٣٣) .

ويستخدم الاركيولوجيون أنواعاً من الأساليب الميدانية احداهما هو المسح الذى يسير وفق نظام معين ومجموعة من الخطوات حيث يتوفر للاركيولوجين الفرصة لتسجيل المعلومات التى تم جمعها من أنماط الاقامة فى منطقة كبيرة ، وتشير أنماط التجمعات إلى توزيع المواقع فى منطقة محددة . والمسح المنظم Systematic survey

يعتمد على السير في المنطقة وتسجيل المواقع وتحديد كل حجم لهذه المواقع على أساس الأشياء المادية الاركيولوجية الموجودة على السطح . ويقدر القائم بعملية المسح الفترة الزمنية التى وجدت فيها هذه المواقع (تحديد زمن وجود الموقع) وليس من السهل أن يتم مسح يغطى مناطق كبيرة . وقد يواجه الأركيولوجى بعض الصعوبات عند قيامه بعملية المسح فهو لا يستطيع أن يمسح مساحات كبيرة من الأرض، كما وأن وجود الغابات الضخمة تعد عقبة أمامه ، فضلاً عن وجود أجزاء من مسح المنطقة يكون من المتعذر بلوغها ، وأن التصاريح التى يحصل عليها الأركيولوجى للقيام بمسح لا يعترف بها ملاك الأرض التى يتم مسحها ، بالإضافة إلى اعتماد المسوح على الصور الجوية أو تحليلات الأقمار الصناعية للمساعدة فى تحديد خرائط المواقع وكلها وسائل مكلفة للغاية (٣٤) .

وتبدأ بعد عملية تحديد المواقع عملية الحفر Excavation ، وأهمية الحفر ترجع إلى أننا نصل منها إلى المعلومات الأركيولوجية من الماضى السحيق والذى من خلاله يستطيع العلماء أن يكتشفوا البقايا من خلال معرفة طبقات الأرض –دراسة طبقات الأرض تسمى الاستراتيجرافيا Stratigraphy – ومعرفة الطبقات الرسوبية وبهذا يتكون الموقع الأركيولوجى . والطبقات تكون فى سلسلة متتالية منظمة والطبقة الأقدم دائماً تكون فى أسفل الحفرية . والحفر عمل ضرورى ومكلف ولا يستطيع أى انسان أن يقوم بامكانياته المادية بحفر موقع بدون معرفة أن المواقع التى يتم حفرها يمكن أن تدمر ، كما أنه إذا فرض أن هناك موقع يراد الحفر فيه وهناك مخاطر وأن هذا الموقع سيستخدم مستقبلاً فى مشروعات التنمية فإن حصول الأركيولوجى على المعلومات الخاصة بهذا الموقع تعد مكافأة حقيقية للجهود التى يبذلها (٣٥) .

وتتواصل جهود علماء الأركيولوجيا واسهامتهم فى إعادة بناء المجتمعات والثقافات المبكرة من أجل المزيد من الفهم للانسان وتطوره .

ولقد اصطنعت الاركيولوجيا لنفسها منهجاً يدور حول ما يسمى باقامة النماذج Patterns والتى تصنف المادة (المخلفات أو البقايا) وفقاً لها وبصفة عامة يمكن القول أن هناك أربعة نماذج أو أنماط أساسية يستخدمها الأركيولوجيون .

أولاً: النماذج المورفولوجية Morphological :

ويطلق عليها أحياناً النماذج الوصفية Descriptive والذى يستهدف ابراز الملامح أو الخصائص العامة الخارجية للشئ أو السمة المادية كالطول والعرض والوزن واللون والحدة .

ثانياً : النماذج الوظيفية Functional Types :

حيث يتم تحديد وظيفة الشئ أو السمة هل هى مطرقة أو رمح أو سهم أو قوس أو عصا للحفر ، وقد يعتمد تحديد الوظيفة أحياناً على التخمين ، ولا شك أن ثمة صلة وثيقة بين إقامة النماذج الوظيفية والمورفولوجية .

ثالثاً : النماذج الزمنية Temporal Types :

حيث يتم الوصول إلى الفترة الزمنية والتقريبية التى مضت على الحفريات أو البقايا وتسمى أحياناً البعد التاريخى ويعتمدون فى ذلك على أشعة أكس X-ray والأشعة الراديوكاربونية Radio - Carbonic ووسائل أخرى فى تحديد الفترات الزمنية .

رابعاً : النماذج الإدراكية Cagnative Types :

بغية الوصول إلى التصورات أو المدركات العقلية لأولئك الذين اخترعوا السمة المادية أو أوجدوها أو استخدموها على هذا النحو فالأشياء المادية بمثابة ترجمة للأفكار والآراء القائمة فى أذهان أولئك الذين اخترعوها أو استخدموها (٣٦) .

ثالثاً : اللغويات Linguistics :

تعد اللغة هى الأداة التى ينقل بها الناس معارفهم ومعتقداتهم وعاداتهم من جيل إلى آخر ، وبفضل اللغة يستطيع كل جيل أن ينقل خبراته بطريقة رمزية إلى الجيل الناشئ ومن خلال اللغة استطاع الانسان أن يجعل من نفسه سيداً على الحيوانات الآخرى وأن يطور ذلك الكل المركب من المعارف والسلوك الماهر الذى نطلق عليه الحضارة (الثقافة) (٣٧) .

واللغة هى أداة التعبير عن الأفكار وهى وسيلة الاتصال الرئيسية بين البشر وتتكون من رموز وكلمات وعبارات تكتسب كلها عن طريق نشأة الفرد فى مجتمع ما ، يتلقى من خلاله اللغة وتصبح وسيلته الأساسية فى التفاهم والاتصال مع أعضاء مجتمعه (٣٨).

واللغة هى مجموعة من الرموز تستخدم للاتصال بين أفراد المجتمع الواحد من أجل تيسير أنشطة الحياة المختلفة وقد تستخدم فيما بعد فى حفظ التراث الانسانى وإنماء الثقافة ونقلها إلى الأجيال ولذلك فهى تتفاوت بين الرموز الحسية أى التى تشير إلى المحسوسات وبين الرموز التى تشير إلى المجردات (٣٩) .

وليس هناك شخص له لغته الخاصة به وحده لأن ذلك يعتبر شفرة وليس لغة ، واللغة يرثها المجتمع لا الأفراد كما أنها ليست حقيقة بيولوجية ، وتختلف اللغة من

جماعة لأخرى ولو أنها تؤدى وظيفة واحدة بالنسبة لهم جميعاً ، وكما أنه لا توجد ثقافة واحدة بل عدة ثقافات كذلك لا توجد لغة واحدة بل عدة لغات . واللغات تستطيع أن تتغير بالفعل بأسرع مما تحدث التطورات البيولوجية ، وتتبع فى ذلك قواعد مختلفة .

وإذا كانت اللغة هى شكل أو نمط من أنماط السلوك المتعلم أو المكتسب وتعرف بأنها مظهر من مظاهر الثقافة ذلك لأن الأشخاص لا يمكنهم معايشة مدركات ومضمون الثقافة المحلية إلا عن طريق تعلمهم اللغة الكلامية فضلاً عن الاشارات والمعانى المتضمنة فى نسق الاتصال الخاص بجماعتهم المحلية ، ومن ثم فقد إحتلت لغة الاشارة جانباً كبيراً من اهتمامات الباحثين والدارسين الانثروبولوجيين خصوصاً بين الجماعات التى تتميز ببساطة حياتها الاجتماعية والثقافية (٤٠) .

ولقد بدأ الاهتمام بدراسة اللغات منذ القرن السابع عشر وتضاعف هذا الاهتمام فى القرن الثامن عشر حيث وجه اللغويين اهتمامهم إلى محاولة معرفة أصل اللغات والمقارنة بينها وفى الحقيقة أن مجال اللغويات قسمة مشتركة بين اللغويين أنفسهم وبين علماء الانثروبولوجيا الثقافية وعلماء النفس والفلسفة والمنطق الصورى (٤١) .

ولقد تطورت اللغويات باعتبارها فرعاً متخصصاً من الانثروبولوجيا حينما قام علماء الانثروبولوجيا بدراستهم الحقلية فاضطروا إلى تعلم العديد من اللغات البدائية وذلك من خلال التعامل مع أعضاء المجتمعات محل الدراسة دون وجود كتب للقواعد اللغوية التى تعينهم على القيام بذلك مما أدى إلى تطوير نظام عام للكتابة الصوتية A Universal System of Phonetic أدى إلى وجود سجلات أو تسجيلات تحفظ ما يتلفظ به الاخباريون من لغات لا يوجد لها نظم كتابية من أساسه. وقد أدى هذا الوضع إلى إدراك حقيقة مؤداها أن الثقافات المختلفة تنظم الكلام أو اللغة وفقاً لمبادئ مختلفة تماماً عن التى تحكم اللغات الهندو أوروبية القديمة ومن ثم شرع بعض الانثروبولوجيين فى تسجيل اللغات البدائية وتحليلها (٤٢) .

ولقد درس مالينوفسكى لغة سكان جزر التروبرياند وخرج بنظريته الشهيرة والتى تعرف باسم سياق الحال Context of situation . ولقد وجد أثناء دراسته صعوبة العثور على مترادفات لفظية حرفية لتعبيرات كثيرة يستخدمها أهالى المنطقة ، فقام بجمع تلك المرادفات وقال بأن ترجمة هذه العبارات إلى لغة أخرى تسلب نصها الأصلى الكثير من خصائصه ومعانيه ، وأننا يجب أن نفسر دلالة كل لفظة أو عبارة داخل السياق الاجتماعى والثقافى الحقيقى الذى تنتسب إليه (٤٣) .

وتعد اللغويات الانثروبولوجية أحد ميادين الدراسة الهامة فى الانثروبولوجيا الثقافية . ويهتم عالم اللغويات بدراسة اللغويات العديدة المنطوقة، كما يدرس المراحل التاريخية من عمر بعض الأسر اللغوية ، فضلاً عن دراسة اللغات الغريبة كلغات الهنود الحمر التى تختلف اختلافًا بعيداً عن اللغات العالمية المعروفة كالانجليزية والصينية والروسية . ومن الموضوعات أيضًا الأخذة فى الازدهار علاقة اللغة بجوانب الثقافة الأخرى كعلاقتها بالتنظيم الاجتماعى ، وكذلك الدور المتميز المحدد الذى تلعبه اللغة فى المجتمع أى دراسة اللغة فى علاقتها بالبيئة الاجتماعية والثقافية (٤٤) .

وإذا كانت اللغويات تهتم بدراسة جميع لغات البشر عند الشعوب البدائية والمتقدمة فإنها تدرس أيضاً اللغات التى لا نعرفها إلا من واقع السجلات التاريخية المكتوبة فقط (كاللغة اللاتينية ، اليونانية القديمة ، اللغة السنسكريتية) . وينصب اهتمام دارس اللغويات من خلال الاستعانة بأساليب دقيقة وعلى جانب كبير من الكفاءة الفنية أن يعيد رسم صورة تاريخ اللغات والأسس اللغوية ، كما أنه يقارن اللغات بعضها ببعض ليتوصل إلى تحديد السمات المشتركة بين اللغات فى كل مكان ، ويحاول دارس اللغويات من خلال الاستعانة بهاتين الوسيلتين أن يفهم العمليات التى بمقتضاها تظهر اللغات إلى الوجود وتصل إلى تلك الدرجة من التنوع (٤٥) .

كما يدرس ويبحث الانثروبولوجى المتخصص فى اللغويات عن أصل اللغات Origins of Language وتعقيداتها وأشكالها الرمزية Symlolic forms ومحاولة تحليل بنائها أو إعادة هذا البناء بقصد القاء الضوء على نموها تاريخياً منذ الوقوف على بداياتها ، وهم فى ذلك إنما يحاولون تحديد المجموعة اللغوية بتحليل الأصل الواحد أو الأصول المتشابهة ويفترضون نماذج أولية أو أصلية ومن خلال محاولتهم تلك ونظرتهم الفاحصة للمتشابهات كتلك التى تصف النبات أو الحيوان أو الإنسان يقدمون لنا المفاتيح أو التفسيرات للمكان الذى نشأت فيه اللغة وهجرتها أو هجرة أولئك الذين يتحدثون بها . وهذا فى الواقع يدعم المادة التى يجمعها الاركيولوجيون أثناء اهتمامهم بلغات الانسان الجديدة والقديمة لدى الشعوب المتعلمة أو تلك التى تفتقر إلى الكتابة بغية الوصول إلى الملامح المشتركة (٤٦) .

ولقد ذهب هادون إلى أن اللغة تشير إلى مختلف الصور والأشكال التى اندمجت فيها الثقافات والشعوب فعن طريق اللغة نستطيع أن نتوصل إلى طبيعة الاحتكاك الثقافى الحادث بين سائر اللغات ومدى ما تحمله كل لغة من ثقافات أخرى نتيجة الاحتكاك بين مختلف الأنساق اللغوية تلك التى قد ينتج عنها بعض المشابهات فى

اللغات ففى اللغة الانجليزية مثلاً نشاهد بعض الكلمات الفرنسية مما يؤكد الاحتكاك اللغوى الثقافى بين انجلترا وفرنسا ، وفى ضوء هذا الاحتكاك اللغوى يمكننا تقسيم الأجناس استناداً إلى اللغة إلا أن اللغة ليست هى العامل الحاسم الوحيد ، فكثيراً ما تتعدى اللغة حدود المجتمعات والثقافات والأجناس (٤٧) .

ويولى الباحثون أيضاً اهتمامهم إلى دراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم وبتأثيرها على هذه اللغة ومصادر هذه اللهجات كما هو الحال فى بعض لهجاتنا المحلية التى تحتوى على بعض الكلمات من اللغة المصرية القديمة فضلاً عن دراسة تأثير الحروب فى انتشار بعض اللغات وأثر التبادل الاقتصادى على اللغة (٤٨) . والعلاقة بين اللغة والمركز الاجتماعى ، والعلاقة بين اللغة والرموز التى تستخدم فى أداء الشعائر الدينية وتلك التى تستخدم فى الحياة اليومية والصور والأشكال والتعبيرات المستخدمة للتعبير عن النواحى الجمالية فى ثقافة ما (٤٩) .

ومن الموضوعات المهمة التى تقع فى نطاق دراسات الانثروبولوجيا اللغوية موضوع الجنس Gender من حيث التذكير والتأنيث ، وموضوع اللغة المرتبطة بقواعد الآداب والكياسة فضلاً عن دراسة اللغات ذائعة الانتشار وتاريخ علاقاتها بعضها ببعض(٥٠) .

رابعاً : الانثروبولوجيا السيكولوجية Psychological Anthropology :

تدرس الانثروبولوجيا السيكولوجية الخصائص العقلية والسلوكية السائدة فى مختلف الأنماط الثقافية . وفى هذا الصدد يقول رادكليف براون : «عندما ندرس سيكولوجية الفرنسيين أو الألمان أو الأمريكان فإننا نعنى بهذه الدراسة أن نعالج الخصائص العقلية والأنماط السلوكية الناجمة عن شروى الحياة فى نسق اجتماعى معين بالذات» .

يتضح من هذا أن الانثروبولوجيا السيكولوجية إنما تضطلع بدراسة الأحوال السيكولوجية للجماعات والثقافات والشعوب ، ومدى تأثير الأحوال البيئية فى السلوك ، كما تدرس أيضاً تقاليد الشعوب وعاداتها ومثلها نظراً لانعكاس كل ذلك على أنماط الفعل الاجتماعى Social action وأشكال السلوك ومظاهر الحياة العقلية والفكرية وذلك بحثاً عن روح الجماعات ونفسية الشعوب. وعلى سبيل المثال حينما يدرس عالم الانثروبولوجيا السيكولوجية مجموعة الخصائص العامة لسيكولوجيا الفرنسيين أو الألمان إنما يعالج تلك الصفات الخاصة بالعقل الفرنسى أو الروح الألمانى كما يتجلى

فى نمط سلوكه وأفعاله . ويذهب رادكليف براون إلى أن الانثروبولوجيا السيكولوجية هى علم نفس خاص يعالج سيكولوجيات ثقافية محددة بالذات . فإذا كان علم النفس العام يدرس الخصائص السيكولوجية للطبيعة الإنسانية فى عمومها فإن علم النفس الخاص يدرس سيكولوجيات خاصة Special Psychologies بمجتمعات وشعوب معينة ، فالانثروبولوجيا السيكولوجية هى دراسة تكشف عن فحوى الجماعات وروحها وضميرها وذلك بدراسة الخصائص العقلية والأنماط السلوكية التى تقسم بها سائر الشعوب والثقافات (٥١) .

ولقد بدأ العلماء فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن الماضى فى الاهتمام بنوعين من المشكلات فأما المجموعة الأولى فإنها تتعلق بمسألة الاختلافات التى توجد داخل الجماعات فيما يتعلق بالعمليات الإدراكية وبخاصة فيما يتعلق بالذكاء والقدرات الخاصة والفوارق بين الجماعات السلالية وعلاقة هذه الفوارق بمميزات وخصائص كل سلالة منها من ناحية، وعلاقتها بالظروف الثقافية من الناحية الأخرى أما المجموعة الثانية فتتعلق بالاختلافات الثقافية ذاتها فى مجال القيم وبخاصة فيما يتعلق بمسألة اختلاف القيم التى تفرضها الثقافات المختلفة على أفرادها ، وكيف تؤثر هذه القيم فى حياة الأفراد (٥٢) .

وتدرس الانثروبولوجية السيكولوجية التفاعل بين الثقافة والشخصية ، على اعتبار أن الفرد يعدل بالتعليم عن طريق استدماج ثقافة مجتمعه وتشربها، وتدرس الشخصية وسماتها فى المجتمعات المدروسة ويتم ذلك على أساس التفسيرات التى تقدمها نظريات علم النفس . ولقد تأثر معظم العلماء الذين بحثوا فى موضوع الشخصية وعلاقتها بالثقافة بنظريات فرويد وتلاميذه وطبقوا منهج التحليل النفسى فى أغلب بحوثهم ولذا لجأوا إلى العناية بتسجيل الأفكار والأحلام وتسجيل تاريخ الحياة ودراسة الثقافة عن بعد (٥٣) .

وهذه الدراسات لم تتبع بطريقة منهجية إلا بعد أن نشرت روث بندكت Ruth Benedict كتابها المشهور عن أنماط الثقافة فى عام ١٩٣٤ . ولقد اعتمدت روث بندكت فى كتابها على عدد من الدراسات التى قام بها بعض الانثروبولوجيين لتوضيح العلاقات القائمة بين نمط الثقافة السائدة فى بعض المجتمعات البدائية ومظاهر الشخصية ، وأشارت بوجه خاص إلى قبائل زونى Zuni فى الجنوب الغربى من الولايات المتحدة وقامت بدراستها روث بونزل Ruth Bunzel وهم يمتازون بالهدوء والوداعة والميل إلى التآلف وقبائل الكواكيوتل Kwakiutel فى الشمال الغربى من

أمريكا وقد قام بدراستهم أستاذها فرانز بواس Boas وهم يمتازون بالتطرف والنزوع إلى الانفرادية والميل إلى التنافس ، وقبائل دوبو Dobu بالقرب من غينيا الجديدة وهم مشهورون بالتشكك والارتياب والميل إلى المشاحنات والمنازعات . وحول هذه المجموعات القبلية الثلاثة التى تمثل ثلاثة أنماط ثقافية مختلفة يدور الكتاب (٥٤) .

ومن أهم الموضوعات التى جذبت اهتمام علماء الانثروبولوجيا فى هذا الصدد أيضاً هو دراسة التمييز بين الجماعات والثقافات تبعاً للخصائص السيكولوجية السائدة فيها ، وترتبط هذه الدراسة ارتباطاً وثيقاً بما يعرف باسم الطابع القومى National Character . وقد أطلق هذا الاسم على الدراسات التى تحاول تحليل وتفسير مقومات وخصائص أى شعب من الشعوب فى ذاته بعيداً عن آدابه وفنونه وفلسفته (٥٥) ، فهى الدراسة التى تحاول التعرف على الصفات والسمات السيكولوجية العامة التى يشترك فيها أفراد مجتمع معين والتى ترجع إلى التأثيرات الدائمة الناتجة عن الطابع الثقافى لهذا المجتمع(٥٦).

والفكرة الرئيسية هنا أن مثاليات القبيلة مثلاً تُفرض على الأفراد ، وهذه المثاليات تكون الشخصية المثالية لما يجب أن يكون عليه الفرد فى المجتمع ، وجميع المبادئ وأنواع الجزاء التى تسود المجتمع تهدف إلى تنشئة الأفراد بحيث يكونوا صورة طبق الأصل لهذه الشخصية المثالية التى تعد مقياساً لكل سلوك (٥٧) .

ولقد اعتبرت دراسة الطابع القومى جزءاً من الانثروبولوجيا لأول مرة أثناء الحرب العالمية الثانية ، حين اهتم بعض الانثروبولوجيين الأمريكيين لأسباب تتعلق بالدعاية والحرب بدراسة شعوب الأعداء والحلفاء . كما استعانوا بوجه خاص بخبرتهم فى تركيب الثقافات المتداعية والتى على وشك الاندثار وابرازها كوحدة متكاملة من المعلومات المبعثرة التى كانوا يحصلون عليها من الشيوخ والأحياء فى تلك المجتمعات . وقد قاموا بتطبيق هذا المنهج نفسه على الشعوب المشتركة فى الحرب وبخاصة على اليابان بقصد تركيب ثقافتهم وفهم مزاجهم وطابعهم ، واعتمدوا فى ذلك على الكتابات والمعلومات التى كانت فى متناول أيديهم نظراً لاستحالة القيام بدراسات حقلية مباشرة أثناء الحرب العالمية الثانية وعرفت هذه الدراسات منذ ذلك الحين باسم دراسة الثقافة عن بعد ، ولايزال هذا الاسم يستخدم فى دراسة ثقافة الشعوب التى يصعب الوصول إليها لسبب من الأسباب وقت إجراء البحث أو الاتصال بثقافاتها اتصالاً مباشراً ، أو دراسة مقومات إحدى الثقافات فى فترة معينة من ماضيها وتاريخها القديم . وقد اشترك عدد كبير من الانثروبولوجيين الثقافيين فى أمريكا فى هذه الدراسات وبخاصة

كلوكهوهن Kluckhohn ومرجريت ميد Margaret Mead وجورير G. Gorer ومترو Metraux [٥٨] .

ولقد استخدم العلماء الذين قاموا بدراسات حقلية عن الطابع القومي مناهج وطرق انثروبولوجية وسيكولوجية فاستخدموا الملاحظة المباشرة لدراسة عمليات التنشئة الاجتماعية للطفل والمقابلة وتاريخ الحياة وتحليل الأحلام والأساليب الاسقاطية السيكولوجية مثل الرورشاخ واختبارات .T.A.T وأفلام الكرتون والأخبار والمقالات الصحفية والصور ودراسة الثقافة عن بعد وكلها وسائل تساعد العلماء على التحليل العلمي المنظم[٥٩] ، فضلاً عن استخدام نظريات فرويد Freud ويونج Jung ونظرية الجشطلت Gestalt وسيكولوجيا التعليم [٦٠] .

٢- الموضوع : الثقافة :

والموضوع الرئيسي للانثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة ولعل هذا ينقلنا إلى السؤال التالي وهو ماذا تعني كلمة ثقافة .

١- المعنى العام للثقافة :

أن كلمة ثقافة من الكلمات التي تدل على معان وتصورات كثيرة تعتمد على الغرض من استخدامها وعلى السياق الاجتماعي الذي تستخدم فيه . واللغة العربية ثرية في تعريفها ووصفها لكلمة ثقافة ففي (لسان العرب) نجد أن الثقافة تعني الفهم والحذق وسرعة التعلم ، فثقف الشئ أي خدمه وفهمه وأحاط به وثقف الشئ أي هذبه وشذبه وجعله مستوياً كما هو الحال عند أخذ فرع من الشجرة بغرض تثقيفه أي تسويته ، ومن المعاني المتداولة للثقافة نجد على سبيل المثال التعليم والدرجة أو الشهادة العلمية التي يحصل عليها شخص معين ، فمن يحصل على شهادة جامعية يفترض أنه يتمتع بثقافة أعلى من الذي حصل على تعليم متوسط ، ومن المعاني الشائعة أيضاً لمفهوم الثقافة القدرة على التحدث بلغة أجنبية أي غير اللغة الأصلية التي يتحدث بها ، كما أن الثقافة تشير إلى آداب السلوك وحسن التعامل مع الناس وكياسة التصرف في المواقف الحرجة فالسلوك الفظ لا يكون متوقعاً من الشخص المتعلم أو المثقف ، كما أننا نسمع الأقوال عن شخص أنه ذو ثقافة رفيعة ، أو شخص ثقافته ضحلة أو سطحية [٦١] .

كما يوجد اتجاه يُنظر للثقافة على أنها مرادفة لارتفاع مستوى كفاية الفرد في تخصصه أو تعليمه وذلك نلمسه عندما نشير مثلاً إلى مدرس أو أستاذ جامعي يحظى بقسط وافر من المعرفة ، كما أن هذا المصطلح أيضاً يشير إلى الشخص الذي حقق درجة من التمكن في بعض مجالات المعرفة المتمثلة في الفن والموسيقى والأدب . وكثيراً ما يتردد بين المؤرخين استخدام مصطلح الثقافة الاغريقية وكأنها لا تنطبق إلا

على أنشطة الاغريق الذين تتوفر لديهم مهارات علمية في الفن والآدب ، وبذلك لا يشير المصطلح عندهم إلى الأنشطة الأخرى العديدة التي تميز المجتمع الاغريقي (٦٢).

ولا شك أن كل هذه الاستخدامات هي استخدامات عامة للثقافة .

- الثقافة ومفهومها في الانثروبولوجيا :

في الدراسة النقدية التي قام بها الأستاذان كروبير وكلكهوهن عام ١٩٥١ ، لمفهوم الثقافة أورد الكاتبان ما يزيد عن المائة والخمسين تعريفاً لكلمة الثقافة Culture . بعض هذه التعريفات وصفية تهتم بتبيين المحتوى والمكونات ، والبعض الآخر سيكولوجي يهتم بالجانب الرمزي وبتعلم الرموز، والبعض الأخر بنائي يهتم بالصيغ العامة وأنماط الفعل من هذه التعريفات ما يذكره العالم البريطاني ، جراهام والاس ، Graham Wallas من أن الثقافة هي تراكم الأفكار والقيم والأشياء ، أي أنها هي التراث الذي يكتسبه الناس من الأجيال السابقة عن طريق التعلم وعلى ذلك فهي تتميز عن التراث البيولوجي الذي ينتقل إلينا آلياً عن طريق الجينات ، وهذا الموقف الذي ينص على ، تراكمية ، الثقافة واكتسابها عن طريق التعلم نجده عند عالم الاجتماع المشهور دو روبرتي E. V. De Roberty الذي يذهب إلى أن الثقافة حصيلة الفكر والمعرفة في المجالين النظري والعملي ، وعلى هذا فأنها تعتبر خاصة من خواص الانسان دون غيره وهذا ما يذكره مالينوشكي في كثير من كتاباته .

ويذكر هوبل Hoebel أن عامل السلوك المتعلم يعتبر ركناً هاماً في تعريف الثقافة وأنه من الضروري أن نبعد كل ما هو غريزي وفطري وكل صور السلوك الموروثة بيولوجياً من مفهوم الثقافة ، لذا فالثقافة في نظره هي حصيلة الابتكار الاجتماعي فقط، وبذلك يمكن اعتبارها بمثابة التراث الاجتماعي الذي ينتقل من جيل لآخر عن طريق التعليم والتلقين ، ويذكر الأستاذان ماكيفر وبيج في مجال تعريفهما للثقافة أنها تستخدم للدلالة على كل ما صنعه أي شعب من الشعوب أو أوجده لنفسه.من مصنوعات يدوية ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة وأدوات ومعاول وأسلوب التقليد ، وباختصار كل ما صنعه الانسان أينما وجد فهي تعني مجمل التراث الاجتماعي للبشرية أما رويتر Router فيعرف الثقافة بأنها تشمل الأدوات والمعدات التي ظهرت وتطورت نتيجة لجهود الإنسان المتصلة لإشباع حاجاته ، وما يرتبط بذلك من عواطف واتجاهات وميول معقدة ، كذلك الأبنية المنظمة وما إليها من وسائل وأساليب الضبط التي تهدف إلى اقرار النظام الاجتماعي وانتشار نماذج السلوك المقررة ، كما يدخل فيها النظريات الخاصة بتفسير الكون تفسيراً فلسفياً والتي تساعد على فهم الحياة وتسهيل المعيشة بشكل أو بآخر(٦٣).

ولعل هذه التعريفات تتفق مع التعريف الذى وضعه تايلور Tylor ويذكر فيه أن الثقافة أو الحضارة هى ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع ، وحالة الثقافة فى مختلف المجتمعات الإنسانية تعتبر من حيث إمكان بحثها فى ضوء مبادئ عامة معينة موضوعاً خليقاً بعلم قوانين الفكر والسلوك عند الإنسان (٦٤) .

وإذا كانت هذه التعريفات تركز على الجوانب المادية والمعنوية للثقافة فإنه توجد مجموعة أخرى من التعريفات تنظر إلى الثقافة باعتبارها تجريد .

ولقد توصل العالمان كروبير وكلاكهوهن إلى أن الثقافة تجريد ووافقهم على هذا التعريف بعض علماء الانثروبولوجيا الثقافية فى أمريكا منهم بيلز وهويجر بأن الثقافة هى : تجريد مأخوذ من السلوك الإنسانى الملاحظ حسيًا ولكنها ليست ذلك السلوك ويقولان لا يستطيع الانثروبولوجى أن يلاحظ الثقافة مباشرة ويقول كروبير بأنه يمكن للعالم أن يرى الأشياء والأشخاص وأفعالهم وتفاعلاتهم ، ولكن لا يمكن لأحد أن يرى الثقافة . ويوافق على هذا التعريف رادكليف براون إذ يقول ما نصه لا تعبر الثقافة عن أى شئ واقعى ملموس ، وإنما عن تجريد ويبدو أن براون يقصد بذلك نقد علماء الانثروبولوجيا الثقافية من ناحية أن موضوع علمهم هو مفهوم تجريدى غامض لأنه يفضل مفهوم البناء الاجتماعى (٦٥) .

ولعل تلك التباينات فى تعريف الثقافة تنقلنا إلى الاتجاهات المختلفة فى تحديد مجال الثقافة .

الاتجاهات المختلفة فى تحديد مجال الثقافة :

الإتجاه الأول : ويعرف باسم الاتجاه الواقعى ومن أقطابه Tylor وبواس Boas وديكسون Dxon وليند Lynd وهؤلاء جميعاً ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنسانى ، وعادة ما يعرفون المفهوم بلغة اكتساب العادات والتقاليد والقانون ... الخ ، كما يدركونها من حيث كونها وحدة متصلة وجودها سلبًا أو إيجابًا بالجماعات الاجتماعية التى تتصف بها (٦٦) .

فالرأى السائد بين هؤلاء هو أنه يلزم لوجود الثقافة وجود زمرة اجتماعية تمارسها وتتوارثها . وإذا كانت الثقافة عندهم تعنى فى المحل الأول «التراث» الثقافى الملموس الذى يتمثل فى مختلف الصناعات والأدوات والمعدات المادية ، فإنهم لا يغفلون النظم والعادات وقواعد العرف التى توجد فى المجتمع وتوجه سلوك الناس وتصرفاتهم بل وترسمها لهم (٦٧) . أى يجمعون بين الجانب المادى والجانب المعنوى .

الاتجاه الثانى وهو **الاتجاه المثالى**: ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه أو سجود Osgood ، لينتون R. Linton ، كلاكهون Kluckhohn ، جيلين Gllin ، كروبير Kroeber ، سوروكين Sorokin ، سبنجلر Spengler ، أولئك ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها مجموعة من الأفكار والتصورات فى عقول الأفراد أو أنها مفهومات مألوفة ومدركة (٦٨) . أو أنها مجموعة المعايير والأنماط الذهنية التى توجه السلوك الاجتماعى ولكنهم حين ينبذون مظاهر السلوك المشخص فأنهم يتصورون فى الحقيقة الثقافة شيئاً مجرداً ، ولذا كان بعضهم يستعين فى فهمها وتقريبها ببعض الأفكار الفلسفية مثل فكرة ما فوق العضوى Super - Organic (أى يقصرونها على الجوانب والأفكار المثالية) .

وقد يكون من الصعب قبول أى من هاتين النظريتين والاكتفاء بها . إذ على الرغم من أن الاتجاه الغالب بين العلماء الثقافيين هو اغفال الجوانب المثالية أو المعيارية ، وتركيز الاهتمام على دراسة السلوك والتفكير المكتسب ، والواقع أن هذه الأنماط الثقافية المشخصة تتأثر تأثراً عميقاً بالمثل والتصورات الذهنية مما يحتم على الباحث دراسة المظهرين معاً . كما أن الاقتصار على دراسة هذه التصورات الذهنية والمثل والمعايير معناه أن تصبح الانثروبولوجيا ضرباً من « ما وراء الانثروبولوجيا » أو ما بعد الانثروبولوجيا Meta - Anthropology (٦٩) .

والثقافات دائماً تنطوى على هذين النمطين فضلاً عن الأنماط السلوكية المثالية نجد الأنماط السلوكية الواقعية . وقد عرف كلاكهون الأنماط المثالية بأنها ما ينبغى أن يفعله أو يقوله أفراد مجتمع معين فى مواقف معينة إذا ما أرادوا الامتثال الكامل لمعايير السلوك التى تحددها ثقافتهم . أما الأنماط السلوكية الواقعية فتقيم على ملاحظتنا لما يمارسه الناس فعلاً فى مواقف معينة . فالأنماط المثالية تمثل أساليب السلوك التى تعتبر مفضلة أو مرغوبة من جانب أبناء المجتمع ، فهى تمثل أوامر وأشياء مفضلة فى نظر ثقافة ما ، وهى تختلف إلى حد ما عن أنماط السلوك الفعلى والأنماط السلوكية الواقعية التى يمكننا أن نستدل عليها من ملاحظة سلوك الناس الفعلى فى مواجهة مواقف معينة (٧٠) .

ولعل تلك العناصر المادية والمعنوية المكونة للثقافة والاتجاهات المختلفة فى تحديد مجال الثقافة والأنماط المثالية والواقعية فى الثقافة تنقلنا إلى محاولة التعرف على عناصر الثقافة وخصائصها وأهم مقوماتها .

- عناصر الثقافة :

يلجأ العلماء إلى تحليل ثقافة أى شعب من الشعوب إلى العناصر الرئيسية التى تتألف منها تلك الثقافة، وذلك لتسهيل مهمة العلماء فى البحث والدراسة . فنحن مثلاً

عند دراسة لغة من اللغات نستطيع أن نحللها إلى عناصر بسيطة كحروفها الهجائية وطريقة نطقها وما يتكون عنها من أصوات ومقاطع وكيف تتكون الكلمات من هذه المقاطع وكيف ترتب الكلمات لتكون جملاً .. كل تلك تمثل بعض العناصر الأولى التى تحلل إليها اللغة . وإذا أخذنا نموذجاً للملبس نجد أن العقال والطربوش والقبعة والطاقية كل منها يمثل عنصراً أولياً لنماذج مختلفة تسود فى مناطق أو عصور مختلفة (٧١) ، كما قد يعتبر البعض الحلة الأوربية عنصراً ثقافياً ، ويميل البعض إلى تحليل الحلة الأوربية إلى عناصر أبسط منها مثل عنصر ، البنطلون ، وعنصر الجاكيت وما إلى ذلك، وحلل أحد العلماء ، رقصة الشبح ، المنتشرة بين الهنود الحمر إلى مائة عنصر وحللها آخر إلى عدد أقل وهكذا (٧٢) .

والعناصر الأولى التى تحلل إليها النماذج الثقافية تعرف باسم السمات الثقافية وهذه السمات تعنى الوحدات الأولية التى يمكن أن تنقسم إليها النماذج ولا تنقسم إلى أقل منها (٧٣) .

فالسمة إذاً هى أصغر جزء يمكن التعرف عليها فى الثقافة ، أو هى أصغر وحدة يمكن تحديدها فى ثقافة ما (٧٤) .

وهذه السمات هامة جداً لأنه عن طريقها يستطيع العلماء المقارنة بين ثقافات الشعوب المختلفة وعلاقتها بعضها ببعض وما عسى أن يكون قد حدث بين ثقافتين من تأثير متبادل أو من جانب واحد . وثقافة شعب ما قد تشتمل على الأقل على عدة مئات من الألوف لعناصر ثقافية ، وكل سمة من هذه السمات متصلة أوثق اتصال بالسمات الأخرى ، فهى لا تنتقل ولا تتغير بنفسها مستقلة عن غيرها ، إذ أن ثمة ارتباطان متبادلان بين العناصر أو السمات الثقافية التى يتألف منها نموذج ثقافى معين (٧٥) .

ويجب ملاحظة أن العنصر أو ، السمة ، الثقافية وهو حقيقة واقعية يمكن ملاحظتها حسياً ، وقد يكون شيئاً أو علاقة أو فكره ، وتتمركز كل مجموعة من تلك العناصر أو السمات المختلفة فى المضمون فى مركب يعرف باصطلاح المركب الثقافى Cultural Complex . والمركب الثقافى هو كل يتكون من عناصر أو سمات ثقافية يرتبط بعضها ببعض وظيفياً ، بمعنى أن كل عنصر متداخل مع العنصر الآخر بحيث إذا حذفنا أحد تلك العناصر يختفى المركب الثقافى فمثلاً إذا قلنا مركب تعدد الزوجات عند المسلمين ، نجد أن هذا المركب يتكون من عناصر ثقافية أو سمات متداخلة ومترابطة ترابطاً وظيفيًا . من تلك العناصر أو السمات المبدأ الإسلامى الذى يبيح تعدد الزوجات ، والمبدأ الخاص بشروط وظروف هذا التعدد ، وبعنصر أو سمة العدد الأقصى للزوجات التى يمكن للمسلم أن يجمع بينهن ، وكذلك سمة المساواة فى المعاملة ، وسمة توفير

السكن المناسب لهن وما إلى ذلك من عناصر وسمات . وإذا حاولنا حذف أحد تلك العناصر وهو المبدأ الإسلامي يصبح هناك مركب ثقافي أخر وهو نظام تعدد الزوجات عند غير المسلمين وهكذا يتضح المقصود بالترابط الوظيفي بين عناصر أو سمات المركب الثقافي الواحد (٧٦) .

ويطلق بعض العلماء على النموذج أو النمط Pattern اسم المركب الثقافي Complex على اعتباره مركباً من عدة سمات أو عناصر أولية لا تنقسم إلى أقل منها(٧٧) .

والنمط Pattern هو مجموعة من الأفكار والفعاليات والأشياء المادية التي تتجمع بأسلوب منطقي وتترابط بطريقة وظيفية بحيث لا يمكن تمييزها باعتبارها أجزاء ، بل تبدو طراز عام متناسق . فالنمط الثقافي Cullural Pattern مثلاً هو مجموعة السمات والحركات الثقافية التي تترابط وظيفياً في كل متكامل يعطي الحضارة – الثقافة – شكلها العام وكل ثقافة تتكون من نظم اجتماعية ، اقتصادية ، دينية ، سياسية ، أخلاقية ، لغوية ، عادات وتقاليد . وكل نظام يتألف من أنماط ، فنظام المأكل مثلاً يتألف من عدد لا حصر له من الأنماط فهناك نمط أو أنماط تخص الافطار وأنماط مختلفة تخص الغذاء ثم العشاء وهكذا ولكل شعب أنماطه الخاصة في شتى المأكل والمشرب . وإذا أخذنا الدين الإسلامي كنظام اجتماعي فإننا نجد نمط الزكاة ، نمط الصيام ، نمط الحج ، وهذه الأنماط يتألف منها النظام الديني الإسلامي ويختلف طبعاً عن الأنماط التي يتألف منها أي دين أخر ، وكل نمط يتألف من وحدات تسمى السمات Trait ، فالسمة الثقافية هي الوحدة التي لا تنقسم إلى أقل منها والتي تكون مع مجموع السمات الأخرى نمطاً ثقافي بأكمله . فنمط الصلاة ينقسم إلى سمات أصغر أو الحج أو الزواج يتكون من وحدات ثقافية لتنقسم إلى أصغر منها كقراءة الفاتحة في الصلاة والسجود والركوع والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات في الحج (٧٨) .

والنمط أو النموذج الثقافي ذلك الذي يشكل الوحدة الأساسية في كل ثقافة . ويساعدنا هذا المفهوم على فهم العوامل التي تجعل السلوك الجماعي يتصف بالانتظام والاطراد ذلك لأنه لولا ميل الثقافة إلى تكوين نماذج وأنماط ثقافية لاستحال انتظام السلوك الاجتماعي ، وجاء سلوك الأفراد عشوائياً تغلب عليه الفوضى طبقاً لدوافعهم البيولوجية والغريزة واستحال بالتالي وجود المجتمع المنظم . كما أن الفرد يندر أن يكتسب سمات فردية منعزلة بل أنه يكتسب أنماطاً ثقافية وممارسات منظمة ، لذلك كان السلوك الإنساني سلوكاً نموذجياً أو يتبع نماذج معينة ، وأن الذي ينقل عبر الأجيال ويكتسب كأساليب حياة عن طريق التعليم هو النماذج ولذلك كانت النماذج تمثل الوحدات الأساسية في الثقافة والمجتمع (٧٩) .

وعلى ذلك يرى أن :

الثقافة = مجموع النظم والعادات والتقاليد التى تسود المجتمع .

النظام = عدد من النماذج أو مركبات ثقافية مترابطة فيما بينها .

النموذج أو المركب = عدد من السمات الثقافية المترابطة فيما بينها .

السمة = عناصر أولية لا تنقسم إلى أقل منها (٨٠) .

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن تحليل أية ثقافة إلى سماتها أو عناصرها الأولى لا يكفى لدراستها ، إذ لابد من معرفة Configurations (التضاريس – الصيغ – التشكيلات) وهذا التعبير الأخير أدخلته روث بندكت Ruth Benedict ذلك أن ثقافة أى شعب من الشعوب ليست حصر العناصر أو السمات التى تتألف منها الثقافة ، أو بيان مجموع تلك السمات بل دراسة الترتيب الخاص لتلك السمات والعلاقات المتبادلة بين تلك الأجزاء وهى العلاقات التى تجعل من هذه الأجزاء كل ثقافياً جديداً . فالتشكيلات الثقافية (الصيغ – التضاريس) هى الطريقة التى تترتب وفقها السمات وتتصل فيما بينها اتصالاً متبادلاً بحيث يتكون منها نموذجاً ثقافياً يختلف عن النماذج المشابهة الأخرى. وسنضرب مثلاً يوضح ذلك ، فعامل البناء قد يأخذ نوعاً معيناً من الآجر (الطوب) والمونة ولكنه يستطيع أن ينشئ منها عدداً لا نهاية له من بيوت مختلفة فى الشكل أو منشآت مختلفة ، فهو يستطيع أن يعمل منها حائطاً أو سوراً أو واجهة منزل والأجر هو هو والمونة هى هى لم تتغير وإنما الذى يتغير هو ترتيب الآجر بالنسبة لبعض وعلاقاتها بعضها ببعض . وكذلك الشأن من السمات الثقافية إذ نجد أن سمة معينة قد تلعب دوراً فى البناء الاجتماعى لمجتمع غير الدور الذى يلعبه فى بناء آخر، فالقطع الرمزية التى يلمسها بعض الأفراد فى المجتمعات للتبرك أو للزينة نجد أنها فى بعض المجتمعات البدائية تلعب وظيفة بيان انتماء الفرد لقبيلة معينة ، ثم هى تحصنه ضد بعض الأمراض وأعمال السحر (٨١) .

والتشكيل الثقافى أو الصيغ الثقافية أو التضاريس الثقافية تنقلنا إلى مفهوم ثقافى آخر وهو التكامل الثقافى Cultural integration وهو ما سوف أتعرض له فى خصائص الثقافة .

خصائص الثقافة :

١- مكتسبة :

عناصر الثقافة أمور يكتسبها الانسان بالتعلم من المجتمع الذى يعيش فيه على اعتبار أنها هى التراث الاجتماعى وبالتالى يبعدون عنها كل ما هو غريزى أو فطرى ،

وهذا هو ما جعل هربرت سبنسر ثم كروبير وغيره من بعده يستخدمون اصطلاح ما فوق العضوى فى كلامهم عن الثقافة (٨٢) .

والثقافة تكتسب من خلال عمليات اجتماعية متنوعة منها التنشئة الاجتماعية Socialization والتعليم بنوعيه الرسمى وغير الرسمى فمن خلال التنشئة الاجتماعية يكتسب الطفل أنماط السلوك وعناصر الثقافة السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه بحيث إذا أخذ طفل ولد فى مجتمع يابانى على سبيل المثال وتربى فى أسرة أمريكية فى المجتمع الأمريكى فإنه سوف يكتسب الثقافة الأمريكية وسوف يسلك بشكل مختلف تماماً عن الطفل الذى ولد ونشأ فى أسرة يابانية (٨٣) .

كما يكتسب الأفراد الثقافة من خلال صلاتهم وعلاقاتهم بالأخرين وتشير عملية التعلم أو الاكتساب إلى تكرار أساليب السلوك الاجتماعى المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة . ومن ثم يمكن أن ننظر إلى عملية اكتساب الثقافة من أبعاد زوايا متعددة كالوراثة الاجتماعية Social inheritance والتمثيل Assimilation والتثقف Acculturation والاستعارة Borrowing والانتشار Diffusion (٨٤) .

وعملية اكتساب الثقافة هى عملية مستمرة فكل مرحلة من مراحل العمر لها احتياجاتها وترتبط بها توقعات معينة على الأفراد أن يكونوا على معرفة ودراية بها وهذا بالتالى يتطلب التعليم المستمر من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الفرد مهما اكتسب وتعلم فإنه لا يمكن أن يلم بكافة جوانب الثقافة فهو يعرف بعضاً منها ولكنه يعجز أن يحيط بكل تفاصيلها (٨٥) .

٢- الاستمرار والتنقل والتراكم :

للسمات الثقافية قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن (من جيل لأخر) ، بل أن كثيراً من هذه السمات كالعادات والتقاليد والعقائد والخرافات والأساطير تحتفظ بكيانها لعدة أجيال لا لشئ إلا أنها وجدت فى وقت من الأوقات فى المجتمع، فتظل موجودة حتى بعد أن يزول السبب الذى أدى إلى ظهورها فى أول الأمر . وقد يتعرض المجتمع كله لبعض عوامل التغير التى تبدل بشكل مفاجئ أو بالتدريج الظروف العامة التقليدية ومع ذلك تفلح بعض هذه السمات فى البقاء والاستمرار مع احتفاظها بصورتها الأصلية، كما أن ملامح الثقافة وسماتها تنتقل بالفعل من مجتمع لآخر نتيجة للهجرة أو غيرها من وسائل الاتصال كاللغة مثلاً (٨٦) .

وإذا قلنا أن الحيوانات جميعها لديها القدرة على التعلم ، ولكن الإنسان لديه القدرة على أن ينقل عاداته المكتسبة إلى ذريته عن طريق اللغة فى حين أن الحيوان لديه القدرة فقط على نقل الوراثة البيولوجية (٨٧) .

وبهذا المعنى فإن الثقافة تراكمية Cumulative فالانسان يستطيع أن يبنى على أساس منجزات الجيل السابق فهو ليس بحاجة إلى أن يبدأ من جديد (٨٨).

وصفة الاستمرارية والتراكم تجعل من الثقافة كلاً مركباً ومعقداً يعنى أن العنصر الجديد لابد وأن تتمثله الثقافة تمثلاً جيداً وإلا كان الاستبعاد أو العزل هو النتيجة الوحيدة . والجانب الاستمرارى التراكمي للثقافة يمثل البعد الرأسى لها والذى يجب أيضاً أن يتصف بالتكامل (٨٩) .

٣- التكامل Integration :

ظل الانثروبولوجيون لسنوات طويلة يصرون على أن الكلية والشمول هى إحدى السمات المميزة لعلمهم . وهم يعنون بهذا أنهم يهتمون بدراسة المجتمع ككل . ومن الممكن أن يصدق هذا الزعم على الثقافة لأن مختلف العناصر الثقافية مترابطة ومتداخلة ، ذلك لأن القدر الأكبر من السلوك البشرى ليس مجرد تجميع عشوائى من الأنشطة وإنما هى تمثل أنساقًا ترتبط أجزاؤها - أو أنشطتها - بعضها ببعض مباشراً أو غير مباشر ويؤثر بعضها فى بعضهما الآخر. وهكذا نجد أن الهندى الأحمر من شعب المايا فى يوكاتا يؤدى بعض الشعائر قبل أن يعد حقله أو نباتاته للزراعة . ولكننا لا نستطيع أن نفهم عملية الزراعة ولا الشعائر فهمًا كاملاً بدون فهم العلاقات القائمة بينهما . فنجاح أو فشل المحصول عند المايا يتوقف إلى حد كبير على كمية المطر وموعد سقوطه والذى يخضع لإرادة الكائنات فوق الطبيعية فإذا وضعنا هذه المقدمات نصب أعيننا لوجدنا أن الشخص من شعب المايا منطقى تماماً مع نفسه عندما يعتبر إن الأنشطة الزراعية والطقوسية تمثل مركباً واحداً من ضروب السلوك البشرى (٩٠) .

ولقد قام راد كليف براون بدراسة مشكلات المجتمع وتنظيمه فى محاولة تحليل كل عنصر من عناصر النسق الاجتماعى فى ضوء اسهامه فى العناصر الأخرى ، وخاصة فى تحقيق الأداء الوظيفى للنسق الكلى ، فالطقس الجنائزى مثلاً ليس مجرد جزء من عملية الدفن أو تعبير عن الحزن فحسب ، ولكنه يعبر عن تضامن الجماعة ويدعمه . وأكد رادكليف براون على فكرة التوازن بالذات ، وهى الحالة التى تؤدى فيها كل عناصر المجتمع وظائفها أداء كاملاً دون أى صراع ، فإذا لم يتحقق هذا التوازن فسوف يختل الأداء الوظيفى للنسق ، وسيحاول المجتمع أن يستعيد التوازن ، وأن كان براون قد تجاهل الفرد وتجاهل مظاهر التنوع الموجود فى السلوك . عكس ماليدوفسكى الذى نظر إلى الثقافة بوصفها وسيلة لإشباع احتياجات الانسان الأساسية والمشتقة ، وباعتبارها مرتبطة بالسمات البيولوجية والنفسية ، ولقد أبرز كيفية الارتباط بين شتى

عناصر الثقافة (نظام الكولا) ، ولكنه أدخل في اعتباره بنفس القدر التنوع الفردي في السلوك (٩١) .

وسوف نسوق أحد الأمثال على هذا التكامل الثقافي وهو ما قامت به روث بندكت لقبائل البيويلو Peublo وهي قبائل جنوب غربي أمريكا ، وثقافتهم تقوم على تنظيم سلوك الأفراد تنظيماً دقيقاً بحيث تمنع أن ينفس الفرد عن انفعالاته الزائدة ، وهي تكبل الفرد بمجموعة من الطقوس والالتزامات التي عليه أن يقوم بها ، وهي تمنع كل تجديد يأتي به الأفراد ، مع الضغط الشديد على الأفراد لكي يعملوا في تعاون جماعي مشترك . وفلسفة هؤلاء تقوم على أن العالم منظماً تنظيماً دقيقاً والانسان ليس إلا جزءاً منسجماً مع نظام شامل يشمل الطبيعة كلها ويضمها . فإذا قام كل فرد بالأدوار والوظائف المكلف بها بطريقة آلية فإن الشعب كله سيعمه الرخاء والتقدم لأن العلاقة متبادلة بين الانسان والكون ، فاله المطر سيرسل السحاب الملئ بالماء ، وإله النباتات سيجعل القمح ينضج ، وإله الرقص سيزور القرية وينشر السعادة . فإذا قام الأفراد بوظائفهم فإن الآلهة ستقوم بوظائفها وينتشر الرخاء وتعم السعادة . ولكن إذا تقاعس فرد واحد عن أداء واجبه ووظيفته المنوطة به فإن هذا سيؤدي إلى اضطراب في نظام التوازن الدقيق للكون وسيؤدي إلى خراب المجتمع (٩٢) .

ويرد سمنر هلى هذا التوازن والاتساق بأن العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية تتعرض لضغوط من أجل أن تتكامل وتتسق مع بعضها بعض Strain Consisteney لكن التكامل الحقيقي لا يتحقق بشكل تام أو مطلق ذلك لأن الأحداث التاريخية دائماً ما تفرض تأثيراً مزعجاً ومعوقاً للتكامل فهناك تغيرات في كل المجالات كالعمل والعلاقات والأسرة والشعائر يستغرق وقتاً ، وهناك دائماً ما يطلق عليه أوجبرن Ogburn التخلف الثقافي Cultural lag والذي ينشأ عن اختلاف سرعة التغير بين العناصر المادية والعناصر غير المادية في الثقافة . ونستطيع القول أن كل الثقافات تظهر ميلاً إلى التكامل برغم وجود فروق بينها في مقدار هذا التكامل لأنه إذا لم يكن هناك حداً أدنى من التكامل فإن المجتمع لا يكتب له البقاء والتمسك (٩٣) .

إذا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن التكامل ليس تكاملاً تاماً أو مطلقاً وأن فكرة التكامل هذه نسبية ، والفضل في توجيه الأذهان إلى هذه الفكرة يرجع إلى مدرسة الجشطالت Gestalt والتي ذهبت إلى ابراز فكرة الإدراك الكلي ، وأن الكل شئ أكثر من مجرد مجموع الأجزاء الداخلة في تكوينه ، وأننا لا ندرك الأجزاء منفصلة ، وليس كافياً أن ندرك الجزئيات ، فكل شئ يرتبط بالآخر في الواقع الثقافي ، وهناك دوماً قدر من التوافق والتكيف والتلازم بين العناصر والسمات الثقافية (٩٤) .

وعلى هذا الأساس فإن أية سمة من سمات الثقافة المادية أو اللامادية مثل وجود عادة أو تقليد أو اله أو عقيدة لا يمكن أن تفسر المادية أو اللامادية إلا بالرجوع إلى الكل الثقافي حيث أنها جميعاً لا يمكن أن تفهم إلا باعتبارها أجزاء أساسية تفسرها سائر النظم الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية (٩٥) .

٤- التعقد :

الثقافة كل معقد نظراً لاشتمالها على عدد كبير جداً من السمات والعناصر ، ويرجع ذلك التعقيد إلى تراكم وتوارث التراث الاجتماعي خلال عصور طويلة من الزمن ، وكذلك إلى استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه . كما يعني أيضاً أن عالم الانثروبولوجيا لن يستطيع أن يسجل كل مظاهر وسمات أي ثقافة من الثقافات التي يدرسها مهما بلغت من البساطة (٩٦) .

ولا يقتصر تعقد الثقافة على كثرة وتشابك السمات الثقافية التي تدخل في تكوين الثقافة السائدة في أي مجتمع معين . إذا الواقع أن معظم هذه السمات الثقافية تتكون هي ذاتها من عدد كبير من العناصر الثقافية التي يمكن التمييز بينها بنفس الطريقة التي تعتبر بها الظاهرة الاجتماعية وحدة مركبة من وحدات أخرى أكثر بساطة . مثال ذلك ما نجده عند بعض قبائل الهنود الحمر مثل هنود الاوجيبوا Ojibwa الذين يعيشون حول بحيرة سوبيريور حيث يعتبر الأرز البري من السمات الهامة في ثقافتهم المحلية . فرغم البساطة الظاهرية لهذه السمة فإنها تتألف في واقع الأمر من عدد كبير جداً من العناصر الثقافية التي تتمثل في الممارسات والطقوس والعادات التي تمتزج كلها معاً لتؤلف هذه السمة الثقافية . ومع أن الأرز ينمو هناك برياً فلا يستطيع أحد من أعضاء القبيلة أن يأخذ منه ما يشاء وقت ما يشاء وإنما لابد وأن يتبع بعض القواعد ، فالقبيلة كلها تعطي للمناطق التي ينمو فيها الأرز نصيباً كبيراً من العناية والرعاية كما تعنى بالنبات نفسه أثناء وجوده في الحقول فيحزمونه في حزمات بطريقة معينة يصعب معها على الطيور الاغارة على السنابل ، ثم هم يجمعون المحصول في موسم معين من السنة وبطرق معينة مرسومة ويبذلون في سبيل إعداده للطهي كثيراً من المجهود سواء في الحصد أو الدرس أو التخزين أو الطهي ، وهي عمليات تتم حسب قواعد مدروسة متوارثة . ويرتبط بهذا كله كثير من القواعد المتعلقة بحق الانتفاع بالأرض والتزامات العمل وقواعد اللياقة والسلوك والمحافظة على الوقت بالاضافة إلى كثير من الممارسات والتحريمات الدينية . وكل هذا يبين لنا أنه لا يمكن فهم هذه السمة المعروفة باسم سمة الأرز البري إلا إذا نظرنا إليها على أنها سمة مركبة من عدد من العمليات المتفاعلة

ولذا كان ويسلر Wissler يرى أنه من الأصوب تسميتها مركب الأرز البرى وليس فقط سمة الأرز البرى (٩٧) .

٥- أداة التكيف :

تعتبره الثقافة وسيلة هامة من وسائل التكيف ، ويقصد بالتكيف المحاولات التى يستخدمها أفراد مجتمع معين للتكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية بشكل يضمن لهم البقاء والاستمرار . وإذا أخذنا المسكن كوسيلة ثقافية تكيفية لحماية الانسان من العوامل الايكولوجية القاسية سواء فى البيئة الصحراوية شديدة الحرارة أو البيئة القطبية شديدة البرودة لوجدنا أنماطاً مختلفة من المساكن تتنوع طبقًا للحجم أو المساحة وطبقًا للأغراض الأساسية ثم طبقًا للمادة المستخدمة فى صناعتها ، وبالطبع فإن تلك الأساليب المختلفة التى توفرها الثقافة لكل مجتمع هى أساليب تستهدف تحقيق التكيف مع البيئة الخارجية بشكل يحقق التوازن بين حاجات الانسان الضرورية وبين المصادر الطبيعية المتاحة (٩٨) .

وتتميز الثقافة بتغيرها وهى تتغير لكى تتكيف وتتوافق مع البيئة الجغرافية والبيولوجية والسيكولوجية ، فكلما تغيرت ظروف الحياة ، عجزت الأشكال التقليدية عن توفير القدر اللازم من الاشباع ، ومن ثم فهى تنكمش ، وكلما ظهرت حاجات جديدة وأصبحت موضع اقتناع استخدمت توافقات (وتكيفات) ثقافية جديدة لإشباعها (٩٩) ، ويعزى افتراض كون الثقافة تكيفية إلى فكرة لا مفر أن نفكر فيها وهى فكرة التقدم أو مراحل التطور ، أو فكرة وجود حتمية من أى نوع ، ورغم ذلك فإننا نتفق مع أوبلر Opler الذى يرى بناء على دراسته لقبائل الأباش Apache أن الأشكال الثقافية المختلفة قد تمثل تكيفات لمشكلات متشابهة ، كما أن العكس صحيح أيضاً بمعنى أن الأشكال قد تمثل تكيفات لمشكلات مختلفة (١٠٠) .

٦- الثقافة اشباعية :

تشبع الثقافة دائمًا وبالضرورة الحاجات البيولوجية وكذلك الحاجات الثانوية المشتقة منها ولذلك يقال أن للثقافة خاصية إشباعية Satisfaction . والجوع والعطش مثالان على الحاجات البيولوجية ، أما الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية Socio - Cultural - لأنها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الجمعى (١٠١) .

وهذا الادعاء يعتبر نتيجة مستخلصة من المبدأ السيكولوجى الحديث بشأن المنبه

والاستجابة . فالثقافة تتكون من عادات ، ولقد أثبت علم النفس أن العادات لا تدوم ولا تترسخ إلا بقدر ما تجد اشباعاً [١٠٢] .

وتأسيساً على ما تقدم فإن مكونات الثقافة تبقى فقط إذا ما كانت تمد أفراد المجتمع بحد أدنى من الإشباع . ولقد اهتم مالينوفسكى بهذه النقطة اهتماماً خاصاً . ويترتب على كون الثقافة اشباعية مسلمة أخرى وهى وجود تشابهات ثقافية واسعة المدى بين الثقافات ناتجة عن الحقيقة القائلة بأن الدوافع الإنسانية الأساسية المتماثلة عالمياً تتطلب أشكالاً متماثلة من الإشباع ، ويبدو أن اقتراح ويسلر بوجود ما يطلق عليه النمط الثقافى العلمى Universal - Cultural Pattern – قد بنى على هذه المسلمة [١٠٣] .

٧- الثقافة انتقائية :

أن انتقال عناصر الثقافة هو انتقال انتقائى بمعنى أن الجيل الذى يتلقى عناصر الثقافة ينتقى منها البعض ويستبعد البعض الآخر تبعاً لظروفه وحاجاته، وليس أدل على ذلك من أن الجيل الحالى فى مصر لا يقبل كل العادات القديمة التى شاعت لدى الأجيال السابقة خاصة فيما يتعلق من حب الظهور والتفاخر وتربية الأطفال ، فإن الجيل الحالى قد وقف منها موقفاً انتقائياً أى غير فيها وانتقى ما يناسب ظروفه وأحواله. ولا شك أن قبولنا الواعى لعناصر الثقافة يجعل لنا نوعاً من القدرة على تكييفها تبعاً لظروفنا والوقوف منها موقف الانتقاء لا موقف التلقى السلبى .

ويرى ابن خلدون أن التغير الاجتماعى إنما يتم برفض عناصر ثقافة الأجيال السابقة والابقاء على البعض الآخر ، واضافة عناصر جديدة من واقع حياة الأجيال اللاحقة (الحالى والمستقبل) وفى ذلك يقول : والسبب الشائع من تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال فى الأمثال الحكيمة : الناس على دين الملك . وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر ، فلابد من أن يفرغوا إلى عوائد من قبلهم ، ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع فى عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فإذا جاءت دولة أخرى بعدهم مزجت من عوائدهم وعوائدها ، [١٠٤] .

٨- الثقافة اجتماعية :

تدرس الثقافة فى الجماعات والمجتمعات وذلك لأنها عادات المجتمع وليست عادات الأفراد . وإذا درس الانثروبولوجى سلوك الأفراد ليستنتج منها أنماط الثقافة ، فإنه يدرس هؤلاء الأفراد كأعضاء فى جماعة معينة وليس بصفتهم الفردية الشخصية ،

فدراسة الفرد كشخصية متميزة هو موضوع عالم النفس . وتختلف النظم فى مدى شمولها ، فهناك نظم تطبق على جميع أفراد المجتمع وفى الغالب تتعلق تلك النظم بالمقومات الأساسية لوجود المجتمع واستمراره مثل نظم الضبط الاجتماعي ، ولكن لا تتمتع كل النظم الثقافية بذلك الشمول . ويمكن تقسيم النظم الثقافية على أساس مدى شمولها إلى ثلاثة أنواع (١٠٥) :

١- العموميات Universals :

وهى مفروضة على كل أفراد الثقافة لأنها مشاركة عامة فى الفكر والاستجابة ، بل وتحرص عليها الجماعة كل الحرص ، لأنها التعبير الجمعى عن تلك الروح العامة التى تشيع فى جوانب الثقافة وهى تتصل بكل ما هو عام فاللغة والدين والشعائر ومراعاة التقاليد والعادات التى تفرض ويعاقب كل من يخرج عليها .

٢- الخصوصيات Specialists :

فهى عناصر ثقافية خاصة برمزة أو طبقة وقد تكون ذات طابع مهنى أو تخصصى كالطب والتدريس والمحاماة والحدادة والتجارة (١٠٦) . وتوجد فى كل قطاع من قطاعات المجتمع ، أو فى كل جماعة محلية الثقافة الجزئية الخاصة ، فعلى الرغم من وحدة السمات الثقافية الأساسية أو العموميات فقد ينفرد الرجال ببعض قواعد السلوك وبعض الممارسات من دون النساء ، كما قد يكون للمتزوجين أو الآباء عادات اجتماعية تميزهم عن العزاب وعن الأبناء . وإذا كانت العموميات هى التى تعطى المجتمع وحدته الثقافية وتعبر فى الوقت نفسه عن تلك الوحدة وبذلك تعتبر عاملاً عن عوامل التكامل والتماسك فى المجتمع ، فإن الخصوصيات تؤدى إلى ظهور التمايز والتغاير والتفاوت داخل نطاق المجتمع ، دون أن يتعارض ذلك مع التجانس الثقافى العام . والواقع أن التجانس الثقافى يتوقف إلى حد كبير على مدى التناسب بين العموميات والخصوصيات ، بمعنى أنه كلما زادت العموميات ظهر المجتمع كوحدة ثقافية متجانسة وهى أقل فى العدد من الخصوصيات . فقد يدرك أعضاء المجتمع الكبير وجودها ولكنها لا تؤلف جزءاً من أنماطه السلوكية أما لأنهم لا يحتاجون إليها فى حياتهم اليومية ، وأما لأن ممارستها تحتاج لنوع معين من المران أو الاستعداد لا يتوفر لهم جميعاً (١٠٧) .

٣- البدائل Alternatives :

وهى تختلف كلية عن العموميات والخصوصيات ، وينتقيها الإنسان كإستجابة لموقف من المواقف ، فالموقف الواحد يحتاج إلى أساليب مختلفة من أنماط السلوك تلك التى تحقق نفس الهدف وتشبع نفس الحاجة . فإذا كان صيد الطير أو قنص الحيوان

سمة ثقافية عامة فإن الصيد والقنص يتخذ أشكالاً متنوعة تختلف من عشيرة إلى أخرى . ففى السمة الثقافية العامة نجد عدداً من البديلات أو الأنماط السلوكية البديلة التى يمكن تطبيقها فى نفس الموقف الواحد لإشباع نفس الحاجة وتحقيق نفس الأهداف والأغراض لذلك تخضع هذه البديلات للتغير الدائم (١٠٨) .

٩- التنوع والنسبية :

تختلف الثقافات فى مضمونها بدرجة كبيرة وقد يصل هذا الاختلاف فى بعض الأحيان بحيث نجد أن النظم التى يتبعها مجتمع ما ويعتقد أنها الفضيلة تعتبر جريمة في مجتمع آخر يعاقب عليها القانون (النسبية) . ففى المجتمع العربى إذا لبس أحد الأفراد جلباباً أو بيجامة فى الطريق لا يعتبر سلوكه شاذاً ، أما فى المجتمع البريطانى فيعد ذلك السلوك شائناً ويلتف الناس حول من يرتديه وكأنه أضحوكة ويثير السخرية(١٠٩) .

ومن الأمور الشائعة للتدليل على تنوع سلوك الإنسان وثقافته الغذاء والعادات المرتبطة به ، فهنود المكسيك يعتمد غذاؤهم على الحبوب والخضروات فى حين أن شعوب أخرى فى شرق أفريقيا تتخذ من اللبن غذاء هاماً ، كما تتخذ قبائل الهنود الحمر من الأسماك غذاء أساسياً . كما أن شعوباً كثيرة لديها عادات شرب الخمور مثل الشعوب الأمريكية والأوربية في حين أن شعوب الشرق الأوسط تفضل شرب المياه العادية ولا تتخذ من الخمور شراباً أساسياً لها (١١٠) .

من هذا نرى أن الثقافة تتصف بأنها ظاهرة انسانية توجد فى كل المجتمعات ولا يعنى ذلك أنها متطابقة أو متشابهة فى كل تلك المجتمعات فالثقافة تختلف من مجتمع إلى أخر وهي بالتالى تكون نسبية أولها خصوصيتها المميزة بمعنى أن ما ينطبق على ثقافة ليس من الضرورى أن ينطبق على ثقافة أخرى (١١١) .

ومن ثم فأنه لا يمكن فهم وتفسير وتقييم الثقافات أو الظواهر الثقافية على وجه صحيح إلا إذا نظرنا إلى الظواهر التى نقوم بدراستها بالنسبة إلى البيئة الموجودة بها وإلى الدور الذى تؤديه فى نسق اجتماعى وثقافى أكبر ، وأنه بالتالى ليست هناك قيم شاملة مطلقة (١١٢) .

• الرمزية والرمز والثقافة :

الرمزية Symbolism هى اعطاء معان لأشياء بحيث يصبح فى امكان هذا الجزء أن يعبر عن الكل ويشير إليه . ويتضمن هذا الاصطلاح أشكالاً عديدة من أنماط السلوك

التى يقصد بها توجيه اهتمام خاص لشخص أو شئ أو فكرة أو واقعة ترتبط أو لا ترتبط على الإطلاق بالرمز نفسه (١١٣) .

ونجد أن معنى أى رمز لغوى مثل كلمة حصان لا يرتبط ارتباطاً مادياً من أى نوع بتتابع الأصوات التى تكون الكلمة ، بمعنى أخر ليس هناك شئ حصانى فى كلمة حصان وإنما المجتمع هو الذى يضفى على الكلمة معناها . وما أن يتكون الرمز حتى يستخدم كعلامة ، ويمكن تحديد معنى العلامة من خلال ملاحظة الظروف التى تستخدم فيها ، وهكذا يستطيع الشخص الذى لا يعرف اللغة بمرور الوقت وبفضل الملاحظة الدقيقة أن يدرك العلاقة بين كلمة حصان والظواهر المادية التى تدل عليه(١١٤) .

وينظر علم الإنسان إلى الثقافة على أنها نسق من الرموز التى يستخدمها الأفراد فى علاقتهم كل منهم بالأخر وفى تفاعلهم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ، والرموز تشير إلى موضوعات أو أفعال أو أشياء أو أحداث من حيث أن لها معانى مميزة بالرغم من عدم وجود علاقة ضرورية بين الرموز وتلك الأشياء بمعنى أن علاقة تعسفية تقوم فى المحل الأول على وجود اتفاق عام داخل المجتمع أن رمزاً معيناً يشير إلى معنى معين (١١٥) .

ويستخدم البشر الرمز أى يضيفون معانى مختلفة على ظواهر مادية فنجد أن اللون الأحمر يدل على الخطر ، أو يكون اشارة للوقوف عند تقاطع معين، كما أنه قد يكون شعاراً لحزب سياسى، وتستخدم احدى شركات الأفلام السينمائية الأسد شعاراً لها ، والرياضيات مليئة بعملية استخدام الرموز (١١٦) .

أن القدرة على استخدام الرموز وتفسيرها هى أحد العوامل الهامة التى تميز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى . فالإنسان قادر على استخدام الرمز واضفاء معان كثيرة على شئ واحد وهذه القدرة تكون غائبة تماماً عن الحيوان الذى لا يدرك اللغة واستخدامها وبالتالى لا يعرف الرمز بالرغم من معرفته للاشارة التى تختلف عن الرمز اختلافاً كبيراً . فالحيوان يدرك الاشارة عن طريق الارتباط الشرطى الآلى بين اشارة معينة وبين شئ آخر مرتبط بها ارتباطاً مباشراً مثلما هو الحال عندما يتم اصدار صوت معين أو القيام بفعل معين (يكون بمثابة الاشارة) فى نفس الوقت الذى يقدم للحيوان الغذاء أو الطعام فإذا سمع الحيوان الصوت أو رأى نفس الفعل أو الاشارة فأنه بصورة غريزية سوف يسيل لعابه ، لكنه فى نفس الوقت لا يدرك المعانى الأخرى التى يمكن أن تضاف إلى نفس الصوت أو الاشارة (١١٧) .

والقدرة على استخدام الرمز تمكن الإنسان من نقل ما تعلمه على نحو أكثر كفاءة مما تفعل الحيوانات . كما أنها تيسر للإنسان عبور الفجوة القائمة بين الخبرات المادية المنفصلة مما يضفى طابع الاستمرار والاتصال على اكتساب الخبرات البشرية . وإذا كانت الحيوانات تتعلم عن طريق الخبرة المباشرة وكذلك من خلال ملاحظة وتقليد أفعال الآخرين ، إلا أن البشر لا يتعلمون من خلال ذلك فقط ، وإنما يتعلمون من خلال الخبرة التى تتراكم فى صورة رموز تكون لغوية عادة فما أن ينجح الإنسان فى حل مشكلة معينة حتى يصبح بوسعه تلخيص هذه الخبرة فى كلمات مستبعداً كل محاولاته الفاشلة لكى تكون هذه الخبرة فى متناول الآخرين . وبهذه الطريقة يمكن أن تصبح جميع خبرات أى فرد فى متناول بقية أفراد المجتمع (١١٨) .

كما أن اللغة وغيرها من أساليب الترميز تمكن البشر من تلخيص أساليب السلوك التى تعلموها ونقلها لكل جيل جديد . كذلك يؤدى خلق الرموز واستخدامها إلى تمكين الإنسان من جعل خبراته تتدفق باستمرار ذلك أن الخبرات المادية ليست مستمرة سواء عند الانسان أو الحيوان فلكل خبرة بداية ونهاية وتفصل بين كل خبرة فترة زمنية قد تطول أو تقصر (١١٩) .

وتعتبر الرموز وسيلة هامة فى عملية التعليم وتحصيل المعارف حيث أن الرموز بقدرتها التشخيصية الحسية أو طبيعتها المادية تجعل التصورات المجردة أكثر يسراً على الفهم فتصور العدالة وهو تصور مجرد يمكن فهمه بشكل أيسر عندما يرمز إليه برمز الميزان فهذا الرمز يشير إلى مفهوم العدل (١٢٠) .

وعادة تكوين الرمز واستخدامه تسمح للإنسان بالقدرة على التفكير فى المشكلة حتى ولو لم تكن ماثلة مادياً أمامه ذلك لأن البشر يناقشون مشكلاتهم مع الآخرين ومع أنفسهم من خلال التعبير عن المشكلة فى كلمات واختيار الحلول أثناء المحادثة أو بطريق التخيل . وهكذا يمكن القول بأنه على الرغم من أن الخبرات المادية للإنسان شأنها شأن خبرات الحيوانات منفصلة عن بعضها وليست متصلة إلا أنه يستطيع تحقيق اتصال الخبرة والتعلم بتحويل هذه الخبرات إلى رموز تتخذ صورة الكلمات يحفظها فى السجلات المدونة وبعديد من وسائل أخرى من نفس النوع (١٢١) .

فالثقافة إذاً لا تتكون من أساليب المتعلمة التى تراكمت على يد أفراد كثيرين عبر أجيال عديدة ، ولا يتيسر تراكم السلوك المتعلم إلا من خلال وضع رموز معينة واستخدامها إذاً بدون هذه الوسيلة يصبح التعليم جامداً وغير قابل للتقدم . والإنسان هو الوحيد القادر على ممارسة سلوك رمزى . حقيقة أن الحيوانات الأخرى يمكن أن تتعلم كيف تستخدم الرموز ، ولكنها لا تخلف هذه الرموز ، فالثقافة فى جوهرها هى تراكم

لأنماط السلوك المتعلم التى نشأت وتطورت بفضل الرموز التى ظهرت إلى الوجود عندما تعلم الإنسان كيف يرمز للأشياء (١٢٢) .

• **التغير الثقافى Cultural Change :**

اهتم علماء الثقافة بدراسة التغير الاجتماعى ، والثقافة خاضعة لقانون التغير الذى تخضع له جميع مظاهر الكون . كما قال : هيرقليطس Heraclitus ؛ أن التغير قانون الوجود وأن الاستقرار موت وعدم . والتغير الثقافى يقصد به تغير يحدث فى العناصر المادية وغير المادية للثقافة ، ويقصد بالعناصر المادية المبانى والأثاث ووسائل المواصلات ... الخ . أما العناصر المعنوية فيقصد بها العادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك ... الخ . وتتغير الثقافة بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوك ، أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات التى لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة . وتبدأ عملية التغير أولاً فى العناصر المادية للثقافة حيث يبدو التغير فيها بسرعة بعكس العناصر المعنوية فإنها تتبع فى تغيرها العناصر المادية وبذلك يتم فيها التغير ببطء شديد . ومعنى هذا أن العناصر المعنوية تتخلف من العناصر المادية وتعرف هذه الظاهرة باسم التخلف الثقافى Cultural Lag (١٢٣) .

فبعض التغييرات الثقافة تحدث تدريجياً من خلال الحقيقة التى مؤداها أنه ليس بوسع كل فرد وكل جيل أن يكرر بدقة سلوك أسلافه الأمر الذى يؤدى إلى ظهور التعديلات والتغييرات الثانوية باستمرار ، وأن كان من الممكن أن تنحصر تلك التغييرات ى حدود معينة تمليها البيئة والتكنولوجيا المتاحة (١٢٤) .

الاحتكاك أو الاتصال الثقافى Cultural Contact :

ويرى العلماء الثقافيون أن الاحتكاك الثقافى هو السبب الأول فى تغير الثقافات حيث أن احتكاك الثقافة أو اتصالها يعتبر هو الوسيلة الوحيدة التى تستطيع الملامح الثقافية أن تهاجر بها إلى مختلف المجتمعات ، كما أنها الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها الشعوب المختلفة أن تستعير السمات الثقافية بعضها ببعض وأدى بهم إلى دراسة عملية انتشار الثقافة كأحد العوامل الأساسية فى التغير الثقافى (١٢٥) .

فالاحتكاك الثقافى يعتبر فى نظر العلماء الوسيلة الفعالة للتغير الثقافى وواضح أنه لن يمكن لمجتمع أن يستعير من غيره من المجتمعات أية عناصر أو سمات ثقافية أن كان يعيش فى عزلة ولم تهيأ له فرصة الاحتكاك الثقافى بها ، وليس من شك فى أنه كلما طالت فترة الاحتكاك الثقافى بين أى مجتمعين أو جماعتين وتنوعت مظاهر وفرص الاتصال بينهما كلما زادت الاستعارات الثقافية بينهما وبالتالى زاد التغير وليس

من الضرورى أن يتم هذا الاتصال أو الاحتكاك بطريق مباشر – على ما يقول ميردوك – فثمة حالات كثيرة للاستعارة الثقافية عن بعد (١٢٦) .

والاستعارة الثقافية عن بعد تتم بين ثقافات مجتمعات متباعدة مكانياً بواسطة اللغة المكتوبة أو المسموعة أو الصورة المرئية ، وكذلك بوسائط أخرى كالغزو السياسى أو العسكرى ، أو الزواج بأعضاء مجتمعات أخرى مما يأتى بأطفال يمكنهم اكتساب عادات من خلال الوالدين (١٢٧) .

ويطلق البعض على لفظ استعارة لفظ اقتباس حيث تكون العادة جزءاً من ثقافة مجتمع آخر وفى هذه الحالة لا يكون المجدد هو ذاته مبدع العادة الجديدة بل هو أول عضو يتبنى هذه العادة فى جماعته الاجتماعية ، والاقتباس الثقافى من وجهة نظر علم النفس حالة خاصة من عملية التعلم المعروفة باسم التقليد Imitation وجدير بالذكر أن معظم الاكتشافات ليست إلا محصلة لعملية الاقتباس هذه . وتعتبر الثقافة الأمريكية الحديثة مثالاً بارزاً على ذلك حيث اقتبست لغة المجتمع الأمريكى من انجلترا ، والأرقام من الهند ، والورق والطباعة من الصين ، والتنظيم العائلى ونظام الملكية من أوروبا فى العصور الوسطى (١٢٨) .

ويرى فريق من علماء الانثروبولوجيا أن الاستعارة الثقافية تتم فى الأغلب بين المجتمعات المتجاورة أو القريبة من بعضها ، ولقد أعطوا الكثير من العناية والاهتمام لهذا الموضوع وبخاصة فى أمريكا حيث حاولوا أن يتتبعوا الاستعارات الثقافية بين قبائل الهنود الحمر من ناحية والمجتمعات الأفريقية من ناحية أخرى ودرسوا ما يعرف باسم الدوائر الثقافية Cultural Circles التى تغطى مناطق شاسعة يسكنها عدد كبير من القبائل التى تصطبغ بصبغة ثقافية واحدة نتيجة لهجرة السمات الثقافية من قبيلة لأخرى (١٢٩) .

التغيرات الاجتماعية :

يذكر ميردوك Murdock أن التغيرات الثقافية تنشأ عن التعديلات الهامة التى تطرأ على ظروف الحياة ، وأن أى حدث يؤدى إلى تغير المواقف التى يتم فيها السلوك المعتاد أو المألوف بحيث يترتب عليه تغيير ذلك السلوك أو اختفاؤه قد يؤدى إلى تغييرات وتجديدات ثقافية فى المجتمع ويدخل ضمن هذه الأحداث التى ينتج عنها تغير ثقافى جوهرى الزيادة أو النقصان فى السكان ، والتغييرات التى تحدث فى البيئة الجغرافية ، والهجرة إلى بيئة جديدة ، والاتصال بشعوب لها ثقافات مختلفة ، والكوارث الطبيعية أو الاجتماعية مثل الفيضانات وانتشار الأوبئة والحروب والأزمات الاقتصادية (١٣٠) .

كيف تتغير الثقافة :

يبدأ التغير الثقافي بعملية التجديد Innovation وفيها يبدز فرد بتكوين عادة جديدة ثم يتبع ذلك قبول أعضاء المجتمع الآخرين لهذه العادة أو تأييدهم لها أو تعلمها وهكذا يتأصل التجديد في المجتمع من خلال عملية نفسية للتعلم ، والتجديد يختلف عن العادات الفردية فقط في أنه يصبح موضع مشاركة اجتماعية ، (أي يشترك فيه كل أعضاء المجتمع) (١٣١) .

- **أشكال التجديد :**

أ- التحوير Variation :

يتخذ التجديد شكل التحوير أو يكون التجديد مجرد تحوير Variation للسلوك المعتاد الذي يخضع للتعديل بفعل الظروف والملابسات التي تتغير ببطء وبالتدريج كما هو الحال مثلاً في تعديل موضات الملابس أو بعض الشعائر والطقوس بالتدريج (١٣٢) .

ب- الاختراع Invention :

الاختراع هو التأليف بين عدة مواد أو عدة ظروف أو عدة طرق موجودة يصل بها الإنسان أو يخرج بها الإنسان إلى مادة أو ظروف أو طرق جديدة يطبقها في حياته العملية ، ويؤدي هذا إلى تطوير حياته ونظمه وذلك كاختراع الآلة البخارية والسيارة والقطار والصاروخ في العصور الحديثة أو العجلة البخارية في العصور القديمة . فثمة فرق بين الاختراع والاكتشاف Discovery وهو الانتباه إلى شئ موجود بالفعل والانتباه إلى فوائد لم يكن يعرفها الإنسان له كاكتشاف قوة البخار ، وقد يكون الاكتشاف قوة البخار ، وقد يكون الاكتشاف الانتباه إلى فوائد جديدة لوسائل معروفة أو لطريق كان موجوداً ولكن لم يكن معروفاً (١٣٣) .

أو بمعنى آخر نجد أن الاختراعات تنقسم إلى نوعين الاختراعات الأولية أو الأساسية Inventions وهي التي تقوم على اكتشاف عنصر جديد ، والاختراعات الثانوية أو التحسينية Discoveries ، وهي تلك التي تقوم على مجرد تطبيق لمبدأ معروف من قبل فالقوس يعتبر اختراعاً أساسياً فقد حدث أن اكتشف شخص ما ، ربما عن طريق المصادفة ، أنه إذا أثنيت قطعة رفيعة من الخشب عن طريق توصيل حبل بين طرفيها ، فإنها تمثل مصدر قوة لم يكن معروفاً من قبل ونحن لا نعرف متى ولا أين تم صنع القوس – يحتمل أن يكون هذا قد تم في مكان ما من العالم القديم قرب نهاية العصر الحجري القديم – وفكرة القوس قد طبقت في صور عديدة من الاختراعات الثانوية ، من هذه الاختراعات استخدام القوس في دفع السهام ، والقوس الثاقبة التي تستخدم في عمل الثقوب ، وكذلك القوس الموسيقية (كالهارب Harp

والكمان) التى تستخدم حبلاً مشدوداً لاصدار نغم موسيقى . وبنفس الطريقة أدى اكتشاف البخار المتولد من احتراق البنزين والبخار المتولد من غليان الماء إلى خلق عدد كبير من الآلات وأدوات النقل الحديثة (١٣٤) .

وقد يكون الاختراع مقصوداً بمعنى أن يعمد شخص أو عالم إلى التفكير في حل مشكلة من المشكلات بوسائل مبتكرة وينجح فى الوصول إلى اختراع حل للمشكلة أو هو النوع الغالب فى العصور الحديثة فالعلماء ورجال الفكر -فى سبيل حل المشكلات التى تصادف الحياة الاجتماعية - يعملون فكرهم لابتكار وسائل وأفكار جديدة . ولكن الاختراع قد يتم بشكل غير مقصود وعن طريق الصدفة وهذا النوع كان الغالب فى العصور القديمة والوسطى والمجتمعات البدائية (١٣٥) .

ولكن من الذى يجدد ويخترع أهم الأفراد أم العقل الجمعى ، ولقد ذهب اميل دوركايم إلى أن الأفراد لا يستطيعون التجديد ولا الابتكار وإنما الذى يستطيع ذلك هو العقل الجمعى ، أى المجتمع فى كلية ، أما المخترعون والمكتشوفون والعباقرة الأفراد فإنهم عندما يأتون بأفكار وأشياء جديدة فإنهم فى هذا لا يمثلون فكرهم الفردى وإنما هم معبرون عن المجتمع ذلك أن مثل هؤلاء المجددين لا يأتون بتجديداتهم من لا شئ وإنما هم وصلوا إليها لأن المجتمع الذى عاشوا فيه وتلقوا ثقافته أوحى إليهم بتلك الأفكار الجديدة ، وكل ما لهم من فضل هو أنهم كانوا أقدر من غيرهم على فهم اتجاهات العقل الجمعى وساروا فى اتجاه التيار الجمعى ووصلوا إلى اكتشافاتهم . فالتجديد فى رأى دوركايم وزملائه ظاهرة اجتماعية لا فردية . ووقف ضد هذه الفكر تارد Tarde الفرنسى ومعظم علماء الاجتماع الانجليز والأمريكيين الذين يعتقدون أن ثمة أفراداً موهوبين فى المجتمع يستطيعون دائماً بعبقريتهم الاكتشاف والاختراع والتجديد وقيادة المجتمع إلى أفكار جيدة ، ولهؤلاء الأفراد مكانة مرموقة فى المجتمع تميزهم عن عامة أفراده (١٣٦) .

الثقافى Cultural Contact :

حيث يلجأ المجتمع إلى تجريب عادات غريبة بحيث يلجأ المجتمع إلى مثل هذه العادات وطرائق السلوك التى اخترعها مجتمع آخر ويجربها فى حل مشكلاته ثم يتبناها حين تثبت صلاحيتها وفاعليتها (١٣٧) .

ويسمى هذا الأسلوب فى علم النفس بالتعلم عن طريق المحاولة والخطأ ويمكن أن يحدث إكتشاف فى أى موقف يثبت فيه عدم فعالية العادات المتبعة، مما يدفع الأفراد بقوة إلى محاولة تجريب أساليب أخرى للسلوك لحل مشاكلهم ، والأزمات بصفة خاصة تؤدى إلى الاكتشاف . ففى أوقات المجاعات يحاول الناس تجريب كل الأشياء التى لم

يسبق لهم أكلها من قبل ، وإذا ثبت لهم أن بعضها مغذياً ومقبول الطعم أمكنهم اضافتة إلى قائمة أطعمتهم المألوفة . كذلك الحال بالنسبة لانتشار وباء جديد فهو يؤدى إلى البحث عن علاجات مجدية وناجحة . لذلك فإن القول الشهير الذى يشير إلى أن : الحاجة أم الاختراع ، ينطبق على الاكتشاف أكثر مما ينطبق على الاختراع (١٣٨) .

د- الاستعارة الثقافية Cultural Borrowing :

أو ما يعرف باسم الانتشار وفى هذه الحالة يتقبل المجتمع بعض العادات الاجتماعية التى وجدت فى مجتمع آخر وينقلها ويحاكيها بدلاً من أن يحاول الاختراع أو تعديل بعض نواحى ثقافته الخاصة ، أو يجرب بعض العناصر الموجودة فى ثقافة أخرى ليحل بها مشكلاته . وتعتبر الاستعارة الثقافية أهم هذه المظاهر الأربعة للتجديد وأكثرها شيوعاً (١٣٩) . ولقد عرضت لهذه النقطة بالتفصيل فى متن الحديث عن الاتصال الثقافى .

مجمل القول أن التغير الثقافى يمكن أن نعزوه لعدة أسباب :

أولاً : اضافة الأجيال الجديدة من خبرات وقيم وأفكار ومنتجات مادية تتواكب مع متطلبات العصر الحديث أو استبعاد بعض المنتجات والأفكار التى لم تعد متوائمة مع مقتضيات الحياة الحديثة .

ثانياً : الاحتكاك أو الاتصال الثقافى وهجرة السمات وانتشار الثقافة .

ثالثاً : التغيرات الاجتماعية تؤدى إلى تغير المواقف التى يتم فيها السلوك المعتاد أو اختفاء هذا السلوك .

رابعاً : تتغير الثقافة من خلال عملية التجديد وتكوين عادة جديدة تتأصل فى المجتمع ويتخذ التجديد عدة أشكال منها التحوير ، الاختراع ، تجريب واختبار عادات جديدة ، الاستعارة الثقافية .

هوامش الفصل:

(١) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٠ ، أسس علم الإنسان : الانثروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١٨ – ١٩ .

(٢) فاروق أحمد مصطفى ، « المقدمة فى الانثروبولوجيا » ، «فى» نخبة من أعضاء هيئة التدريس ، ٢٠٠٠ ، علم الإنسان ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١٥ – ٢٨ ، ص٢٥ .

(٣) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، علم الإنسان : الانثروبولوجيا ، مطبعة الجمهورية ، اسكندرية ، ص٢٥ .

(٤) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٦ ، ٢٧ .

(٥) حمدى عباس عبد المنعم ، « فى الانثروبولوجيا وفروعها » ، فى ، محمد عباس ابراهيم وآخرون ، ٢٠٠٨ ، المدخل إلى الانثروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١٥ : ٣٩ ، ص ص٣٤ ، ٣٥ .

(٦) أحمد زكى بدوى ، ١٩٧٧ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ص١٤٠ .

(٧) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، قراءات فى علم الإنسان : الإنسان ، البيئة ، الثقافة ، مطبعة الجمهورية ، الاسكندرية ، ص١١ .

(٨) أحمد زكى بدوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٤٠ ، ١٤١ .

(٩) فاروق أحمد مصطفى ، « المقدمة فى الانثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها بالانثروبولوجيا العامة » ، فى ، فاروق أحمد مصطفى ومحمد عباس إبراهيم ، ٢٠٠٧ ، الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١٥ : ٤١ ، ص٣٥ .

(١٠) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٩ ، ٣٠ .

(١١) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٦ .

(١٢) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٠ .

(١٣) محمد عباس إبراهيم ، ٢٠٠١ ، الثقافات الفرعية ، دراسة انثروبولوجية للجماعات النوبية بمدينة الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١١٧ ، ١١٨ .

(١٤) أ. أ. ايفانز بريتشارد، ١٩٧٥ ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة أحمد أبو زيد ، الطبعة الخامسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ، ص٩ .

(١٥) نفس المرجع السابق ، ص١١ .

(١٦) نفس المرجع ، ص٩ .

(١٧) فاروق مصطفى ، « المقدمة فى الانثروبولوجيا وعلاقتها بالانثروبولوجيا العامة » ، مرجع سابق ذكره ، ص٣٥ .

(١٨) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٠ : ٣٢ .

(١٩) أحمد أبو زيد ، ١٩٥٧ ، تايلور ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ص٣٥ .
(٢٠) حمدى عباس عبد المنعم ، فى الانثروبولوجيا وفروعها ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٥ .
(٢١) أ. أ. ايفانز بريتشارد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٠ .
(٢٢) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦ .
(٢٣) نفس المرجع السابق ، ص ص٢٨ ، ٢٩ .
(٢٤) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٨ .
(٢٥) نادية أحمد محمد ، « البحث الأركيولوجى » ، « فى » ، « نخبة من أعضاء هيئة التدريس ، ، ٢٠٠٣ ، مدخل إلى الانثروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص٣٦٧ : ٣٩٠ ، ص٣٧٢ .
(٢٦) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٩ .
(٢٧) نادية أحمد محمد ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٢ .
(٢٨) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٩ .
(٢٩) محمد الجوهرى ، ١٩٨٠ ، الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٣٢ .
(٣٠) نادية أحمد محمد ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٣ .
(٣١) أ. أ. ايفانز بريتشارد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٠ .
(٣٢) محمد عبده محجوب، ٢٠٠٧ ، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق) ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص٢٨ .
(٣٣) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٠ ، ٣١ .
(٣٤) فاروق أحمد مصطفى ، المقدمة فى الانثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها بالانثروبولوجيا العامة، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٨ ، ٢٩ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٣٦) فاروق أسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٧ – ٢٩ . .
(٣٧) سامية حسن الساعاتى ، ١٩٨٣ ، الثقافة والشخصية : بحث فى علم الاجتماع الثقافى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص٧٥ .
(٣٨) مها معاذ ، « الأنثروبولوجيا » ودراسة اللغة « فى » ، نخبة من أعضاء هيئة التدريس ، ٢٠٠٤ ، الانثروبولوجيا ، مدخل نظرى تطبيقى ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص٢٢٧ : ٢٦٢ ، ص٢٦٢ .
(٣٩) نفس المرجع السابق ، ص ص٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٤٠) محمد عباس ، إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص٣١٨ .
(٤١) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٣ .

(٤٢) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٢ .
(٤٣) مها معاذ ، انثروبولوجيا اللغة ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢٤ .
(٤٤) محمد الجوهرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٨ ، ١٩ .
(٤٥) نفس المرجع السابق ، ص٣٧ .
(٤٦) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٣ ، ٣٤ .
(٤٧) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٢ ، علم الاجتماع الثقافى ومشكلات الشخصية فى البناء الاجتماعى ، منشأة المعارف ، اسكندرية ، ص٣١٢ .
(٤٨) فاروق أحمد مصطفى ، الانثروبولوجيا ودراسة الإنسان ، ، فى ، نخبة من أعضاء هيئة التدريس ، ٢٠٠٣ ، مدخل إلى الانثروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص١٥ : ٢٨ ، ص٢٨ .
(٤٩) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٥ .
(٥٠) حمدى عباس عبد المنعم ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٢ .
(٥١) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٦ : ٣٨ .
(٥٢) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، البناء الاجتماعى – مدخل لدراسة المجتمع – الجزء الأول – المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ، ص ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٥٣) لبيبة محمد موسى ، الانثروبولوجيا السيكولوجية ومجالاتها ، ، فى ، نخبة من أساتذة الانثروبولوجيا، ١٩٩٨ ، علم الانسان : الانثروبولوجيا ، مركز سروات للأبحاث ، الاسكندرية ، ص ص١٨٧ : ٢٠٧ ، ص ص١٨٩ ، ١٩٠ .
(٥٤) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٦ .
(٥٥) نفس المرجع السابق ، ص٢٣٤ .
(٥٦) لبيبة محمد موسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٠ .
(٥٧) حسن شحاتة سعفان ، ١٩٦٦ ، علم الانسان ، منشورات مكتبة العرفان ، بيروت، ص١٤٨ .
(٥٨) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٥ .
(٥٩) لبيبة محمد موسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٠ .
(٦٠) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٦ .
(٦١) السيد حافظ الأسود ، ، الثقافة الإنسانية ، : طبيعتها وخصائصها وأنماطها ، ، فى ، مجموعة من أساتذة قسم الاجتماع ، ١٩٩٥ ، علم الإنسان : مدخل عام ، دار القلم ، دبى ، دولة الإمارات العربية ، ص ص١٣١ : ١٦٥ ، ص ص١٣١ ، ١٣٢ .
(٦٢) السيد على شتا ، ١٩٩٥ ، البناء الثقافى للمجتمع ، مؤسسة الشباب الجامعية ، الاسكندرية ، ص ص ١٥ ، ١٦ .
(٦٣) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٨٨ : ١٩١ .

(٦٤) أحمد أبو زيد ، ١٩٥٧ ، تايلور ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ص١٩٥ .

(٦٥) عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية : الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ص٦٨ ، ٦٩ .

(٦٦) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٢٣ – ١٢٤ .

(٦٧) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٩٥ .

(٦٨) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢٤ .

(٦٩) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٩٥ ، ١٩٦ .

(٧٠) محمد الجوهرى ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٦٧ ، ٧١ .

(٧١) حسن شحاتة سعفان ، ١٩٦٦ ، الانثروبولوجيا : علم الإنسان ، مكتبة العرفان ، بيروت ، ص١١٣ .

(٧٢) عاطف وصفى ، مرجع سبق ذكره ، ص٦٩ .

(٧٣) حسن شحاتة سعافان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١١٣ ، ١١٤ .

(٧٤) مصطفى عمر حمادة ، ٢٠٠٧ ، علم الإنسان : مدخل لدراسة المجتمع والثقافة ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص٢٠٧ .

(٧٥) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٤ .

(٧٦) عاطف وصفى ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٠ .

(٧٧) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٥ .

(٧٨) فاروق أحمد مصطفى ، الثقافة وطبيعتها ، ، فى ، فاروق أحمد مصطفى ، محمد عباس إبراهيم، ٢٠٠٧ ، الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ص٤٣ – ٧٦، ص ص ٦٩ : ٧١ .

(٧٩) مصطفى عمر حماده ، مرجع سبق ذكره ، ص٢١٢ .

(٨٠) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٥ .

(٨١) نفس المرجع السابق ، ص ص١١٥ ، ١١٦ .

(٨٢) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٨٩ ، ١٩٠ .

(٨٣) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤١ .

(٨٤) سامية حسن الساعاتى ، ١٩٨٣ ، الثقافة والشخصية : بحث فى علم الاجتماع الثقافى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص٧٤ .

(٨٥) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٢ .

(٨٦) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٥ .

(٨٧) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢٩ .

(٨٨) سامية حسن الساعاتى ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٦ .

(٨٩) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٣ .
(٩٠) محمد الجوهري ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٧١ ، ٧٢ .
(٩١) نفس المرجع السابق ، ص ص٧٢ ، ٧٣ .
(٩٢) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١١٧ ، ١١٨ .
(٩٣) سامية الساعاتي ، ١٩٨٣ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٧٩ ، ٨٠ .
(٩٤) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٤ ، مرجع سبق ذكره، ص١٣٩ .
(٩٥) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٢ ، مرجع سبق ذكره ، ص٥٤ .
(٩٦) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٩٣ ، ١٩٤ .
(٩٧) نفس المرجع السابق ، ص ص١٩٦ ، ١٩٧ .
(٩٨) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٤٣ ، ١٤٤ .
(٩٩) سامية محمد جابر ، ١٩٩١ ، علم الانسان : مدخل إلى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار العلوم العربية ، بيروت – لبنان ، ص٢٩ .
(١٠٠) سامية حسن الساعاتى ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٨ .
(١٠١) نفس المرجع السابق ، ص ص٧٦ ، ٧٧ .
(١٠٢) سامية محمد جابر ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٩ .
(١٠٣) سامية حسن الساعاتى ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٧ .
(١٠٤) سامية الساعاتى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٨١ ، ٨٢ .
(١٠٥) عاطف وصفى ، مرجع سبق ذكره ، ص٧٥ .
(١٠٦) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٢ ، مرجع سبق ذكره ، ص٥٣٢ .
(١٠٧) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٠١ ، ٢٠٢ .
(١٠٨) قبارى محمد اسماعيل ، ١٩٨٢ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٥٣٢ ، ٥٣٣ .
(١٠٩) عاطف وصفى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٧٦ ، ٧٧ .
(١١٠) السيد على شتا ، مرجع سبق ذكره ، ص٢١ .
(١١١) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠ .
(١١٢) أحمد زكى بدوى ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٥٢ .
(١١٣) نفس المرجع السابق ، ص٤١٨ .
(١١٤) محمد الجوهرى ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٩٠ ، ٩١ .
(١١٥) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٧ .
(١١٦) محمد الجوهرى ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٩١ ، ٩٢ .
(١١٧) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٧ .
(١١٨) محمد الجوهرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٩٢ ، ٩٣ .

(١١٩) نفس المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(١٢٠) السيد حافظ الأسود ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٨ .
(١٢١) محمد الجوهري ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٤ .
(١٢٢) نفس المرجع السابق ، ص ص٩٤ ، ٩٥ .
(١٢٣) سامية الساعاتي ، مرجع سبق ذكره ، ص٨٢ .
(١٢٤) محمد الجوهري ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٢ .
(١٢٥) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٧٤ ، ٢٧٥ .
(١٢٦) نفس المرجع السابق ، ص ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(١٢٧) سامية محمد جابر ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٤ .
(١٢٨) نفس المرجع السابق ، ص ص٣٣ ، ٣٤ .
(١٢٩) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٧ .
(١٣٠) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٥ .
(١٣١) سامية محمد جابر ، ١٩٩١ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣١ ، ٣٢ .
(١٣٢) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(١٣٣) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص١٠٨ .
(١٣٤) محمد الجوهري ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥٨ .
(١٣٥) حسن شحاتة سعفان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٠٨ ، ١٠٩ .
(١٣٦) نفس المرجع السابق ، ص ص١٠٩ ، ١١٠ .
(١٣٧) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٦ .
(١٣٨) سامية محمد جابر ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٣ .
(١٣٩) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٦ .

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا الإجتماعية

أولاً: نشأة الأنثروبولوجيا الإجتماعية وتطورها التاريخي:

ثانياً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية والإتجاه الوظيفي Functionalism:

ثالثاً: الأبعاد الأثنوجرافية والإثنولوجيه للأنثروبولوجيا الإجتماعية:

رابعاً: ماهية الأنثرولوجيا الاجتماعية وتطور مجالها المجتمعي:

خامساً: البناء الإجتماعي موضوع الدراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

سادساً: علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالأنثروبولوجيا الثقافية:

الفصل الخامس

الأنثروبولوجيا الإجتماعية(*)

يُعتبر البحث فى شئون المجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان نفسه قبل أن تظهر الأنثروبولوجيا الإجتماعية كعلم أو تخصص علمى أكاديمى، ويفترض البعض أن أرسطو Aristotle (٣٤٨-٣٢٢ ق.م) الفيلسوف اليونانى هو أول من وجه الفكر الإنسانى نحو إسلوب التفكير التطورى فى دراسة الإنسان وقد دعا إلى وصف وتحليل نشأة الحكومات ونظم الحكم مما يعد مساهمة هامة فى دراسة النظم الإجتماعية.

– كما أن المؤرخ اليونانى العظيم هيوردوت Herodotus (٤٨٠-٤٢٥ ق.م) ومن خلال رحلاته العديدة وقراءاته الواسعة، قدم لنا وصفاً دقيقاً لحوالى خمسين شعباً من شعوب العالم آنذاك ومنها وصفه الدقيق للحياة الاجتماعية فى مصر ولبعض الشعوب البربرية فى شمال أفريقيا وبحيث يطلق عليه البعض أبو الأنثروبولوجيا.

ويتناول الفصل المحاور الآتية:-

أولاً: نشأة الأنثروبولوجيا الإجتماعية وتطورها التاريخى:

ترجع بدايات الأنثروبولوجيا الإجتماعية وتمتد جذورها التاريخية إلى أزمنة بعيدة وهى ترتبط بتاريخ التفكير الإجتماعى وتطور الأسس النظرية والمنهجية فى دراسة المجتمعات الإنسانية.

ويُعتبر عبد الرحمن بن خلدون (أواخر القرن الرابع عشر ٧٣٢هـ - ١٤٠٦م) المكفر العربى الإسلامى فى مقدمته الشهيرة لكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر». هو رائد علم الاجتماع، ومن أوائل الذين قاموا بوضع قواعد منهجية لدراسة المجتمع الإنسانى وقام بتطبيقها على الحقائق والروايات والأخبار أو المعطيات التى يجمعها الباحث عن مختلف نواحى الإجتماع الإنسانى بحيث لا يكتفى بجمع الوفير منها وإلا تعرض لأخطاء تهدم بحثه من أساسه.

بل أن مقدمة ابن خلدون تعد عملاً أصيلاً فى تسجيل الحياة الإجتماعية لشعوب شمال أفريقيا وفى عقد المقارنات بين العادات والتقاليد والقيم والعلاقات والنظم

(*) كتب هذا الفصل د. نادية أحمد محمد أحمد مدرس الأنثروبولوجيا، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الإجتماعية السائدة وذلك فى ثلاثة أنماط معيشيه هي البداوة والفلاحة والحــضارة فى ضوء النظر إلى سلوكـيات النـاس فى سياق حياتهم وتقاليدهم وقيمهم وليس فى إطار تقويمى يعتمد على ثقافة الباحث.

ويرى بعض الأنثروبولوجين البريطانيين أن مقدمة ابن خلدون تحتوى على بعض موضوعات الأنثروبولوجيا الإجتماعية سواء ما يتعلق بالعلاقة بين البيئة الجغرافية وبين السكان والظواهر الاجتماعية وأثر البيئة فى تحديد المستوى الحضارى للمجتمعات الإنسانية فى ضوء منظور جغرافى تاريخى مقارن بالإضافة إلى بحثه عن مراحل تطور الحضارة الإنسانية وما أسماه بدورة الحضارات على غرار دورة الحياة الفردية من الميلاد حتى الممات.

كما تناول ابن خلدون مبدأ العصبيه (فى العلاقات القرابية) وأهميته فى فهم المجتمعات القبليه. وقد انتقلت هذه الفكرة فيما بعد إلى روبرتسون سميث ثم ايفانز بريتشارد.

وقد كان ابن خلدون يميل إلى تفسير الظواهر الإجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى (وقد أخذ إميل دور كايم بهذه القاعدة المنهجية فى كتابة قواعد المنهج فى علم الاجتماع أواخر القرن التاسع عشر.

كما إستطاع ابن خلدون من خلال تحليله الاجتماعى وتفسيره لظواهر العمران أن يتوصل إلى مجموعة من القوانين وهى: -

١- كل الظواهر الإجتماعية تحدث بطريقة طبيعية لا يمكن إلغاؤها.

٢- إن ما يحدث فى العمران يستغرق وقتاً من أجل التدرج فى الأمور الطبيعية.

٣- كل متكون فى زمان لابد من إختلاف أطواره وإنتقاله من طور إلى طور حتى ينتهى إلى غايته (وقد تبنى أوجيست كونت فى القرن التاسع عشر موقفاً مشابهاً عنما نظر إلى النظم الاجتماعية التى تكون بناء المجتمع وما يعتريها من حركة وتطور).

وهذا يعنى أن ابن خلدون إلتفت إلى حتميه التحول والتغير وفسره تفسيراً إجتماعياً وبين أن التغير الإجتماعى يحدث تدريجياً عبر الزمن وأن التلاقح أو المزج الثقافى هو السبب الأساسى فى تغير الأحوال والعوائد الإجتماعية التى تؤثر تأثيراً بالغاً فى السلوك الإجتماعى.

ويمكننا أن نرد جذور الأنثروبولوجيا الإجتماعية إلى الأفكار النظرية التى سادت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى حملت كل عناصر ومكونات النظرية الأنثروبولوجية فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين.

وقد عُرف هذا القرن بعصر التنوير أو الإستنارة Enlightenment فى ضوء مبدأين هامين هما: المماثلة العضوية بين المجتمع والكائن الحى ووحدة الجنس البشرى (الطبيعة الإنسانية).

ويمكن أن تجد مجموعة من مفكرى هذا العصر فى فرنسا وعلى رأسهم مونتسكيو Montesquieu فى كتابه روح القوانين "L'Esprit des Lois" ١٧٤٨ حيث أبرز فكرة الإرتباط الوظيفى عندما درس العلاقات المتبادله بين القوانين المختلفة وبين البيئة والسكان والإقتصاد والمعتقدات والعرف والإخلاق مما يشكل الروح العامة فى المجتمع والتى يجب أن تتلاءم معها القوانين السائدة فى مكان وزمان معين.

وقد ميز مونتسكيو بين طبيعة المجتمع وهى البناء المميز له وبين مبدأ المجتمع وهو نظام القيم السائد.

كذلك يُعتبر سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠:١٨٢٥) من أوال الذين دعوا بشكل واضح وصريح إلى ضرورة قيام علم وضعى لدراسة المجتمع بحيث يتناول الحقائق والعلاقات الإجتماعية ويحللها بإسلوب علمى.

وقد تبنى أوجيست كونت Auguste Comte (١٧٩٨–١٨٥٧) نفس دعوة أستاذه وأطلق على هذا العلم الوضعى إسم «علم الإجتماع» فى ضوء تتبعه لمراحل تطور الفكر الإنسانى من التفكير الميتافيزيقى إلى التفكير اللاهوتى ثم التفكير الوضعى.

وقد تبلور كل هذا فى تفكير إميل دور كايم Emile Durkheim (١٨٥٧–١٩١٧) وخاصة ما يتعلق بقواعد المنهج فى علم الإجتماع ونظرته إلى المجتمع بإعتباره نسق طبيعى محكمه قوانين وقواعد محددة، وتحديده لمفهوم الظاهرة الإجتماعية وخصائصها (العمومية – الجبرية – الإنتقال) وتحليلها فى ضوء مفاهيم علم الإجتماع وخاصة ما يتعلق بفكرة البناء والوظيفة التى قام بتطبيقها على دراسة المجتمعات البدائية.

وقد إنتقل تأثير الفكر الدوركايمى فى المدرسة الفرنسية لعلم الإجتماع إلى كل من

رادكليف براون ومالينوفسكى وهما المسئولان عن تشكيل الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا.

أما أصول وجذور الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى بريطانيا فترجع إلى الفلاسفة الأخلاقيين الأسكتلنديين من أمثال دافيد هيوم وآدم سميث الذين اعتنقوا فكرة وحدة الجنس البشرى أو ما يعرف بالوحدة العقلية والفكرية للإنسان فى كل زمان ومكان بحيث تحكمها قوانين عامة تحدد مسار تطوره وتقدمة نحو الكمال وأن هذا يستوجب إستخدام المنهج التجريبى الإستقرائى.

وقد جاء الفكر الألمانى فى عصر الإستنارة بأفكار مختلفة عن الفكر الفرنسى الذى كان يدعو إلى الحرية والمساواة والإخاء الإنسانى بينما تبلور الفكر الألمانى حول فكرة التفوق العنصرى للجنس الجرمانى والسلالة الآريه. وقد رفض الأنثروبولوجيون هذا الإتجاه ومنهم الأنثروبولوجى البريطانى ريموند فيرث Raymond Firth فى ضوء المشاهدات الواقعيه والدراسات الحقلية والمقارنة للمجتمعات المختلفة.

إلا أن كل هؤلاء المفكرين السابقين سواء فى فرنسا أو فى انجلترا ما هم إلا فلاسفة اعتمدوا على الإستبطان والإستدلال السابق على التجربة والملاحظة الفعلية للواقع وبرغم دعواهم إلى استخدام المنهج التجريبى للوصول إلى قوانين التطور فقد استخدموا منهج عرف بالتاريخ الظنى أو التخمينىConjectural History، وقاموا بالمقارنة بين المجتمعات وترتيبها حسب درجة تقدمها فى مراحل تطوريه معتمدين على الكتابات الكلاسيكيه ورحلات الإستشكاف والكتابات المتداوله للرحالة العرب والأوربيين وكذلك المشاهدات التى دونها المبشرين والتجار ورجال الإدارة والحكم الإستعمارى عن الشعوب البدائية.

وهذا يبين لنا أن بدايات التفكير التطورى ظهرت خلال هذا العصر وكذلك أسس وبدايات البحوث الحقليه.

وقد إنعكست هذه الأسس فى مجموعة من الدراسات التى أجريت خلال القرن التاسع عشر نذكر منها:

١- دراسة المستشرق الإنجليزى إدوارد وليام لين Edward W. Lane «المصريون المحدثون» عام ١٨٣٦، فقد درس السكان وسجل ملاحظاته عن جوانب مختلفة من حياتهم :Modern Egyptians" كالحياة العائلية والدين والقوانين والحكومة

واللغة والخرافات والسحر والصناعة والموسيقى والعادات والشعائر. وقد إعتمد لين فى هذه الدراسة على قراءة الكتابات السابقة وتعلم اللغة العربية وارتدى الزى الوطنى وقام بمراعاة العادات والتقاليد السائدة وأستخدم الملاحظة والإختلاط بالأهالى وأعتمد على إخباريين من الأهالى.

٢- دراسة كودرنجتون R. H. Codrington أحد أعضاء البحثه التبشيريه فى ملانيريا حيث أقام فترة طويله امتدت منذ ١٨٦٣ حتى ١٨٧٧ وجاءت الدراسة تحت عنوان «الميلانيزيون» The Melanesians فقد قام بدراسة الجوانب المختلفة للحياة الإجتماعية مثل القرابه والزعامه والملكية والميراث والدين والسحر والزواج، العادات، الرقص والموسيقى معتمداً على الملاحظة وأقوال الإخباريين.

* ونستطيع أن نقول أن الأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر بدأت تظهر كعلم مستقل عن الفلسفة الإجتماعية وتتخذ طابعاً أكاديمياً متخصصا وبدأت فى بلورة موضوعاتها ومناهجها المميزة وذلك نتيجة للمؤثرات الفكرية والأحداث السياسية والإقتصادية والإجتماعية التى انعكست آثارها على الفكر الإجتماعى والأنثروبولوجى ونعنى بها الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والثورة العلمية الثقافية بالإضافة إلى التطورات التى حدثت فى مجالات الفنون والعمارة والآداب والموسيقى.

وفى إطار هذا ظهرت دعوة أوجيست كونت السابق ذكرها ثم كتاب تشارلز داروين Charles Darwin «أصل الأنواع» The Origin of Species عام ١٨٥٨ فى ضوء مبادئ الطبيعة والأحياء والتشريح وقد تراءى لغالبية المفكرين الإجتماعين خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر إمكانية تطبيق فكرة داروين عن التطور العضوى على المجتمعات البشرية (التطوراية الإجتماعية).

وقد استمر تأثير الأفكار التطورية خلال العقدين الأولين من القرن العشرين ولكنها تعرضت للنقد نتيجة لقيامها على مبدأ وجود قانون عام واحد للتطور وعلى إعتناقها مفهوم المراحل الضرورية الحتميه المتتالية للتطور الإنسانى نحو نموذج أكثر تركيباً وتعقيداً وتقدماً وإغفالها للإختلافات الثقافية والإجتماعية والتاريخية فى المجتمعات المختلفة وقد أدى هذا إلى تقليل أهمية الإتجاه التطورى النشوئى بالتدريج وبحيث ظهرت ثلاثة إتجاهات رئيسية خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، هذه الاتجاهات تفاعلت مع بعضها البعض وارتبطت بمقتضيات العصر وما تتناوله العلوم

الإجتماعية بصفة عامة من قضايا نظرية وعملية تتعلق بالفرد والمجتمع وهذه الإتجاهات هي:

١ – الإتجاه التاريخي الإنتشاري.

٢ – الإتجاه التاريخي النفسي.

٣ – الإتجاه البنائي الوظيفي.

إلا أن الدراسات المنهجية للنظم الإجتماعية لم تظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر وقد تمثلت في كتابات سير هنري مين Maine «القانون القديم» ١٨٦١ – وباخوفن Bachofen «حق الأم» ١٨٦١ – ماكلينان Mclennan «الزواج البدائي» ١٨٦٥ – تايلور Tylor «الثقافة البدائية» ١٨٧١ – لويس مورجان المجتمع القديم ١٨٧١، ثم كتاب سير جيمس فريزر Frazer «الغصن الذهبي» ١٨٩٠.

وقد وضعت هذا الكتابات أسس الأنثروبولوجيا الإجتماعية من حيث دراسة المجتمعات البدائية والنظم الإجتماعية في حدود البناء الإجتماعي والتساند الوظيفي بين النظم في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. ورغم أن هؤلاء العلماء لم يقوموا بأي دراسات ميدانية إلا أنهم استطاعوا أن يستخدموا المعلومات المتاحه لديهم بطريقة منهجية ونقدية منظمة ومقارنة تساعدهم على التحليل والتعميم والوصول إلي نتائج نظرية هامة تعتمد على ابراز التشابة في العادات والعقائد بين المجتمعات المتباعدة زمانياً ومكانياً.

ثانياً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية والإتجاه الوظيفي Functionalism:

شهد النصف الأول من القرن العشرين محاولات عديدة من علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا تدعم الإتجاه الوظيفي ومحاولة إبراز أهمية البناء الإجتماعي سواء في بريطانيا عند كل من مالينوفسكي ورادكليف براون أو في فرنسا عند كل من دور كايم وليفي ستروس Claude Levi Strauss وخاصة في كتابه «الأنثروبولوجيا البنائية» ١٩٥٨ والوظيفية في حقيقتها ما هي إلا إتجاه تحليلي وقد ارتبطت بالنظرية البنائية التي ركزت على تحليل العلاقات القائمة بين النظم لتكشف عن ترابطها الوظيفي في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.

وقد نشأت الأنثروبولوجيا الإجتماعية الوظيفية كرد فعل مضاد للإتجاهات التطورية السابقة عليها. وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه نظريات الإنتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوروبا بحيث اختفى الإهتمام بإعادة بناء التاريخ.

وترجع فكرة الوظيفية إلى المماثلة بين الحياة العضوية والحياة الإجتماعية عند هربرت سبنسر ودوركايم الذى يحدد وظيفة النظام الإجتماعى فى اشباع الحاجات الإجتماعية وتبعه فى ذلك براد كليف براون بعكس مالينوفسكى فيرى أن النظم تنشأ وتستمر فى الوجود لإنها تشبع حاجات الفرد البيولوجيه والعقلية.

وقد إرتبطت الوظيفية بالدراسات الحقليه التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عند لويس مورجان فى دراسته للإيروكواى Iroquois ١٨٥١ – ودراسة فرانز بواس Franz Boas لقبائل الباڤين Baffin فى كولومبيا البريطانية – ثم الدراسة التى قامت بها بعثه من جامعة كمبردج برئاسة هادون Haddon فى جزر مضايق توريس Torres Straits Islands بالمحيط الهادى بين عامى ١٨٩٨، ١٨٩٩، وقد أعتبرت هذه البعثة نقطة تحول فى تاريخ الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى بريطانيا وترتب عليها أمرين مهمين ومترابطين:

١– بدء ظهور الأنثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرغ الكاملين.

٢– أصبحت الخبرة الحقلية عنصراً جوهرياً فى تكوين وتدريب طلاب الأنثروبولوجيا.

وقد أدى هذا إلى إتساع ميدان الدراسات الحقلية فى مجتمعات بدائية ومنها دراسة ريفرز Rivers عن التودا – دراسة سليجمان Seligman عن قبائل جنوب السودان – دراسة راد كليف براون Rad Cliffe Brown عن جزر الأندمان – دراسة مالينوفسكى Malinowski لجزر التروبرياند – دراسة ايفانز برتشارد Evans Pritchard عن الأزاندى والنوير ودراسة ريموند فيرث Raymond firth عن جزيرة تيكوبيا.

ونتيجة لقيام الأنثروبولوجين بإجراء الدراسات الحقليه بأنفسهم، فقد أدى هذا إلى إحداث تغييرات فى المنهج الأنثروبولوجى وخاصة ما يتعلق بأسلوب المقارنة والهدف من الدراسة بحيث تحول الإهتمام من بحث المسائل العامة إلى بحث موضوعات أكثر تحديداً وفحص مشكلات معينة وقد تطلب هذا القيام بدراسات تفصيلية مركزة وأصبح العلماء المحدثون يميلون إلى التفكير فى حدود الأنساق والنظم الإجتماعية والعلاقات القائمة بينها كما أصبحت الدراسات الحديثة تكتب على مستوى بنائى وظيفى وتحقق درجة من التجريد تتفاوت من باحث إلى آخر، ونستطيع أن نشير فى هذا الصدد إلى مالينوفسكى الذى أحدث ثورة فى البحث الحقلى الأنثروبولوجى فى دراسته المعروفة لسكان جزر التروبرياند Trobriand عن بحارة غربى المحيط الهادى "Argonauts

of the Western Pacific عام ١٩٢٢ معتمداً على الإقامة الطويلة (١٩١٤:١٩١٨) والملاحظة بالمشاركة وأستخدام لغه الأهالى فى دراسة الواقع بطريقة تكامليه توضح فكرته عن النسق الإجتماعى كنسق متماسك متساند فى ضوء دراسته لنظام الكولا Kula.

إلا أن إتساع المجال الجغرافى للأنثروبولوجيا الإجتماعية فى القرن العشرين قد أدى إلى الإهتمام بدراسة أنماط جديدة من المجتمعات المعقدة فى كل القارات. ونتيجة للطبيعة المتغيرة والمعقدة لهذه المجتمعات فقد كان لابد من إعادة النظر فى الإتجاه الوظيفى الذى يركز إلى حد بعيد على الثبات والإستقرار والتوازن ويقلل من أهمية وإمكانية التغير والإختلاف والصراع والخلل كما أنه يركز على التفسير التزامنى Syn-chronic للنظم وينكر أهم التاريخ والتفسير التتبعى Diachronic إلا أن هذه الانتقادات على الإتجاه الوظيفى أظهرت إهتماماً متزايداً بالتغير الاجتماعى والثقافى واستخدام إطارا مرجعى مزدوج يضم الدراسة التزاميه والدراسة التتبعيه. كما أدى هذا إلى التحول عن فكرة دراسة المجتمعات كأنساق طبيعية تحكمها قوانين إلى دراستها كأنساق أخلاقية ورمزيه مما أكد على ضرورة دراسة انساق المعتقدات والقيم والأفكار وأن الأمر فى النهاية هو إمكانية الوصول إلى مجموعة من التعميمات الضيقة المدى فى مجالات محدودة وفى حدود محليه وليس إكتشاف القوانين المطلقة التى تصدق على كافه المجتمعات الإنسانية، وهذا هو ما غرف بـ «ما بعد الوظيفية» نتيجة الثورة على المدرسة التقليدية الكلاسيكية فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية البريطانية.

وقد ترتب على هذا الموقف اتحاهات جديدة فى بحوث الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى النصف الثانى من القرن العشرين وهى إتجاهات لاتعترف بالتفسيرات الإستاتيكيه وإنما تأخذ فى اعتبارها القوى المتعارضة والمتصارعة فى بناء المجتمع. وتتمثل هذه الاتجاهات فى: –

١ – ضرورة التعرف على العلاقات التى تنشأ بين الأفراد بعضهم وبعض، فالمجتمع ليس إلا نسيجاً أو شبكة من العلاقات المعقدة وأن أفضل وسيلة لفهم البناء الإجتماعى تكون عن طريق تتبع هذه العلاقات القائمة بين الأفراد ليس بالملاحظة فقط بل بسؤال الناس أنفسهم عن علاقاتهم بالآخرين وتتبع هذه العلاقات بالسؤال والتدوين والتحليل بإستخدام الأساليب الكمية. وهذا الإتجاه يستخدم فى دراسة المجتمعات الحضرية الأكثر تقدماً وتعقداً وتخصصاً، وكذلك فى

دراسة التغير الاجتماعى. إلا أن هناك تشكك فى مدى صدق أعضاء المجتمع فيما يتصل بالمعلومات التى يدلون بها ومدى إتفاقها مع الواقع وتعبيرها عن شبكة العلاقات الاجتماعية الحقيقية.

٢- عدم الإكتفاء بملاحظة الباحث لسلوك الأفراد وتتبع علاقاتهم الواقعية وما يترتب عليها من نظم اجتماعية لإستخلاص صورة بنائية ثابتة عن هذه العلاقات والنظم لأن هذه الصورة إنما تعكس إدراك وتصورات الباحث عن المجتمع وليس ما يدركه الناس أنفسهم عن واقعهم الإجتماعى ومعرفتهم بهذا الواقع وقد عرف هذا بالإتجاه المعرفى - الإدراكى فى الأنثروبولوجيا Cognitive Anthropology وقد ظهر فى مدرستين إحداهما فى فرنسا وعرفت بالبنائية Srructuralism والأخرى فى الولايات المتحدة وتعرف بالإثنوجرافيا الجديدة New Ethnography وهى تعتمد على دراسة اللغات الوطنيه وتفهم مفرداتها وصيغها اللغوية وما تحويه من قيم وأفكار وتصورات بالإضافة إلى قيام الباحث بالكتابة عن الطرق التى يحصل بها على المعلومات والسبل التى يسلكها فى إطار مساعدة الإخباريين على إثارة التساؤلات وصياغة الأسئلة وكيفية الإجابة عليها (وهذا يذكرنا بمنهج التوليد عند سقراط).

ثالثاً: الأبعاد الأثنوجرافية والإثنولوجيه للأنثروبولوجيا الإجتماعية:

تشير الإثنوجرافيا Ethnography إلى استراتيجية خاصة فى البحث الحقلى من حيث إسلوب وطريقة البحث التى يختص بها الإثنوجرافيون ومن حيث نوع المادة التى يتم الحصول عليها وطريقة تسجيلها وعرضها وقواعد نشرها.

والإثنوجرافيا فى جوهرها عملية وصف وتسجيل مباشر للمظاهر المادية التى تعبر عن الإطار الخارجى للنظم الإجتماعية والأنماط الثقافية فى جماعة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة (فترة إجراء الدراسة الحقلية) أو من خلال الوثائق التاريخية المتاحة.

وهى لا تستند إلى نظرية إجتماعية لتحليل النظم والأنساق الإجتماعية ولا تهتم بعقد المقارنات ولكنها مرحلة ضرورية فى الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية يقوم بها باحثون مدربون متمرسون ولديم قدرات وإستعدادات خاصة يمكن تنميتها بالتدريب المستمر على جمع المادة الحقلية.

وقد تكون الإثنوجرافيا ذات إطاراً مرجعياً إقليمياً بحيث تُعبر عن منطقة معينة مثل

إثنوجرافيا العالم العربى – إثنوجرافيا المجتمعات الأفريقية – إثنوجرافيا البحر المتوسط – الإثنوجرافيا البولينزيه.. وغيرها من الإثنوجرافيات.

وتمتد جذور الوصف الإثنوجرافى إل أزمنه بعيدة وقد بدأ بالنقل الشفاهى ثم بالتدوين للملاحظات منذ القرن الخامس عشر بفضل كتابات الرحالة القدامى والمبشرين ورحلات الاستكشاف والتى اتسعت فى القرن التاسع عشر والذى شهد أيضاً التوسع فى الحروب والغزوات والحركات الإستعمارية وزيادة إهتمام الحكومات بدعم الجمعيات ا لأنثروبولوجية المتخصصه فى أوروبا وأمريكا على إجراء البحوث الإثنوجرافية ولا نغفل دور المتاحف وصناديق الدعم الخاصة التى شجعت على إجراء البحوث الاركيولوچية والچيولوچية.

وقد تطورت الإثنوجرافيا من خلال كل ذلك من مجرد السرد الوصفى التفصيلى بدافع الفضول وحب الإستطلاع إلى السرد المنهجى الهادف بحيث أصبحت الإثنوجرافيا أكثر تنظيماً وأصبحت تعتمد على الإستبيانات والتعليمات وقوائم الأسئلة والأدله الإقليميه ومن أشهرها دليل العمل الميدانى الذى أصدرته الجمعية البريطانية لتقدم العلوم التابعة للمعهد الملكى الانثروبولوچى البريطانى عام ١٨٧٤ تحت عنوان: «ملاحظات وتساؤلات فى الأنثروبولوچيا» Notes and Queries on Anthropology وكان الهدف من هذا الدليل مساعدة الأفراد على ملاحظة المجتمعات البدائية بطريقة سليمه وجمع المعلومات اللازمة عنها لخدمة الأنثروبولوجيا فى بريطانيا.

وقد أصبحت الإثنوجرافيا فى بداية القرن العشرين وبفضل مالينوفسكى على وجه الخصوص نشاطاً تخصصياً يهتم بدور الباحث فى موقف البحث الحقلى وبالطريقة التى يتم بها تسجيل المادة الحقلية.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ تراكمت المادة الإثنوجرافية وتزايد عدد الباحثين الإثنوجرافيين المتخصصين الذين يعتمدون على دعم الصناديق الخاصة والمنح الحكومية ومنح المتاحف مما أدى إلى تزايد الدراسات الحقلية المركزة فى مناطق كثيرة من العالم.

- **أما الإثنولوچيا Ethnology:**

إذا كانت الأثنوجرافيا دراسة وصفية أفقية فى المكان، فإن الإثنولوجيا هى دراسة تحليليه رأسية فى الزمان. وهى تعرف بأنها الدراسة المقارنة للثقافات المعاصرة والتاريخية للتوصل إلى العموميات التى تحكم السلوك الإنسانى، وتهتم بتصنيف

الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية وتفسير توزعها فى الوقت الحاضر أو فى الماضى نتيجة لتحرك هذه الشعوب وإختلاطها وإنتشار الثقافات. كما أنها تشير إلى المدخل التاريخى لدراسة الثقافات وإلى الدراسة التحليلية المقارنة للمادة الإثنوجرافية للوصول إلى تعميمات بصدد مختلف النظم الإجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. فكأن الإثنولوجيا تهتم بدراسة الجوانب الثقافية والإجتماعية للإنسان.

وقد كانت الأنثروبولوجيا الإجتماعية والإثنولوجيا تشكلان دراسة واحدة فى القرن التاسع عشر وتخصصاً علمياً متداخلا يهتم بدراسة الثقافات والمجتمعات البدائية إلا أنه فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ اتجاه جديد يقوم بتصنيف المجتمعات على أساس أبنيتها الاجتماعية وليس على أساس ثقافاتها بحيث ظهرت الأنثروبولوجيا الإجتماعية كفرع علمى يختلف عن الإثنولوجيا وإن ظل المنهج المقارن يستخدم فى كل منهما ولكن بطريقة مختلفة ولتحقيق أغراض متباينة.

ورغم أن كلام من الأنثروبولوجيا الإجتماعية والإثنولوجيا يعتمدان على نفس المادة الاثنوجرافية إلا أنهما يستخدماها لتحقيق أهداف مختلفة، فالإثنولوجى يقوم بدور المؤرخ للنظم الإجتماعية أما الأنثروبولوجى الإجتماعى فإنه يقوم بدور الباحث الذى يتوخى الكشف عن وظائف النظم فى ا لنسق الإجتماعى الكلى الذى تنتمى إليه فى مجتمع معين خلال فترة محددة.

رابعاً: ماهية الأنثرولوجيا الاجتماعية وتطور مجالها المجتمعي:

من المتفق عليه أن الأنثروبولوجيا الإجتماعية كعلم منهجى لم تظهر إلا فى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً وقد شاع إستخدام إسم الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى انجلترا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ولم يلبث أن تم الإعتراف بها فى الجامعات البريطانية.

ويعتبر سير جيمس فريزر هو أول شخص يحصل على لقب الأستاذيه فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية وأول من استخدم هذا الاصطلاح الجديد عام ١٩٠٨ عندما ألقى محاضرته الشهيرة بجامعة ليفربول تحت عنوان: «مجال الأنثروبولوجيا الإجتماعية The Scope of Social anthropobgy»، وعرض لتعريفه بها على أنها دراسة تقوم على الفرض والتجربة الحقلية بإعتبارها محاولة لتطبيق المنهج الإستقرائى

بإستخدام الملاحظة والتحليل والمقارنة للوصول إلى ا لقوانين العامة التى تحكم الظواهر الإجتماعية وفقاً لمبدأ وحدة الجنس البشرى.

وكذلك فقد قام **راد كليف براون** بتعريف الأنثروبولوجيا الإجتماعية بأنها: دراسة طبيعة المجتمع الإنسانى دراسة منهجيه منظمة تعتمد على مقارنة الأشكال المختلفة للمجتمعات الإنسانية بالتركيز على الأشكال الأولية منها (البدائية – التقليدية) . وأنها دراسة عملية الحياة الاجتماعية ذاتها فى مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة بإستخدام المنهج المقارن والدراسة الحقلية للتوصل إلى القوانين. وقد اعتبرها فرع من فروع علم الاجتماع وأطلق عليها علم الإجتماع المقارن.

أما **ايفانز بريتشارد** فيرى أن الأنثروبولوجيا الإجتماعية هى نوع من المعرفة المنهجية المنظمة عن الشعوب البدائية يمكن استخدامها فقط لخدمة هذه الشعوب وليس هناك ما يسمى بالقوانين فى الأنثروبولوجيا لأنها تمثل عنده نوعاً من التاريخ الإجتماعى وأنها أقرب للإنسانيات Humanities (الفنون – الآداب – الفلسفة) منها إلى العلوم.

ويمكن تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية أيضا بأنها، أحد فروع الأنثروبولوجيا العامة فهى علم الإنسان الأجتماعى يدرس لإنسان بوصفة كائن أو مخلوق يتفاعل مع الآخرين ويميل بطبعة نحو الحياة فى جماعات يشغل فيها عدة مراكز اجتماعية ويقوم بعدة أدوار يسلك من خلالها سلوكاً اجتماعياً ويكون علاقات اجتماعية تضيق أو تتسع خلال مراحل حياته، هذه العلاقات تحكمها معايير وجزاءات والتزامات وقوانين وتقاليد وأعراف فى إطار بناء إجتماعى معين.

فالأنثروبولوجيا الإجتماعية تقوم بدراسة السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم وأنساق إجتماعية وتقوم بدراستها فى المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية.

وفي تعريف آخر للأنثروبولوجيا الإجتماعية، فهى الدراسة التكاملية المقارنة التى تقوم على ملاحظة السلوك الإنسانى فى إطاره الإجتماعى.

- **أما فيما يتصل بمجال الدراسة في الأنثروبولوجيا الإجتماعية،**

فنعنى به تحديد نوع المجتمعات التى نتناولها بالدراسة وهو ما نسميه بالمجال المجتمعى وتحديد أهم موضوعات الدراسة التى تتمركز حولها.

ويمكننا أن نقول أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية من الناحية النظرية تدرس كل أنواع المجتمعات الإنسانية وليس فقط المجتمعات البدائية وما يقوم الأنثروبولوجى بدراسته يشتمل على الايكولوجيا والقانون والنظم السياسية والاقتصادية والقرابة والدين وغيرها من المسائل التى يهتم بها المتخصصون فى المجتمعات المتحضرة.

ومع ذلك فقد ظلت الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومنذ بداياتها تركز على نمط المجتمعات البدائية وبحيث ارتبط نمو النظرية الإجتماعية والتى تعتبر النظرية الأنثروبولوجية مجرد جزء منها بالنمو والزيادة فى المعارف والمعلومات عن المجتمعات البدائية وكذلك بالمقارنات التى يعقدها الباحثون ولو بشكل ضمنى بين ما يجدوه فى مجتمعات الدراسة وما يعرفونه عن مجتمعاتهم الأصلية.

وتتركز بحوث الأنثروبولوجيا الإجتماعية على دراسة النظم الاجتماعية وهذا يتم إما فى شعب معين بالذات أو مجموعة من الشعوب، وهذه الشعوب تنتشر وتتوزع فى كل أنحاء أفريقيا وجنوب الهند وجمايكا والمجتمعات والحدودية بين الهند وبورما وفى امريكا الشمالية والإسكيمو فى المناطق القطبية وجزر المحيط الهادى وأندونيسيا وشعوب بولينيزيا وميلانيزيا وسكان استراليا الأصليين والشعوب المنغولية فى سيبيريا والشعوب الزنجيه فى أفريقيا وقبائل الهنود الحمر فى أمريكا والملايو.

وقد اتسع مجال البحث فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية بحيث أصبح يشمل الشعوب الأكثر تقدماً والتى تعيش فى شمال أفريقيا وفى آسيا مثل الهند والصين واليابان وفى تركيا والمكسيك وكندا وايرلندا وبعض أنحاء من أوروبا والتى لا تزال تحتفظ رغم تقدمها بكثير من مظاهر البساطة النسبية.

هذا الاتساع فى مجال الدراسة سواء فيما يختص بكم المجتمعات التى تتناولها الأنثروبولوجيا الإجتماعية أو فى تنوعها الكبير بالإضافة إلى تشعب الموضوعات التى تخضع للبحث يؤدى إلى إزدياد التخصص بحيث يصبح على الأنثروبولوجى أن يتخصص فى الدراسات الإفريقية أو الميلانيزية أو المتصله بهنود أمريكا أو غير ذلك فتقتصر أبحاثه على موضوع واحد أو نظام معين أو منطقة جغرافية محددة وإن كان كل هذا لا يمنع من الإشارة **إلى الضرورات التي دعت إلي التركيز علي نمط المجتمعات البدائية** لفترات طويلة من تاريخ الأنثروبولوجيا وهى المجتمعات التى كانت تفتقر إلى التاريخ المكتوب ولا تعرف نظام السوق ولا تؤلف دولة وتتسم بقله عدد السكان وصغر المساحة التى تشغلها وبالتجانس الثقافى وبالدور المركزى الذى تلعبه القرابة فيها بإعتبار أن هذه المجتمعات هى مجتمعات قبليه (كانت تتمركز فى مناطق

الحكم الإستعمارى البريطانى فى أفريقيا وأستراليا) حيث كانت القبيلة تؤلف وحدة الحياة الإجتماعية والاقتصادية والسياسية وهى وحدة متكاملة ومغلقه ومنعزله ويظهر فيها تساند النظم الاجتماعية بشكل واضح.

أما فيما يتصل **بالضرورات** التى دعت إلى التركيز على المجتمعـات البدائيـة وخاصة خلال القرن التاسع عشر فهى:

١- **ضرورات تاريخية:** ترجع إلى طبيعة المادة المتوفرة من كتابات الرحالة والمبشرين ورجال الحكم الإستعمارى وخاصة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وقد ساعدت البحوث الحقلية على تصحيح الكثير من الأخطاء والمغالطات عن الشعوب البدائية.

٢- **ضـرورات نظريـة:** وتعنى بذلك سـيطرة الإتجـاه النظرى التطورى على الفكر الإنسانى فى القرن التاسع عشر مما أدى إلى النظر إلى المجتمعات البدائية فى ذلك الوقت على أنها تمثل نماذج افتراضية (التاريخ الافتراضى أو الظنى) للمراحل المبكرة فى تاريخ الجنس البشرى وتساعد على وضع صيغ نظرية لمراحل التطور الاجتماعى.

٣- **ضرورات تطبيقيـة:** تتمثل فى امكانية فهم وتفسير الكثير من المشكلات والظواهر الإجتماعية فى المجتمعات المتمدنية من خلال دراسة وفهم المجتمعات البدائية (بحيث نستطيع فهم ثقافة الرجل الأبيض فى ضوء ثقافة الرجل الأسود أو الاصفر).

ومن جانب آخر تعتبر دراسة المجتمعات البدائية وخاصة تلك المجتمعات التى أصبحت عرضه للتغير نتيجة للإحتكاك بمجتمعات وثقافات جديدة بحيث أصبحت هناك ضرورة لتسجيل الملامح والنظم والأساليب المتوارثه قبل أن تندثر مما يوفر مادة تفيد الدارسين والمهتمين بموضوعات التطور والتغير الإجتماعى وتصبح بمثابة مادة تاريخية وثائقية.

بالإضافة إلى أن دراسة هذه المجتمعات تبلور فى المساهمة فى نجاح مشروعات وخطط التنمية والتوطين وفى عمليات التحضر والتحديث. وقد ظهر هذا الجانب التطبيقى فى مجال الأنثروبولوجيا التطبيقية.

٤- **ضرورات منهجية:** وهى تتصل بطبيعة المنهج المميز للأنثروبولوجيا الإجتماعيه وهو منهج يحقق النظرة التكاملية الشمولية ويعتمد على الدراسات الحقلية المركزة ويبرز التساند الوظيفى ونعنى به المنهج البنائى الوظيفى الذى يتناول الموضوع المحورى والمركزى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية **وهو البناء الإجتماعي.**

وبالرغم من كل هذه الضرورات التى دعت إلى دراسة المجتمعات البدائية كنمط متميز فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلا أنها لم تعد النمط الوحيد بل إمتد **الإهتمام إلي أنواع أخري من المجتمعات البدوية والقروية والحضرية في كل مناطق العالم.**

١- **ففي المجتمع البدوي:** نجد أنه يتمتع بخصائص المجتمع التقليدى من حيث إرتباطه بالظروف الطبيعية فى المناطق الصحراوية سواء ما يتعلق بالمناشط الاقتصادية أو التحركات السكانية أو أسلوب الحياة والتواؤم الايكولوجى فى ظل اقتصاد معاشى يهدف إلى إشباع الضرورات وتقسيم للعمل يقوم على أسس ومعايير ذاتيه وحيث تلعب القرابة الدور المحورى فى تنظيم المناشط والمصالح فى ظل الإفتقار إلى النظم الرسمية للسلطة.

٢- **المجتمع الريفي:** هو نمط مجتمعى يتميز بطريقة معينة فى الحياة يعتمد أساساً على الزراعة والإستقرار فى الأرض والإرتباط بها لفترات زمنية طويلة.

ويرجع الفضل فى دراسة هذا النمط إلى ريموند فيرث Raymond Firth وكروبر Kroeber وروبرت ردفيلد R. Redfield وهناك شبه إتفاق على أن المجتمعات الريفية هى مجتمعات غير مستقلة وغير مكتفيه بذاتها بحيث يمثل المجتمع الريفى جزءاً من كل وله ثقافته الفرعيه لانه يرتبط دائماً بعلاقات مع المدن والأسواق القريبة مما ينجم عنه تفاعل بين الثقافة الريفية المحلية والثقافة القومية للمجتمع الكبير ويظهر هذا فى السمات البنائية لهذا المجتمع، وقد أجريت دراسات عديدة فى مجتمعات ريفية فى أنحاء مختلفة من العالم مثل: مصر والهند والصين واليابان والبرازيل والمكسيك وايرلندا وبعض القرى الأوروبية.

٣- **المجتمع الحضري قبل الصناعي:** وتمثله بعض المدن فى شمال افريقيا وبعض أجزاء من آسيا وهى مدن تختلف عن المدن الأوروبية والأمريكية المتقدمة صناعياً. وهذه المدن تشبه المدن الأوروبية فى العصور الوسطى قبل الثورة الصناعية.

ويقوم هذا النمط على الجماعات القرابية والعرقية والمهنية المتمايزة التى تمارس أنشطة إقتصادية إنتاجية تعتمد على جهد الإنسان والحيوان كمصدر للطاقة وهى أنشطة تقوم على نظام الطوائف الحرفية بجانب أنواع من الصفوة الرسمية التى تقوم بالوظائف السياسية والدينية والتعليمية مع قله فرص الحراك الإجتماعى بين العامة والصفوة وانعدام وجود الطبقة الوسطى مع وجود جماعات هامشية تقوم بالأعمال الدنيا وتلعب القرابه فى هذا النمط المجتمعى دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية.

٤- **المجتمع الحضري الصناعي**: أصبح هذا النمط موضع اهتمام كبير من الباحثين فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وقد تركز هذا الاهتمام لفترات طويلة حول موضوع الهجرة الريفية – الحضرية والبحث عن عوامل الطرد فى المجتمع الريفى وعوامل الجذب فى المجتمع الحضرى الصناعى وكذلك دراسة أحوال المهاجرين وأوضاعهم الإقتصادية والإجتماعية والثقافية فى المراكز الحضرية التى يفدون إليها وخاصة فى الدول النامية والمتخلفة.

كما أنه من الجوانب التى استحوذت على اهتمام الباحثين ما يتعلق بالعوامل التى تساعد على الانتقال إلى نمط المجتمع الصناعى وتلك العوامل التى تعوق هذا التحول.

خامساً: البناء الإجتماعي موضوع الدراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وقد ظهر مفهوم البناء الاجتماعى عندما ألقى راد كليف براون محاضرته الشهيرة بعنوان: «فى البناء الاجتماعى On Social Structure» عام ١٩٤٠ وإن كانت جذورها ترجع إلى مونتسكيو فى القرن الثامن عشر وإلى نظرية نظرت أوجيست كونت عن الإستاتيكا الإجتماعية والديناميكا الإجتماعية وكذلك تمييز كل من هربرت سبنسر ودور كايم للمورفولوجيا والفسيولوجيا الإجتماعية وما عرف بالتركيبات السفلى والتركيبات العليا عند ماركس وانتقلت هذه المفاهيم إلى راد كليف براون حين ميز بين البناء الواقعى الديناميكى المحسوس وبين البناء الصورى الثابت نسبياً والذى لا يتغير إلا قليلاً.

وقد كان لريفرز الفضل فى لفت الأنظار إلى طبيعة البناء الإجتماعى وطبيعة العلاقات السائدة بين أجزائه وهو الذى حدد الطريقة التى يمكن بها دراسة البناء الإجتماعى على النحو التالى:

١- وصف أشكال البناء الاجتماعى المختلفة فى العالم.

٢- تحليل كل شكل منها إلى عناصره المكونه له.

٣- دراسة الصلة التى تربط بين هذه العناصر.

٤- دراسة الوظيفة الاجتماعية لهذه العناصر ومعرفة كيفية تساندها مما يحقق التماسك الاجتماعى.

ويعتبر مفهوم البناء الإجتماعى من المفاهيم الأساسية فى الدراسات الإجتماعية بعامة والدراسات الأنثروبولوجيه بخاصة. وهذا المفهوم يقوم على مبدأين أساسين ومتكاملين:

١- الإستمرار فى الزمن سواء بالنسبة للجماعات أو العلاقات الإجتماعية التى تؤلف هذا البناء.

٢ – أن العلاقات الثابتة المستمرة بين الجماعات المتماسكة تتخذ شكل أنساق ونظم متساندة وظيفياً.

ومن المتفق عليه أن بنيه المجتمع تضم الأنساق الايكولوجيه والاقتصادية والقرابية والسياسية والقانونية والدينية وأن كل نسق يضم بدوره نظماً إجتماعية متمايزة. فالنسق القرابى يضم نظم الميراث والزواج والأسرة والإقامة والإنحدار، كما يضم النسق الإقتصادى نظم الملكية والإنتاج وتقسيم العمل والتبادل أما النسق السياسى فيضم نظم الزعامة والسلطة والجزاء والقانون بينما يضم النسق الدينى نظم الدين والمعتقدات والسحر والعرافة.

وتساعد دراسة البناء الاجتماعي وما يحويه من انساق ونظم على إمكانية قيام الدراسة المقارنة للمجتمعات المختلفة وبالتالى فهم المجتمع الإنسانى بأسره وتحتاج هذه الدراسة إلى تصنيف النظم والأنساق التى تدخل فى تكوين البناء الاجتماعى وهذه مسألة شاقه ومعقدة وتحتاج إلى وقت طويل وإلى تضافر أعداد كبيرة من الباحثين وإلى الإتفاق حول معايير محددة للتصنيف وإلى تقريب وجهات النظر حول دلالات المفاهيم والمصطلحات العلمية المستخدمة.

وتختلف البنائية البريطانية عن البنائية الفرنسية فالأولى يمثلها راد كليف براون وتتلخص فى أن دراسة البناء الاجتماعى تكون عن طريق تحليل العلاقات القائمة بين الجماعات أو النظم والكشف عن القوانين التى تحكمها عن طريق الدراسة الحقلية (النزعة التجريبية).

أما البنائية الفرنسية عند ليفى ستروس فيرى أن على الباحث أن يبدأ بإستخلاص القواعد والقوانين التى تحكم سلوك الأفراد وتضبطه من خلال دراسة العمليات العقلية والإدراكية ثم يعقب ذلك الكشف عن طبيعة العلاقات الإجتماعية القائمة داخل المجتمع أو فى إطار البناء الثقافى (الاتجاه العقلى).

إلا أن كلا من البنائية الفرنسية والبريطانية تشتركان فى الدعوة إلى إستخدام المناهج الرياضية والكمية واستخدام التحليل الإحصائى لتوضيح بعض مشكلات البناء الإجتماعى الذى يمر بعملية تفاضل اجتماعى.

وتتعدد المتسويات فى دراسة البناء الاجتماعى للمجتمعات الكبيرة والمحلية إلى بعض المؤسسات فى المجتمعات المتقدمة والمعقدة (سواء الصحيه – التعليمية –

الانتاجية – السياسية – العسكرية – الدينية) ولا تقتصر الدراسات البنائية على تناول البناء الاجتماعى فى حالة الثبات وإنما اتجه الاهتمام نحو دراسة عمليات التغير البنائى وأسباب هذا التغيير التى قد ترجع إلى التغيير فى الجوانب الفكرية والعقائدية (الايديولوجيه) أو الجوانب الايكولوجيه أو التكنولوجية مما يؤدى فى النهاية إلى حدوث تغير فى الأنماط السلوكية المعتادة وفى العلاقات وبالتالى فى البناء الإجتماعى.

ويشير مفهوم البناء الإجتماعى إلى وجود شبكة من العلاقات الاجتماعية يندمج فيها أعضاء المجتمع المحلى وتنتظم مصالحهم ومناشطهم وفقاً لخطة معينة ومقبولة مما يحقق نوعاً من الانساق والإطراد والتوافق وتحاشى الصراعات الحادة فى مواقف الحياة الاجتماعية.. ويحدث كل هذا دون أن يعى أفراد المجتمع أن هناك بناءاً يميز مجتمعهم أو يميزهم ويطبعهم بطابع خاص ولكن على الأنثروبولوجى الإجتماعى أن يكشف عن هذا البناء الكلى المميز لكل مجتمع بالإضافة إلى أن فهم هذا البناء يساعد على حل مشكلات المجتمع والنهوض به.

ويرتكز البناء الاجتماعى على ثلاث ركائز ومقومات اساسية هى: المقومات الايكولوجية والديموجرافيه والثقافية وهذه المقومات تتفاعل معاً وتؤثر وتتأثر النباء الاجتماعى القائم فى جماعة معينة أو مجتمع محدد.

وبالإضافة إلى ذلك تُستخدم عدة مفاهيم (مفهومات) متداخلة ومترابطة فى التحليل البنائى وهى: البناء – الوظيفة – النسق – النظام – العلاقات – المركز والدور – السلوك المتوقع – المعايير والقيم – الغفوية والجزاء – الثبات والاستمرار النسبى – التماسك والتوافق – الصراع والتناقض – التوازن والتغير.

سادساً: علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالأنثروبولوجيا الثقافية:

الواقع أن عملية تحديد مدى التداخل والتمايز بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية أو بين مفهوم المجتمع ومفهوم الثقافة تعتبر أمراً بالغ الصعوبة.

فالبعض يرى أن المجتمع هو الحقيقة النهائية التى تجعل من الممكن فهم طبيعة الإنسان ونظمة الإجتماعية، بينما يرى فريق آخر أن الثقافة هى تلك الحقيقة المتمايزة بذاتها وأن المجتمع ليس سوى وسيلة ووعاء لوجود الثقافة واستمرارها أى أنه مجرد ظرف أو شرط ضرورى لقيام الثقافة ولكنه ليس كافياً بذاته. وهناك فريق ثالث يرى أن

التفرقة بين الفرعين يشبه مجرد تغيير لافته على علبه واحدة بمعنى أنهما وجهان لعملة واحدة.

وينعكس هذا التضارب فى الدراسات الحقلية الحديثة التى تواجه مشكلة كبيرة فى الفصل بين ما هو إجتماعي وما هو ثقافى مما جعل الباحثين الحقليين يسلمون بضرورة التكمل بين الإتجاه البنائى والإتجاه الثقافى أو بين الإهتمام بالبنية الإجتماعية والتساند الوظيفى بين النظم من جهه وبين الإهتمام بالعمليات الثقافية والتجربة الثقافية وتاريخ الثقافة.

ومع ذلك فإن تأكيد كل فرع منهما على جانب معين يؤدى إلى إختلاف الموضوعات وأساليب البحث الملائمة والإطار النظرى المناسب ونوع المادة الميدانية المطلوبة وطرق تفسيرها.

ويمكن القول أن محور الدراسة سواء فى دراسة المجتمع أو الثقافة إنما هو الواقع المحسوس والسلوك المشخص الظاهر للعيان والذى يحوى الإثنين معاً، ولكن الذى يختلف هو مستوى التأويل والتجريد عند دراسة أيا من البناء الاجتماعى أو الثقافة.

فالباحث الأنثروبولوجي عند دراسة المجتمع فإنه لا يسجل فى البداية حقائق حول طبيعة العلاقات الإجتماعية بين من يمارسون السلوك والذين يحتلون مراكز إجتماعية محددة أو بين الجماعات المختلفة ولكنه يسجل أنماطاً سلوكية أو طرقاً فى التعبير الثقافى عن هذه العلاقات، فهو يلاحظ ويصف أشكال الملابس والمساكن والأدوات والمناشط الإقتصادية وطرق التعبير الفنى والممارسات والطقوس فى المواقف والمناسبات المختلفة ومن كل هذا يتعرف على الشبكة المعقدة من العلاقات الإجتماعية وعندما تخضع هذه المظاهر الثقافية لمستوى معين من التجريد يكشف الأنثروبولوجي الإجتماعى عن البناء الإجتماعى المتميز لمجتمع الدراسة.

أما عند دراسة الثقافة فإن الباحث يهتم بتفاصيل الممارسات الثقافية التى ينطوى عليها سلوكهم. وفى هذا الصدد تهدف الأنثروبولوجيا الثقافية إلى تصنيف الثقافات وتحليلها بإستخدام منهج التأويل التاريخى ومنهج التأويل السيكولوجى على إعتبار أن الثقافة تجربة انسانية تاريخيه سيكولوجيه مع الإهتمام بإبراز العلاقة بين الثقافة والشخصيه من خلال دراسات الشخصية القومية أو ما يعرف بالطابع القومى Nation-al Character.

سابعاً: علاقة الأنثروبولوچيا الاجتماعية بعلم الاجتماع:

سبق علم الإجتماع الأنثروبولوچيا فى التعريف بفروعه المتمايزة والمتداخلة، بينما لا يزال معظم الأنثروبولوچين ينتمون إلى فرع الأنثروبولوچيا الإجتماعية.

وقد ذكرنا أن راد كليف براون لم يرى مانعاً من تسميه الأنثروبولوچيا الإجتماعية بإسم علم الإجتماع المقارن وأنهما لا يختلفان إلا فى طريقة دراسة المجتمع.

فعلم الإجتماع يركز على الدراسة النظرية الفلسفية، بينما الأنثروبولوچيا تستخدم البحث الحقلى والملاحظة المباشرة للوقائع العينية المحسوسه وتعتمد على الاقامة فى مجتمع الدراسة فترة زمنية طويلة واستخدام الملاحظة بالمعايشة.. وإن كان كلاهما يركز على دراسة البناء الإجتماعى.

فالأنثروبولوچيا الإجتماعية كفرع من الدراسات الإجتماعية ركزت على دراسة المجتمعات البدائية أو التقليدية وتعالج نفس المشكلات والموضوعات التى يهتم بها الباحثون فى المجتمعات المتحضرة والحديثة.

كما أن علم الإجتماع يدرس مشكلات وموضوعات قائمة بذاتها كالطلاق والبطالة والهجرة والجريمة وهو علم يمتزج بالتخطيط الإجتماعى وبالفلسفة الإجتماعية ولا يهدف إلى الكشف عن الطريقة التى تعمل بها النظم وإنما عن الطريقة التى ينبغى أن تعمل بها وكيفية العمل على تغييرها. ولا يزال مجال الإهتمام الأساس هو المجتمعات الحضرية والصناعية.

أما الأنثروبولوچيا الإجتماعية فتدرس المجتمع فى إطار كلى وتركز مجالها الدراسى فى المجتمعات التقليدية والشعوب النامية التى تؤلف غالبية شعوب العالم والتى تتعرض لتغيرات جوهريه تستحق البحث والدراسة.

ورغم التمايز بين علم الإجتماع والأنثروبولوجيا فى دراسة المجتمع فإنهما يشتركان فى الكثير من مجالات الدراسة وموضوعات البحث مما أدى إلى صعوبة وضع حدود فاصله للدراسة فى كل منهما.

ويتمثل التعاون المتبادل بين العلمين فى الجوانب النظرية والميدانية وفى استعاره طرق البحث بينهما والتى تتراوح بين الطرق الكيفية والكمية (السوسيوانثروبولوچية) مما أدى إلى كثير من التقارب والتداخل بين علم الإجتماع والأنثروبولوچيا الإجتماعية.

ثامناً: علاقة الأنثروبولوجيا الإجتماعية بالتاريخ:

واختلفت نظرة الأنثروبولوجين أنفسهم إلى طبيعة الأنثروبولوجيا من حيث هي علم أم فرع من الإنسانيات وقد تبنى الموقف الأول علماء من أمثال هربرت سبنسر ودوركايم وراد كليف براون الذين اعتبروا المجتمع كائن عضوى ونسق طبيعي يخضع لقوانين يمكن اكتشافها بالملاحظة والإستقراء. بعكس الموقف الإخر الذى يعبر عنه ايفانز بريتشارد الذى إعتبر الأنثروبولوجيا نوع من التاريخ الإجتماعي وأنها دراسة انسانية تاريخيه تهدف إلى إكتشاف النماذج أو الأنماط وتحاول التأويل أكثر من التفسير.

كما ان ليفى ستروس يعتبر أن التاريخ والأنثروبولوجيا يشتركان فى الإهتمام ببعد الزمان لتفهم أى ظاهرة إجتماعية بتتبع تطورها واستمرارها وعوامل تغيرها.

ويشير مصطلح التاريخ الاجتماعي إلى التغيرات التى تطرأ على المجتمع من خلال التغير فى العلاقات الاجتماعية والنظم والقيم والمفاهيم الإجتماعية. وقد وضع أصول هذا التاريخ فى ارتباطه بالتاريخ الإقتصادى والسياسى كل من فيكو Vico الإيطالى وابن خلدون المفكر العربى الشهير.

وتتمثل العلاقة المتبادلة بين كل من الأنثروبولوجيا الإجتماعية والتاريخ فيما يأتى:

١- لا يوجد مجتمع وليد لحظة معينة ومن أجل فهم البناء الاجتماعي الحالى لابد من الرجوع إلى أحداث الماضى.

٢- تفيد المادة التاريخية فى التعرف على العلاقة المتبادلة بين أفعال الناس فى الحاضر وبين أفكارهم وقيمهم خلال الزمن وأهميه الماضى كوسيلة للتحكم فى شكل ومضمون هذه الأفعال.

٣- الدراسات التى تخلو من المضمون التاريخى تميل إلى الإستاتيكية والضحاله والسطحية وتعزل مشكلة البحث عن سياقها التاريخ.

٤- يتيح التاريخ معرفة واسعة النطاق للمجتمعات المختلفة ويبرز الفروق بينها ويساعد على المقارنة الرأسية فى الزمان (الدراسة التتبعيه).

٥- تتطلب دراسات التغير الإجتماعي الإهتمام بالبعد التاريخى لإبراز التغيرات التى تحدث فى شبكة العلاقات الإجتماعية وفى النظم وأثر ذلك فى حدوث التغير البنائى.

وتتعدد مصادر الحصول على المادة التاريخية فى الأنثروبولوجيا فمن هذه المصادر: التراث الشفاهى - الوثائق المكتوبة كالتسجيلات والتقارير الرسمية والخطابات واليوميات والسير الذاتية والصور والرسوم والمخطوطات كما أن البحث الحقلى يعتبر أحد مصادر الحصول على هذه المادة.

تاسعاً: فروع الأنثروبولوجيا الإجتماعية:

تتعدد فروع الأنثروبولوجيا الإجتماعية بتعدد الأنساق والنظم التى تتناولها فى إطار تحليلها للبناء الاجتماعى وخاصة فى المجتمعات البسيطة. وسوف نعرض لأهم هذه الفروع وهى:

١- الأنثروبولوجيا الإقتصادية:

وهى ذلك الفرع الذى يهتم بتحليل الحياة الإقتصادية كنسق فرعى من أنساق المجتمع وإبراز الجوانب الإقتصادية فى العلاقات الإجتماعية وتحليل السلوك الإقتصادى فى الاقتصاديات المحدودة تكنولوجياً وإمكانية تطبيق مفاهيم النظرية الإقتصادية الحديثة على المجتمعات غير الصناعية.

ويرى دالتون أن مجال الأنثروبولوجيا الإقتصادية هو آلاف المجتمعات المحلية الصغيرة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وإن كان إهتمامها قد إمتد إلى المجتمعات الغزوية المتأثرة بالتصنيع ثم إل بالمناطق النامية فى المجتمعات الصناعية وكذلك المجتمعات الحديثة والمتقدمة صناعياً بالإضافة إلى عقد المقارنات بين الأنساق الإقتصادية فى المجتمعات المختلفة.

ويعتبر عدد كبير من العلماء أن كتاب «الأرجونوتس» لمالينوفسكى عام ١٩٢٢ هو أول كتاب حقيقى فى الأنثروبولوجيا الإقتصادية ثم اعقبه اسهامات ارمسترونج ١٩٢٤ وريموند فيرث ١٩٢٩ وهيرسكوفيتس عام ١٩٥٢.

٢- الأنثروبولوجيا السياسية:

وهى فرع متمايز يرجع ظهوره كتخصص علمى إلى الأربعينات من القرن العشرين وخاصة بعد أن اتجهت الأنثروبولوجيا وجهه وظيفيه لإبراز العلاقة بين النسق السياسى والانساق الإجتماعية الأخرى وخاصة التى تلعب دوراً بارزاً فى الضبط الاجتماعى كالنسق الدينى والقانونى والقرابى.

ويعد كتاب «الأنساق السياسية فى افريقيا» الذى أشرف على تحريره مايرفوريتس وايڤانز بريتشارد عام ١٩٤٠ هو البداية الحقيقية للأنثروبولوچيا السياسية المقارنة وقد جاء فى مرحلة لاحقه لتطور الأنثروبولوچيا السياسية والانتقال من التركيز على موضوع أصل الدولة وتطور نظم الحكم إلى الدراسات الميدانية للمجتمعات الإنقسامية.

وتُعد الأنثروبولوچيا السياسية فرعاً من فروع الأنثروبولوچيا الإجتماعية تعكف على وصف وتحليل النظم السياسية فى المجتمعات التقليدية ثم فى المجتمعات النامية منذ الحرب العالمية الثانية، كما أنها وسيلة لإكتشاف مختلف المؤسسات والممارسات التى تكفل حكم الناس.

وهى تهدف إلى إجراء دراسات مقارنة للنظم السياسية فى كل زمان ومكان وبالتالى تساهم فى صياغة التاريخ العالمى للفكر السياسى.

٣- انثروبولوچيا القرابة:

يرى نيد هام أن القرابة بالنسبة للأنثروبولوچيا هى كالمنطق بالنسبة للفلسفة.

ويتناول هذا الفرع دراسة نسق القرابة الذى يضم مجموعة من النظم كالزواج والأسرة والإنحدار والميراث والاقامة ومصطلحات القرابة.

وقد اهتم علماء القرن التاسع عشر بدراسة تطور أشكال الزواج والعائلة ثم بدأ الإهتمام بدراسة القرابة كنسق فرعى من أنساق البناء الاجتماعى مع الإتجاه البنائى الوظيفى بحيث يعتبر تحليل نسق القرابة من أفضل المداخل لدراسة البناء الإجتماعى فى المجتمعات التقليدية التى تلعب فيها علاقات القرابه دوراً محورياً فى الجوانب الاقتصادية والسياسية والشعائريه.

وقد تطورت الاتجاهات الأساسية فى دراسة القرابة من الإتجاه الكلاسيكى التطورى فى القرن التاسع عشر وخاصة عند لويس مورجان فى كتابه «انساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية» عام ١٨٧٠ إلى الاتجاه الحديث والمعاصر ونعنى به الإتجاه الوظيفى وتمثله المدرسة البريطانية عند راد كليف براون فى كتابة «مقدمة لدراسة الأنساق الأفريقية للقرابة والزواج» عام ١٩٥٠ ثم المدرسة الفرنسية عند كلود ليڤى ستروس فى كتابة «الأبنية الأولية للقرابة».

- مراجع الفصل:

١- أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي – المفهومات، الجزء الأول – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الاسكندرية، ١٩٧٥.

٢- أحمد أبو زيد، دراسات في الإنساق والمجتمع والثقافة – الجزء الأول – المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٩٦.

٣- إيفانز بريتشارد – الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٤.

٤- أحمد الخشاب، دراسات انثروبولوجية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.

٥- جورج بالانديه، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة جورج أبي صالح، منشورات مركز الإنماء، بيروت، ١٩٨٦.

٦- حسن الساعاتي، علم الإجتماع الخلدوني، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦.

٧- حسن شحاته سعفان، علم الإنسان، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦.

٨- حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا في «عالم المعرفة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ١٩٨٦.

٩- زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية، بيروت، ١٩٨٦.

١٠- شاكر مصطفى سليم، المدخل إلى الأنثروبولوجيا، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥.

١١- عبد الله عبد الغني غانم، النظرية في علم الإنسان الإقتصادي، المكتب الجامعي الحديث – اسكندرية، ٢٠٠٣.

١٢- علي محمود إسلام الفار – الأنثروبولوجيا الإجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٨.

١٣- فاروق محمد العادلي، دراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٤.

١٤- فاروق مصطفى اسماعيل، الاترحزافيا الأنقسنا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٠.

١٥- فاروق مصطفى اسماعيل، الأنثروبولوجيا – الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ١٩٨٤.

١٦- فاروق مصطفى اسماعيل، المدخل إلى الأنثروبولوجيا (النظرية والمنهج) - دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ١٩٨٧.

١٧- قباري محمد اسماعيل، الأنثروبولوجيا العامة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون سنة نشر.

١٩- محمد عبده محجوب، المجالات النظرية والتطبيقية - مقدمة في الأنثروبولوجيا - دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧.

١٩- محمد عبده محجوب، الأنثروبولوجيا الإجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦.

٢٠- نبيل صبحي حنا، الإتجاهات التقليدية والحديثة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤.

الفصل السادس

المدخل إلى الأنثروبولوجيا الإقتصادية

مقدمة.

- تعريف الأنثروبولوجيا الاقتصادية:
- البدايات التاريخية.
- المجالات الموضوعية والتطبيقية للأنثروبولوجيا الاقتصادية.

أولا: المجالات الموضوعية.

ثانيا: المجال التطبيقي.

- علاقة الأنثروبولوجيا الاقتصادية ببعض العلوم الأخرى.
- أهم الاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا الاقتصادية.

أولا: الاتجاه الصوري.

ثانيا: الاتجاه الواقعي.

ثالثا: الاتجاه الاجتماعي.

خاتمة.

الفصل السادس

المدخل إلى الأنثروبولوجيا الاقتصادية(*)

مقدمة:

تعد الأنثروبولوجيا الاقتصادية أحد الفروع الرئيسية والهامة للأنثروبولوجيا العامة تهتم بدراسة جانب من الجوانب الهامة والأساسية للحياة وهو الجانب الاقتصادي وكافة ما يتعلق به سواء دراسة نظم أو أنساق اقتصادية وما يطرأ عليها من تغير وأسباب وعوامل هذا التغير ودورها في التأثير علي المجتمع ككل. كما تهتم بالتطور الاقتصادي والتاريخ الاقتصادي، بالإضافة إلي عمليات التنمية المتصلة بالجانب الاقتصادي وتهتم بدراسة الأسواق التقليدية والعمليات الاقتصادية كالاستثمار والادخار والتبادل هذا بالإضافة إلي دراسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة وموضوعات تتصل بالعمل والتخصص وتقسيم العمل.

وتشترك الأنثروبولوجيا الاقتصادية في هذه الاهتمامات مع العديد من العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والاجتماع الاقتصادي وعلم النفس والتاريخ وان كانت تحتفظ لنفسها برؤية خاصة تتمثل في النظرة الشاملة الكلية، والانغماس في حياة المجتمع الذي تدرسه، وربط النواحي الاقتصادية بالجوانب الاجتماعية الأخري في المجتمع. وقد نبع هذا التفرد في الاهتمامات من تفرد الأنثروبولوجيا ذاتها كعلم وتستمد الأنثروبولوجيا الاقتصادية إطارها النظري والمنهجي من علوم أخري بجانب الأنثروبولوجيا كعلم الاقتصاد بصفة خاصة.

تعريف الأنثروبولوجيا الاقتصادية:

تعددت تعريفات الأنثروبولوجيا الاقتصادية بتعدد العلماء الذين تناولوها بالتعريف، ومن المعروف ان كل تعريف يعكس وجهة النظر الخاصة بصاحبه ومدي العمق والشمول الذي يرغب في الوصول إليه في دراسته، وقد تتشابه بعض التعريفات، أو قد تكون هناك تعريفات قاصرة، وأخري أكثر شمولاً وإحاطة بالمجال. وفيما يلي نناقش بعض التعريفات التي وضعها العلماء للأنثروبولوجيا الاقتصادية.

(*) كتب هذا الفصل د. سلوي السيد عبد القادر مدرس الأنثروبولوجيا، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

يري مانتج ناش ،ان الأنثروبولوجيا الاقتصادية تعنى بتحليل الحياة الاقتصادية باعتبارها نسقاً فرعياً للمجتمع،(١).

وهذا التعريف يتصف بالشمولية حيث إنه لم يحدد المجال الموضوعى للأنثروبولوجيا الاقتصادية فى دراسة وتحليل نظام أو سلوك اقتصادى أو تكنولوجيا أو إلخ، بل إنه شمل كل هذا فى قوله تحليل الحياة الاقتصادية بكل ما تنطوي عليه من نظم (إنتاج- توزيع إلخ) وسلوكيات وعلاقات ونواحى تكنولوجية .. وما إلي ذلك. فهو يهتم بتحليل الحياة الاقتصادية للإنسان موضحًا الأنشطة الاقتصادية المختلفة ومحاولات الإنسان استغلال الموارد المتاحة أمامه، والأساليب والأدوات التكنولوجية- مهما بلغت درجة بساطتها أو تعقدها- التى يعتمد عليها فى استغلال الموارد وتشكيلها فى صورة إنتاج يتم التصرف فيه (توزيع- تبادل- استهلاك..) طبقًا لظروف وخصائص كل مجتمع، كما يهتم كذلك بالعلاقات المختلفة التى يدخل فيها الشخص فى سبيل ممارسة النشاط الاقتصادى.

كما نظر ناش إلي الحياة الاقتصادية باعتبارها نسقاً فرعياً للمجتمع وبذلك أوضح نقطة منهجية هامة هى نظرته البنائية للحياة الاقتصادية فهو لا يدرسها بمعزل عن باقى أنساق المجتمع المختلفة)إيكولوجية- قرابية- سياسية- دينية وثقافية). كما ربط الحياة الاقتصادية بالحياة الاجتماعية علي اعتبار ان النسق الاقتصادى أحد الأنساق المكونة للبناء الاجتماعى ومن ثم فإنه يتأثر ويؤثر فى كافة الأنساق الأخري ومن ثم لابد ان يدرس فى ضوء هذه العلاقة الشمولية الكلية بين كافة أنساق المجتمع.

يري تالكوت بارسونز ان الأنثروبولوجيا الاقتصادية ،تهتم بدراسة الاقتصاد حيث إنه نظام متمم لنظام أخر أكبر هو المجتمع،(٢). وهنا يربط بارسونز بين الاقتصاد والمجتمع، يعتبر الاقتصاد أحد النظم المكونة للمجتمع ومن ثم فهو يقوم بدور ما يتكامل مع باقي الأدوار التي تقوم بها باقي النظم الأخري المكونة للمجتمع، ومن ثم لا يمكن ان تتم الدراسة دون مراعاة ذلك التساند والاعتماد المتبادل بين الجزء والكل أو بمعني أخر بين الاقتصاد والمجتمع. ويؤخذ علي هذين التعريفين عدم تناولهما للمجال المكاني بالرغم من توضيحهما للمجال الموضوعي للأنثروبولوجيا الاقتصادية باعتبارها اتجاهاً منهجياً هاماً.

كما عرف جورج دالتون الأنثروبولوجيا الاقتصادية بأنها مجالاً ذا اهتمام خاص داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية،(٣). وهذا التعريف رغم توضيحه للمجال المكاني والموضوعي الا انه لم يوضح شيئاً مفيداً بالنسبة للقارئ العادي، فقد ينطبق

مثل هذا التعريف علي الأنثروبولوجيا السياسية أو الطبية باعتبارها مجالات اهتمام خاصة داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. ومهما يكن فالأنثروبولوجيون حين يدرسون الحياة الاقتصادية لا يهتمون فقط بالأنشطة والعمليات الاقتصادية، والآلات والأدوات وما إلي ذلك وإنما يهتمون بالعلاقات الاجتماعية ذات الطبيعة الاقتصادية، كما يهتمون بالعلاقات الاقتصادية ذات الطبيعة الاجتماعية.

وهنا تجدر الإشارة إلي أنه فيما يتعلق بمشكلة التعريف فقد كان ثمة خلاف في النظر للأنثروبولوجيا الاقتصادية كفرع متخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية. الجدير بالذكر ان هذا الخلاف قد يرجع في الأساس إلي الاختلاف بين الاتجاهات النظرية للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، والأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية. فالملاحظ ان الكتابات والموسوعات البريطانية تعالج موضوعات الأنثروبولوجيا الاقتصادية ضمن تناولها لموضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية، أما الموسوعات الأمريكية فتشير إليها ضمن الحديث عن الأنثروبولوجيا الثقافية باعتبارها تضم الأنثروبولوجيا الاجتماعية كأحد فروعها. وفيما يتعلق بهذا، وقد نتفق مع الرأي القائل بان اعتبار الأنثروبولوجيا الاقتصادية فرع من الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية يتوقف علي مستوي التحليل الذي يرغب الباحث في الوصول إليه في دراسته ومعالجته لموضوع بحثه، فقد يكون البحث ثقافيًا إذا اقتصرت المعالجة علي الوصف الظاهري والسردي للعادات الاقتصادية المختلفة)الاستهلاك- الإنفاق- الادخار) ولعمليات الإنتاج (توزيع- تبادل) أما في حالة تناول هذه الموضوعات بمزيد من التحليل والتعمق في إبراز التساند المتبادل بين كافة العوامل الاقتصادية وعلاقتها ببقية جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية هذا فضلاً عن تركيز الباحث علي النسق الاقتصادي أو إحدي العمليات الاقتصادية (كالتبادل والاستثمار والملكية) وعلاقتها ببقية العوامل الاجتماعية، هنا يكون البحث اجتماعيًا، ومن ثم يمكن التمييز بين الأنثروبولوجيا الاقتصادية الاجتماعية التى تهتم بالبعد الإجتماعى للنظام الإقتصادى و الأنثروبولوجيا الاقتصادية الثقافية التى تهتم بالجوانب أو المظاهر الثقافية للنظام الإقتصادى.

وعلي أية حال لا نستطيع ان ننكر حاجتنا الملحة في أي دراسة إلي الوصف كوسيلة لا غاية في حد ذاته، فهو يمدنا بالمادة الخام من المعلومات التي تعد أساس التحليل الأنثروبولوجى الاقتصادي للأنساق والنظم والعلاقات داخل المجتمع.

التعريف الإجرائي للأنثروبولوجيا الاقتصادية:

«تعد الأنثروبولوجيا الاقتصادية أحد الفروع الدقيقة والمتخصصة في الأنثروبولوجيا العامة تهتم بدراسة الجوانب الاجتماعية في الحياة الاقتصادية كما تهتم بدراسة النواحي الاقتصادية في الحياة الاجتماعية». حيث يتميز هذا التعريف بالنظرة الشمولية للأنثروبولوجيا الاقتصادية باعتبارها فرعاً متخصصاً من فروع الأنثروبولوجيا العامة.

البدايات تاريخية:

بدأت الأنثروبولوجيا الاقتصادية بداية متواضعة منذ حوالي خمسين عامًا، وتطورت بمرور الوقت ومن ثم أصبحت أحد الفروع الهامة للأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. (٤)

لقد ظهر مفهوم الأنثروبولوجيا الاقتصادية لأول مرة في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، عندما نشر هيرسكوفيتس كتابه الذي يحمل عنوان الأنثروبولوجيا الاقتصادية عام ١٩٥٢، ثم استخدم بعد ذلك في كتابات الكثير من علماء الأنثروبولوجيا من أمثال دالتون عن الاقتصاد البدائي والريفي عام ١٩٦٧. والتحليل التاريخي للأنثروبولوجيا الاقتصادية يكشف عن تطور استخدامها واعتبارها موضع جدل وحوار شديد بين العديد من الاتجاهات الأنثروبولوجية المختلفة. (٥)

وحدد جيرالد هندرسون "Gerald M. Henderson" بداية ظهور الأنثروبولوجيا الاقتصادية عام ١٩٤٠ عندما أقر كارل بولاني بان العوامل الثقافية المتمثلة في التمركز السلالي Ethno Centric هي أساس التحليل الاقتصادي الكلاسيكي للنقود والأسواق والسلوك العقلاني في مجال العمل والإنتاج. (٦)

ان مراجعة تاريخ الأنثروبولوجيا الاقتصادية توضح ان جذورها تمتد إلي القرن الثامن عشر وان الاهتمام بها قد بدأ يتزايد منذ خمسين عاماً فقط علي حد قول ريموند فيرث حيث برزت معالجاتها في كتابات المدرسة الألمانية مثل كتابات كارل بوشر وماكس شيت وغيرهما، ثم جاء إسهام مالينوفسكي في كتابه الأرجونوتس الذي جعله رائد الأنثروبولوجيا الاقتصادية الحقيقي، ثم إسهام أرمسترونج وتطبيق مفهوم المنفعة وتحليلاته عن النقود في جزيرة روسيل عام ١٩٢٤، ١٩٢٨، وكتابات ريموند فيرث ١٩٢٩ وجود فيلو وكتابات هيرسكوفيتس ١٩٤٠ الذي نشر أول كتاب بعنوان الأنثروبولوجيا الاقتصادية في عام ١٩٥٢، تلا ذلك إسهامات سيريل بيلشو ١٩٦٥ عن

عمليات التبادل التقليدية والسوق الحديثة، ثم إسهام مانتج ناش عام ١٩٦٦ عن النظام الاقتصادي البدائي والريفي، فكتابات دالتون عام ١٩٦٧ عن النظام الاقتصادي القبلي والريفي، ثم كتابات إدوارد لكليروشنيدر بعنوان الأنثروبولوجيا الاقتصادية. وهذه المتابعة التاريخية تعكس تاريخ تطور النظرية التي كانت موضع جدل حيث أن كل مؤلف كان يمثل تطوراً في البناء النظري لهذا العلم. (٧)

وبالرغم من ان جذور الأنثروبولوجيا الاقتصادية ترجع إلي القرن الثامن عشر إلا أنه قد تأخر ظهورها كعلم مستقل للأسباب الآتية:

١- صعوبة الموضوع وخلوه من الطرافة بالمقارنة بموضوعات الأنثروبولوجيا الأخري مثل الدين والسحر.

٢- عدم إلمام الرواد الأوائل بعلم الاقتصاد.

٣- عدم التمييز بين الظاهرة الاقتصادية من ناحية وغيرها من الظاهرات الاجتماعية الأخري.(٨)

العوامل التى أعاقت تطور الأنثروبولوجيا الاقتصادية:

كما ان هناك عدة عوامل أعاقت تطور الأنثروبولوجيا الاقتصادية منها:

١- اتساع الفجوة بين التنظيمات الاقتصادية الرأسمالية وقبل الرأسمالية.

٢- نقص تبادل المعلومات بين علم الاقتصاد والأنثروبولوجيا.

٣- الجدل النظري حول مدي توافق المفاهيم المتطورة للرأسمالية إذا ما طبقت علي الأنساق قبل الرأسمالية أو المختلطة التي يدرسها الأنثروبولوجيون. (٩)

وقد يعود السبب في ذلك بجانب ماسبق إلي ارتباط الأنثروبولوجيا التقليدية بمجال مكاني مختلف تماماً عن المجال المكاني لعلم الاقتصاد، فالأول ارتبط بالمجتمع البدائي والثاني ارتبط بالمجتمع الرأسمالي الغربي ونظراً للاختلاف الشديد بين هذين النمطين من المجتمعات فقد أدي ذلك إلي انصراف كل فريق عن اهتمامات الآخر مما حال دون التبادل في المعلومات والذي يؤدي إلي التطور النظري للعلم، بل أن كل فريق كون مناهجه وأدواته ونظرياته الخاصة به والمرتبطة بنمط مجتمعه ومن ثم لم ينتبه لاهتمامات ومناهج ونظريات الفريق الآخر.

ومما سبق يتبين لنا ان الأنثروبولوجيا الاقتصادية تعاني من قلة أو انعدام الاتصال بين المتخصصين فيها من ناحية ويتمثل هذا في الخلاف بين النظريين والميدانيين، كذلك قلة الاتصال بين الأنثروبولوجيين الاقتصاديين وبين علماء الاقتصاد من ناحية

أخـري. وقد حـال هذا دون تطورها النظري وهذه من البمشكلات الملحـة التى تعـاني منها الأنثروبولوجيا الإقتصادية كمجال علمي يحتاج دون شك إلي إطار نظري ملائم.

المجالات الموضوعية والتطبيقية

لقد ترددت الأنثروبولوجيا كثيراً قبل ان يصبح موضوعها هو المجتمع الإنساني بأنماطه المختلفة وفي مختلف الأوضاع الاجتماعية والثقافية المختلفة. إلي ان جاء راد كليف براون وحدد في مقال عن المنهج عام ١٩٢٣ مجال الدراسات الأنثروبولوجية في حدود المجتمعات البدائية، ولكنه عاد في مقال آخر عام ١٩٤٤ ليجعل من كل أنماط المجتمع الإنساني مجالاً للدراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. كما يري لويد ورنر ان مجال الأنثروبولوجيا يشمل كل المجتمعات البدائية أو المتمدينة، وقد أكد ذلك حين قام بدراسة المجتمعات البدائية والمتمدينة علي السواء. وقد خطت الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعد ذلك خطوات واسعة في دراسة المجتمعات الحضرية والصناعية. (١٠)

أولاً: المجال الموضوعي:

يشكل النسق الإقتصادى بكل ما يتضمنه من نظم وعلاقات الموضوع الرئيسى للأنثروبولوجيا الإقتصادية لذا نقوم بالقاء بعض الضوء عليه لتوضيح أهميته والكيفية التي تمت بها معالجته من قبل العلماء وعلاقته ببعض الأنساق الأكثر ارتباطا به كالنسق التكنولوجى وغير ذلك من الموضوعات.

النسق الإقتصادي في الدراسات الأنثروبولوجية:

لم يحظ النسق الاقتصادي في الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة بنفس القدر من الاهتمام الذي أعطي لغيره من الأنساق الاجتماعية الأخري، وذلك لعدة مبررات قد يكون من بينها ما يتميز به النسق الاقتصادي من وجهة نظر هؤلاء العلماء المبكرين- من طبيعة جافة حيث إنه لا يتضمن عناصر التشويق، والإثارة والغرابة بالمقارنة بالأنساق الاجتماعية الأخري كالدين والسحر والقرابة.

وفي قاموس علم الاجتماع يعرف النسق بأنه تنظيم ينطوي علي أجزاء مترابطة تتميز بالاعتماد المتبادل، وتشكل وحدة واحدة .(١١)

مفهوم النسق في الكتابات القديمة والمعاصرة:

لاشك أن فكرة النسق فكرة قديمة تظهر في الكتابات الاجتماعية النظرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا ان اللفظ نفسه لم يستخدم بكثرة وبطريقة منهجية

إلا منذ أوائل القرن العشرين نتيجة للتغيرات التي طرأت علي اهتمامات علماء الاجتماع بعامة والأنثروبولوجيا بخاصة في دراستهم للمجتمع، وكذلك اختلاف الطرائق والأساليب التي يتبعونها في دراسة وتحليل الظواهر والنظم الاجتماعية وتفسيرها. فقد كان علماء القرن التاسع عشر يميلون إلي الحديث عن المجتمع البشري بأسره وعن الثقافة في عمومها ومن ثم كانت كتاباتهم تزخر بالأحكام العامة التي كانت تستقي من المعلومات الواردة بكتب الرحلات والتي كثيراً ما تفتقر للدقة العلمية بالإضافة إلي أنها كانت تنتزع من بقية الهيكل الاجتماعي أو الثقافي العام الذي تنتمي إليه. وفي أوائل القرن العشرين تزايد الاهتمام بدراسة مجتمعات وثقافات محددة وفهمها في ذاتها كخطوة أساسية لفهم المجتمع البشري ككل، وعكف العلماء بالتالي علي تحليل مكونات الأبنية الاجتماعية السائدة في المجتمعات المحلية لمعرفة النظم التي تتألف منها الأبنية والعلاقات المعقدة التي تقوم بين هذه النظم وقد أدي ذلك إلي الاهتمام بفكرة النسق كفكرة مكملة ومرتبطة أشد الارتباط بمفهوم البناء الاجتماعي علي أساس ان المجتمع نفسه يؤلف نسقاً طبيعياً مكوناً من أجزاء متفاعلة ومتساندة ذلك التساند الوظيفي الذي يميز الكل المتكامل المتماسك. (١٢)

ومما تقدم فان كلمة نسق تشير في أبسط معانيها إلي قيام هذه الوحدة الشاملة التي تتألف من عدد كبير من العناصر والمكونات المتفاعلة علي الرغم من كثرتها وتعقدها، بل وتناقضها في كثير من الأحيان. وهي بذلك تقتضي ضرورة التسليم بان كل جزء أو عنصر من العناصر الداخلة في تكوين الكل أياً كان ذلك الكل- يؤدي وظيفة معينة بالذات من شأنها الإسهام في تماسكه كوحدة متمايزة، وهي تشيركما قال تالكوت بارسونز إلي وجود نوع من التساند والاعتماد المتبادل الذي يهدف إلي تحقيق وظائف معينة أيضاً بين الأفراد أو الزمر الاجتماعية الذين يقومون بأدوار مرسومة ومحددة، وقد تختلف هذه الأدوار باختلاف المواقف ولكنها تخضع لقواعد وتعاليم وجزاءات اجتماعية معقدة، كما أنها تتفاعل بعضها مع بعض داخل نطاق المجتمع بطريقة فيها كثير من الاتساق والانسجام، ويحكم هذه المجموعة من الأنساق الاجتماعية المتساندة في المجتمع نسق من القيم.(١٣)

تعد دراسة الأنساق الاقتصادية بصفة عامة هي دراسة إنتاج وتوزيع وإستهلاك البضائع والخدمات التي تحتاج إليها جماعة سكانية تكون وحدة مجتمعية مثل القبيلة أو الدولة أو الجماعات التي تخضع لقيادة معينة، وفي هذه الحالة لا يعتبر النسق الاقتصادي نظاماً اقتصادياً مستقلاً ولكنه يعتبر جزءاً من النسق الكلي. ويتشابك داخل

النسق الإقتصادى الإنتاج والتوزيع والحاجات التي يتم ترتيبها في فترة زمنية طويلة وهنا يحاول الأنثروبولوجي قياس المتغيرات المتعلقة بالأنساق الاقتصادية كما يحاول التعرف علي مدي تفاوتها وتفاعلها مع بعضها. (١٤)

وحينما يقوم الأنثروبولوجيون بدراسة الأنساق الاقتصادية فإنهم يدرسون الوسائل التي يتم من خلالها إنتاج وتوزيع واستهلاك السلع وذلك في ضوء الثقافة الكلية للمجتمعات التي يدرسونها، كما يستعينون في ذلك بالنظريات والمفاهيم الخاصة بالاقتصاديين، ويعتقد معظم الأنثروبولوجيون أن هذه المبادئ اشتقت من دراسة اقتصاديات السوق في المجتمع الغربي، ومن ثم هناك قيود حول تطبيق مثل هذه المفاهيم والمبادئ في دراسة الأنساق الاقتصادية لدي الشعوب التي لا يتم الإنتاج وتبادل السلع فيها من أجل الفائدة أو المنفعة والربح. (١٥)

وقد أشار دالتون إلي تميز المعالجات في مجال الأنثروبولوجيا الاقتصادية عن غيرها من العلوم الاجتماعية وأكد انها تهتم بالبناء والأداء الخاص بالاقتصاديات القبلية والريفية كما تأخذ في اعتبارها ظروف هذه الاقتصاديات وأحوالها قبل وأثناء وبعد الاستعمار، وتختلف الأنثروبولوجيا الاقتصادية في معالجة الموضوعات التي تشاركها فيها علوم اجتماعية أخري ومنها الأنساق الاقتصادية المقارنة، والتنمية الاقتصادية، وعلم الاجتماع الصناعي ويبدو هذا الاختلاف في النواحي التالية:

١- ان بؤرة اهتمام الأنثروبولوجيا الاقتصادية هي الاقتصاد الصغير في القرية أو القبيلة الانقسامية.

٢- اهتمامها السابق والمسيطر بالمجتمعات المحلية خارج أوروبا الغربية والولايات المتحدة.

٣- ان معظم الأدبيات عبارة عن دراسات حقلية للأنساق التقليدية وما حدث لها من تغيرات بفعل الاستعمار.

٤- اهتمام الأنثروبولوجيين بتحليل التنظيم السوسيو اقتصادي اهتمامًا يفوق تركيزهم علي قياس الأداء الاقتصادي. هذا بالإضافة إلي تأكيدهم الواضح علي العلاقات المتسقة بين الاقتصاد والإيكولوجيا والثقافة والمجتمع.(١٦)

ويمكن تلخيص العلاقة بين النسق والنظام وعلاقتهما بالبناء الإجتماعى فالنسق عبارة عن نظام كبير يتألف من مجموعة من النظم المتعلقة بجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية. ومفهوم النسق أكثر شمولاً من مفهوم النظام، كما ان مفهوم البناء

الاجتماعي أكثر منهما شمولاً، فالبناء الاجتماعي يضم أنساقًا اجتماعية تنقسم بدورها إلي نظم اجتماعية تنطوي علي مجموعة من العلاقات الاجتماعية، فالبناء الاجتماعي يضم أنساقًا (أيكولوجي- اقتصادي- قرابي، ضبط اجتماعي) وكل نسق يضم نظم، فالنسق الاقتصادي مثلاً يضم نظمًا مثل تقسيم العمل، الملكية، الإنتاج، التبادل، والاستهلاك وما إلي ذلك. وتعمل هذه النظم والأنساق الاجتماعية معًا في اتساق وانسجام تام بحيث تؤدي وظيفة محددة هي حفظ توازن المجتمع ودعم استمراره. ومن الجدير بالذكر ان مفهوم البناء الاجتماعي مفهوم استاتيكي بينما يمثل النسق مفهومًا ديناميًا، وذلك لان أنساق المجتمع عرضة للتجدد والتغير الدائم، استجابة للتغيرات والتطورات الحادثة سواء داخل أو خارج المجتمع ومن ثم لا يمكن وضع حدود لمكونات النسق.

الأنثروبولوجيون ودراسة النسق الاقتصادي:

كان الأنثروبولوجيون أقل اهتمامًا في بداية الأمر- من علماء الاجتماع بدراسة النظم والأنساق الاقتصادية في المجتمعات البدائية التي كانوا يقصرون عليها دراساتهم وذلك قبل ان يجدوا طريقهم إلي دراسة المجتمعات المحلية المتحضرة الحديثة، فقد كان العلماء الأوائل يهتمون بدراسة الدين أو أنساق القرابة أكثر من اهتمامهم بالحياة الاقتصادية وذلك لأسباب عديدة منها:

١- اعتقاد بعض العلماء الأوائل عدم وجود ما يمكن تسميته بالنسق الإقتصادي البدائي وان وجد فإنه يمتاز بالبساطة والسذاجة.

٢- نظرة الأنثروبولوجيين للاقتصاد علي أنه علم جاف لا تتضمن موضوعاته التشويق والإثارة بالمقارنة بموضوعات السحر والأساطير والحياة الجنسية.

٣- ضرورة إلمام الأنثروبولوجي الذي يهتم بالحياة الاقتصادية بمبادئ علم الاقتصاد وهذا لم يتيسر للعلماء الأوائل.

٤- ان العلماء الأوائل لم يقضوا في مجتمعات الدراسة فترات طويلة تتيح لهم التعمق في ملاحظة وفهم مدلولات الظواهر الاقتصادية ووظائفها.

٥- أدي الاختلاف بين علمي الاقتصاد والأنثروبولوجيا من حيث المنهج وطرق الدراسة إلي زيادة تباعد الأنثروبولوجيين عن دراسة النظم الاقتصادية والاعتماد علي الدراسات الاقتصادية النظرية. (١٧)

ويسوق لنا أحمد أبو زيد في الجزء الثاني من كتابه الذي يحمل عنوان البناء الاجتماعي مدخل لدراسة المجتمع، مثالاً يوضح به مدي إغفال الأنثروبولوجيين الأوائل للنسق الاقتصادي والحياة الاقتصادية، ومدي الخلط الواضح بينه وبين النسق التكنولوجي قائلاً: «ان تايلور الذي يطلق عليه أبو الأنثروبولوجيا الإنجليزية لم يتعرض في أي كتاب من كتبه لدراسة الحياة الاقتصادية كنظام متميز وقائم بذاته، ففي كتابه عن الأنثروبولوجيا Anthropology; An Introduction to The Study of Man and Civilization عام (1881) كثير من موضوعات الثقافة كاللغة والفنون والأساطير وغيرها، لكنه لم يخصص فصلاً واحداً من فصول الكتاب الستة عشر للاقتصاد، كذلك الحال بالنسبة لتلميذه ماريت R.R. Marret الذي أغفل تماماً الإشارة إلي الاقتصاد والنظم الاقتصادية في كتاب له تحت عنوان Anthropology. كما كان العلماء الأوائل في الحالات التي يتعرضون فيها للاقتصاد يتحدثون عن الحرف والصناعات ومظاهر الحياة التكنولوجية، وقد بدا ذلك بصفة خاصة في كتابات الألمان حيث إنهم لم يفرقوا بين الأدوات المستخدمة في العمل كالفؤوس والحراب وبين مظاهر النشاط الاقتصادي مثل تقسيم العمل، والعلاقة بين الجماعات المهنية أو القيمة الاجتماعية للمهن والحرف المختلفة وغيرها من المشكلات التي يتعرض لها العلماء المحدثون، ويظهر نفس هذا الاتجاه في بعض الكتابات المحدثة خاصة في أمريكا في كتابات لويد وارنر ,1937 Lloyd Warner, A Black Civilization حيث يدرس قبائل مورنجن في شمال استراليا، فيعرض للحرف والفنون الآلية كما ينكر وجود أي نظام اقتصادي مستقل عن غيره من النظم الاجتماعية وبخاصة نظام القرابة الذي يقوم علي أساس الإنتاج والتوزيع والاستهلاك. (١٨)

الفرق بين النسق الاقتصادى والنسق التكنولوجي:

يري إدوارد تيلور ان هناك ارتباطاً شديداً بين النواحي التكنولوجية والنواحي الاقتصادية حتي أنه لا يمكن التعرض للنواحي الاقتصادية دون الإشارة إلي النواحي التكنولوجية، والعكس صحيح. كما يري ان دراسة التنظيم الاقتصادي تقودنا بلا شك إلي التنظيم الاجتماعي وخاصة الطريقة التي يرتبط بها الناس خلال عمليات الإنتاج والتوزيع واستخدام التكنولوجيا، وعلي النقيض من ذلك فإنه عند دراسة التكنولوجيا يكون الاهتمام الأساسي موجهًا نحو الطريقة التي يربط بها الناس بين الوسائل والأهداف. (١٩)

ذهب ليزلي هوايت إلي ضرورة التفرقة بين النسق الاقتصادي والنسق التكنولوجي

رغم ما بينهما من علاقات قوية، وحدد أهم فارق بين النسقين في اهتمام النسق التكنولوجي بالأدوات والآلات وخصائصها المميزة والعلاقات بينها أي بالأدوات والأشياء بينما تدور العملية الاقتصادية حول نوع العلاقات التي تقوم بين الناس وليس الأشياء. ويعد الخلط بين النسق الاقتصادي والتكنولوجيا من أكثر الأخطاء شيوعاً في الكتابات الأنثروبولوجية خاصة الأمريكية- فكثير من هذه الكتابات تتناول بالتفصيل الآلات والأدوات والأساليب الفنية التي يستخدمها أعضاء المجتمع وتعتبرها جزءاً هاماً في دراسة النظم والأنساق الاقتصادية، وعلي الرغم من أهمية التكنولوجيا في الحياة الاقتصادية فان ما يهتم به علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في دراسة النسق الاقتصادي في المحل الأول- هو العمليات التي تستخدم بها الأدوات والآلات والأساليب الفنية والموارد الطبيعية والتي يمكن عن طريقها تنظيم العمل الإنساني من ناحية ثم دراسة العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي من ناحية أخري. (٢٠)

وبالرغم من وجود علاقة قوية بين النسق التكنولوجي والنسق الاقتصادي، إلا انه عند دراسة الأنساق الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي لا ينبغي ان نبالغ في دراسة النسق التكنولوجي وما يتضمنه من أساليب فنية معقدة في حد ذاتها؛ لان ما يهم الأنثروبولوجي ليس العلاقة بين الأدوات والآلات ولكن العلاقة بين الأشخاص فأهمية التكنولوجيا والنسق التكنولوجي بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا تكمن فيما تتضمنه من تأثيرات علي الإنسان والثقافة والمجتمع.

ويمكن الإشارة إلي الموضوعات التي ينحصر فيها اهتمام الباحثين من علماء الاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا عند دراسة النسق الاقتصادي في:

١- إنتاج السلع والخدمات، والعوامل التي تحكم النشاط الإنتاجي.

٢- تقسيم العمل والمعايير التي تضبطه سواء أكانت ذاتية أو موضوعية أو الاثنين معاً.

٣- توزيع السلع والخدمات والعوامل التي تحكم هذا التوزيع في مختلف الأنماط المجتمعية سواء عن طريق المقايضة أو التبادل.

٤- استهلاك السلع والخدمات والسلوكيات والعادات المرتبطة به.

٥- نظام الملكية حيث لا يمكن فصله عن العمليات الأخري أو عن النسق الاجتماعي الكلي. (٢١)

ومهما يكن فان العلماء المحدثين قد انتبهوا إلي ضرورة سد الثغرة التي كانت الكتابات الأولي تعاني منها وهي إغفال النسق الاقتصادي، والخلط بينه وبين النسق

التكنولوجي ومعظم الفضل في ذلك يرجع إلي مالينوفسكي الذي خصص كتابه الرئيسي Argonauts of The Western Pacific لدراسة نظام الكولا ووجه الأنظار بذلك إلي النواحي الطريفة ذات الدلالات العميقة التي تشتمل عليها التصرفات الاجتماعية في المجال الاقتصادي وقد تابعه تلاميذه في هذه المسيرة من أمثال ريموند فيرث وبذلك أصبح النسق الاقتصادي من أهم الأنساق التي تجذب اهتمام عدد كبير من العلماء الذين يحاولون فهم البناء الاجتماعي من زاوية اقتصادية عن طريق تحليل النظم الاقتصادية في علاقتها بالأنساق الأخري المكونة للبناء الاجتماعي. (٢٢)

ان موضوع الأنثروبولوجيا الاقتصادية موضوع معقد، وذلك حيث إنه لم يصل بعد إلي تصميم نظرية خاصة به كما في علوم الاقتصاد والطب، كما ان موضوعها متنوع وإذا حاولنا حصر موضوعاتها علي ما حدث في علم الاقتصاد- عندما قيل ان اهتمام علم الاقتصاد ينحصر في دراسة الرأسمالية الصناعية- فإننا سوف نصل إلي قائمة تشتمل علي موضوعات:

- التاريخ الاقتصادي.
- التنظيم الصناعي.
- حساب الدخل القومي.
- التنمية الاقتصادية.
- النظم الاقتصادية المقارنة. (٢٣)
- الاقتصاد الزراعي.
- الاجتماع الصناعي.

يذكر دالتون في مقدمة كتابه الذي يحمل عنوان دراسات في الأنثروبولوجيا الاقتصادية :Studies in Economic Anthropology ان الأنثروبولوجيا الاقتصادية ليست موضوعاً منفرداً بل ان موضوعها متشعب وواسع، وبالرغم من انفراد الأنثروبولوجيا الاقتصادية بموضوعات معينة إلا أنها تشارك المؤرخين والاقتصاديين وغيرهما من العلماء الاجتماعيين في بعض الاهتمامات البحثية، وللأنثروبولوجيا الاقتصادية مؤرخوها الاقتصاديون الذين درسوا الاقتصاديات في مرحلة الاستعمار، وما قبل الاستعمار ولديها دارسو الاقتصاديات المستحدثة والمعاصرة وهناك المتخصصون في التحليل الاجتماعي للتنظيم الاقتصادي، والمتخصصون في استخدام المقاييس الكمية للإنتاج فهي كما يقول دالتون قد أجابت علي العديد من التساؤلات المختلفة في علم الاقتصاد. (٢٤)

وأشار دالتون إلي ان الأنثروبولوجي الاقتصادي حينما يقوم بدراسة الاقتصاد في مجتمع فإنه يهتم بناحيتين

١- النظام الاقتصادي ومدي كفاءته وأدائه.

٢- وضع النظام الاقتصادي قبل الاتصال بالمجتمع الأوربي والاستعمار، والتغيرات التي تطرأ علي النظام الإقتصادى بفعل الاستعمار، وأخيراً الوضع القائم بعد الاستعمار. (٢٥)

وهنا يري دالتون ان المطلوب من الأنثروبولوجيا الاقتصادية هو تحليل المادة العلمية بطريقة تتيح مقارنتها بمادة علمية أخري عن الاقتصاديات الحديثة ومن ذلك مقارنة الاستهلاك بالاستهلاك، ومن ثم قد تسمح المقارنة بالتوصل إلي تعميمات خاصة بالسلوك البشري المدروس يمكن اعتبارها أي التعميمات- عالمية. (٢٦)

وبالرغم من تأكيد دالتون علي تنوع وتعقد موضوعات الأنثروبولوجيا الاقتصادية فقد أشار إلي اهتمامها بدراسة النظم الاقتصادية الخاصة بكافة أنواع المجتمعات وانها ليست فقط دراسة وصفية وإنما هى دراسة تحليلية تستهدف المقارنة بين النظم الاقتصادية المختلفة أو مقارنة نظام اقتصادي ما خلال فترات تاريخية مختلفة، ولم يهتم فقط بالنواحي الاقتصادية بل اهتم كذلك بالعوامل الثقافية والاجتماعية وأثرها علي النظام الاقتصادي المدروس، ومن ثم استهدف دالتون التوصل إلي تعميمات خاصة بالسلوك البشري يمكن تعميمها ونشرها.

وبالإضافة إلي ما تقدم ففي أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن العشرين ظهرت الخصخصة كنظام اقتصادى وكموضوع اقتصادي هام يهتم بدراسة الوحدات الاقتصادية المتعثرة في دول العالم المختلفة ويحاول ان يجد حلولاً لها، لذا فقد اتجه إليه علماء الأنثروبولوجيا الاقتصادية وغيرهم للكشف عن أبعاده وملامحه وتداعياته الإجتماعية والثقافية.

وذكر مانئج ناش عن المجال الموضوعي للأنثروبولوجيا الاقتصادية:،ان الاقتصاديات البدائية والريفية تختلف من الناحية التنظيمية عن الاقتصاديات الصناعية التي تعتمد علي النقود، وحركة السوق في العالم الغربي، وبعد شرح وتفسير هذه الاختلافات مهمة أساسية للأنثروبولوجيا الاقتصادية،. كما أكد مانئج ناش علي أهمية السياق الاجتماعي في التحليل الاقتصادي المقارن للاقتصاديات المختلفة. (٢٧)

وعرض فاروق اسماعيل في دراسة له بعنوان إثنوجرافيا الأنقسنا للمجال الموضوعي للأنثروبولوجيا الاقتصادية في دراسة اقتصاديات المجتمعات التقليدية وقد تبلور هذا الاهتمام بحيث أصبح هناك مجال فرعي من الدراسات الأنثروبولوجية

يستهدف الكشف عن النسق الاقتصادي والمعرفة الثقافية التي تستخدمها الجماعة في سد احتياجاتها البيولوجية والاجتماعية من السلع والخدمات، وعلي حد تعبير Mac-curdy & Spradley الكشف عن النشاط الانتاجي لجماعة ما والذي يستهدف إنتاج السلع والخدمات وتوزيعها وتبادلها. (٢٨)

وتناول نبيل صبحي حنا موضوعات الأنثروبولوجيا الاقتصادية في كتاب له بعنوان: الاتجاهات التقليدية والحديثة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ويمكن ان نجملها فيما يلي:

١- مقارنة الأنساق الاقتصادية الصغري من البدائية البسيطة إلي الزراعية التي تأثرت بالتصنيع.

٢- اقتصاديات الأقاليم النامية في المجتمعات الصناعية مثل اقتصاديات الأكواخ والمزارع في بريطانيا.

٣- دراسة مكونات النسق الاقتصادي (الملكية- الإنتاج- حركة الأيدي العاملة- تقسيم العمل-الحراك المهني- مجالات التبادل- الاستهلاك ومستويات المعيشة- توزيع الثروة وعلاقته بالمكانة الاجتماعية).

٤- دراسة عمليات النمو الاقتصادي ومعوقات التنمية في الأنساق التقليدية.

وأكد ان التعاون بين علم الاقتصاد والأنثروبولوجيا فى هذه المجالات البحثية كان مثمراً. (٢٩)

ثانياً:المجال التطبيقي:

حدد جورج دالتون المجال المكاني للأنثروبولوجيا الاقتصادية في دراسة تلك الآلاف من المجتمعات المحلية المحدودة النطاق Small Scale Communities في كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. (٣٠)

كما أوضح مانتج ناش تطور المجال المكاني للأنثروبولوجيا الاقتصادية، ففضلاً عن دراسة المجتمع المحلي المحدود فان الاهتمامات الحديثة قد اتسعت حيث شرع الأنثروبولوجيون في دراسة مجتمعات معقدة وصناعية.(٣١)

يتبين من هذا ان المجال المكاني للأنثروبولوجيا الاقتصادية هو ذاته المجال المكاني للأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تركز في المجتمعات المحلية المحدودة النطاق والثقافات البدائية البعيدة عن التحضر، وأنه قد تطور مع تطور مجالات البحث الأنثروبولوجى الموضوعية والمكانية والإتجاه نحو دراسة كافة أنواع المجتمعات علي

اختلاف درجات تحضرها انعكس هذا بالتالي علي الأنثروبولوجيا الاقتصادية باعتبارها فرعاً هاماً من فروع الأنثروبولوجيا العامة و؟أصبحت لا تهتم بدراسة النظم الاقتصادية في المجتمعات البدائية فقط، بل امتدت إلي المجتمعات المدنية والصناعية وغيرها.

علاقة الأنثروبولوجيا الإقتصادية ببعض العلوم الأخرى:

فيما يتعلق بعلاقة الأنثروبولوجيا الاقتصادية بالعلوم الأخري فقد تبين انها ترتبط بعلاقات تأثير وتأثر ببعض العلوم الإجتماعية والإنسانية رغم ما قد يميزها عنهم من مزايا وفروق وفي مقدمة هذه العلوم علم الاقتصاد، والاجتماع الاقتصادي وعلم النفس والجغرافيا والسياسة. ومن أبرز الفروق والإختلافات ما يلي:

١- اعتماد الأنثروبولوجيا الشديد علي أساليب وتقنيات البحث الحقلي والانغماس في حياة المجتمع المدروس، فعادة ما يعمل الأنثروبولوجي منفرداً حيث يعيش في المجتمع المحلي الصغير لمدة عام أو عامين، كما يقوم بجمع البيانات الأخري من خلال الأدبيات المتوفرة عن الجماعة الاجتماعية والبيئة الثقافية التي يدرسها.

٢- أنها تركز علي المجتمعات المحلية القروية في العالم غير الغربي.

٣- الاهتمام الشديد بكافة الأنشطة والنظم والعلاقات في المجتمعات المحلية الصغيرة وفي ضوء الخبرة العملية يصبح الأنثروبولوجي أكثر دقة في كشف العلاقة المتبادلة بين العوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.(٣٢)

إسهام الأنثروبولوجيا بالنسبة للعلوم الأخرى:

لقد أمدت الأنثروبولوجيا العلوم الإنسانية المختلفة بقدر كبير من الموضوعية والنسبية بالنظر إلي الظروف الإنسانية، فمن خلال دراسة نماذج متنوعة متباينة من الثقافات التي تختلف عن الثقافات الغربية اختلافاً بعيداً أصبح من الممكن رؤية الجوانب غير العقلية في الثقافات الأوروبية والأمريكية، وأصبحنا لا ننظر إلي أنماط السلوك التي تختلف عن الأنماط الغربية علي أنها أقل تقدماً أو أقل منطقية، وإنما أصبحنا ننظر إليها باعتبارها حلولاً بديلة لمشكلات إنسانية عامة كذلك أصبحنا ننظر إلي أساليب السلوك والنظم الاجتماعية التي لم تكن تحمل لنا بالنسبة لذاتها معني معيناً علي أنها تمثل أجزاءً من كيانات متكاملة، وعلي أنها تشكل بالضرورة أجزاءً لازمة من ثقافات معينة، وأصبحنا ننظر إلي أنماط سلوكية أخري علي أنها استجابات لا مفر منها تؤثر تأثيراً ثقافيا في الأفراد. (٣٣)

ومما تقدم يمكن القول بان علاقة الأنثروبولوجيا الاقتصادية بالعلوم الأخري قد تبلورت في ضوء العلاقة بين الأنثروبولوجيا عامة والعلوم الأخري فالأنثروبولوجيا الاقتصادية مجالاً فرعياً ضمن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وتستمد منها الأسس النظرية والمناهج والأدوات البحثية كما أنها تطبع بالطابع الخاص للأنثروبولوجيا لكن مع احتفاظها بمجال موضوعي خاص بها وهو النسق الاقتصادي هذا مع الإشارة إلي ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بالنسق الاقتصادي لكن يتم هذا في ضوء دراستها للبناء الاجتماعي بأنساقه المختلفة الإيكولوجى والاقتصادي والقرابى والسياسى.

وترجع أهمية الأنثروبولوجيا الاقتصادية كعلم سواء في مجال النظرية أو التطبيق- فى أنها تقرب الشقة في التفكير الإنساني بين النظم التجارية العالمية التي تحكمها النقود والأسواق، وبين النظم الأخري التي لا توجد فيها نقود أو أسواق، وهي ان وجدت فطي شاكلة أسواق تقليدية صغيرة لتغطية مناشط اقتصادية محدودة. (٣٤)

والأنثروبولوجيا الاقتصادية هي ذلك الفرع من الأنثروبولوجيا يستخدم طريقتها في البحث والتفسير لكنه يرتكز علي بحث كل أو أحد جوانب الحياة الاقتصادية في مجتمع معين. وطبقًا لهذا يمكننا القول بان الأنثروبولوجيا الاقتصادية تختلف عن غيرها من العلوم التي تتناول الحياة الاقتصادية وذلك لانها تعتمد اعتماداً كاملاً علي أسلوب المواجهة والانغماس في حياة المجتمع موضع الدراسة واهتمامها الشديد بكل الأنشطة والنظم والعلاقات التي توجد بالمجتمعات المحلية موضع البحث، كما أنه يهتم بتحليل كل من أنساق القرابة والدين والتكنولوجيا والايكولوجيا والسياسة حتي يتمكن من تقديم شيئا ذا مغزي حقيقي عن الاقتصاد في المجتمع. (٣٥)

ومهما يكن فالأنثروبولوجيا عندما تدرس أي نشاط فإنها تسلك سلوكاً مختلفًا عن غيرها من العلوم، كما ان لها مفهومها المحدد الذي مؤداه أنه لا يمكن فهم سلوك أو ظاهرة فهماً صحيحًا بعيداً عن الكل الذي يضم هذا السلوك أو الظاهرة، ومن ثم فهي تقدم تفسيراً متكاملاً للسلوك ومن ثم تستعين بالعديد من التخصصات التي تنتمي إليها في سبيل تحقيق هدفه، كما ان المنهج وطريقة الدراسة وأدواتها تعد من أهم ما يميزها عن غيرها من العلوم حتي القريبة منها وهذه الطرق ترتكز أساسًا علي البحث الحقلي.(٣٦)

الاتجاهات النظرية فى الأنثروبولوجيا الاقتصادية

أشارجورج دالتون إلي ان الجانب النظري للأنثروبولوجيا الاقتصادية ما زال في

بداية التكوين أو الصياغة المنظمة وعرف دالتون النظرية بأنها كلمة تستخدم لكي تمدنا بالمعرفة العميقة عن الأهمية الكامنة في تعقيدات العالم الواقعي. كما أكد ان هناك اختلافاً وتنوعا في النظم الاقتصادية التي يدرسها الأنثروبولوجيون ويبدو هذا في ثلاثة جوانب هي:

١- تنوع جغرافي حيث تتركز الاقتصاديات في أجزاء مختلفة من العالم بداية من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط حتي بعض أجزاء من أوروبا وأمريكا الشمالية.

٢- تنوع تاريخي حيث يهتم الأنثروبولوجيون بالتنظيم والأداء الاقتصادي لملايين من النظم الاقتصادية في العالم خلال فترات زمنية وتاريخية متباينة.

٣- تنوع تحليلي حيث تمتاز بعض الموضوعات والنظم الاقتصادية التي يدرسونها بالتنوع والتعقيد.

وبالرغم من هذا التنوع الجغرافي والتاريخي والتحليلي إلا ان هناك رغبة في الوصول إلي نظرية عالمية ومجموعة من المصطلحات والأفكار والتعميمات التي يمكن استخدامها في معالجة كافة المسائل المتعلقة بالنظم الاقتصادية في كافة الفترات الزمنية. لذا تساءل دالتون هل هناك نظرية عامة في أي علم اجتماعي؟ وأجاب ان هذا المطلب الراسخ والمتأصل للوصول إلي نظرية عالمية يعد عائقاً أمام صياغة نظرية عامة للأنثروبولوجيا الاقتصادية. (٣٧)

وحدد دالتون أسباب عدم وجود نظرية متكاملة في الأنثروبولوجيا الاقتصادية فيما يلي:

١- ان اهتمام الأنثروبولوجيين بتنظيمات القرابة والسياسة يفوق كثيراً اهتمامهم بالتنظيم والأداء الاقتصادي في المجتمعات التي يدرسونها. كما ان من بين الأنثروبولوجين نجد اثنين فقط ممن لديهم كتابات كثيرة في مجال الأنثروبولوجيا الاقتصادية هما مالينوفسكي، ريموند فيرث، و هناك قلة من العلماء الذين كتبوا بإسهاب في النواحي النظرية.

٢- ان فهم الأنثروبولوجيين للتنظيم الاقتصادي والنظرية الاقتصادية للرأسمالية الصناعية أقل كثيراً من فهمهم للسياسة والقرابة والدين في أوربا وأمريكا والنظريات التي تفسرهم، كما ان بعض الأنثروبولوجيين لم يتفهموا ان الاقتصاد التقليدي – وهو أكثر العلوم الاجتماعية تجريداً واعتماداً علي الرياضيات لا يتعامل

مع ما يقصده الأنثروبولوجيون بالسلوك البشري، كما ان مفاهيم علم الاقتصاد التقليدي لا تعد مثمرة إذا ما طبقت خارج أنساق السوق. ويؤكد ان رجل الاقتصاد عندما يدرس الاقتصاد غير السوقي فإنه يتخلي عن معظم ما تعلمه ويطبق أساليب البحث الأنثروبولوجي.

٣- لم يهتم الاقتصاديون بالمجتمعات أو الاقتصاديات الريفية والبدائية، وحتي وقت قريب كانوا يهتمون بنمط واحد من الاقتصاد وهو الرأسمالية الصناعية.

٤- لقد أدي تعرض المجتمعات المحلية التي يدرسها الأنثروبولوجيون لدرجات مختلفة من التغير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتكنولوجي إلي تحول في بؤرة اهتمام الأنثروبولوجيا حيث اتسع مجال الاهتمام، فقد كان الاهتمام الأول مركزاً علي التنظيم والوظيفة الخاصة بالاقتصاد، وارتباطه بالعلاقات الاجتماعية عند نقطة زمنية معينة أو تحت ظروف التغير البطئ، أما الاهتمام الحديث فقد امتد إلي التحديث.(٣٧)

ان بداية النظرية الاقتصادية الغربية تعود عمومًا إلي كتاب آدم سميث ثروة الأمم الصادر عام (١٧٧٦) وفكرته الرئيسية عن اليد الخفية في السوق، وان السعي للغايات الخاصة يكون في صالح الخير العام، وتعد هذه الفكرة الأخلاقية شيئًا جوهرياً لعلم الكونيات الغربي منذ القرن الثامن عشر وهو الفترة التي عاش فيها سميث، ويري علم الكونيات هذا ان الإنسان مخلوق دائم الاحتياجات تحفزه الندرة، والذات عنده سابقة علي ما هو اجتماعي، ويتجه سلوكه دومًا إلي الإشباع الذاتي عن طريق السعي إلي المتعة وتجنب الألم وهذه الأعمال الذاتية تؤلف كلاً شاملاً غير منظور يتسم بالخير بفضل العناية الإلهية، وعند نهاية القرن التاسع عشر ظهرت النظرية الكلاسيكية الجديدة التي ركزت علي الفرد واعتبرته فاعلاً عقلانيًا يحدد أهدافه علي أساس متطلباته ثم يسلك أفضل الطرق لتحقيق الأهداف بالموازنة بين البدائل المتاحة، وبناء علي ذلك يوزع الإنسان العقلاني موارده المحدودة، وهذه النظرة العقلانية لفاعل يتصرف بعقله وجسمه إنما هي نظرة ديكارتية، كما أنها جوهرية لنظرية المعرفة عند الغرب خاصة أثناء القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وعلي ذلك فالنظرية الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة تستمد أصولها من علم الكونيات والأخلاقيات ونظرية المعرفة الغربية ويبدو تأثيرها في النواحي المنهجية وهي تمدنا بمجموعة من المفاهيم المنطقية التي تساعدنا في الفهم والتفسير والتنبؤ بكل من السلوكيات الاقتصادية للفرد، بل وعمل الاقتصاد ككل. (٣٨)

ولقد كانت النظرية الاقتصادية التقليدية تقوم علي افتراض الإنسان الاقتصادي Homo Economieus وهو كائن يسعي بعقله وفطرته لخير نفسه، وقد أراد آدم سميث Adam Smith ان يبني جميع العلاقات الاقتصادية علي فكرة الغريزة المتأصلة في الإنسان وهي الغريزة التي تجعل منه رجلاً اقتصادياً يتجه سلوكه دائماً نحو البحث عن المنفعة الشخصية. (٣٩)

وقد وجه النقد إلي آدم سميث والاقتصاديين التقليديين علي أساس أنهم أعطوا صورة مشوهة للطبيعة الإنسانية وركزوا علي البواعث الدنيئة وتجاهلوا ما قد يحرك السلوك الإنساني من قيم عليا، وأنهم افترضوا في الإنسان درجة من الرشاد مبالغ فيها ومنافياً للواقع. (٤٠)

وتعد النظريات الاقتصادية الكلاسيكية انعكاساً لواقع اقتصادي واجتماعي معين عاش فيه رجال الاقتصاد الكلاسيكيون. وإذا نظرنا إلي قانون العرض والطلب وهو أحد الدعائم التي تقوم عليها تلك النظريات وجدنا أنه يتطلب لسريانه وجود نظام الملكية الفردية المطلقة والحرية المطلقة في تنازل المالك عما يملك، ونظام التعاقد الحر في التبادل، فإذا وجدنا نظام اجتماعي آخر يسمح بتدخل الدولة والحد من الملكية وتوجيه الاقتصاد استحال سريان هذا القانون وأصبح دوره ضئيلاً لا يعتد به إذ ان هذا القانون يفترض في الواقع سوقاً حرة تماماً. (٤١)

ويمكن تعريف النظرية الاقتصادية بأنها بناء تحليلي مجرد منفصل عن الواقع تتكون من مجموعة من المبادئ التي بناها علماء الاقتصاد علي أساس من المنطق والملاحظة، وهي تمد الاقتصادي بما يحتاج إليه من عدد وآلات يحلل بها الظواهر الاقتصادية، وهي ليست نظرية واحدة بل مجموعة من النظريات تتعلق بالمشكلة الاقتصادية المتمثلة في محاولة الإنسان إشباع حاجاته المتعددة باستخدام موارد محدودة والمشكلة الاقتصادية تشتمل علي عدة مشكلات منها مشكلة (الإنتاج- التوزيع- التوازن الاقتصادي)، وقد ظهرت مجموعة نظريات تعني بهذه المشكلات الجزئية المنبثقة عن المشكلة الاقتصادية وتوضح العلاقات بين كافة المتغيرات، ومن ثم فان مجموع هذه النظريات الجزئية كون ما يسمي بالنظرية الاقتصادية. وفي ضوء ما سبق فان هناك ثلاث عناصر أدت إلي ظهور النظرية الاقتصادية وهي:

١- وجود حاجات متعددة غير مشبعة.

٢- وجود موارد محدودة.

٣- ضرورة المفاضلة بين البدائل المتاحة التي يمكن عن طريقها إشباع الحاجات المتعددة. (٤٢)

أهداف النظرية الاقتصادية:

تهدف النظرية الاقتصادية إلي شرح وتفسير المعرفة العلمية المرتبطة بالظاهرة الاقتصادية، والظاهرة الاقتصادية هي في مضمونها ظاهرة اجتماعية تتناول جانباً خاصاً من حياة الإنسان وعلاقاته مع الطبيعة أو مع مثيله من الناس، فهي لا تهتم بالعادات أو التقاليد أو نظم الأسرة وغيرها مما تهتم بالظاهرة الاجتماعية، كما لا تهتم بالقيم والمعارف كما في الظاهرة الثقافية، لكنها تتناول الجانب المادي من حياته، أي ما يتعلق بالإنتاج والتوزيع وما يرتبط بهما من أنشطة وعلاقات وعمليات. (٤٣)

هذا والعلاقات التي يمكن استنتاجها من التحليل الاقتصادي يطلق عليها المبادئ الاقتصادية Economic Principles وهذه المبادئ هي ببساطة تلك التعميمات المعبرة عن سلوك مختلف الوحدات والمتغيرات في المجال الاقتصادي وتنقسم هذه المبادئ إلي قسمين تحليلية وإمبريقية، والمبادئ الإمبيريقية هي التي تقرر العلاقات بين بيانات اقتصادية واقعية، وتتحدد مدي صلاحية المبدأ الإمبريقي في مجال التطبيق بمدي التوافق بين الفروض التي بني عليها المبدأ، والواقع المدروس. أما المبادئ التحليلية فإنها تنساب مع مجموعة من الافتراضات التي تضعها النظرية الاقتصادية وتتحدد صحة هذه المبادئ باتساقها مع الفروض التي هي استنتاجات منطقية للنظرية الاقتصادية. ومن هذه الفروض نذكر فرض الرشد ويرتبط به فرض التعظيم وفكرة الحل الأمثل، وهناك فرض الندرة وأخيراً التوازن التلقائي ويتحقق من خلال الأسواق. (٤٤)

لقد ثار جدل ضخم بين علماء الاقتصاد من ناحية، والماديين من ناحية أخري حول دور النظرية الاقتصادية الكلاسيكية خارج المجتمعات الغربية، فالنظرية الاقتصادية الحالية تستند استناداً كلياً إلي حالة خاصة هي الاقتصاد الصناعي الغربي، وتلح الدراسات الاقتصادية الحديثة علي ضرورة وجود نظرية ذات طبيعة خاصة علي حد قول ريموند فيرث تصلح لدراسة الأنشطة الاقتصادية في المجتمعات البسيطة المتجانسة، سواء كانت جماعات بدائية أو مجتمعات قروية صغيرة وهذا يرجع إلي ان النظرية الاقتصادية الحديثة ومفاهيمها المعقدة لا تنطوي علي أية فائدة في هذا الصدد، نظراً لإغفالها العديد من المتغيرات السوسيولوجية المرتبطة بالنشاط الاقتصادي. (٤٥)

لقد ارتبط البحث في الاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا الاقتصادية بموقف العلماء سواء من الأنثروبولوجيين، أو علماء الاقتصاد الذين تحولوا للأنثروبولوجيا- من النظرية الاقتصادية وعلي ذلك ترتبط كافة الاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا

الاقتصادية بموقف محدد من النظرية الاقتصادية الغربية سواء أكان بالرفض التام أو القبول التام لهذه النظرية بكل ما تنطوي عليه من مبادئ تحليلية وفروض، أو الوقوف موقفاً وسطاً بمعني القول بصلاحية هذه النظرية لدراسة بعض جوانب الاقتصاد دون غيرها. وبمعني آخر فان الباحث في الاتجاهات النظرية يجد نفسه أمام ثلاثة فرق نظرية مختلفة يمثل كل فريق اتجاهاً نظرياً واضحاً وهذه الاتجاهات هي:

أ – الاتجاه الصوري وخير من عبر عنه ملفيل هيرسكوفيتس، و إدوارد لكلير، وهارولد شنايدر، وسكوت كوك.

ب– الاتجاه الواقعي ويمثله مالينوفسكي، و كارل بولاني، وجورج دالتون

جـ – الاتجاه الاجتماعي أو اتجاه مدرسة التبادل الاجتماعي ويمثله ريموند فيرث،ماننج ناش، وليام هافيلاند.

وسوف نتناول هذه الاتجاهات بالعرض والنقد والتحليل مع توضيح أوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينهم.

أولاً: الاتجاه الصورى Formal Approach :

وهو الاتجاه الذي يتبني النظرية الاقتصادية والتحليل الاقتصادي ويقبلهما قبولاً تاماً ويسلم بان النظرية الاقتصادية صالحة للتطبيق في كل المجتمعات بغض النظر عن مستواها الثقافي ووضعها الحضاري.

وترجع تسمية هذا الاتجاه بالصوري نظراً لمحاولة أخذ هيكل محدد هو هيكل النظرية الاقتصادية بما بني عليه من فروض ومبادئ ومحاولة تطويع الواقع الاجتماعي لهذا الهيكل الصوري في عملية التحليل.والاتجاه الصوري هو اتجاه يتجاهل الجوانب الاجتماعية للظاهرة الاقتصادية ويفرغها من مضمونها، كما أنه اتجاه علماء الاقتصاد بوجه عام لكنه ألقي بظلاله علي الأنثروبولوجيين بحيث تحول بعضهم إليه في تحليل الظاهرة الاقتصادية.(٤٦)

ويعالج الاتجاه الصوري في الأنثروبولوجيا الأنساق الاقتصادية للجماعات الريفية والبسيطة كما لو كانت تعمل طبقاً لنفس المبادئ الأساسية التي تعمل في ضوئها الأنساق الاقتصادية الأوروبية والأمريكية. ويؤكد الصورويون ان هناك اختلافاً بين الشعوب حول التأكيد علي بعض المفاهيم الاقتصادية الأورو–أمريكية بسبب التغيرات الناتجة عن قيم التمركز السلالي أو العرقي التي تحكم سلوك الجماعات البسيطة، ورغم ذلك فهم يعتقدون ان هناك عدداً من المبادئ السلوكية تحكم كافة النظم الاقتصادية

رغم هذه الاختلافات والبعض أكد ان هذه الاختلافات بين الشعوب الأورو-أمريكية والبسيطة ليست عميقة كما يذهب البعض من المعارضين للاتجاه الصوري.(٤٧)

وهناك من يزعم في الأنثروبولوجيا الاقتصادية ان مفاهيم ومصطلحات النظرية الاقتصادية التقليدية)العمليات الاقتصادية) وما بها من عوامل التعظيم، والندرة، والعرض، والطلب، وإلخ). صالحة للتطبيق علي الاقتصاديات البدائية والريفية التي يدرسها الأنثروبولوجيون حيث ان هناك تشابهات أساسية بين الاقتصاديات البدائية والريفية، وبين الرأسمالية الصناعية التي تجعل من الممكن الوصول إلي نظرية اقتصادية عالمية وعلي ذلك فلابد ان يكون الأنثروبولوجي علي دراية أكبر بمبادئ الاقتصاد التقليدي حتي يصبح قادراً علي وضع نفس التساؤلات عن الأداء الاقتصادي، وتطبيق المقاييس الكمية كلما أمكن ذلك. (٤٨)

كما يري الصوريون كذلك إمكانية تفسير أي تبادل سوسيو اقتصادي (بوتلاش-كولا- مهر العروس) في ضوء مصطلحات السوق مؤكدين بشدة علي فائدة ذلك، ويصفون البوتلاش كاستثمار يدر عائداً ١٠٠٪ وان المهر ثمن يدفعه الشخص مقابل الخدمات الجنسية والعائلية وان هذه المبادلات تماثل التبادلات التجارية المعتادة في الاقتصاد الغربي. (٤٩)

وقد تبين ان الجماعة الصورية تبني آرائها استناداً إلي الرأي القائل بالتشابه بين الاقتصاديات التقليدية (بدائية- ريفية) والغربية أو بمعني آخر ان الاختلافات بينهما طفيفة لا تصل لمستوي الاختلاف الجوهري ويعتبرون المجتمعات البدائية هي البداية الأولي للمجتمعات الغربية ومن ثم فالاختلاف بينهما في الدرجة لا في النوع، وعلي ذلك فإنه بتطور المجتمعات التقليدية وتعرضها لعمليات التنمية فإنها سوف تصبح في مركز المجتمعات الغربية وتمتاز بنفس خصائصها. (٥٠)

ثانياً: الاتجاه الواقعي

ذهب مالينوفسكي منذ نحو أربعين عاماً إلي ان النظرية الاقتصادية الصورية لا تشتمل إلا علي القليل الذي يمكن ان تقدمه للأنثروبولوجي رغم اهتمامه بالمشكلات الاقتصادية للشعوب غير الصناعية وخلال هذه الفترة ذهب فرانك نايت Frank Knight وهو عالم اقتصاد بارز- إلي ان دراسة المجتمعات الصغيرة لا ترتبط سوي ارتباطاً ضئيلاً (ان لم تكن ترتبط علي الإطلاق) بالاقتصاد. علي حين نجد الأنثروبولوجي هيرسكوفيتس يعترف بان معظم الأنثروبولوجيين ليسوا علي دراية كافية بالنظرية الاقتصادية علي النحو الذي يمكنهم من الإفادة منها بطريقة سليمة. أما

فيرث فيري ان المبادئ الأساسية لعلم الاقتصاد يمكن ان تنطبق انطباقًا عامًا علي المجتمعات البسيطة وان كان يتعين اختبار كثير من افتراضات هذا العلم.(٥١)

وقد عارض الإقتصادى كارل بولاني إمكانية تطبيق النظرية الاقتصادية الحديثة في دراسة كافة أنواع الاقتصاد وقد اتفق معه العالمان بول بوهانان وجورج دالتون، ورأي بولاني ان النظرية ألاقتصادية الحديثة قد صممت لتحليل الأنساق التي تتحدد القيم فيها من خلال اقتصاد السوق، وفي مقابل ذلك أكد ان الثقافات البدائية والمجتمعات الكلاسيكية القديمة لم تعرف نظم التبادل السوقي ولم تعمل طبقًا له، كما يري ان النظام الاقتصادي يتضمن ثلاثة أنماط رئيسية، فبجانب اقتصاد السوق هناك الاقتصاد القائم علي التبادل التناوبي Reciprocal Economy ، والاقتصاد القائم علي تبادل إعادة التوزيع Redistributive Economy ، ورأي أن هناك مشكلة تواجه العلوم الإنسانية عند دراسة الاقتصاديات البدائية والإقطاعية أو الاشتراكية وهي إنشاء إطار مرجعي لمعالجة المسائل الاقتصادية، حيث ان العلوم الإنسانية كانت تعاني من القيود التي فرضها الوضع التقليدي لعلم الاقتصاد. وان علم الاقتصاد تشكل في ظل نظام السوق، وان مصطلحاته كانت واقعية إلي حد ما، لكن الأنثروبولوجى والسوسيولوجي والمؤرخ حينما يدرس كل منهم الاقتصاد في مكان ما فإنهم يجدون نظمًا أخري مختلفة علاوة علي نظام السوق، ومن ثم ركز بولاني علي ضرورة تطبيق الاتجاه الواقعي في تصنيف الاقتصاديات وفي دراسة التجارة والنقود والنظم الاقتصادية.(٥٢)

وعلي ذلك فقد أكد بولانى أنه خارج نطاق نظام السوق يفقد التحليل الاقتصادي صلاحيته للتطبيق كمنهج يرتبط بنمط اقتصاد محدد ألا وهو اقتصاد السوق. (٥٣)

وتبني دالتون آراء بولاني حيث أكد علي التفرقة بين معني الاقتصاد الواقعي والصوري إلا ان بولاني قد تميز عن دالتون في أنه قد أوضح طريقة الدراسة الواقعية وكيفية استخدام المدخل الواقعي في دراسة العمليات الاقتصادية، بينما ركز دالتون علي إظهار عدم ملاءمة النظرية الاقتصادية خارج المجتمعات الرأسمالية.(٥٤)

يذهب الواقعيون إلي ان الاقتصاد البدائي يختلف في طبيعته عن اقتصاد السوق ويبدو ذلك في النواحي التالية:

– ان الاقتصاد البدائي موجه نحو احتياجات الإعاشة.

– نظام تبادل السلع قائم علي نظامي المقايضة وإعادة التوزيع. الأول يتضمن تبادل نوعي للسلع والخدمات أو طبقًا للقيم التقليدية في حالة اختلاف السلع. أما الثاني فهو

يتضمن ميكانيزمات خاصة تضمن تحقيق المساواة في نقل السلع من الأفراد والجماعات التي لديها فائض إلي تلك التي لا تمتلك والحيلولة دون تراكم السلع. وعلي النقيض من ذلك نجد أولئك الذين يؤكدون ان الاختلافات بينهما ليست في النوع كما يذهب الواقعيون وإنما هي اختلافات في الدرجة.

– عدم وجود الترشيد وتحقيق أقصي ربح ممكن فى الإقتصاديات البدائية، وتبدو الأنشطة الاقتصادية في مجتمعات الإعاشة كجزء متغلغل في النسق الاجتماعي، كما تضم هذه الأنشطة نظاماً لتبادل الأخذ طبقاً لمعايير متكافئة، ويخضع لتوجيه كرم الضيافة، كما توجد علاقات تعاونية تحول دون العداوات وتدعم التضامن. وعلي النقيض فان اقتصاد السوق يتضمن المساومة للوصول إلي سعر مناسب تدعمه الرغبة في تحقيق ربح شخصي ومن ثم ينتشر التناقض والقلق والعداوة. (٥٥)

ثالثاً: الاتجاه الأنثروبولوجي الاجتماعي

هو اتجاه معتدل بالنسبة للاتجاهين السابقين ويمثله من علماء الأنثروبولوجيا ريموند فيرث ومانِنج ناش، ومن علماء الاجتماع تالكوت بارسونز ونيل سملسر وقد استخدم فيرث النظرية الاقتصادية والتحليل الاقتصادي في كتاباته العديدة عن صيادى الملايو، والتيكوبيا، وقد كتب عن عملية الاختيار وعن الهدية ودورها الاقتصادي ومشكلة القيمة، وظهر ذلك في كتاباته عن النظام الاقتصادي الريفي في معالجته لاقتصاد صيادى الملايو وفيها نجد ان موقف فيرث يعكس نظرته البنائية للنظام الاجتماعي والنظرة إلي النظام الاقتصادي كشئ تابع للمجتمع. (٥٦)

ويتفق مانِنج ناش مع ريموند فيرث في موقفه من النظرية الاقتصادية حيث يري صلاحيتها لتحليل بعض الجوانب في النشاط الاقتصادي التقليدي استناداً إلي الرأي القائل بان السمات السوسيوثقافية تؤثر علي النشاط الاقتصادي وكذلك استناداً إلي وجود بعض المجتمعات الريفية التي تتميز بخصائص تشبه خصائص المجتمع الغربي مثل الاعتماد علي الأسواق والنقود وتراكم رأس المال، وإن كان ذلك يتم في حدود السياق الاجتماعي والبناء الاجتماعي الكلي للمجتمع وفي ذلك نجده يذكر أن بين سكان مجتمع تبوزتلان Tepoztlan بالمكسيك العديد من الأشخاص يتكسبون قوتهم عن طريق تقديم الخدمات للآخرين مقابل عائد نقدي. أي يبيعون عملهم مقابل أجر. وإن استخدام رأس المال المتراكم يرتبط بالتنظيم أو البناء الكلي للوحدة الإنتاجية، وليس فقط بالبعد الاقتصادي.كما أنه يؤكد علي الدور الذي يقوم به الغرباء في التأثير علي النشاط الاقتصادي وتوجيهه، فهم يأتون إلي المجتمعات تاركين مجتمعاتهم الأصلية من أجل

العمل، فهم يقرضون الأموال ويجلبون السلع وهم بذلك يربطون المجتمعات التي يقيمون فيها بشبكة واسعة للتبادل وان كانوا لا يرتبطون بأهل المجتمع من الناحية الثقافية والأخلاقية مثل الصينيين في جنوب شرق آسيا، واليهود في وسط أوروبا وهنا فالسمات السوسيوثقافية تؤثر علي النشاط الاقتصادي وتوجهه. (٥٧)

ويؤكد ويليام هافيلاند هذه الآراء حيث يري إنه في أي نسق اقتصادي لا يمكن فهم أو تفسير العمليات الاقتصادية دون معرفة العوامل الثقافية التي يتم في ضوئها تحديد الحاجات، ولابد من فهم العادات أو الأعراف التي قد تفرض طريقة إشباع الحاجات، ويؤكد هافيلاند علي حقيقة هامة وهي ان المجال الاقتصادي للسلوك لا ينفصل عن المجال الاجتماعي، وكذلك الدين والسياسة، وان لكل مجتمع الحرية في اتباع المنطق الاقتصادي الخاص به كما أن السلوك الاقتصادي والنظم الاقتصادية يمكن تحليليها في ضوء مصطلحات اقتصادية صرفة ولكي يتم ذلك لابد من تجاهل اعتبارات غير اقتصادية. (٥٨)

وفي ضوء ما تقدم فإن مانتج ناش وفيرث قد قبلا استخدام النظرية الاقتصادية في المجال العادي ونظروا للاقتصاد علي أنه أحد أنماط السلوك لا طريقة للنظر إلي كل سلوك، كما ان الاقتصاد يختلف عن السلوك الاجتماعي لكنه مرتبط به ومحكوم بقواعده، هذا علي عكس نظرة الصوريين الذين نظروا للاقتصاد والنظرية الاقتصادية كطريقة للنظر إلي كل سلوك والحكم عليه في ضوء قواعد وفروض النظرية الاقتصادية وأنه مع وجود فريق يقبل النظرية الاقتصادية كليًا أو جزئيًا هناك في المقابل فريق يرفضها رفضًا تامًا وهؤلاء الواقعيون وعلي رأسهم الأنثروبولوجى مالينوفسكي والاقتصادى كارل بولاني.

وغنى عن القول إذن ان مسألة إنشاء نظرية واحدة تصلح لدراسة وتحليل وتفسير كافة النظم الاقتصادية تعد مطلبًا صعب المنال فالفروض والنظريات والمبادئ غير ثابتة بل تتغير باستمرار لان المجتمعات ذاتها التي وضعت تلك المبادئ والنظريات في ضوئها تتغير باستمرار فنحن لا نعيش في عصر الثوابت بل في عصر المتغيرات السريعة المتلاحقة.

خاتمة:

تعد الأنثروبولوجيا الاقتصادية أحد الفروع الرئيسية والهامة للأنثروبولوجيا العامة تهتم بدراسة جانب من الجوانب الهامة والأساسية للحياة وهو الجانب الاقتصادي وكافة

ما يتعلق به سواء دراسة نظم أو أنساق اقتصادية وما يطرأ عليها من تغير وأسباب وعوامل هذا التغير ودورها في التأثير علي المجتمع ككل. كما تهتم بدراسة التطور الاقتصادي والتاريخ الاقتصادي، بالإضافة إلي عمليات التنمية المتصلة بالجانب الاقتصادي وتهتم بدراسة الأسواق التقليدية والعمليات الاقتصادية كالاستثمار والادخار والتبادل هذا بالإضافة إلي دراسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة وموضوعات تتصل بالعمل والتخصص وتقسيم العمل.

وتشترك الأنثروبولوجيا الاقتصادية في هذه الاهتمامات مع العديد من العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والاجتماع الاقتصادي وعلم النفس والتاريخ وان كانت تحتفظ لنفسها برؤية خاصة تتمثل في النظرة الشاملة الكلية، والانغماس في حياة المجتمع الذي تدرسه، وربط النواحي الاقتصادية بالجوانب الاجتماعية الأخري في المجتمع. وقد نبع هذا التفرد في الاهتمامات من تفرد الأنثروبولوجيا ذاتها كعلم وتستمد الأنثروبولوجيا الاقتصادية إطارها النظري والمنهجي من علوم أخري بجانب الأنثروبولوجيا كعلم الاقتصاد بصفة خاصة.

وتتنوع الاهتمامات العلمية للأنثروبولوجيا الاقتصادية وتتطور بتطور المجتمعات وتطور المناهج والمجالات البحثية المختلفة، وهي دائماً تواكب في اهتماماتها العلمية ودراساتها التوجهات السائدة في العصر، فهناك العديد من الاهتمامات والموضوعات العلمية الحديثة التي فرضتها تطورات وتوجهات العصر والتي لم يكن للعلم عهد بها.

وقد أشرنا من قبل إلي ان الأنثروبولوجيا الاقتصادية ارتبطت في البداية بدراسة الاقتصاد والعمليات الاقتصادية والأسواق في المجتمعات البدائية والتقليدية، ولكن عندما تطورت تلك المجتمعات بفعل عمليات التنمية والتحديث تطورت بالتالي النظم والعمليات الاقتصادية واختلفت عن ذي قبل فاستجابت الأنثروبولوجيا الاقتصادية لهذا وطورت موضوعاتها واهتماماتها ومناهجها كي تناسب المجتمعات والأوضاع والنظم المستحدثة والمتغيرة. وقد عرفت المجتمعات الإنسانية أنماطاً مختلفة من النظم الاقتصادية شكلت مجالات للبحث هذا ولم تكن الأنثروبولوجيا الاقتصادية كعلم بعيدة عن رصد الوضع الإقتصادى والنسق الإقتصادي وما يطرأ عليه من تطورات وتناولها بالعرض والنقد والمقارنة والتحليل.

هوامش الفصل:

(1) Nash M., "Economic Anthropology", (1972) In., David, L. Sills, (ed.) International Encyclopedia of The Social Sciences, The Macmillan Company & The Free Press, Vol.4, USA., P. 360.

(٢) عبد الله غانم، النظرية في علم الإنسان الاقتصادي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ب.ت، ص٦.

(3) Dalton G., Economic Development and Social Change, the Natural History Press, USA. 1971. P. 2.

(٤) فاروق العادلي، الأنثروبولوجيا الاقتصادية والسياسية، دار الهاني، ط٢، القاهرة ١٩٩٣، ص١٩.

(٥) عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الاقتصادي، ج١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(6) Henderson, Gerald M. "Economic Anthropology," In; Encyclopedia Americana, Collier Incorporated, Vol. 1, 2, USA. 1984. P. 46.

(٧) عبد الله غانم، المرجع السابق، ص ص ١ : ٤.

(٨) نفس المرجع السابق، ص٤، ٥.

(9) Smith, Charlotte Seymour, Macmillan Dictionary of Anthropology, Macmillan Reference Books, 1987, P.88.

(١٠) محمد عبده محجوب، مقدمة في الاتجاه السوسيو أنثروبولوجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، الإسكندرية، ١٩٨١، ص٥٧، ٥٨.

(١١) محمد عاطف غيث وآخرون، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ب.ت، ص٤٨.

(١٢) حمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، ج٢ (الأنساق) دار الكاتب العربي، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص٢، ٣.

(١٣) محمد عبده محجوب، مقدمة في الاتجاه السوسيو أنثروبولوجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، الإسكندرية، ١٩٨١، ص ٣١.

(١٤) نبيل صبحي حنا، المرجع السابق، ص١٠٥.

(15) Haviland W.A., Ibid. P.463.

(16) Dalton G., Economic Development and Social Change, Op.Cit., P.32.

(١٧) أحمد أبو زيد، المرجع السابق، ص ص ٩٨، ٩٩.
(١٨) لمرجع السابق، ص١٠٣، ١٠٤.
(19) Taylor, Robert B., Ibid., P.205.
(٢٠) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، ج٢، (الأنساق) ، ص٩٠، ٩١.
(٢١) يسري دعبس، الأنثروبولوجيا الاقتصادية، سلسلة المعارف الاقتصادية والإدارية، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص٦.
(٢٢) أحمد أبو زيد، مرجع سابق ص ص ١٠٣، ١٠٤.
(٢٣) عبد الله غانم، ، مرجع سابق ، ص٧.
(24) Dalton, George, Studies in Economic Anthropology, The American Anthropological Association USA. 1971, P.1 (25) Dalton George, Economic Development and Social Change, Op. Cit., P. 2.

(26)Ibid., PP. 1, 2.
(27) Nash, Manning, "Ibid. P. 367.
(٢٨) فاروق اسماعيل، إثنوجرافيا الأنقسنا، دار النشر الجامعي، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٧٧.
(٢٩) نبيل صبحي حنا، الاتجاهات التقليدية والحديثة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص١٠٧.
(29)Dalton George, Ibid. P.2 (30) Nash, M., Ibid. P.361.
(31) Dalton, G., Economic Development and Social Change Op.Cit. P: 2.
(٣٢) محمد الجوهري، المرجع السابق، ص ٥٤.
(٣٣) فاروق العادلي، مرجع سابق، ص١٠.
(٣٤) عبد الله غانم، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩، ٥١.
(٣٥) سعيد فالح الغامدي، المدخل إلي علم الإنسان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩١، ص٢٩.
(36) Dalton G., Studies in Economic Anthropology, Op.Cit. P: 8.
(37) Dalton G., "Theoretical Issues in Economic Anthropology," In; Economic Development and Social Change, The Natural History press, New York, 1971, PP.179: 181.

(٣٨) نوريت بيرد- دافيد، مرجع سابق، ص ص ٢٧، ٢٨ .

(٣٩) فاروق العادلي، المرجع السابق ص٢٨ .

(٤٠) جلال أمين، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٥، ص٧٦ .

(٤١) السيد محمد بدوي، علم الاجتماع الاقتصادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٣٥ .

(٤٢) عبد الله غانم، التبادل وعمليات الاستثمار والادخار في المجتمع المحلي والتقليدي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٨٢٧ .

(٤٣) عادل حشيش ومصطفي شيحة، المرجع السابق، ص٦ .

(٤٤) عبد الله غانم، المرجع السابق، ص٩: ١١ .

(٤٥) فاروق العادلي، المرجع السابق ، ص٩، ١٠ .

(٤٦) عبد الله غانم، المرجع السابق، ص ص ١٠٣، ١٠٤، ١٧١،

(47) Taylor, Robert B., Introduction to Cultural Anthropology, Allyn and Bacon, INC, USA, 1973, PP.205, 206.

(48) Dalton G., "Theoretical Issues in Economic Anthropology", Op.Cit P. 183

(49) Ibid., PP: 184, 185.

(٥٠) عبد الله غانم، التبادل وعمليات الاستثمار والادخار في المجتمع المحلي والتقليدي ، مرجع سابق، ص٣١ .

(٥١) محمد الجوهري، مرجع سابق ، ص١٦٠ .

(52)Polanyi, K., Op.Cit., PP.216, 218.

(53) Ibid., P.220.

(٥٤) عبد الله غانم، المرجع السابق، ص٣٣ .

(٥٥) محمد الجوهري، المرجع السابق، ص ص ١٦١، ١٦٢ .

(٥٦) عبد الله غانم، التبادل وعمليات الاستثمار والادخار في المجتمع المحلي، مرجع سابق، ص ص ٢٢، ٢٣ .

(57) Nash Manning, "Economic Anthropology," Op. Cit., P.

(58) Haviland W.A., Anthropology, Harcourt Brace College Publishers,8th Edition,USA.1997. P.465.

الفصل السابع

البناء الاجتماعي للمؤسسات الطبية

مقدمة .

أولاً : العلاقات المؤقتة .

ثانياً : العلاقات العميقة .

ثالثاً : العلاقة بين الطبيب والممرضة .

رابعاً : العلاقة بين الممرضة والمريض .

خامساً : العلاقة بين الممرضة والممرضة .

سادساً : العلاقة بين المريض والمريض .

خاتمة .

الفصل السابع

البناء الاجتماعي للمؤسسات الطبية(*)

مقدمة:

البناء الاجتماعى هو ذلك الكل المتكامل المتماسك الأجزاء ، بحيث يظهر بين هذه الأجزاء نوع من الترتيب بين الأشخاص المكونين لذلك البناء فى علاقاتهم بعضهم ببعض بطريقة منظمة ومحددة (١) .

فالأشخاص هم لبنات البناء الإجتماعى الأساسية كما يرى « راد كليف – براون » – الذى اهتدينا بنظريته فى البناء الاجتماعى كأساس نظرى لهذه الدراسة – والذى يؤكد على أن دراسة العلاقات الاجتماعية التى تنشأ بين هؤلاء الأشخاص داخل البناء الإجتماعى ، إنما تكتسب أهميتها من خلال ما ينشأ بينهم من تفاعل إجتماعى (٢) .

والتفاعل الإجتماعى يعنى « التأثير المتبادل لأفعال الأشخاص والجماعات الناتج عن اتصال بعضهم ببعض » (٣) كأن الاتصال هو الأساس الذى يقوم عليه التفاعل الإجتماعى، ويأتى هذا المعنى فى تعريف البعض للعلاقات الإجتماعية، حيث تعرف العلاقات الاجتماعية بأنها « الروابط المتبادلة بين أفراد وجماعات المجتمع التى تنشأ عن اتصال بعضهم ببعض، وتفاعل بعضهم مع بعض، مثل روابط القرابة والروابط التى تدرب أعضاء المؤسسات الاجتماعية، وأفراد الطبقات الاجتماعية، والسياسية المختلفة فى المجتمع » (٤).

إنطلاقاً من هذا المعنى كان إختيارنا لهذا الفصل والتركيز فيه على الدراسة التحليلية الوافية لتلك العلاقات الاجتماعية بمستوياتها المختلفة التى تظهر داخل بناء المستشفى ، وذلك من أجل الوصول إلى فهم أعمق وأدق لذلك البناء .

والعلاقة الاجتماعية فى أبسط أشكالها هى ذلك النموذج للتفاعل المتبادل الذى يستمر فترة معينة من الزمن تؤدى إلى ظهور مجموعة توقعات اجتماعية ثابتة (٥) .

وقد تكون العلاقة الاجتماعية طويلة الأجل Social Relation كتلك العلاقة بين الزوج والزوجة ، أو بين الرئيس والمرؤوس ، وهى التى تستمر لفترة طويلة،

(*) كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

أو قد تكون العلاقة الاجتماعية محدودة Social Relationship وهى أيضاً نموذج للتفاعل الاجتماعي بين شخصين أو أكثر، ويمثل هذا النموذج أبسط وحدة من وحدات التحليل السوسيولوجي ، كما أنه ينطوى على الاتصال الهادف، والمعرفة المسبقة بسلوك الشخص الآخر ، ومثال على النوع الأخير قائد السيارة الذى يريد إقناع رجال الشرطة بأنه لم يكن مخطئاً (٦) .

وسوف تركز دراستنا للبناء الإجتماعي للمستشفى على هذين النمطين من العلاقات وإن كنا نميل إلى استخدام مصطلح « علاقة مؤقتة » لندل به على ذلك النوع المحدود من العلاقات والذى ينشأ فى أقسام استقبال المرضى وتسجيلهم بالمستشفى ، كما نميل إلى استخدام مصطلح « علاقة عميقة » لندل به على أنماط العلاقات الأساسية داخل بناء المستشفى الاجتماعي والتى تتسم بالدوام بمقارنتها بالنوع الأول .

أولاً: العلاقات المؤقتة:

يحدث الإحتكاك المباشر أو التفاعل الاجتماعي في صورته الأولية بين المرضى والأطباء من ناحية ، ثم بين المرضى وبعض العاملين بالمستشفى لبضعة ساعات على الأكثر ، يتم بناء عليها اقامة علاقة اجتماعية تتسم بأنها سريعة أو مؤقتة ، وقد لاحظنا أن هذا النوع من العلاقات يظهر في بعض أقسام المستشفى – المقصود هنا المستشفيات موضوع الدراسة – والتى نجملها فيما يلي:

١- الاستقبال والطوارئ .

٢- العيادة الخارجية .

٣- قسم التسجيل الطبى .

٤- قسم العلاقات العامة .

٥- مكتب خدمة المواطنين .

وسوف نتناول كل قسم منها بشئ من التفصيل حتى يتسنى لنا الوقوف على معنى نوعية العلاقات التى تنشأ داخل هذه الأقسام .

١- الاستقبال والطوارئ:

أ- المستشفى الرئيسي:

يمثل الاستقبال بمستشفى الرئيسى احدى الطرق التى يدخل بها المريض إلى المستشفى ، ويستقبل هذا القسم نوعين من الحالات ، أولاها تتسم بالصفة العاجلة ، بينما تشمل الثانية حالات الحوادث ، والحالات الخطرة .

يقوم الاستقبال تجاه الحالات الأول ، وكلها اصابات بسيطة أو سطحية أو حالات اغماء ، باجراء اللازم نحوها حيث تجرى الاسعافات الأولية مع طرف بعض أنواع الدواء كالمسكنات أو المضادات الحيوية ، لكى يخرج صاحب الحالة بعد أن يقضى بضع الساعات أو أكثر داخل نطاق المستشفى . ومن الأمثلة على هذا النوع والتى لاحظناها وقت إجراء الدراسة فى وضع الضمادات السطحية والبسيطة لبعض الجروح الأولية ، أو الحياكة بالخيوط الطبية باليدين أو الرجلين أو احداهما ، وأيضاً بالجبهة أو إجراء عمليات جزئية وبسيطة نتيجة لتهتك أحد الأعضاد بأداة حادة وصرف العلاج اللازم من مسكنات ومضادات حيوية والخروج بعد قضاء ساعات قليلة بالمستشفى .

وفى حالات النوع الثانى حيث تكون الإصابة عميقة وتحتاج إلى تدخل جراحى فإنه يتم حجز المريض بالمستشفى ويحول إلى قسم الجراحة المختص حسب نوع الإصابة التى يعانى منها المريض وقد يمكث المريض بالمستشفى فى هذه الحالة لبضعة أيام حيث يحتك بالأطباء الذين يقومون باجراء العملية الجراحية له ، كما يحتك أيضاً بالممرضات ، بالإضافة إلى بعض العاملين بقسم شئون المرضى وقسم التسجيل الطبى ويقوم المريض الذى تم حجزه بالمستشفى بتسجيل اسمه بالمستشفى ويكتب له وقت الدخول وعدد الأيام التى قضاها بالمستشفى ثم وقت الخروج من المستشفى وهذا المريض ينشأ بينه وبين الأطباء من جهة والعاملين بتلك الأقسام من جهة أخرى نوع من العلاقة التى سرعان ما تنتهى بانتهاء الحالة وخروج المريض من المستشفى . وتميل الباحثة إلى أن تطلق على مثل هذه العلاقات ، علاقات مؤقتة أو سطحية ، ، فى مقابل تلك العلاقات العميقة أو التى تستمر فترة طويلة وهى موضوع القسم الثانى من هذا الفصل .

وفى بعض الأحيان يستقبل قسم الطوارئ بعض الحالات المريضة التى يفترض أن تمر بخطوات ادارية معينة حتى يتسنى تقديم العلاج لها ، إلا أنها تتطلب تدخلاً طبياً سريعاً مثل حالات ، التهاب الزائدة الدودية ، هنا يتم التدخل الطبى السريع ، مع تخطى الخطوات التقليدية المعمول بها فى المستشفى بحيث يدخل المريض على وجه السرعة إلى حجرة العمليات ويتم إجراء اللازم له . ثم يسجل بعد ذلك اسمه بقسم التسجيل الطبى ، ومن ثم نجد تخطياً وعدم تقيد بالقواعد واللوائح الإدارية المعمول بها بالمستشفى أمام مثل هذه الحالة ، كأن هناك تغليب للنواحى الانسانية أمام اللوائح الرسمية المعمول بها بالمستشفى .

ويعمل قسم الاستقبال والطوارئ بالمستشفى الرئيسى طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويوجد به وحدة للعلاج المركز مجهزة بواسطة حديثة للعناية والرعاية الطبية ، ويحول إليه حالات الحوادث الخطيرة أو الحالات التى يتطلب علاجها رعاية مركزة .

وقد كشفت لنا الدراسة أن هناك بعض الحالات التى تحتاج لدخول قسم العلاج المركز بالاستقبال ولكنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات العلاج المرتفعة بذلك القسم هنا يظهر عمل الخدمة الاجتماعية بالمستشفى حيث توجد أخصائية اجتماعية بقسم الاستقبال ، يتلخص علمها فى تحرير استمارات خاصة ببحث الحالة الاجتماعية لمريض ، وغالباً ما ينتهى هذا البحث بتوفير نفقات العلاج لغير القادرين عليها (*).

ب- مستشفى الشاطبى :

تتمثل الحالات التى تدخل المستشفى عن طريق الاستقبال فى حالات النزيف والولادة ، ويستقبل هذا القسم تلك الحالات طوال ساعات اليوم كاملة ، فالعمل به طوال الأربع والعشرين ساعة لا يتوقف ، ويعمل به الأطباء المقيمون بالاضافة إلى الممرضات ، ويتم حجز المريضة عن طريق الاستقبال إذا كانت تعانى من نزيف حاد وشديد ، ثم تحول إلى أحد أقسام المستشفى لإجراء عملة. وهناك تقسيم للعمل داخل هذه الأقسام، حيث يخصص لكل قسم أسبوع للحوادث ليشرف على الحالات التى تأتى إليه وقد تدخل بعض حالات الحوادث عن طريق الاستقبال، والبعض الآخر عن طريق العيادة الخارجية. ويحدد مستشفى الشاطبى لكل قسم من أقسامه يوماً فى الأسبوع أيضاً لإجراء عملياته، وتجهز الحالات التى سوف تجرى لها العملية فى اليوم السابق على العملية ، ويمر الأساتذة المتخصصين للإشراف على تلك الحالات ثم تجرى لهم العمليات .

أما عن حالات الولادة فهى تدخل أيضاً عن طريق الاستقبال ، وإذا لم تكن السيدة الحامل على استعداد سريع لعملية الولادة فإنها تغادر المستشفى ، على أن تعود مرة أخرى حسب قرار الأطباء الذين يقومون بالكشف على هذه الحالات بقسم الاستقبال، إلا أن الفترة التى تقضيها المريضة بهذا القسم قصيرة للغاية ولا

توجد وحدة رعاية مركزة قسم الاستقبال بمستشفى الشاطبى على غرار الموجودة بالمستشفى الرئيسى ، بل أن هناك توسعات رأسية بمستشفى الشاطبى، وسوف ينشأ بأحد الأقسام الجديدة مركز للعناية المركزة (*) .

٢- العيادة الخارجية :

(أ- المستشفى الرئيسى)

تمثل العيادة الخارجية الطريقة الثانية لدخول المريض إلى المستشفى ، وتعمل العيادة الخارجية فترتين ، الفترة الأولى صباحية من الساعة الثامنة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر ، وغالباً ما يكون العلاج فى هذه الفترة مجانياً .

ويقوم بالكشف على الحالات المترددة فى هذه الفترة الأطباء المقيمون بالمستشفى أما الفترة الثانية فهى مسائية من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الخامسة وتمثل هذه الفترة مشروع العلاج بالأجر الرمزى ، أو ما يسمى بمشروع العلاج الاقتصادى ، حيث يدفع المريض جنيهاً قيمة الحصول على بطاقة الدخول (تذكرة) التى تحتوى على بيانات أولية عن المريض، وبعد أن يستوفيها، يتم عمل اللازم تجاهه، ثم تحفظ تذكرته بقسم شئون المرضى، فإذا كانت حالة المريض عادية بحيث لا تتطلب تحويله إلى أحد الأقسام التخصصية، اكتفى الطبيب المسئول بتشخيص حالته ووصف علاجه ، وبعدها يخرج المريض بحيث تتوقف علاقته بالمستشفى عند حدود العيادة الخارجية والعاملين بها، وتكون علاقته بهم علاقة سريعة ومؤقتة ، أما إذا أظهر فحص الطبيب الأولى أن حالة المريض لا تحتمل عودته إلى منزله دون مباشرة علاجه بمعرفة المختصين (اجراء عملية –مرض مزمن ظهرت مضاعفاته – إجراء التحليلات بهدف التشخيص الدقيق ... الخ) ويحتاج إلى مدة رعاية أطول ، بأمر الطبيب المختص بدخوله المستشفى، ويتم حجز المريض بعد أن يدفع ١٥ جنيهاً شاملة الرعاية والعلاج والإقامة وإجراء عملية إذا لزم الأمر(*).

ويحدد عدد الأسر الشاغرة بالمستشفى عدد المرضى الذين يحولون من العيادة الخارجية إلى داخل أقسام المستشفى ، على أن تكون الأولوية دائمًا للحالات العاجلة أو الملحة . وغالبًا ما يحول مرضى الفترة الصباحية لأقسام العلاج المجانى ، ومرضى الفترة المسائية للعلاج بأجر اقتصادى ، أو بأجر كامل .

وإن كنا لاحظنا – اعتماداً على منهج دراسة الحالة – ارتباط الحالة الاقتصادية للمريض بنوع العلاج الذى يتلقاه (مجانى ، اقتصادى، أجر كامل(*) .

ويقوع على قسم شئون المرضى بالمستشفى – وصلته وثيقة بالعيادة الخارجية – عبء تصنيف المرضى من خلال البيانات الأولية لهم، بالاضافة إلى ما لاحظناه من دوره فى إعداد تقارير الأطباء الخاصة بحالات الحوادث والكوارث وتوجيهها للجهات المعنية (الشرطة ، النيابة ، القضاء) .

ب- مستشفى الشاطبى :

بينما تقوم العيادة الخارجية بالمستشفى الرئيسى بنشاط وافر ومتعدد الاتجاهات ، لاحظنا أن العيادة الخارجية بمستشفى الشاطبى يقتصر عملها على فترة صباحية فقط وتتعلق بالمريضات – دون حالات الوضع التى يتلقاها قسم الاستقبال – وفى العادة يشخص المرض ويحدد ويوصف له العلاج اللازم، وتخرج المريضة بعد أن تكون قد كونت علاقة بسيطة ومؤقتة بالأطباء والممرضات بقسم العيادة الخارجية ، وتتعمق هذه العلاقة بدرجة أكثر عندما تحجز بعض هذه الحالات بالمستشفى لإجراء جراحة عاجلة ، حيث تحول المريضة إلى القسم الذى يعدها ويجرى لها التحاليل ، ومن ثم تكون مستعدة لإجراء العملية ومن أمثلة العمليات التى تجرى لمثل هذه الحالات : استئصال الرحم ، وانتزاع أورام ليفية أو سرطانية من الرحم ، أو إنتزاع أورام فى المبيض ، الإجهاض ، وإجراء عملية لرفع الرحم عند سقوطه ، (وتعانى السيدة من سقوط الرحم نتيجة لتكرار الحمل والولادة أو نتيجة للولادة الخاطئة التى تتم على أيد القابلات بالمنازل) إذا أجرت المريضة احدى هذه العمليات فلابد أن تمكث بالمستشفى بضعة أيام، وهنا تنشأ بينها وبين الفريق الطبى المعالج – الأطباء والممرضات – علاقة أقوى من تلك التى نشأت بين المريضات اللائى غادرن المستشفى بعد قضاء عدة ساعات فيه .

كما أن هناك نوعًا آخر من العمليات التى تجرى للمريضة داخل العيادة الخارجية وتستطيع أن تخرج بعد قضاء ساعات من إجرائها ولا يتم حجزها بالمستشفى ، ومن هذه العمليات كى للرحم ، أو علاج الإلتهابات فى عنق الرحم، والإلتهابات المهبلية .

ويرتبط بالعيادة قسم شئون المرضى الذى يحتفظ ببطاقات لكافة المترددات تحمل بياناتهم الأولية وحالاتهم المرضية بحيث يمكن العودة إليها عند الطلب ، حيث يطلبها بعض الأطباء للرجوع إليها فى إجراء بحوثهم ، أو أن المريضة نفسها قد تعود مرة أخرى وتطلبها لإثبات مدة مكوثها بالمستشفى، حيث تثبت فترة المرض إذا كانت تعمل فى إحدى قطاعات الحكومة أو القطاع العام لاحتساب أجازة مرضية لها، هذا عن قسم العيادة الخارجية بالمستشفى موضوع الدراسة .

٣- قسم التسجيل الطبى :

يعتبر قسم التسجيل الطبى من الأقسام التى يحتك فيها المريض ببعض العاملين بالمستشفى ويستطيع أن يكون معهم نوعاً من العلاقات المؤقتة ، يعد هذا القسم حديثًا نسبياً فهو لا يزيد عن عشر سنوات ، وغالباً ما يرأس هذا القسم أحد الأطباء (*) .

ويقع مكتب التسجيل الطبى فى المدخل بالمستشفى الرئيسى ، حيث يتجه إليه المريض فى بداية دخوله المستشفى ، ويسمى بمكتب الدخول والخروج ، وبمجرد دخول المريض المستشفى يسجل بعض البيانات الأولية داخل استمارة خاصة به .

- اسم المريض رباعياً ، السن ، النوع ، الحالة الزواجية ، رقم المستشفى الموحد ، محل الاقامة الدائم ، الجنسية ، الديانة ، محل الميلاد ، المهنة .
- ثم يسجل تاريخ الدخول بالساعة ، وتاريخ الخروج بالساعة ، كيفية الدخول ثم مدة الإقامة ، نوع العلاج (مجانى ، علاج اقتصادى ، بالأجر الكامل ، تأمين صحى) .
- الحالة عند الخروج (شفى – تحسن – لم يتحسن – توفى قبل ٤٨ ساعة، توفى بعد ٤٨ ساعة) .

تفرغ محتويات الاستمارة فى سجلات خاصة ، بحيث تتحول إلى أرقام فى سجل التحليل اليومى لخدمة المستشفى ، يكون لهذه الأرقام دلالات احصائية معينة تشمل بيانات اجمالية عن الأقسام المختلفة للمستشفى .

ومن خلال الاطلاع على هذه السجلات توصلنا إلى أن متوسط الحالات المترددة على المستشفى يبلغ يومياً فى فصل الصيف ما يقرب من ٢٠٠ حالة

تقريباً ، وتقل تلك النسبة عنها فى الشتاء ، كما رأينا أن معظم الحالات تدخل عن طريق العلاج المجانى .

وبعد أن يتم التسجيل فى سجل التحليل اليومى يحفظ ملف المريض بقسم التسجيل الطبى نظراً لحاجة بعض الأقسام الأخرى إليه ، كقسم شئون المرضى (لاستيفاء أوراق معينة أو إعطاء نوع التشخيص لجهة العمل التى يعمل فيها المريض مثلاً) أو قد تجرى بعض الأبحاث التى يود أصحابها الإطلاع على تلك الملفات ، لذا تحتفظ بمخزن تابع لقسم التسجيل الطبى للرجوع لها وقت الحاجة .

ومن فحصنا لمضمون التسجيل الطبى، إكتشفنا أن التسجيل مقصور فقط على هؤلاء المرضى الذى يقضون بالمستشفى أكثر من ٢٤ ساعة ، أما هؤلاء الذين يعالجون بالاستقبال أو بالعيادة الخارجية فإن اسمه أو حالته لا تدخل فى نطاق التسجيل الطبى عن قسم شئون المرضى الذى يسجل كل من يتردد على المستشفى دون استثناء .

ويتتبع قسم التسجيل الطبى حالة المريض بدءاً من التشخيص المبدئى ، حتى التشخيص النهائى ثم خطوات العلاج ، دون أن يدرك المريض هذا التتبع بالضرورة إلا أن المريض بعد شفائه لابد له من أن يعود إلى ذات القسم لتسجيل بيانات قريبة من تلك التى سجلها ساعة دخوله ، والعلاقة فى هذا القسم – فيما لاحظنا – قد تكون علاقة من جانب واحد ، حيث أن المريض فى معظم الأحيان يكون ذهنه منصرفاً لمعرفة دقائق حالته من خلال تشخيص الأطباء ومساعديهم ولا ينتبه كثيراً لتلك البيانات التى يسجلها عنه بعض العاملين بالمستشفى ، وقد تنشأ علاقة – وأن كانت مؤقتة – عندما يعود نفس المريض للمستشفى مرة ثانية فيبحث عن ذات الرقم الموحد الخاص به الذى يشير إلى ملفه الخاص بحالته المرضية .

وفى مستشفى الشاطبى يوجد نفس القسم وأن كان نشاطه محدوداً بالنسبة للمستشفى الرئيسى ، وبخاصة أن معظم الحالات المترددة هى حالات ولادة تسجل معظم بياناتها أثناء أو بعد الوضع، بعد أن تكون قد نشأت علاقات أخرى أعمق بين المريضة والطبيب ، أو بينها والممرضة ، كما تسجل به أيضًا بعض الحالات التى دخلت المستشفى إما للعلاج أو لإجراء عملية ومكثت بالمستشفى ما يزيد عن ٢٤ ساعة وتحفظ هذه السجلات جميعًا بقسم التسجيل الطبى بالمستشفى .

٤- قسم العلاقات العامة :

يؤدى هذا القسم من خدمات إجتماعية تظهر فى أنشطته اليومية والموسمية، فمن هذه الأنشطة التى تبرز فيها العلاقات الاجتماعية :

إقامة حفلات ترفيهية للمرضى، جمع التبرعات فى المناسبات المختلفة إقامة حفلات دينية مثل حفلات الافطار فى رمضان والتى قد تجمع بين المريض والطبيب والممرضة والعاملين فى المستشفى فى موقف واحد بعيداً عن إجراء العلاج التقليدية ، الاحتفال بمن يحالون إلى المعاش من العاملين ، بل ويمتد نشاط هذا القسم إلى اقامة جنازات رسمية للمتوفى من العاملين بالمستشفى سواء كان من أعضاء هيئة التدريس أو غيرهم .

هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من الإشراف على إقامة الندوات العلمية واستضافة الأساتذة الأجانب للإستفادة من خبراتهم ويعتبر قسم العلاقات العامة بمستشفى الشاطبى صورة مصغرة لقسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى، فهو تابع له من الناحية الرسمية ، ويختص بنفس الاهتمامات التى يقدمها قسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى، كما يتمثل دور العلاقات العامة الايجابى بالمستشفيات فى عقد المؤتمرات العلمية الطبية والتمهيد لها ، والإعداد والمتابعة من الناحية العلمية والتنظيمية ثم النتائج أو التوصيات التى يخرج بها المتخصصون من مثل هذه المؤتمرات ومدى الاستفادة بها (*) .

٥- مكتب خدمة المواطنين (المستشفى الرئيسى) :

أنشئ هذا المكتب بقرار رئيس الجامعة فى ١٩٨٢/٢/١٤ وبناء على قرار جمهورى رقم ٧٠ لسنة ١٩٨١ بانشاء مكاتب خدمة المواطنين بالمصالح الحكومية، وهو يتبع قسم العلاقات العامة الذى سبق الاشارة إليه .

وتنحصر الخدمات الاجتماعية التى يقدمها هذا المكتب فى ثلاثة اتجاهات رئيسية هى :

١- مكاتب لتلقى شكاوى المواطنين :

أ- شفاهة . ب- كتابة . جـ- بالبريد .

وغالباً ما يعتبر مضمون هذه الشكاوى مؤشراً يدعو لتحسين الخدمات فى جانب، أو تطويرها فى جانب أخر، أو الحصول على مستحقات خاصة بأحد المواطنين .

كما يقوم المكتب بالرد على استفسارات العاملين من خلال موظفين ذوى تخصصات متعددة ، ويتلقى المكتب شكاوى العاملين بالمستشفى على كافة درجاتهم وتخصصاتهم أيضاً ويوجهها لجهات الاختصاص أو الأقسام الإدارية المختلفة بالمستشفى ، ويتابع حلها .

وهناك عشرات الأمثلة التى عشناها خلال الدراسة منها ما لاحظته الباحثة من دخول طبيب إلى مدير هذا المكتب يريد مساعدته فى استرداد مبلغ دفعه أحد مرضاه لدخول المستشفى عن طريق مشروع العلاج الاقتصادى لإجراء عملية جراحية وقد حالت ظروف هذا المريض دون دخوله المستشفى فى الوقت المحدد لها، ومن ثم يود المريض استرداد ما دفعه ، إلا أن (الروتين) والتعقيدات الوظيفية يؤخر الإجراء ، وفعلاً حسم المدير هذا الموقف مع الطبيب ووعده باسترداد المبلغ.

٢- الاستعلامات :

ثانى الخدمات التى يقدمها هذا المكتب يتمثل فى الاستعلام عن أى شئ بالنسبة للمرضى، أو استعلام المترددين يومياً على المستشفى عن الأقسام أو موعد الزيارات أو أى شئ آخر ، ويحتك المريض بالعاملين فى هذه القسم إذا كان يريد أن يعالج بقسم معين، كقسم العلاج بالكوبالت مثلاً أو الذرة، فإنه يتقدم لمكاتب الاستعلامات التى توفر له معلومات كاملة عن مثل هذه الأقسام، وترشده عن الأوراق المطلوبة أو ما ينبغى أن يقوم به .

٣- الرد على الصحف :

بالاضافة إلى إعداد دليل مبسط عن مواعيد العمل في العيادة الخارجية ، وعن مواعيد الزيارة وغير ذلك .

كما يبحث هذا المكتب المعوقات التى تقابل العمل التنفيذى داخل المستشفى والعمل على تحقيق مصلحة الجماهير .

وقد لاحظنا أنه رغم ما يتمتع به العاملون بهذا المكتب من نشاط ، إلا أنه يحول دون تلبية رغبات المواطنين أو حتى العاملين بالمستشفي من خلاله عوامل كثيرة، منها طبيعة التدرج الوظيفى والتى تجعل القرار النهائى فى بعض الأمور للمديرين المتخصصين أو لرؤساء الأقسام وهؤلاء لا يرضخون في كل الحالات لرغبات مدير المكتب أو أصحاب الشكاوى ، كما لاحظنا أن تردد بعض

المواطنين وبعض العاملين على المكتب بانتظام يكون وراء قيام نوع من العلاقات يوصف بأنه أكثر من مؤقت ، ويوجد لهذا المكتب ثلاثة مكاتب فرعية تابعة له وجدنا احداها بمستشفى الشاطبى ، بالاضافة إلى مكتب آخر بمستشفى الأطفال الجامعى ومكتب رابع بمستشفى الحضرة الجامعى والذى عرضناه آنفًا ، والمكاتب الأخرى صورة منه ، وقد نلجأ إليها فى بعض الأحيان ، ولذا أثرنا عدم الحديث عن هذا المكتب داخل مستشفى الشاطبى لأنه صورة مصغرة من ذلك المكتب الأساسى بالمستشفى الرئيسى والذى تحدثنا عنه وهو يقوم بنفس الدور .

ثانيًا : العلاقات العميقة :

استطعنا من خلال دراستنا المكثفة والمركزة للبناء الاجتماعى للمستشفى أن نصل إلى حقيقة هامة مؤداها (*) .

أن بناء المستشفى يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات الاجتماعية، تلك التى لا تخرج فى أساسها عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة . وتظهر هذه العلاقة الثنائية بصورة واضحة بين أى شخصين داخل هذا البناء ومن مجموعها يتكون ذلك الكل ، وقد أفادت الدراسة من تلك العلاقات الثنائية التى أشار إليها « رادكليف – براون » فى معرض حديثه عن نظرية البناء الاجتماعى وأكد على أنها هى لبنات البناء الاجتماعى، أيضًا ظهرت لنا بكل وضوح أنماط عديدة من تلك العلاقات داخل بناء المستشفيين موضوع الدراسة وبالتالى أعطينا معظم اهتمامنا لمثل هذه العلاقات داخل بناء المستشفى والتى تؤدى فى النهاية إلى تماسك وتكامل البناء الكلى للمستشفى .

كما أفدنا من قول « رادكليف – براون» أن الملاحظة المباشرة تدلنا على أن الكائنات البشرية ترتبط بعضها ببعض بشبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية واستخدم لفظ البناء الاجتماعى لأعبر عن هذه العلاقة بالفعل، وهذا البناء الاجتماعى هو ما اعتبره موضوعاً لدراستى (٧) .

ومما يدعم الأساس النظرى الذى انطلقنا منه أيضاً عند « رادكليف براون» أن هناك بعض الدراسات الميدانية التى أكدت أن العلاقة بين الطبيب والمريض على وجه الخصوص، Doctor Patient Relationship هى علاقة ثنائية فى المحل الأول، وتمثل مثل هذه العلاقات فى العيادات أو فى المستشفيات الكبرى جزء من كل مركب أوسع .

ومن ثم أصبحت تلك العلاقة – علاقة الطبيب بالمريض – ميداناً هاماً للبحث والدراسة (٨) .

وحددنا العلاقات العميقة التي تتمثل في البناء الاجتماعي للمستشفى في الأنماط الثنائية الآتية :

١– العلاقة بين الطبيب والطبيب (الأطباء) .

٢– العلاقة بين الطبيب والمريض .

٣– العلاقة بين الطبيب والممرضة (الأطباء والممرضات) .

٤– العلاقة بين الممرضة والمريض .

٥– العلاقة بين الممرضة والممرضة (هيئة التمريض) .

٦– العلاقة بين المريض والمريض (المرضى بعضهم وبعض) .

وسوف نعرض لكل نمط من هذه الأنماط بشئ من التفصيل :

أولاً : العلاقة بين الطبيب والطبيب :

ذهب بعض علماء الاجتماع الطبي والمهتمين بدراسة المستشفى إلى أنه يمكن النظر إلى المستشفى باعتباره تنظيماً بلا قائد أو زعيم (٩) .

وهذه الحقيقية تصلح لأن تكون مدخلاً لحديثنا عن علاقة الطبيب بالطبيب داخل المستشفى ، ونظراً لأن البناء الإداري للمستشفى يتسم بالثنائية أو بناء السلطة داخل المستشفى يتسم بالإزدواجية ، كل هذا جعل من المستشفى كما لاحظت من خلال الدراسة الميدانية وخاصة فترة الإقامة والمعايشة لمجتمع المستشفى ، لاحظت أن الطبيب المدير لا يستطيع أن يمارس سلطته على الطبيب المعالج، وإنما يكون الأمر شورى بينهم وخاصة في الأمور المتعلقة بالتشخيص (*) ، ورعاية المرضى حيث يكون للطبيب المعالج الرأى الحاسم بخصوص القرارات العلاجية للمرضى ، على هذا يظهر أمامنا المستشفى على أنه تنظيم بلا قائد أو زعيم حسب المقولة التي انطلقنا منها ونحن نؤيدها حيث كشف لنا بناء المستشفى ذلك جلياً وواضحاً ، كما لاحظنا أيضاً أن الطبيب المتخصص هو الذي يقترح على الطبيب المدين ما يحتاجه المستشفى من أدوات ومعدات فنية ، ويقترح شراءها في حين أن المدير هو الذي يدبر عملية الشراء نفسها وموازنة الأمور المالية .

ومثالاً على ذلك موقفاً حدث أمامنا بمستشفى الشاطبى عندما اقترح الطبيب المشرف الفنى للمستشفى – أحد أعضاء هيئة التدريس والمتخصصين فى أمراض النساء والولادة على مدير المستشفى شراء مجموعة مناظير جديدة تفيد فى التشخيص وتسهل العملية العلاجية على الطبيب المعالج ، ينظر المدير هنا إلى الطبيب المعالج على أنه يقف معه جنباً إلى جنب ، ويرجع إليه فى بعض الأمور الخاصة بالنواحى العلاجية وبهذا يشارك الأطباء فى صنع القرارات الخاصة بالتشخيص وعلاج المرضى، فالتعليم الذى يتلقاه الأطباء ، والتدريب الذى يحصلون عليه ، بالإضافة إلى أخلاق المهنة ذاتها (١٠) . كل هذا يجعل الأطباء يقفون جميعاً على قدم المساواة ، وهذا ما لاحظناه بالمستشفيين موضوع الدراسة، فالطبيب رئيس القسم العلاجي –على ما رأينا– ينظر إلى الطبيب المقيم باعتباره زميل المهنة بحيث يمكن القول بأن علاقة الطبيب بالطبيب هى بصفة عامة علاقة الند للند ، وإذا ما قدم الطبيب الرئيس بعض النصائح والارشادات للطبيب المرؤوس ، تلقاها الأخير برحابة صدر ، محترماً خبرة وكفاءة رئيسه فى المجال الطبى، ويحضرنا فى هذا الصدد ما لاحظنه فى مواقف عديدة ، حين كان الأستاذ يلقى دروسه الاكلينيكية على مستمعيه وكانوا طلاباً بكلية الطب، وأطباء امتياز وأطباء مقيمين ، وكانت العلاقة التى تجمع الجميع هى تحقيق أكبر قدر من الاستفادة بخبرة الأستاذ من جانب الأطباء ، ومزيد من العطاء من جانب الأستاذ ، هذا الموقف الذى يتكرر كثيراً فى مستشفى تعليمى ، يؤكد أن للخبرة الطبية التى يتمتع بها الطبيب دوراً فى إقامة علاقات عميقة ومتصلة مع غيره من الأطباء سواء كانوا زملاء أم طلاباً .

وفى حالات أخرى يتقبل الطبيب المقيم نفسه نصائح وارشادات من الطبيب المقيم زميله، صاحب الخبرة والأقدمية ، يتقبلها أيضاً بصدر رحب ولا يكون فيها شئ من التعالى من جانب الطبيب المقيم الأكثر خبرة وإنما العلاقة بينهم تقوم على التشاور دائماً (*) ومما يدعم هذا القول وفى حضور الباحثة لبعض حالات الكشف والتواجد بمستشفى الشاطبى – على سبيل المثال – أنه بمجرد الكشف على مريضة جاءت إلى المستشفى عن طريق الحوادث بالعيادة الخارجية، وكانت تعانى من حالة نزيف حاد قرر أحد الأطباء المقيمين أنها ليست فى حاجة إلى تدخل جراحى ، وإنما يكفى العلاج الموضعى لها، وبعد تشاور هذا الطبيب مع زملائه الأكثر خبرة بالاضافة إلى رجوعهم جميعاً لأستاذهم المشرف، قرروا

إجراء عملية جراحية أجريت فى الحال بنجاح وتم استئصال الرحم لوقف النزيف.

هنا أبدى الأستاذ رضاه عن تلامذته وأبدى الأطباء إرتياحهم وأظهر الطبيب الأقل خبرة امتنانه لبقية زملائه الذين أفاد من خبرتهم .

وقد لاحظنا أن كل قسم من أقسام مستشفى الشاطبى يوجد به من اثنين إلى ثلاثة من الأطباء المقيمين، والذى يكون من بينهم واحد أو إثنان من الأطباء المقيمين القدامى أو الأكثر خبرة، وهؤلاء الأطباء يقع عليهم عبء عمليتى التشخيص والعلاج وإجراء الجراحات ويقوم دور تعليمى لزميله المقيم الأحدث .

كأن العلاقة بين الطبيب والطبيب إذن – كما لاحظنا – تقوم على أساس نوع من التعاون والتشاور وتبادل الرأى ويؤكد هذا الملاحظات التى رصدتها الدراسة سواء بمستشفى الشاطبى ، أو بالمستشفى الرئيسى حيث تكرر نفس هذا الموقف أمامنا ببعض أقسام الأمراض الباطنية به .

وقد لاحظنا ظاهرة عامة بين معظم أقسام المستشفى وهى أن الأطباء أصحاب التخصص الواحد يرتبطون معًا برباط قوى أكثر من أصحاب التخصصات المختلفة ، ومن ثم ظهر لنا ترابط أصحاب التخصص الواحد .

وعلى سبيل المثال :

تظهر علاقة الأطباء بعضهم ببعض – على ما لاحظنا – داخل أقسام الأمراض الباطنية كأسرة واحدة يجمعهم ذلك التخصص الواحد ، ومن مظاهر هذه العلاقة التعاون العلمى الملحوظ بينهم بصدد الحالات التى يقومون بعلاجها ، وتبادل المشورة فى الحالات التى تتطلب علاجاً مكثفاً على ما لاحظنا خصوصاً على مرضى السرطان ، هذا ويجمع أصحاب التخصص الواحد التواجد فى مكان واحد – وهو القسم الذى يعملون به – وقضاء معظم الوقت معاً ، ومن مظاهر هذه العلاقة أيضاً الرجوع إلى بعضهم البعض بصدد العملية التعليمية داخل المستشفى، وما هى النواحى الملحة الجديرة بأن يركز عليها طلاب الدراسات العليا ، ونوعية الأمراض التى تكون موضوعات لبحوثهم العلمية .

هذا هو الترابط بين أصحاب التخصص الواحد الذى لمسناه أيضًا داخل أيضاً داخل أقسام الجراحة والرمد وغيره من أقسام المستشفى الرئيسى ، وقلما توجد علاقة عميقة بين طبيبين من قسمين مختلفين إلا إذا كان مصدر هذه العلاقة من

خارج أسوار المستشفى ، كعمل مشترك بكلية الطب أو اشتراكهما فى نادى واحد ... الخ هذا دليل على رابطة التخصص الواحد التى وجدناها بصورة واضحة ، إذا صح لنا استخدام هذا التعبير .

ويمثل مستشفى الشاطبى تخصصاً واحداً ولذا ظهرت رابطة التخصص الواحد بين أعضائه واضحة وخاصة بين كل قسم من أقسامه الفرعية ، حيث تنشأ علاقة قوية بين الزطباء المقيمين بالقسم الواحد أقوى مما هى بين أعضاء قسم وقسم أخر أيضاً نجد علاقة الأطباء المقيمين قوية بأساتذتهم فى نفس التخصص وتقوم تلك العلاقة على التوجيه والارشاد من قبل الأستاذ ، والطاعة من قبل الطبيب المقيم ، تقوم العلاقة أيضاً على الناحية التعليمية التى يحاول المقيم فيها أن يستفيد من علم وخبرة الأستاذ فى الناحية الإكلينيكية ويحضر معه العمليات الكبرى حتى يتسنى له القيام بمثلها بمفرده وحتى ينال رضا الأستاذ وهو يسعى فى هذه الفترة – فترة الاقامة – إلى تكوين علاقة قوية بأستاذه حتى ينال درجة علمية ويتم تعيينه ضمن أعضاء هيئة التدريس .

ومن مظاهر تعمق العلاقات ما يكون ايجابياً ويتخطى حدود التعاون العلمى وتقديم الخبرة إلى بعض صور المشاركة الوجدانية ، وقد لمسنا هذه الناحية فى قطاعات غير قليلة بالمستشفيين .

نضيف إلى كل ما سبق أن مهنة الطب تشتمل على مجموعة من المعايير والقيم التى تحكم بالتالى القائم وتضبط سلوكه وتصرفاته تجاه زملاء المهنة ، ومن ناحية أخرى يضبط السلوك المهنى للأطباء داخل المستشفى من خلال نظام مركب من الجزاءات الاجتماعية أو الرمزية ، فالطبيب المقيم مثلاً يكتسب باقامته بالمستشفى اتجاهات فنية وأخلاقية تجاه ممارسة الطب من شأنها أن تنمى لديه الاحساس بالمسئولية وتكوين معايير وقيم المهنة ، والتى يتعرض من يخرج عليها للجزاءات ، تلك المعايير التى يحترمها كل طبيب ويعمل بمفرده دون حاجته إلى اشراف ممن هم أعلى منه فى المهنة ، وأى ما نطلق عليه الضمير المهنى ولهذا يمارس كل طبيب مهنته فى نوع من الحرية من الاشراف أو المراقبة المهنية المباشرة سواء من داخل المهنة أو من خارجها ، فالطبيب يعتبر أكثر العاملين بالمستشفى تمتعاً بالاستقلال الذاتى والحرية فى رعاية مرضاه .

ومن ثم يمد قانون المهنة الطبيب بالرضا الحقيقى عن عمله وقيامه به كاملاً ، وما نخلص به من هذه العبارة هو أن إحساسه بقيمة الضمير المهنى وإحساسه

بالرضا والاستقلال يدفعه إلى اقامة علاقات متوازنة مع زملائه وأساتذته ، بحيث لا تقوم علاقته بأنداده -كما صرح معظم الأطباء العاملين- على الترغيب والترهيب، وإنما تقوم على الاحترام المتبادل ، واحترام الرأى الآخر، وتقبل مشورة الآخرين .

ثانيا : العلاقة بين الطبيب والمريض :

تعتبر العلاقة بين الطبيب والمريض من أعمق العلاقات الثنائية الموجودة داخل المستشفى على ما كشفت لنا الدراسات الرائدة فى هذا المجال بالإضافة إلى ما يؤكده ما لاحظناه وعايشناه من مظاهر هذه العلاقة داخل بناء المستشفيين حتى أن هذه العلاقة الخاصة والعميقة كانت محور بقية العلاقات الكائنة بالمستشفى كما أن قدر التفاعلات فيها والمشاعر يطغى على مثيله فى أى علاقة أخرى، وقد لاقت هذه العلاقة اهتماماً خاصاً من قبل الباحثين سواء من علماء الاجتماع أو الانثروبولوجيا . فراحوا يرسون أبعاد هذه العلاقة ، ونستطيع أن نصنف معظم دراسات علماء الاجتماع التى تناولت العلاقة بين الطبيب والمريض فى مدخلين أساسيين هما (١١) :

١- يتمثل الإتجاه الأول فى محاولة ، تالكوت بارسونز Talcott Parsons ، لفحص وفهم تلك العلاقة فى كتابة النسق الاجتماعى ١٩٥١ The Social System ، وعلماء الاجتماع الذين صاروا على نهجه كل منهم إلى أنه لفهم العلاقة بين الطبيب والمريض يجب أن ننظر إلى أن كلاً منهما يقوم بأدوار معينة وممثل لأنماط معينة من السلوك .

٢- ويمثل الاتجاه الثانى ، اليوت فريدسون (١٩٧٠) Eliot Freidson ، وأتباعه من علماء الاجتماع ، حيث يركز كل منهم على الصراع الكامن فى تلك العلاقة ، والاهتمام بالطرق التى يستخدمها كل من الأطباء والمرضى لكى يتجز كل منهم أغراضه الخاصة .

وبالرغم من أن هذين المدخلين يؤكدان على مظاهر مختلفة لتلك العلاقة التى تنشأ بين الطبيب والمريض، إلا أن كلاً منهما يساعد فى فهم وتوضيح طبيعة المقابلة والمواجهة الاجتماعية بينهما ، ويساهم كل مدخل منهما فى إضفاء المزيد من الفهم والتوضيح لتلك العلاقة .

أما عن المدخل الأول ومدخل الأدوار ، فإن أصحابه يؤكدون على أن كلاً من الطبيب والمريض يلعب عدة أدوار وله حقوق وعليه التزامات ، هذا بالإضافة إلى السلوك المتوقع أو توقعات كل منهما تجاه الآخر أو ما يسمى بتوقعات الدور ،

ومن ثم هناك علاقة متبادلة بين كل من الطبيب والمريض تظهر فى موقف الممارسة الطبية ، يمكن من خلالها التنبؤ بسلوك الطبيب وكيفية معاملته للمريض، وقد توصل « بارسونز » بهذا الصدد إلى أن رعاية المريض هى فى الدرجة الأولى نشاط مهنى متخصص، وعلى هذا فإن مكانة الطبيب تعتمد على الخبرة الفنية والكفاءة أو المهارة فى ممارسة الطب (١٢) . كما قدم بارسونز تحليلاً وافيًا للعلاقة الطبيب بالمريض عن طريق تفحصه لأدوار كل منهما . وأكد على أن دور الطبيب يتسم بالمكانة العالية والضبط والاشراف على المريض . ويرى أن الطبيب قد استمد قوته وضبطه للمواقف من تلك الخبرة الفنية التى اكتسبها خلال سنوات تعليمه وتدريبه وممارسته لمهنة الطب (١٣) .

هذا عن المدخل الأول لدراسة العلاقة بين الطبيب والمريض ، أما عن المدخل الثانى فهو الذى يركز على دراسة الصراع Conflict الذى يكمن فى تلك العلاقة ويمثل هذا الاتجاه « فريدسون » فى كتابيه :

١ – مهنة الطب Profession of Medicine (١٩٧٠) .

٢ – والسيادة أو السيطرة المهنية Professional Dominance (١٩٧٠) .

وسوف نتناول آراء « فريدسون » بالتحليل والدراسة إجمالاً من خلال النقاط التالية :

١ – يرى « فريدسون » أن (١٤) : السبب الأساسى فى الصراع الذى تتميز به العلاقة بين الطبيب والمريض يرجع فى المحل الأول إلى التعرض والتناقض بين وجهات نظر كل منهما. ومن ثم فإن المريض يركز على حالته ويريد الحصول على الشفاء والخروج من حالة المرض بأقصى سرعة، أما بالنسبة للطبيب فعليه أن يعدل بين الحاجات المتعددة للأعداد الكبيرة من المرضى الذى يشرف عليهم وأن يوازن بين تلك الحاجات، وأن يوزع وقته وخبرته عليهم بالتساوى وكل مريض يشرف عليه الطبيب يريد أن يتفرغ له ذلك الطبيب ويناقشه على حده، هنا يحدث الصراع حيث لا يستطيع الطبيب أن يرضى كل مرضاه.

٢ – يظهر الصراع أيضًا فى العلاقة بين الطبيب والمريض – على ما يرى فريدسون – فى موضوعات خاصة بالتشخيص والعلاج، وبالرغم من موافقة المرضى على أن الأطباء يتمتعون بخبرة فنية فى مجال الخدمات الطبية، إلا أنه يحاولون من وقت لآخر تقييم العملية الطبية من وجهة نظرهم، وهنا يحدث الاختلاف الهائل بين تقيم كل من الطبيب والمريض للحالة. وهذا راجع إلى الإختلاف فى نوع المعرفة الطبية والتجربة الشخصية لكل منهما مع المرض.

٣- يتمثل الصراع أيضاً فى العلاقة بين الطبيب والمريض - كما أشار فريدسون - كما فى التوقعات المتناقضة (المخالفة) التى يجدها الطبيب في سلوك المريض، فالطبيب ينتظر أن يكون المريض مطيعاً لنصائحه وإرشاداته وأن ينفذ تعليماته الطبية نظراً لتلك المعرفة والتدريب والمهارة التى إكتسبها الطبيب خلال فترة الدراسة ثم الممارسة لمهنة الطب، إلا أن الطبيب قد يصاب بالإحباط عندما يجد مريضه غير مطيع - وغير منفذ - لتعليماته هنا ينشأ أيضاً الصراع (١٥).

ورغم هذا الصراع الذى يميز العلاقة بين الطبيب والمريض، إلا أنه من المؤكد أن الطبيب يشغل وضعاً مسيطراً فى موقع الإستشارة.

وبصدد تعرضنا بالدراسة بالتحليل للعلاقة بين الطبيب والمريض لا ننسى أن نشير إلى دراسة هامة قام بها إثنان من الأطباء لتحليل تلك العلاقة، وأقصد بها دراسة ساز وهواندر Szasz abd Hollender (١٦). وخلصنا من تحليلهما للعلاقة بين الطبيب والمريض إلى أن هناك ثلاثة أنماط من العلاقات نتجت عن التفاعل بينهم وقد أجملا وأبهما فى الجدول الآتى:

النمط	دور الطبيب	دور المريض	التشخيص	نوع العلاقة الأولية
من حيث الإيجابية والسلبية	يؤدى شيئاً ما للمريض	غير قادر على الاستجاب	تخدير (خدر) غيبوبة - إصابة شديدة .. إلخ	علاقة والد بطل
الإرشاد والتعاون	يرشد المريض عما يجب عمله	متعاون (مطيع)	إصابة بعدوى حادة، أحد الأمراض .. إلخ	والد - صبى
المشاركة المتبادلة	يعين المريض على مساعدة نفسه	مشارك	أمراض مزمنة تحليل نفسى ... إلخ	ناضج يناضج

- الأنماط الثلاثة الرئيسية لعلاقة الطبيب بالمريض من وضع

(١٧) Hollender Szazs

يتضح لنا من تحليل هذا الجدول أن النمط الأول عن العلاقة بين الطبيب والمريض من حيث الإيجابية من قبل الطبيب، والسلبية من قبل المريض، إنما يعنى أن الطبيب يستطيع أن يساعد المريض ويقدم له الرعاية الممكنة، فى حين أن المريض يكون غير قادر على الإستجابة لما يقدم إليه، ولذا تتم خطوات العلاج له دون أى مساهمة أو مشاركة من المريض ومثل هذه الحالات تلك التى تنتفى فيها إرادة المريض: وهى حالات الغيبوبة والإصابات الشديدة، أو حالات إجراء العمليات الجراحية، ووقوع المرضى تحت تأثير التخدير، ولذلك يشبه ساز وهولندر علاقة الطبيب بالمريض فى هذا النمط بعلاقة الوالد بطفله، الوالد الذى يعلم جيداً ما يجب عليه تجاه كائن سلبى لا يملك من أمر نفسه شيئاً ويفتقر إلى ما يحميه ويحفظ حياته .

أما النمط الثانى وهو الإرشاد والتعاون Guidance- Cooperation يقوم فيه الطبيب بدور المرشد الذى يقدم للمريض نصائحه وتعليماته وإرشاداته عما يجب عمله، وما على المريض إلا تقبل هذه النصائح وإتباع التعاليم، وينطبق هذا النمط على حالات الإصابة بعدوى حادة، والإصابة بأحد الأمراض، ويكون المريض فى مثل هذه الحالات على وعى كامل بما يقدم إليه إلا أنه يفتقر إلى الخبرة فى مواجهة الموقف، ونمط العلاقة الأولية التى تظهر بين الطبيب والمريض كعلاقة والد – بصبى، يتقمص الأول دور الموجه والمرشد ويمتثل الثانى لتوجيهات الأول كالإبن تجاه أبيه.

ويطلق على النمط الثالث المشاركة المتبادلة Mutual Farticpation بمعنى مشاركة كل من الطبيب والمريض فى عملية العلاج، فالطبيب يعين المريض على مساعدة نفسه، ويتوقف نجاح العلاج على مساعدة المريض لنفسه، الذى يكون بالفعل مشاركاً فعلياً لتفهمه تعليمات الطبيب ولأن جانباً كبيراً من التقدم نحو الشفاء يتطلب فعالية من جانب المريض وحسن تقدير للموقف، ويظهر هذا النمط من العلاقة فى حالات الأمراض المزمنة. وحالات التحليل النفسى ... الخ، ويتمثل نوع العلاقة الأولية بين الطبيب والمريض علاقة ناضج بناضج، أو راشد براشد.

وفى الحقيقة فإن هذا الإطار النظرى لأنماط العلاقة بين الطبيب والمريض

قد تمثل لنا واضحاً من خلال صوره الثلاثة فى حقل الدراسة، لاحظنا فى المستشفى الرئيسى الصور الثلاثة مجتمعة وتمثل النمط الأول منها فى الحالات التى تتركز فى الاستقبال والطوارئ من جهة وفى حجرة العمليات من جهة ثانيبة، تلك الحالات التى يغيب فيها المريض عن الوعى، بحيث العلاقة من طرف واحد هو الطبيب أو مجموعة الأطباء الذين يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ المريض، وأشد ما لاحظناه وضوحاً فى مثل هذا النوع من العلاقت المبتسرة أن الطبيب لايتراخى لحظة فى أداء واجبه تجاه مريضه بصرف النظر عن نوعية الإستجابة التى قد يبديها المريض أو أحد أقربائه، فالمريض سلبى تحت تأثير حادث أو مخدر لايملك قدرة على إبداء أى نوع من التفاعل، ومن الأمور الطريفة أن الأمر يختلف تقريباً بعد إفاقة المريض الذى يبادر بالسؤال عمن أنقذه أو أجرى له جراحة معينة أبقت له حياته، ويزداد تعلقه بالطبيب كلما قطع شوطاً نحو الشفاء.

أما النمط الثانى للعلاقة فقط لاحظناه واضحاً وإبداء التعاون والطاعة من جانب المريض، يدرك المرضى فى هذا القسم عن وعى كامل مدى حاجتهم الملحة إلى مساعدة الطبيب، وقد لاحظنا أن مرضى هذا القسم على تفاوت مستوياتهم الثقافية على وعى كامل بقدرة الطبيب وأهمية إتباع تعليماته لما يلمسونه فى أنفسهم – كما صرحوا مرات عديدة – أن أى مخالفة لتعليمات الطبيب العلاجية لا تعود عليهم إلا بمزيد من الآلام الحادة ، ومن ثم فإنهم – كما لاحظنا – يتبارون فى إبداء أقصى درجات التعاون مع الطبيب، وإن كان الطابع السائد لهذه العلاقة هى أن المبادرة دائماً فى يد الطبيب.

وظهر النمط الثالث من هذه العلاقات والذى يقوم على المشاركة المتبادلة فى بعض أقسام الأمراض الباطنية، متمثلاً على وجه الخصوص فى أصحاب الأمراض المزمنة (القلب – السكر – الروماتيزم) فمعظم مرضى هذه الأقسام يكتسبون معارف ومعلومات حول طبيعة المرضى وأعراضه وكيفية مواجهتها، والسبب فى ذلك هو طول المدة التى يقضونها بالمستشفى بالإضافة إلى إعتماد الأطباء على المرضى – فى كثير من الأحيان – فى مواجهة الأعراض الأولية للمرضى حتى يتم إبلاغ الطبيب قبل تفاقم الحالة. ومن الملاحظات الجديرة بالإعتبار هى عمق العلاقة بين مرضى هذه الأقسام وأطبائهم فثمة علاقات إجتماعية قوية، وتزايد فى عملية الإتصال الإيجابى بين طرفى هذه العلاقة التى

تمتد لتشمل المريض وأبناءه ومهمتهم وشئون المريض الخاصة، والباعث وراء ذلك فيما لاحظناه هو محاولة الطبيب مساعدة المريض على حل المشاكل الناتجة عن طول المرض والعمل على تكيفه مع ذلك الوضع، وثمة بعد آخر لهذه العلاقة العميقة ظهر لنا في إلمام المرضى أو معظمهم بأسماء الأدوية ومقدار الجرعات وموعدها مما يدل على مشاركته الفعالة في إتمام العلاج .

أما عن مستشفى الشاطبى فلم نلحظ فيها مثل هذا النمط الأخير للعلاقة بين الطبيب والمريض ، نمط المشاركة المتبادلة ، نظراً لأن معظم الحالات التى تدخل هذا المستشفى هى حالات ولادة، والمعروف أن الحالات الطبيعية للولادة تمكث من يومين إلى ثلاثة على الأكثر بالمستشفى ، وكما لاحظنا أن أكثر من ٧٥٪ من أسرة المستشفى مخصصة للولادة ، فى حين أن النسبة الباقية هى حالة العلاج أو حالات إجراء عمليات وقد تكون حالات إجهاض تجهز للعمليات وحالات نزيف حادة أيضًا علاجها العمليات أو حالات العقم التى تأتى للعلاج (*) وعلى كل حال فإن هؤلاء المريضات لا يمكثن بالمستشفى نفس المدة التى يقضيها المريض بالمرض المزمن كما لاحظنا بالمستشفى الرئيسى .

أما النمط الأول من العلاقة (من حيث الإيجابية والسلبية بين الطبيب والمريض) فهو موجود بمستشفى الشاطبى – على ما كشفت الدراسة – إلا أن حالاته بسيطة لو قورنت بالحالات المترددة على المستشفى الرئيسى ، ويتمثل هذا النمط بمستشفى الشاطبى فى حالات النزيف الحاد التى تؤدى إلى إصابة المريضة بحالة غيبوبة ومن ثم إجراء عملية ، ويتمثل أيضًا فى حالات عمليات الإجهاض ، وأيضًا حالات الولادة القيصيرية مثل هذه الحالات تكون فيها المريضة غير قادرة على الاستجابة لما يقدم إليها ، ومن ثم تتم خطوات العلاج لها دون أن تساهم أو تشارك فى تنفيذ تعليمات الطبيب كما فى حالة الولادة الطبيعية – على سبيل المثال – والتى تكون فيها المريضة على وعى كامل بما يجرى حولها وتريد أن تساعد الطبيب فى كل ما يأمر به حتى تتم الولادة .

هذا هو نمط العلاقة الذى يوصف بالإرشاد والتعاون، وهو النمط السائد فى الغالب بمستشفى الشاطبى ، فمعظم النسوة اللآتى يأتين للولادة يكن مطيعات لتعليمات الأطباء ، حيث يلزمهن الأطباء بإتباع بعض التعليمات الطبية مثل : (تناول أقراص معينة – السير على الأقدام فى مراحل محددة – الاسترخاء على الظهر) ولا تملك السيدة هنا إلا طاعة الطبيب وتنفيذ تعليماته كاملة .

هذا بالاضافة إلى التعليمات التى يصدرها الطبيب أثناء عملية الولادة ذاتها وتشارك فيها السيدة بكل مشاعرها وإحساسها .

وقد تميز مستشفى الشاطبى بنوع خاص من العلاقة بين الطبيب والمريضة التى قد تكون طارئة إلا أنها تتميز بالعمق ، ونقصد بها تلك العلاقة التى تنشأ عقب عملية الولادة مباشرة ، حيث تغطى فرحة الأم على مشاعرها تجاه كل من حولها، وبخاصة الطبيب ، فتكثر من الثناء عليه ، وتسمى وليدها فى بعض الأحيان باسم الطبيب الذى أشرف على عملية الولادة ، ولذا فإن الولادة الطبيعية تدخل الرضا والسعادة والفرحة على السيدة وعلى أقاربها ومن يأتى لزيارتها .

وينشأ أيضاً نوع من العلاقة بين الطبيب والمريضة وتتسم هذه العلاقة بالعمق وتتمثل فى حالة السيدة الحامل التى تعانى من ارتفاع فى ضغط الدم مثال أو ارتفاع فى نسبة السكر فى الدم ، أو التى تعانى من آلام فى القلب، ومثل هذه الحالات يتم حجزها بالمستشفى من شهر الحمل السابع أو الثامن وتستمر تحت رعاية الطبيب حتى تتم عملية الولادة ، حيث يكون هناك متابعة دائمة لحالتها من قياس للضغط ، إلى عمل التحاليل اللازمة وإعطائها العلاج المحدد ، ونظراً لطول المدة التى تقضيها المريضة بالمستشفى ، تنشأ بينها وبين الطبيب المعالج علاقة قوية ، وتظهر درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة واضحة وقوية ، حيث تسأل المريضة الطبيب عن مدى تقدم حالتها ، ويجيبها الطبيب باتباع إرشادات معينة ، وهى تنفذ . هذا جعلنا نرى أن درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة أقوى مما يظهر فى حالة الولادة الطبيعية التى لا تستغرق سوى وقت بسيط إلا أنها توصف بأنها علاقة عميقة كما سبق أن ذكرنا .

وللمعاملة الطبية من جانب الطبيب للمريضة أثر طيب على الحالة الصحية لها وعلى العملية العلاجية، مثل ذلك : كانت إحدى المريضات وقت إجراء المقابلة تعانى من آلام مبرحة وتتألم بشكل واضح بعد إجراء عملية فى الرحم ، وفى هذه اللحظة مر الطبيب للكشف على حالات العنبر بعد إجراء عملية فى الرحم ، وفى هذه اللحظة مر الطبيب للكشف على حالات العنبر ، وقف مدة طويلة أمام هذه المريضة وأخذ يحادثها بلطف ويستفسر عما يؤلمها ، وأخذ يهدأ من روعها ، فجأة وجدت المريضة تقول للطبيب أننى شفيت ولا أشعر بأى ألم الآن . هكذا يكون للمعاملة الطيبة الحسنة من جانب الطبيب لمرضاه أثر طيب على نفس المريض ولا يشعر بأنه عبء على الزملاء .

وعن العلاقة بين الطبيبة والمريضة لاحظنا أنها قوية فى جانب منها ومبتسرة فى جانب آخر ، فالمريضة تحاول أن تتقرب من الطبيبة وتحاول أن تحكى لها تفاصيل مرضها والآلام التى تعانى منها وقد تميل إلى المبالغة فى وصف حالتها ، على ما لاحظت – ومن جانب الطبيبة ، تقوم بالتشخيص ومن ثم وصف العلاج. إلا أن المريضة لا ترضخ لحكم الطبيبة فى التشخيص وبداخلها نوع من عدم الإقتناع وتريد أن يصف حالتها الطبيب الموجود بالقسم وليست الطبيبة ، لاحظنا عديداً من الحالات اللآئى صرحن بأن الطبيب الرجل لديه الخبرة أكثر فى هذا المجال ، ومن ثم الإطمئنان والثقة فيه أكثر من الطبيبة – وبالرغم من أن التخصص نفسه يوافق طبيعة المرأة أكثر .

هذا عن العلاقة بين الطبيب والمريض كما تمثلت فى حقل الدراسة .

ويمكن دراسة علاقة الطبيب بالمريض من خلال منظور آخر يكشف عن أهمية هذه العلاقة، وتعدد محولات دراستها من جوانبها المختلفة، ونعنى به دراسة عملية الإتصال Communication بين المريض والطبيب، حيث تلعب عملية الإتصال دوراً قوياً وفعالاً فى مجال الممارسة الطبية بصفة عامة، وهناك وجوه عديدة للاتصال أهمها ذلك النوع الذى ينشأ بين الأطباء والمرضى والذى من شأنه أن يؤثر على عملية التشخيص Diagnosis والعلاج Treatment [١٨].

وقد أجريت عدة دراسات لقياس جدوى أو عدم جدوى عملية الاتصال بين الطبيب والمريض وأرجعت معظم هذه الدراسات فشل عملية الإتصال الجيدة، أن نقل المعلومات بين الطبيب والمريض إلى ثلاثة أسباب رئيسية هى [١٩] :

١- الاتجاهات المهنية :

تعزو بعض الدراسات فشل عملية الاتصال بين الطبيب والمريض إلى الاختلاف بينهما فى درجة التعليم ، وقد انقسم الأطباء بهذا الصدد إلى مجموعتين ، تؤكد الأولى على مركزهم المهنى وتخصصهم المتميز ، بالإضافة إلى وجود الفجوة الكبيرة فى الخبرة بينهم وبين المرضى ، مما يكفل لهم ممارسة الضبط فى موقف الاستشارة ، بينما ترى المجموعة الثانية أن العلاقة بينهم وبين المرضى هى فى جوهرها متبادلة ، مؤكدين على ذلك الجزء الذى يلعبه المريض فى الممارسة الطبية (الاستشارة) .

٢- مسألة الخلط أو الإلتباس :

ينشأ الإرتباط فى تفسير أو شرح أعراض المرض من جانب المريض ، أو

ينشأ الإلتباس عن خطأ فى عملية التشخيص من جانب المريض ، وفى الحالتين يؤدى ذلك إلى فشل العلاقة وضعف الاتصال .

٣- حياء أو خجل المريض :

ثالث الأسباب المؤدية إلى عدم جدوى الاتصال بين الطبيب والمريض ترجع إلى تلك الاختلافات التى تظهر فى الطبقة والمركز بينهما ، ومن ثم تؤثر مثل هذه الاختلافات فى كمية ونوعية المعلومات التى يصرح بها المرضى للأطباء بخصوص مرضهم ، وتؤثر بالتالى على قدرتهم فى الحصول على مثيلتها من الأطباء [٢٠] .

ومن أهم الدراسات التى أجريت فى هذا الشأن دراسة Cartwright بالاشتراك مع O'Brien (١٩٧٦) [٢١] . وقد ركزت هذه الدراسة على الاستشارات الطبية العامة للمرضى كبار السن ، وقد اختارت الدراسة مجموعتين من المرضى تمثل الأولى مرضى الطبقة المتوسطة والثانية مرضى الطبقة العاملة ، وقد أفصحت النتائج عما يلى :

(الاستشارات المرضية للطبقة المتوسط والطبقة العاملة من سن ٦٥ وما فوق يوضحها الجدول الآتى) [٢٢]

	الطبقة	الطبقة العاملة
– متوسط مدة الاستشارة بالدقيقة .	٦,٢	٤,٧
– متوسط عدد الأسئلة التى يسألها المريض .	٣,٧	٣,٠
– متوسط عدد المشكلات التى يناقشها مع الطبيب .	٤,١	٢,٨
– متوسط عدد الأعراض التى يصرح بها للاستقبال قبل الاستشارة .	٢,٢	٣,٠

يتضح لنا من الجدول السابق أن الطبقة المتوسطة استغرقت وقتاً فى الكشف أطول من الطبقة العاملة ، حيث قضت الطبقة الأولى وقتاً أطول فى الحديث مع الأطباء ، بالاضافة إلى تساؤلاتهم أكثر من مرضى الطبقة العاملة ، ويميلون إلى مناقشة مشكلاتهم بصورة أوضح مع الأطباء عن الآخرين .

وبالرغم من زيادة شكاوى مرضى الطبقة العاملة إلا أن الوقت الذى يستغرقه الواحد منهم فى الاستشارة أقل من الطبقة المتوسطة ، وهذا يرجع إلى أن مرضى

الطبقة العاملة يشعرن بأن هناك مسافة اجتماعية واسعة بينهم وبين الأطباء، ويكتفي هؤلاء المرضى في العادة بذكر القليل من المشاكل ويتجنبون إضافة أية مشاكل أخرى في موقف الاستشارة ، مخالفة ألا يكون الطبيب غير مستعد لذلك(٢٣) ويرجع الأطباء ذلك الخجل أو الحياء الذى يبدو على المرضى ويظهر واضحاً من خلال طريقتهم في الإجابة على ما يوجه إليهم من أسئلة .

ولقد توصل كل من Cartwright و O'Brien إلى أن الأطباء يشعرون بالرضا من الاستشارة التى لا تزيد عن خمس دقائق ، والتى لا تزيد عن خمس دقائق ، والتى يسأل فيها المريض سؤالاً واحداً فقط .

وبالنسبة لهذا البعد النظرى ومدى إنطباقه عن مجال دراستنا ، فقد لاحظنا أن مرضى الطبقة المتوسطة كما أظهرت لنا الدراسة هم المثقفون أو الحاصلون على قدر مناسب من التعليم في العادة، ويميل هؤلاء إلى تناول أمراضهم بالدراسة والتحليل مع الأطباء ، ومن ثم تتم مناقشتهم مع الأطباء بخصوص المرض وما يتم صرفه من علاج . ويلعب هؤلاء المرضى دوراً واضحاً في عملية تنفيذ مراحل العلاج حيث يكون معظمهم على دراية بأسماء العقاقير التى يكتبها الأطباء في تذكرة الدواء ومدى فاعليتها إتضح لنا في أكثر من موقف عدم ترحيب الأطباء لتدخل المرضى في التشخيص ، فهم يقبلون للمريض دوراً محدداً يتمثل في شرح ما يعانيه من أعراض دون تشخيص للمرض أو درجة خطورته ، وقد صرح لنا أكثر من طبيب أن الخبرة والدراية يجب أن تكون محل احترام من جانب المرضى ، وإن كان هذا لا ينفى ناحية ثانية ما سبق أن أكدناه من تعاون المريض والطبيب بصدد الأمراض المزمنة وبخاصة ما يتعلق باجراءات العلاج .

ثالثا : العلاقة بين الطبيب والممرضة :

يكتسب البعد العلمي لرسالة التمريض أهمية خاصة في المجتمع المعاصر بعد أن حقق الطب تقدماً هائلاً عن طريق التطور العلمي ودخول مجالات جديدة على قدر كبير من الدقة والتعقيد بما يتطلب تطوير مهنة التمريض على نفس الأسس العلمية ليكون مواكباً للتقدم الطبى .

وقد انعكس هذا التقدم على العلاقة بين الطبيب والممرضة ، فبعد أن كان يمثل في الماضى لهذه العلاقة على أنها علاقة السيد بالمسود ، ينظر إليها الآن على أنها أكثر قوة وعمقاً وصداقة (٢٤) . وبالرغم من قوة هذه العلاقة إلا أن هذا

لا يعنى أن الممرضة تتمتع بنفس الهيبة والمكانة والامتيازات التى يتمتع بها الطبيب، ومن ثم فهى تحتل مكانة أقل شأناً ، بالرغم من حيوية الدور الذى تؤديه فى عملية الرعاية الطبية ، والذى اتضح لنا أنه دور مركب ومعقد إلى حد كبير نظراً لأنه يجمع بين العناصر الفنية والعناصر السوسيونفسية فى نفس الوقت.

• كما لا يدفعنا ذلك إلى تصور قيام علاقة ند بند بينهما ، ذلك أن دور كل منهما – رغم اشتراكهما فى الفريق الطبى المعالج – دور متمايز . فدور الطبيب استشارى وتنفيذى معًا ، بينما لا يتعدى دور الممرضة جانب تنفيذ تعليمات وتوجيهات الطبيب . يؤكد ذلك أنه رغم حصول الممرضة على قسط أوفر من التعليم التمريضى ، وتطوير المناهج الدراسية بما يتفق مع التقدم العلمى فى هذا المجال، وزيادة التدريبات العلمية التمريضية التى تحصل عليها فإننا نجد من بين العلماء من يرى أن علاقة الممرضة بالطبيب مازالت علاقة تابعة (٢٥) . ذلك لأن مهنة الممرضة تنتمى إلى المهن شبه الطبية حسب تعبير ، فريدسون ، وقد تأكد لنا هذا المفهوم من خلال المقابلات التى أجريناها مع الأطباء من جهة، ومع الممرضات من جهة أخرى ، حيث أكد الأطباء على أن الممرضة تعتبر موظفة تنفيذية ، بمعنى أنها تقوم بتنفيذ كل ما يوجهه إليها الأطباء من توجيهات أمور خاصة بالمريض مثل : قياس درجات حراره، قياس معدلات النبض والضغط والاشراف على غذائه: من حيث النوعية والمقدار ، الاشراف على نظافة المريض، وأخذ عينات التحاليل إذ لزم الأمر، وإعداد المريض وتهيئته لتوقيع الكشف الطبى الدورى عليه، ومن ناحية ثانية أكدت الممرضات والحكيمات على أنهم يلتزمن إلى حد كبير بأوامر الطبيب وتنفيذ برامج العلاج كما يحددها لهن وليس لديهم الحق فى صرف أى عقار للمريض دون استشارة الطبيب .

يظهر لنا من خلال هذه العلاقة ما يسمى بالتخصص المهنى ، حيث يعمل كل منهما فى مجال تخصصه ولا يشارك الآخر فى تخصصه إلا فى أضيق نطاق وفى حالات الطوارئ . .

وإن كنا قد لاحظنا تعاظماً فى دور الممرضة يثير احترام الأطباء فى حالة عملها فى بعض الأقسام المتخصصة مثل : قسم الرعاية المركزة ، وقسم الأطفال المبتسرين كما أشرنا فى موضوع سابق، بل إن البعض منهن حاصلات على درجات تخصصية عالية مثل درجة الماجستير كل فى تخصصها .

وفى المقابل – فإننا قد لاحظنا – أن السواد الأعظم من الممرضات يفتقدن

ذلك التقدير من جانب الأطباء ، ويتحدد مجال العلاقة عند تنفيذ التوجيهات فقط، أو خدمة المريض .

رابعاً : العلاقة بين الممرضة والمريض :

تعتبر العلاقة بين الممرضة والمريض ذات أهمية خاصة، لما للممرضة دور حيوى وفعال فى عملية الرعاية الطبية ، حيث تقوم بالدور التنفيذى لبرنامج العلاج، كما يتوقف نجاح تلك العملية على نجاح علاقة الممرضة بالمريض ، فإذا ارتاح المريض للممرضة التى تقوم بالأعمال التمريضية له يصل بسرعة إلى رحلة الشفاء .

كذلك فإن عمل الممرضة من الناحية الفنية معقد، عندما يكون من الضرورى أن تلازم المريض وتستمر بجواره لاعطاد مثلاً عقاراً عن طريق الوريد قد ينقذ حياته ، فى حين أنها إذا أجلت إعطاء هذا العقار أو إذا لم تكن تعرف مفعوله فقد يؤدى ذلك إلى فقدان المريض لحياته . إذن لابد أن تكون دائماً يقظة بجوار المريض فى الحالات الحرجة ، وأن تقوم بعمل اللازم له ، ومن ثم يتوقف على يقظتها ووعيها – إلى حد بعيد – حياة المرضى أو موتهم فى بعض الأحيان .

وتختلط الممرضة بالمرضى أكثر من الأطباء نظراً لأنها تلازمه طول اليوم وتمر عليه أكثر من مرة ، لذا لأنها تصادف كل أنواع الانفعالات البشرية تقريباً ، ومن ثم فإن تمتعها بقدر من المهارات والخبرات فى مجال العلاقات الانسانية يساعد فى أداء رسالتها ، وهكذا فإننا نجد أن الممرضة تستطيع عادة بفضل معرفتها وخبرتها أن تجد الكلمة أو الايماءة المناسبة التى تدخل الطمأنينة والسكينة على النفس فى أوقات الشدة (٢٦) .

وعلاقة الممرضة بالمريض متعددة الوجوه بتعدد أوجه نشاطها، فهناك ممرضة الرعاية المباشرة للمرضى ، وممرضة العمليات ، وممرضة العيادة الخارجية، وممرضة الاستقبال ، وممرضة الرعاية المركزة ... الخ، ويختص عمل كل منهن برعاية المرضى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، ولهذا يكون لها تأثير كبير على حالة المريض النفسية، فإذا كانت بشوشة ، رقيقة تستطيع أن تعامل مرضاها برفق، وتواسيهم فى مرضهم وتناقشهم عن قصة هذا المرض، وتحاول أن تخفف من آلامهم بابتسامة متطرفة إلى معرفة مسببات المرض الجسمانى والاجتماعى والنفسى، ومن ثم تحاول أن تقيم علاقة مع مرضاها يتوخاها الاخلاص والتفانى فى العمل .

وقد كشفت لنا الدراسة الميدانية فى المستشفيين عن عدم وجود مثل هذا العمق فى العلاقة (*) نظراً لكثرة أعداد المرضى من ناحية، والعجز الهائل فى أعداد الممرضات من ناحية أخرى، حيث يضم العنبر الواحد بالمستشفى الرئيسى مثلاً وخاصة بالقسم المجانى من ٦ إلى ١٠ من المرضى ، ويضم القسم من ٤ إلى ٥ عنابر ويوجد بكل قسم من ٢ إلى ٤ ممرضة، وعلى هذا يكون نصيب كل ممرضة ١٠ من المرضى أو أكثر تقوم رعايتهم داخل القسم (**) . فمن الصعب إذن أن تنشأ بين الممرضة وبين المرضى علاقة قوية وطيدة كتلك التى نقصدها، وفى مستشفى الشاطبى وجدنا أيضًا قلة عدد الممرضات بالنسبة لأعداد المريضات حيث تتراوح عدد الأسرة بكل قسم ٣٠ - ٣٥ سرير فى حين أن بالقسم الواحد توجد مشرفة تمريض بالإضافة إلى اثنتين من الحكيمات يساعدانها فى رعاية المرضى، ونظراً لكثرة أعداد المرضى لا تستطيع الممرضة تلبية كل ما يطلبه منها المريض، فهناك كثير من المرضى يحتاجون إلى تناول العلاج ، وتناول الطعام، والبعض الآخر فى حاجة إلى من «يأخذ بيدهم» للوصول إلى دورة المياه، ويحاول هؤلاء المرضى الاستعانة فى قضاء هذه الحاجات بغيرهم من المرضى الذين يستطيعون الوقوف والمشى، وفى مستشفى الشاطبى وجدت بعض المريضات اللآتى أجرين عمليات ولا يقدرون على الحركة - كعمليات الولادة القيصرية واستئصال الرحم مثلاً - وقد حاولن الاستعانة بالممرضة دون جدوى ، وقد لبت الباحثة مطالب بعض هؤلاء المرضى وساعدتهم فى تناول غذائهم، وإحضار العلاج لهم، ومساعدتهم على قضاء بعض حاجتهن وهن راقدان على الأسرة، وظهرت مثل هذه المساعدات بشكل أوضح فى الفترة المسائية، مما يدعونا إلى القول بأن التمريض الليلى ليس فى قوة التمريض النهارى، بل أن الممرضات أنفسهن يشتكين من إزهاق وملل العمل الليلى، وقد يظهر التمريض الليلى فى حالة واحدة فقط فى المستشفى وهى حالة الولادة فى ساعة متأخرة من الليل، أو وصول حالة عن طريق الاستقبال أيضًا جاءت للولادة ، هنا نجد الممرضة داخل حجرة الولادة مع الطبيب ، وتقوم بالتمريض اللازم لمثل هذه الحالات .

ولقد لاحظنا فى بعض الأحيان - فى الأقسام الاقتصادية أو المجانية - تطوراً ينشأ على علاقة الممرضة بالمريض، من جانب واحد (المريض) ، حى يتعلق بممرضة بعينها، فيكون دائم السؤال عنها ويتوقع حضورها ، ويفضل تناول

العقاقير تحت اشرافها ... ومعظم هذه الحالات تكثر بين أصحاب الأمراض المزمنة من الشيوخ والطبية على وجه الخصوص، وإن كانت العلاقة السائدة بالمستشفيين بين الممرضة والمريض بصفة عامة – وباستثناء الحالات المشار إليها – علاقة تتسم بالبساطة ، وسبب ذلك كثرة المرضى بالنسبة لهيئة التمريض بالمستشفى الرئيسى ، وإلى جانب هذا قلة عدد الأيام التى تمكثها المريضة بمستشفى الشاطبى .

خامساً : العلاقة بين الممرضة والممرضة :

تمثل علاقة الممرضة بالممرضة احدى العلاقات التى تنشأ بين أعضاء المهنة الواحدة، أو التخصص الواحد، هذه العلاقات التى تتضح فيها مظاهر التعاون والعطاء المتبادل بقدر ما يتضح فيها وبنفس القوة مظاهر للحقد والغيرة والصراع، فقد لاحظنا ما لاحظه قبلنا المتخصصون – وجود ميل عام داخل كل جماعة مهنية – الأطباء ، هيئة التمريض الفنيين – إلى تكوين علاقات ايجابية بناءة قوية بين أفرادها ، إلا أننا لمسنا فى نفس الوقت مظاهر لعلاقات هدامة تنشأ داخل الجماعة الواحدة .

وإذا كنا قد تحدثنا فى أكثر من موضع سابق عن مظاهر للتعاون ، فقد لاحظنا أن العلاقة بين الممرضات لها وجهها غير المشرق أيضاً ، وخير دليل على ذلك بعض المقابلات التى اجرتها الباحثة مع الممرضات بالمستشفيين كل عام على حدة، والتى أفصحت فيها بعض الممرضات عن ما تضمده تجاه الأخريات، فقد صرحت بعض الممرضات القدامى بالمستشفى الرئيس أنه يوجد ممرضات أكثر منهن حداثة فى التعيين إلا أنهم حصلن على امتيازات أكثر منهن واجتزن درجات أعلى، وهذا ما دعى احداهن إلى القول بأن ليس هناك أدنى اعتبار للأقدمية، وقد لاحظت أن مشرفات التمريض حديثى التخرج اللآتى على مستوى مرتفع من التفوق يتم تعيينهن بوحدات العناية المركزة تلك الوحدات التى يتطلب العمل فيها نوع من الخبرة والدراية التمريضية التي تقوم على العلم، وهذا بالتالى يثير الحساسية والحق لدى الممرضات القدامى اللآتى يجدن الممرضات الصغيرات فى مركز أفضل منهن .

هذا بالإضافة إلى الحساسية التى تنشأ بين رئيسة التمريض والممرضات اللآتى يعملن معها عندما توجه إليهن أمراً ، ومما يخفف من هذه الحساسية ومظاهر التوتر التقاء الممرضات وإجتماعهن فى رحاب نقابة التمريض أو

فروعها، والتى تعمل على تعضيد وتوثيق الصلات بينهن، حيث تناقش مشكلاتهن وتحاول قدر الإمكان الوصول إلى حلول لهذه المشكلات ، كما أن احتفاء المجتمع بهن يجعلهن يقبلن على الحياة واثقين من دورهن ولينعكس ذلك بالتالى على العلاقات السائدة بيهن ، ولقد لاحظت أن قطاعاً عريضاً بين أعضاء هيئة التمريض بالمستشفيين يكون للكلمة الطيبة أو للثناء والتقدير فعل السحر فيهن سواء كانت الكلمة بين ممرضة وزميلة ، أو بين رئيسة التمرين ومرؤوسائها ، نهيك عن إحتفاء المجتمع بهن (*) .

سادساً : العلاقة بين المريض والمريض :

يظهر داخل بناء المستشفى نمط آخر من العلاقة الثنائية تلك التى تظهر بين المريض والمريض، وتبدو تلك العلاقة قوية خاصة فى الأقسام التى يعانى فيها أصحاب الأمراض المزمنة والتى يتطلب علاجها وقتًا طويلاً بالمستشفى ، بالإضافة إلى ميل المرضى أنفسهم إلى تكوين علاقات اجتماعية بين بعضهم البعض، وقد ظهر هذا واضحاً بالأقسام المجانية ببعض أقسام الأمراض الباطنية بالمستشفى الرئيسى، ووجدنا بعض المرضى الذين يعرفون بعضهم معرفة جيدة، وتمتد هذه الصلة إلى إقامة علاقة قوية بين المرضى وذويهم، وفى بعض الحالات وجدنا بعض المرضى قد عقدوا صلات مصاهرة بين أبنائهم وبين مرضى آخرين تعرفوا عليهم من خلال اقامتهم معاً بالمستشفى، وقد وجدنا تماثلاً لنفس هذه العلاقة بمستشفى الضاطبى ، حيث يستطيع مرضى ،الأقسام المجانية إقامة علاقات قوية مع بعضهن البعض وجدنا بكل قسم سيدة من بين المريضات تقوم على خدمة الآخريات اللائى لا يستطعن الحركة كما فى حالات العمليات، وقد تمتد هذه العلاقة بينهن بعد خروجهن من المستشفى، ويتزاورن، أما فى أقسام العلاج بأجر فقد لاحظنا أن علاقات مريضاته بعضهن البعض يغلب عليها الفتور فى معظم الأحيان وخاصة عندما تقيم المريضة وحدها فى الحجرة أو تقطن معها أخرى فقط .

خاتمة :

عرضنا بذلك لأنماط العلاقات الاجتماعية الهامة التى تمثلت داخل البناء الاجتماعى للمستشفيين موضوع الدراسة، وبالرغم من أن كلاً منهما يبدو كأنه يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات الاجتماعية ، إلا أنها لا تخرج فى النهاية عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة ، تلك التى تظهر

بين شخصين داخل هذا البناء الأكبر سواء أكانت علاقة بين طبيبين ، أو بين طبيب ومريض، طبيب وممرضة، ممرضة ومريض أو بين المرضى أنفسهم ... الخ ومن مجموع هذه العلاقات يظهر البناء الكلي للمستشفى .

وقد لاحظنا أن العلاقة بين الطبيب والمريض تعتبر من أعمق العلاقات الثنائية الموجودة داخل بناء المستشفى وأكثرها تفاعلاً .

بقيت لنا عدة ملاحظات عامة تختتم بها هذا الفصل وهي :

١– لاحظنا أولاً أن المستشفى من حيث هو بناء واقعي وحقيقة عينية قائمة يمكن ملاحظتها وتخضع للملاحظة المباشرة ، كما لاحظنا أن ذلك البناء الواقعي دائم التغير من حيث أن الأشخاص المكونين له يتعرضون لتغيرات مستمرة عن طريق تعيين دفعات جديدة تغطى كل المستويات التخصصية، بمعنى دخول أعضاء جدد إلى بناء المستشفى، حتى العلاقات بين هؤلاء الأعضاء تجدها في تغير مستمر نتيجة لتغير الأدوار الاجتماعية التي يقومون بها، وتغير المراكز التي يحتلونها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يخرج من هذا البناء أعضاء سواء عن طريق نقلهم لمستشفى أخر، أو إنتهاء مدة خدمتهم، أو إعارتهم للعمل بالخارج تتغير على أساسه العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء الأعضاء .

أما عن أنماط العلاقات فهي تظل ثابتة إلى حد كبير، فالصورة البنائية العامة للمستشفى باعتباره مكاناً لعلاج المرضى والوصول بهم إلى مرحلة الشفاء تظل ثابتة برغم من حدوث تغيرات يومية داخل أقسامها الإدارية أو العلاجية، مع التغير المستمر الذى يلحق بأعضاء ذلك البناء. فقد يتغير مدير المستشفى من فترة لأخرى. ويتغير أيضًا رؤساء الأقسام العلاجية به ومن بيدهم السلطة داخل تنظيمه ، إلا أن الصورة العامة للمستشفى تظل إلى حد بعيد غير متأثرة بهذه التغيرات الجزئية .

٢– إذا استعدنا مقولة ، راد كليف – براون ، عن البناء الاجتماعي وهي ،وجود نوع من الترتيب أو التنسيق بين الأجزاء التي تدخل في تكوين الكل الذي نسميه بناء من أجل اظهار ذلك الكل متماسكاً ومتكاملاً ، فإننا قد لاحظنا أن هذا المعنى مازال قائمًا من دراستنا للمستشفى حيث يظهر بين أقسام المستشفى نوع من الترتيب والتنسيق بين العاملين به على اختلاف تخصصاتهم ، كما لاحظنا أن هناك نوعًا من التعاون والشعور بروح الفريق

الواحد بينهم جميعاً على إختلافهم ، وذلك لإدراك وتحقيق الهدف الأساسى للمستشفى وهو تقديم أفضل رعاية ممكنة للمريض والوصول به إلى مرحلة الشفاء، فالعاملين بالمستشفى على إختلاف تخصصاتهم يسارعون إلى مساعدة الفرد الذى يحتاج إلى معونة أو مريض جديد يريد دخول المستشفى، ويترتب على هذا التضامن الاجتماعى أو الشعور بروح الفريق الواحد أن المرضى أيضاً يشعرون بالأمن والاستقرار داخل المستشفى ، هذا على الرغم من وجود بعض الثغرات التى قد ترجع إلى قلة الإمكانيات ، أو كثرة أعداد المرضى... وغيرهما مما ذكرناه خلال ثنايا هذا البحث .

٣- لاحظنا من ناحية العلاقات التى تظهر بين مختلف العاملين بالمستشفى أن كل جماعة مهنية تميل إلى توطيد علاقاتها مع أعضائها بعضها ببعض، حيث تظهر «جماعة ازطباء» مثلاً ويميل كل طبيب إلى خلق علاقات مع زملائه الأطباء متباعداً إلى حد ما عن « جماعة هيئة التمريض ، وجماعة الفنيين ، وجماعة الموظفين، وينطبق نفس الشئ على بقية التخصصات الأخرى. وهذا ما يعرف باسم ترابط أصحاب التخصص الواحد .

٤- ساعدتنا الأداة البحثية « الملاحظة بالمشاركة » فى الوصول إلى أعماق البناء الإجتماعى للمستشفى متغلغلين إلى الداخل ، ملاحظين ما يمكن أن يخفيه أعضاء ذلك البناء أحياناً . ومن ثمخ استطعنا فهم السلوك الفعلى الحقيقى عند ملاحظتنا له على الطبيعة وتسجيل إنطباعاتنا عنه، فقد يدلى المبحوث بمعلومات تناقض سلوكه الفعلى ولذا لابد من البحث فيما وراء المعطيات المباشرة الملاحظة للوصول إلى البناء الحقيقى الأكثر إختفاء على ما قال « ليفى - ستروس » .

هوامش الفصل السابع:

(1) Ed. by : Radcliffe - Brown & Forde, African Systems of Kinship and Marriage, 1950, p. 82 .

(2) Kupar, A., Op. Cit., p. 20.

(٣) شاكر مصطفى سليم ، قاموس الأنثروبولوجيا ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص٨٩٩ مادة تفاعل اجتماعي .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص٩٠١ ، مادة علاقات عامة .

(٥) د. محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مادة علاقات عامة ، ص٤٣٧ .

(٦) نفس المرجع والصفحة .

(7) Radcliffe - Brown, A. A., Structure and Function in Primitive Society, London, 1956, p. 190 .

(8) Aneeta Ahluwalia, Sociology of Medicine, op. cit., p. 415.

(9) Susser, M. W., & Watson, W., op. cit., p. 251 .

(10) Freidson. E. Medicial Personnel : Physicians, In : International Encyclopedia of the Social Seiences, Vol. 9 - 10 , pp. 105 - 113.

(11) Morgan, M., The Doctor - Patient Relationship, in Sociology as Applied to Medicine, Ed. by. Patrick & G. Scambler, London, 1982, p. 57 .

(12) Parsons, T., op. cit., pp. 428, 479.

(13) Stiles, W. B. & Others, Dimensions of Patient and Physician Roles in Medical Screening Interviews, in Social Science and Medicine, Vol. 13 A. N. 3 May, 1979, pp. 335 - 340, 1979, pp. 335 - 340.

(14) Morgan, M. op. cit., p. 62 .

(15) Ibid., p. 63 .

(16) Szazs, T., & Hollender, M., " A Contribution to the Philosopgy of Medicine : The Basic Models of the Doctor - Patient, Relationship, 1956, pp. 585 - 592 .

(17) Morgan, M., op. cit., p. 61 .

(18) David Locker, Communication in Medical Practice. in Sociology as Applied to Medicine, pp. 98 - 109 .

(19) Ibid., pp. 99 - 101 .

(20) Ibid,m pp. 101 .

(21) Ibid., pp. 101 - 102 .

(22) Ibid., pp. 102 .

(23) Ibid., p. 99 .

(24) Foster, G., Op. Cit., p. 194 .

(25) Freidson, E., Parmedical Personnel, in International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 9, 10, pp. 114 - 119 .

(٢٦) أديث باتون ، الممرضة ، ص ص٨٦ ، ٨٧ .

الفصل الثامن

المراحل العمرية للمرأة
دراسة في أنثروبولوجيا الجسم

- مقدمة.
- مرحلة البلوغ والمراهقة.
- مرحلة البلوغ.
- تعريف الحيض.
- الموقف الثقافي من الحيض والحائض:

١- عدم الجماع الجنسي بالمرأة الحائض.

٢- عدم قيم المرآة الحائض بطهو الطعام.

٣- العزلة في مكان مستقل أثناء فترة الحيض.

٤- عدم الأقتراب من أماكن معينة أو الدخول بها.

٥- عدم تناول أطعمة معينة أثناء الحيض.

٦- إستخدام دم الحيض في بعض الممارسات الحيض.

ثانياً: التعريف بالمراهقة:

- الفرق بين المراهقة والبلوغ.
- النمو الجسمي في مرحلة المراهقة.
- النمو العقلي.
- التغيرات الوجدانية.
- مشكلات المراهقة وعلاجها.
- أنواع المراهقة.
- الوضع القيمي والثقافي للمراهقين في بعض المجتمعات.

الفصل الثامن

المراحل العمرية للمرأة

دراسة في أنثروبولوجيا الجسم

مقـدمة:

إن هذا الموضوع من الموضوعات التى يجب أن تكون ذات إهتمام خاص لدى كل من الأنثـروبولوجـين والسـوسـيـولوجـين والسـيكولوجـين والأطبـاء، وذلك لأن العـوامل البيولوجية والفسيولوجية والاجتماعية والثقافية والنفسية للأنثى فى مرحلة البلوغ والمراهقة وللمرأة فى مرحلتى الحمل والإنجاب وسن اليأس ترتبط إرتباطاً وثيقاً ببعضها البعض ويقتصر كل منها على الآخرى فهذه المراحل العمرية ليست أحداث فسيولوجية محضة ولكنها نفسية وإجتماعية وإقتصادية وإعتبارها مسائل نسائية بحتة إعتباراً قاصراً. وإن تلك المراحل تشكل نمط تكوينها وأسلوب حياتها وينتج عنها أحداث قد تواجه المرأة أثناء حياتها وتترك بصماتها الواضحة على سلوك المرأة وما يعقبها من تغيرات بيولوجية وفسيولوجية واجتماعية أيضاً.

ونحن هنا بصـدد دراسـة لتلك المراحل العمـرية الثـلاث ألا وهى مـرحلة البلوغ والمراهقـة والحمل والانجـاب وسن اليأس ليس كمراحل بيولوجـية فقط ولكن للأبعاد الثقافية والاجتماعية والنفسية لتلك المراحل وما يحيط بها من قيود وتحريمات تفرضها المجتمعات والثقافات.

وفى هذا الفصل سوف أتناول بالتفصيل مرحلة البلوغ والمراهقة لدى الأنثى بينما سأتناول المرحلتين ا لآخرتين فى الفصلين التاليين.

مرحلة البلوغ والمراهقة

تعد مرحلة البلوغ والمراهقة من أهم المراحل التى يمر بها الإنسان ضمن أطواره المختلفة التى تتسم بالتجدد المستمر، والترقى فى معارج الصعود نحو الكمال الإنسانى الرشيد. ومكمن الأهمية فى هذه المرحلة التى تنتقل بالإنسا من الطفولة إلى الرشد هى التغيرات فى مظاهر النمو المختلفة (الجسمية والفسيولوجية والعقلية والإجتماعية والأنفعالية والدينية والخلقية)، ولما يتعرض الإنسان فيها إلى صراعات متعددة داخلية وخارجية. والواقع أنه ليس هناك نوع واحد من المراهقة فلكل فرد نوع خاص حسب ظروفه الجسمية والاجتماعية والنفسية والمادية وحسب استدادته الطبيعية والاجتماعية

(*) كتب هذا الفصل د. هندومة محمد أنور أستاذ الأنثروبولوجيا المساعد، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

والنفسية والمادية وحسب استعدادتها الطبيعية فالمراهقة تختلف من فرد إلى أخر ومن بيئة إلى أخرى ومن سلالة إلى سلالة. كذلك تختلف باختلاف الأنماط الحضارية التى يتربى فى وسطها المراهق. وفى المجتمع البدائى عنها فى المجتمع المتحضر وفى المدنية عنها فى الريف، كما تختلف من المجتمع المتذمت الذى يفرض الكثير من القيود على نشاطات المراهق عنها فى المجتمع الذى يتيح للمراهق فرص النشاط وإشباع الحاجات والدوافع المختلفة.

والجدير بالذكر أن مرحلة المراهقة ليست مستقلة بذاتها استقلالاً تاماً وإنما هى تتأثر بما مر به الطفل من خبرات فى المرحلة السابقة[1].

ولقد زاد الأهتمام فى السنوات الأخيرة وبخاصة منذ الستينات من القرن الماضى بدراسة مشكلات المراهقة ازدياداً كبيراً تتمثل فى كثرة الكتابات التى تتناول المرحلة المراهقة والتغيرات التى تطرأ على التكوين الجسم للمراهق وتطور حياته العقلية والإنفعالية وعمليات التنشئة الاجتماعية والتصبيع الاجتماعى التى يخضع لها المراهقين فى مختلف المجتمعات والثقافات. وتعتمد هذه الكتابات فى الأغلب على الملاحظة المباشرة وقد أمكن عن طريق هذه الوسيلة التعرف على كثير من التفاصيل عن مرحلة المراهقة الخطيرة التى كثيراً ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى فى حياته وتكوين شخصيته وقدرته على التكيف مع المجتمع الذى يعيش فيه. والتلاؤم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداته وتقاليدة وقيمه. وتقبل الأوضاع السائدة فيه أو التمرد عليها.

والواقع أن الظروف والأوضاع الاجتماعية والأقتصادية التى سادت المجتمع الإنسانى عموماً والمجتمعات الغربية بوجه خاص. والتغيرات الهائلة التى طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية. كانت من أهم أسباب زيادة الأهتمام بدراسة مشكلات المراهقة والعمل على تشخيص هذه المشكلات ومحاولة إيجاد حلول لها. ولقد تجلى ذلك فى النظريات العديدة والآراء الجديدة المتضاربة التى ظهرت بكثرة منذ بداية القرن الماضى والتى تتناول نواحى هامة فى التطور الجسمى والعقلى والانفعالى كثير من الأضواء على هذه الجوانب. وقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه الدراسات السيكولوجية والسيكو تحليلية فى هذا المجال دفعة قوية.

ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر فى دراسة مشكلات المراهقة وإن كانت معظم تلك الدراسات تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية وبخاصة دور العائلة فى هذه العملية المعقدة وأخيراً فقد أفلح علماء الأنثروبولوجيا فى ارتياد

مجالات جديدة وطريقة فى دراسة مشكلات المراهقة وذلك حين بذلوا كثيراً من الجهد والاهتمام بدراسة عمليات التطور الاجتماعى للفرد فى المجتمعات التقليدية.

ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان أهمها الاتجاه الذى يعنى بدراسة المراحل الاجتماعية التى يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ويعرف هذا النظام باسم «نظام طبقات العمر» حيث تعتبر المراهقة فى مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة.

أما الاتجاه الرئيسى الثانى الذى اتجهت إليه بحوث الأنثروبولوجيين فى دراسة المراهقة هو الدراسة المقارنة التى تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة فى معاملة المراهق فى مختلف الشعوب والثقافات وربما كانت كتابات العالمة الأمريكية مارجريت ميد هى أشهر هذه الإسهامات. حيث أظهرت أن النظم الاجتماعية الحديثة التى يعيش فيها المراهق هى المسئولة عن حدوث أزمة المراهقة مما يشير لأهمية النظر للنظم والعادات والتقاليد الإجتماعية والبيئة الثقافية والجغرافية وحتى نمط التربية الأسرية فى التأثير على سير هذه المرحلة بسلام.

ولذلك فإنه من الضرورى التعرف على المظاهر المختلفة والتغيرات النفس جسمية للمراهقة من ناحية والظروف الاجتماعية والثقافية التى يعيش فى وسطها المراهق من ناحية أخرى.

ولهذا يهدف هذا الفصل التعرف على تلك المراحلة العمرية الهامة بأبعادها البيولوجية والفسيولوجية من ناحية وأبعادها الاجتماعية والثقافية والقيمية من ناحية أخرى(٢).

أولاً: مرحلة البلوغ بيولوجياً:

تتلخص التغيرات الفسيولوجية التى تطرأ على الطفل مؤذنة بقدوم المراهقة فى أن الفص الأمامى من الغدة النخامية ينشط لإفراز نوعين من الهرمونات أحداهما الهرمون الخاص بالنمو وهو المهيمن على تحديد حجم الجسم ونسب أعضائه والأخر المسئول بتنبيه المناسل فإذا ما نبهت المناسل فإنها تفرز هرمونات خاصة تختلف فى الذكور عنها فى الأناث. وهذه الهرمونات هى التى تجلب التغيرات النفسية والجسمية المصاحبة لسن البلوغ والتى لا تلبث أن تنتهى ببدء ظهور الطمث لدى الفتيات وظهور المنى وهى علامات بدء المراهقة تكون مصحوبة عادة بتغيرات أخرى فى سرعة عمليات الأيض، ودقات القلب وضغط الدم ومن ثم فنحن بصدد تغيرات بيولوجية

شاملة. وطبيعي أن يترتب على ذلك بعض النتائج السيكولوجية التي تدور حول أختلال الأتزان وشعور بالقلق وأنسحاب الأنتباه من الموضوعات المحيطة بالذات الى الذات نفسها لما يعتريها من تغيرات بيولوجية شاملة على أن هذا السلوك الأنعزالي قد يتضخم حتى يتخذ صورة مرضية.. وقد يقتصر على كونه مرحلة عابرة تليها مراحل ذات أنماط أخرى للسلوك الأجتماعي وظروف البيئة الأسرية والأجتماعية هي التي تحسم في هذا الصدد وربما من أهم التغيرات الفسيولوجية ظهور الصفات الجنسية الثانوية. والتي تميز الشكل الخارجي للمرأة وإن تلك التغيرات العضوية من الناحية السيكولوجية إلى ما لها من تأثير في الوضع الأجتماعي للمراهق وما يترتب على ذلك من أثارة أهتمامه بذاته الجسمية والنفسية. ودفعه الى العمل على تغيير عاداته وعلاقاته وأنماط تكيفه وإن هناك أرتباط بين التغيرات الجسمية التي تطرأ على المراهق وبين سلوكه الأجتماعي. كما أنها مسئولة عن ظهور حاجات ورغبات تؤثر في نظرة المراهق للآخرين وتقييمه لهم.

ولا يقتصر الأمر على هذا بل يتعداه الى الشعور بالقيمة الأجتماعية للتغيرات الجسمية. وما يعقب هذا من صراع بين المراهق مع من حوله. وفي ظروفنا الأجتماعية الحاضرة بلغ هذا الصراع درجة عالية من الشدة نتيجة لفترة الأنتقال التي تجتازها. فنموذجاً الذكورة والأنوثة قد فقدا الكثير من مضمونها الذي كان سائداً منذ حوالي نصف قرن لكن مضمونها الجديد لم يتحدد بعد بصورة واضحة وظروف التربية والحياة الأجتماعية والأقتصادية لا تتيح في كثير من الأحيان تحديد نموذج الراشد ومسئولياته في وقت مبكر. مما يطيل تلك الفترة المرهقة التي يقضيها المراهق في صراع حول إكتساب مكانة مستقرة بين الراشدين.

وقد كان الرأي السائد إلى أوائل العقد الثالث من القرن الماضي أن أزمة المراهقة شديدة العنف دائماً بغض النظر عن الظروف الأجتماعية المحيطة بالمراهق. وكانت التغيرات الفسيولوجية تحتل المكانة الأولى في تعليل جوانب هذه الأزمة. الى أن ظهرت بحوث مارجريت ميد وغيرها من الأنثروبولوجيين الأجتماعيين في حياة الشعور البدائية وعاداتهم ونظم التربية لديهم. وأتاحت هذه البحوث للنظرة المقارنة أن تعم وتستكشف أثر البيئة الأجتماعية ومدى نسبية الآراء السابقة حول سيكولوجية المراهقة. إلا أن ذلك أغرى بعض الباحثين بالتضخيم من شأن البيئة الإجتماعية على حساب العوامل الفسيولوجية بشكل تبين فيما بعد أنه ينطوي على كثير من سرعة التعميم. فقد ذهب كلينبرج في معارضته لرأي أستانلي هول الى حد القول بأنه في

بعض المجتمعات مثل مجتمع ساموا الا تكاد تواجه الفتاة أى صراع أو أضطراب وأنها لتجتاز مرحلة المراهقة فى يسر وهدوء نحو وضع أجتماعى جديد. وأستند فى رأيه لما قالته مارجريت ميد. ألا أن هذه الباحثة أوردت نصوص أخرى عكس ذلك وإن المراهق يتعرض لبعض ضروب الصراع وعلى هذا فالاتجاه السائد فى كثير من البحوث الحديثة يوضح آثار التغيرات الفسيولوجية التى لا يمكن إغفالها والتى تتضح فى ظهور أنماط سلوكية متشابهة لكنها مختلفة فى جوانب أخرى بحيث تكشف عن آثار البيئة الأجتماعية فى تشكيل خصائص هذا المستوى وإبرازه بصورة معينة(٣).

وبما أن نحن هنا بصدد دراسة المراحل العمرية البيولوجية للمرأة من حيث الموقف الثقافى والأجتماعى منها ولذا فتركيزنا هنا على المراهقة والبلوغ للفتاة والذى يمثل الحيض العلامة الأولى لتلك المرحلة وتحاط به كثير من المعتقدات الثقافية فلابد من تفسير الحيض بيولوجياً وثقافياً ثم معرفة المعتقدات والتحريمات الثقافية لتلك الظاهرة.

تعريف الحيض:

إن التعريف المتداول علمياً للحيض أنه دم ومادة رحمية تسيل من فرج المرأة فى أيام معلومة كل شهر طوال فترات الخصوبة والتناسل أو مرحلة فى الدورة الفسيولوجية للأنثى والتى تحدث تقريباً على فترات شهرية إذا لم تكن المرأة حاملاً وفى ثقافات عديدة فإن الأهمية الرمزية تتعلق بالدم بوجه عام ودم الحيض بوجه خاص حيث ينظر إليه كتدنيس أو تلويث وخطورة ولكنه فى نفس الوقت يمثل رمزاً للخصوبة الكامنة فى المرأة. وتنظر اليه الشعوب البدائية برهبة لأنه أمر لا تستطيع تفسيره ولذا فقد أسس دوركايم Durkheim نظريته عن الطوطمية Totemism على أساس الخوف العام أو التحريم Toboo من الدم الحيض فمعظم الكلمات عنه يقصد بها الأشياء اللاإدراكية وما فوق الطبيعة والسرية والروح والرب(٤).

كما يعنى فى الكلمات العربية القديمة عدم الطهارة وكان يعتقد فى الثقافات القديمة أن السحر الخفى للخلق يستقر فى دم المرأة وأحياناً يبقى فى الرحم ليروب فى الطفل. وأنه يحمل روح السلطة الفعلية ووسيط لنقل الحياة للعشيرة أو القبيلة لدى الأشاندى وإن إنجاب الأناث يبعث سعادة أكثر من أنجاب الذكور لأنهن يحملن هذا الدم. والحيض الأول للفتاة قد يكون فرصة مناسبة لشعائر المرور التى تشير الى بلوغها النضج الأجتماعى والجنسى ويعرف فى الهند بزهرة الكولا Kula التى تتصل مباشرة بحياة العائلة.

وتتأثر الدورة الشهرية عند الأنثى البالغة من تفاعل الهرمونات بعضها مع البعض

ففي بداية الدورة يفرز الأستروجين بكميات قليلة وتزداد كمياته إلى حد أعلى وسط الدورة. أي أنطلاق البويضة من المبيض ثم تقل كميته وبعدها للأزدياد مرة أخرى تقل كميته كثيراً عند بدء الحيض. كما تزداد تزايداً سريعاً كميات هرمون آخر – وهو البروجسترون في حوالي منتصف الدورة ومثل هذه التقلبات في مستويات الهرمونات خلال كل دورة شهرية لابد أن تنتج تغيرات عاطفية. وهذا ما يحدث بالفعل إذ تتأثر شخصية الأنثى بتقلبات متوافقة مع التغيرات في مستويات الهرمونات خلال الدورة الشهرية غير أن شدة هذه التقلبات يمكن أن تخف بتأثير إتجاهات الناس الثقافية نحو عملية الحيض وأن الأعراض الفعلية التي تبدو بها هذه التغيرات تتأثر كثيراً بالثقافة وتجارب المرأة السابقة وأشهر هذه التقلبات العاطفية في شخصية المرأة هي حالة «التوتر السابق للحيض» وتبدأ هذه الحالة قبل بدء الحيض ببضعة أيام وتستمر حتى نهاية اليوم الأول أو الثاني منه. وفي بعض المجتمعات لا تكون أعراض هذه الحالة بارزة الوضوح. غير أن الكثيرات من نساء أمريكا الشمالية وأوربا يعانين في هذه الحالة من الأكتئاب والقلق وسرعة الغضب والحساسية الزائدة للاهانات الشخصية وأزدياد الحاجة إلى المودة والتقدير وقد وجد أن حوالي نصف الأناث اللواتي يدخلن المستشفيات يكن في هذه الحالة. أي قبل بدء الحيض ببضعة أيام. كما تشير الأحصاءات الى أن حوالي نصف الأناث اللواتي كن طرفاً في حوادث خطيرة يمكن في تلك الحالة أيضاً وأ حوادث الأنتحار وأعمال العنف عند النساء تكون في أعلى نسبتها خلال حالة التوتر تلك. ويمتد أثر القلق الذي يصيب المرأة في هذه الحالة الى بقية أفراد العائلة منعكساً عليهم.

وقد أتخذت بعض المجتمعات ظاهرة التقلبات العاطفية خلال الدورة الشهرية ذريعة لحرمان النساء من المناصب القيادية ولكن القول بأن الدورة الشهرية تقلل من قدرة الأنثى على التوصل الى قرارات حكيمة منطقية قول مظلل. ذلك أنه بالرغم من أن الدورة الشهرية حقيقة بيولوجية فإن الأتجاهات الثقافية نحوها يمكن تغييرها لتقلل آثارها العاطفية والجسمانية.

الموقف الثقافي من الحيض والحائض:

إن هناك معتقدات مصاحبة لدم الحيض شائعة في العالم ولديها صفة الخاصية للمجتمعات والثقافات الفرعية وخاصة في الأمريكيين ومنطقة جنوب شرق آسيا وأفريقيا وخاصة بغينيا وجميع المجتمعات القبلية وتتمثل في[٥]:

١- عدم الجماع الجنسي بالمرأة الحائض:

يعتقد أن الإتصال بالمرأة الحائض يمثل خطورة للرجل فقد يصيبه بالإلتهابات أو

بالسيلان ويذكر جوردنر أن الأمراض التناسلية تنتقل عادة من النساء إلى الرجال وليس العكس وفي القرنين التاسع عشر والعشرين سجل توميسون جوانب من تدنيس الأنثى متمثلة في الإتصال الجنسي والحيض وأثناء الإنجاب لكونهما المصدر الكامل القوى كخطر للرجال.

٢- عدم قيام المرأة الحائض بطهو الطعام:

هناك تحريم يفرض على المرأة الحائض في معظم المجتمعات القبلية والتقليدية ألا تطهو الطعام وألا تعد النار التي يطهو عليها بل لا يجوز لها أن تختبر ما إذا كان جاهزاً للتداول أم لا وفي النوبة فلا تحرم من طهي الطعام أو صنع الخبز فحسب بل ألا تلمس شيئاً من مأكولات زوجها ويطهي الطعام لها وتأكله بمفردها وبملعقة خاصة وتشرب من إناء خاص بها.

٣- العزلة في مكان مستقل اثناء فترة الحيض:

نمكث المرأة الحائض في كثير من المجتمعات في أكواخ خاصة أثناء دورة الحيض وليس هناك مجتمع بدون إعتقاد في ان دم الحيض يمثل خطورة للرجال أو ليس لديه أكواخ خاصة. حيث يفرض على المرأة الحائض وأيضاً التي على وشك الولادة والنفساء عزلة تكاد تكون املة أثناء فترات حيضهن أو ولادتهن ففي كل من أستراليا وبولنيزيا والبوشمن وهوتنتوت والقبائل الأصلية في الهند، توجد تحريمات صارمة على المرأة الحائض بأن تعزل في أكواخ الحيض ولا يسمح للرجال بدخولها كما أن لدى الهنود بأمريكا أكواخ خاصة للحائضات على بعد مسافات من القرية أو خارج حدودها وفي كل من مجتمع أيدو «أحدى المقاطعات الجنوبية في نيجيريا» وجوكون تعزل المرأة الحائض حتى تنتهي دورتها وأذا رغبت في الرحيل فعليها أن تتبع طريقاً خاصاً بها.

وفي توركانا بكينيا حيث يصمم باب خاص في الجدار الخارجي لكل القرى خلف كل كوخ لتستخدمه النساء أثناء دورة حيضهن كما توجد قواعد مشابهة لهذا أيضاً عند العرب وفي بعض الأحيان تحجز النساء ليس لحماية الأعضاء في المجتمع منهن، ولكن لحمايتهن أيضاً. ففي مجتمع نيتلد حيث يمثل العرافون والسحرة خطورة على المرأة الحائض فقد يستغلون تلك الفرصة لربط رحم المرأة بما يمنع حملها مرة ثانية ولذلك تعزل في أكواخ خاصة أثناء دورة الحيض ولذا فالأفكار عن الطهارة والتدنيس غالباً ما تستخدم لتحديد أنشطة الأنثى وأيضاً كأساس لأقوال أو لأحكام عن ترابط النساء وقوتهن وقيمتهن كما أنه يمكن أن يقوى التماسك بينهن حيث يجتمعن في

أكواخ الحيض للترويح أو للأسترخاء وكذلك للثرثرة والهزر ويخلقن عالماً متحرراً من سيطرة وتحكم الرجال.

٤ - عدم الأقتراب من أماكن معينة أو الدخول بها:

يحرم على المرأة الحائض الدخول فى الأماكن المقدسة والمعابد لعدم نظافتها وحتى لا تغضب الألهة لما تسببه من حدوث الأمراض.

وهذا التحريم لم يقتصر على الأماكن المقدسة فقط بل يمتد إلى أماكن عديدة متمثلة فى عدم دخولها على خلية نحل حتى لا يؤدى إلى موت العديد منه وألا تعمل فى الحقول خشية ألا تفسد المحاصيل وألا تدخل الأسواق لخوف البائعين على بضائعهم من دم الحيض. كما يفرض على المرأة الأسترالية ألا تذهب قرب المياه أو عبورها خلال تلك الفترة حتى لا يفزع السمك وتلحق ضرراً بالصيادين وألا تدخل حظيرة ماشية كما أن تلك التحريمات منتشرة فى المتمعات الحديثة ففى فرنسا يحرم على المرأة الحائض الأقتراب من مراكز تصنيع الخمر ومعامل تكرير السكر. ويمتد هذا التحريم الى عدم ممارسة أنشطة معينة معدم حلب الماشية فى مجتمعات مركب الماشية بدليل أنهم يسمحون للفتاة دون سن الحيض بجلب الأبقار كما لا يسمح لها بالأقتراب من رجل مجروح حتى لا تلوثه ولا المحارب وعندما يستعد للقتال وفى جزر الأندمان هناك إعتقاد مشابه لذلك بأنه إذا لمس رجل فتاة أثناء دورة حيضها فسينتفخ ذراعه كما تمنع من لمس أى غرض ذى قيمة ويقع عليها لوم إذا حدثت حادثة أو خسائر فى الممتلكات وألا تأخذ طريق الرجال عندما تسافر فى قبائل عديدة بأمريكا الشمالية.

ولكن تلك النظرة تختلف فى المجتمعات البدائية عن المجتمعات الحضرية. ففى الأولى ينظر للمرأة الحائض على أنها غير نظيفة وتفرض تحريمات صارمة إزاء إصطحابها فى تلك الفترة بينما فى الثانية تدرك الحيض كوظيفة بيولوجية عادية وطبيعية ولهذا فالتجارب البيوجنسية للمرأة من حيض وجماع وحمل وإنجاب ورضاعة كل هذا يتضمن تحدياً لحدود جسمها وفى علاقة بدمها ولبنها وللرجل الذى يجامعها وللطفل الذى يمثل جزءاً من جسمها فأنها لتجارب أو خبرات أنسانية جوهرية وذو أهمية أو معنى حقيقى وفى نفس الوقت للنساء فى كل مكان.

٥- عدم تناول أطعمة معينة أثناء الحيض:

يفرض على المرأة تحريم أطعمة معينة مع كل حيضة حتى يأتى سن اليأس فى بعض المجتمعات والثقافات كالأندمان والسود الأستراليين.

٦- إستخدام دم الحيض في بعض الممارسات الحيض:

إمتداد لما سبق قوله عن النظرة للحيض وللمرأة الحائض وما سوف يأتي ذكره الأن من ممارسات سحرية تستخدم فيها دم الحيض لدليل على مدى الأهمية الأجتماعية التى توليها كثير من المجتمعات والثقافات سواء التقليدية أو القبلية (لأسباب شعائرية أو تطهيرية) أو الحضرية للحيض ومدى خطورته ويتضمن هذا وصفها بالساحرة أو العرافة وأنه أحد أسلحتها الخاصة لكى تكبح جماح الزوج بما تستخدمه فى الأعمال السحرية وما تضعه فى طعامه. وأن إستخدام دم الحيض فى الممارسات السحرية لا يزال يستخدم حتى الأن فى بعض الثقافات الأسترالية(٦).

ثانياً: التعريف بالمراهقة:

ترجع كلمة «المراهقة» إلى الفعل العربى «راهق» الذى يعنى الأقتراب من الشيئ، مراهق الغلام فهو مراهق أى قارب الاحتلام، وأرهقت الشئ رهقاً أى قربت منه. والمعنى هنا يشير إلى الأقتراب من النضج والرشد. فالمراهقة تعنى الأقتراب من النضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى ولكنه ليس النضج نفسه لأن الفرد فى هذه المرحلة يبدأ بالنضج العقلى والجسمى والنفسى والاجتماعى ولكنه لا يصل إلى اكتمال النضج إلا بعد سنوات عديدة قد تصل إلى أكثر من عشرة سنوات. فهى المرحلة التى تبدأ من البلوغ وتنتهى فى مجتمعنا فى سن ٢٢ سنة وتختلف بداية هذه المرحلة وطولها باختلاف الشعوب والأجناس.

وعلى ذلك قسم العلماء مرحلة المراهقة إلى ثلاث مراحل:

١- المرحلة الأولى: والتى تبدأ من سن ١١ : ١٤ سنة وهى مرحلة اكتمال التغيرات البيولوجية.

٢- مرحلة المراهقة الوسطى: تبدأ من سن ١٤ : ١٨ سنة وهى مرحلة اكتمال التغيرات البيولوجية.

٣- مرحلة المراهقة المتأخرة: والتى تبدأ من سن ١٨ : ٢١ سنة وفيها يصبح الشاب أو الفتاة إنساناً راشداً فى المظهر والتصرفات.

كما يطلق اصطلاح المراهقة Addescence على المرحلة التى يحدث فيها الأنتقال التدريجى نحو النضج البدنى والجنسى والعقلى والنفسى ويخلط البعض بين كلمة المراهقة وكلمة البلوغ Puberty فلفظ المراهقة يعنى التدرج نحو النضج الجسمى والجنسى والعقلى والنفسى على حين يقصد بالبلوغ نضج الأعضاء الجنسية واكتمال وظائفها عند الذكر والأنثى.

وعلى ذلك يتضح لنا أن البلوغ يقصد به جانب واحد من جوانب المراهقة ويأتى قبل الوصول إلى مرحلة المراهقة.

وهناك علاقة بين نضج المراهق وبين العوامل البيئية كالتغذية والمناخ والأمراض. فأطفال المناطق الحارة يصلون إلى مرحلة المراهقة فى سن مبكرة عن أطفال المناطق الباردة كما أن هناك فرقاً يرجع إلى نوع السلالة التى ينتمى إليها الفرد فالشعب النوردى الذى يسكن الجزء الشمالى الغربى من أوروبا أبطئ من سكان حوض البحر المتوسط فى الوصول الى النضج الجنسى. فالمراهقة إذا ما هى إلا محصلة التفاعل بين العوامل البيولوجية والثقافية والاقتصادية التى يتأثر بها المراهق.

ولقد تناول كثير من الفلاسفة مرحلة المراهقة بالوصف على أنها مرحلة خطيرة حيث يرى أرسطو أن المراهقين تستهويهم النـزوات وعدوانيين ومن السهل إثارتهم وليس من السهل السيطرة عليهم وأنهم على استعداد بأن يذهبوا إلى آخر مدى بنزواتهم وآرائهم ويقولون أنهم على حق دائماً. بينما يرى أفلاطون أن المراهق يميل إلى الجدل في كل شئ وربما كان ذلك من أسباب الصداع بين بين الأجيال وخاصة بين جيل الآباء والأبناء أما عن رأى علماء النفس عن المراهقة فهى مرحلة تحيط بها كثير من المخاطر والمشكلات ولكن ليس بالضرورة أن تؤدى إلى ما قال عنه الفلاسفة وخاصة إذا توافر للمراهقين فى حياتهم الأسرية والمدرسية التوجية والإرشاد المناسب كى يتعلم ويختلط ويتعامل من الناس وكيف يتغلب على المشكلات التى تعترضه بطريقة يكتشف خلالها ذاته وقدراته وإمكاناته وأفضل الفرص المتاحة لأن يشق بنفسه طريق الحياة(٢).

الفرق بين المراهقة والبلوغ:

هناك بين بين البلوغ والمراهقة، والبلوغ يعنى بلوغ المراهق القدرة على الإنسال. أى اكتمال الوظائف الجنسية عنده وذلك بنمو الغدد الجنسية وقدرتها على أداء وظيفتها. أما المراهقة فتشير إلى التدرج نحو النضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى.

وعلى ذلك فالبلوغ ما هو إلا جانب واحد من جوانب المراهقة كما أنه من الناحية الزمنية يسبقها، فهو أول دلائل دخول الطفل مرحلة المراهقة ويشير ذلك إلى حقيقة هامة وهى أن النمو لا ينتقل من مرحلة إلى أخرى فجأة ولكنه تدريجى ومستمر ومتصل، فالمراهق لا يترك عالم الطفولة ويصبح مراهقاً بين عشية وضحاها ولكنه ينتقل إنتقالاً تدريجياً ويتخذ هذا الأنتقال شكل نمو وتغير فى جسمة وعقلة ووجدانه.

وجدير بالذكر أن وصول الفرد إلى النضج الجنسى لا يعنى بالضرورة أنه قد وصل إلى النضج العقلى وإنما علية أن يتعلم الكثير والكثير ليصبح راشداً ناضجاً. كما أن المراهقة هى عبارة عن طفرة فى النمو الجنسى والعقلى والاجتماعى والانفعالى الجسمى. كما أنها مرحلة البحث عن الذات (الهوية) من أنا؛ وماذا أريد؛ وهى مرحلة إتخاذ القرارات. كقرار الاختيار التربوى، الشريك والقيم.

وتلعب العوامل الوراثية والبيئية دوراً هاماً فى الأختلافات فى مظاهر النمو لدى الجنسين بإختلاف المكان والبيئة الجغرافية والإنماط المجتمعية من ريف وبدو وحضر.

وتختلف المدة الزمنية للمراهقة من مجتمع لأخر. ففى بعض المجتمعات تكون قصيرة وفى بعضها الآخر تكون طويلة.

ولذلك فقد قسمها العلماء الي ثلاث مراحل:

١- **مرحلة المراهقة المبكرة:** من سن ١١ : ١٤ عاماً وتتميز بتغيرات بيولوجية سريعة.

٢- **مرحلة المراهقة المتوسطة:** من سن ١٤ : ١٨ عاماً وهى مرحلة اكتمال التغيرات البيولوجية.

٣- **مرحلة المراهقة المتأخرة:** من سن ١٨ : ٢١ عاماً. حيث يصبح الشاب أو الفتاة إنساناً راشداً فى المظهر والتصرفات.

وعلى هذا يتضح من هذا التقسيم أن مرحلة المراهقة تمتد لتشمل أكثر من عشرة أعوام من عمر الإنسان(٨).

النمو الجسمي في مرحلة المراهقة:

فى هذه المرحلة تنمو الغدد الجنسية Sexualglands وتصبح قادرة على أداء وضائفها فى التناسل وهذه الغدد الجنسية عبارة عن المبيضين عند الأنثى ويقومان بإنحراز البويضات ويحدث الطمث عند الفتاة نتيجة لإنفجار البويضة الناضجة فى المبيض. ويحدث أول حيض للفتاة فى الفترة ما بين ٩-١٤ سنة ويتوقف تحديد هذا السن على عوامل سلالية وفسيولوجية ووراثية وبيئية ويطلق على مظاهر النضج الجنسى عند الفتيات بالصفات الجنسية الأولية. ولكن يصاحب النضح الجنشى ظهور مميزات آخرى يطلق عليها الصفات الجنسية الثانوية حيث تنمو عظام الحوض وتتخذ شكل حوض الأنثى استعداداً للحمل والولادة. واختزان الدهن فى الأرداف ونموهما ونمو شعر العانة وتحت الأبط وكذلك نمو أعضاء آخرى كالرحم والمهبل والثديين.

وتحدث دورة الحيض للفتاة كل ٢٨ يوماً. ولكنه ليس من الضرورى أن تحدث

بصورة منتظمة فى بداية مرحلة البلوغ إذ قد يتأخر ظهورها بعد ظهور أول حيض فترة تتراوح بين شهر وعام كامل ولكن لا ينبغى أن يثير ذلك أى شعور بالقلق. إذ أن ذلك أمر طبيعى وسوف تحدد الدورة إلى الأنتظام من تلقاء نفسها بعد اكتمال نضج الجهاز التناسلى وإلى جانب نضوج الغدد الجنسية فإن هناك بعض التغيرات التى تحدث فى إفرازات الغدد الصماء Endocrine glands وهى عبارة عن مجموعة من الغدد عديمة القنوات ولا تصب إفرازاتها خارج الجسم وإنما تصبه فى الدم مباشرة وإفرازات هذه الغدد عبارة عن مواد عضوية تسمى هرمونات Hormones . ففى مرحلة المراهقة يزداد إفراز الغدة النخامية من الهرمونات المنبهة للجنس بينما يحدث ضمور فى الغدد الصنوبرية والتيموسية. ومجمل القول نستطيع أن نقول إن النمو فى المراهقة يحدث على شكل تغيرات جسمية خارجية يستطيع أن يلاحظها المراهق نفسه كما يلاحظها المحيطون به ثم هناك تغيرات فسيولوجية داخلية تظهر فى وظائف الأعضاء. كما تمتاز مرحلة المراهقة بسرعة النمو الجسمى واكتمال النضج حيث يزداد الطول والوزن وتنمو العضلات والأطراف. ففى الفتاة يبرز الثديان نتيجة لنمو الغدد الثديية. كما تزداد الإليتان اتساعاً واستدارة نتيجة لنمو عظام الحوض وازدياد كمية الدهن تحت البشرة. ويتسع كتفا الفتاة وتنمو عليهما وعلى الذراعين بعض العضلات الثقيلة ويتحول صوت الفتاة المرتفع الدرجة إلى صوت رخيم منخفض الدرجة ولا يتخذ النمو معدلاً واحداً فى السرعة فى جميع جوانب الجسم كذلك تؤدى سرعة المو هذه الى فقدان المراهق القدرة على حركاتة ويؤدى ذلك إلى أضطراب السلوك الحركى لدى المراهق. كذلك يلاحظ زيادة افرازات بعض الغدد وضعف بعضها الآخر فالغدة الكظرية يزداد إفرازها ويؤدى ذلك إلى سرعة النمو فى العضلات وخلايا الأعصاب وعلى هذا تظهر قفزة سريعة فى النمو طولاً ووزناً فتبدو الفتاة أطول وأثقل من الفتى خلال مرحلة المراهقة الأولى. وكل ذلك ناجم عن التغير فى الهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء وخاصة الغدة النخامية والغدة الدرقية والأوريناليه والتناسلية.

وتظهر فى هذه المرحلة حب الشباب لدى بعض المراهقات نتيجة للإفرازات الدهنية الزائدة. مما يترتب عليه ظهور البقع السوداء لدى الفتاة. وهذه التغيرات الجسدية السريعة قد تحدث ارتباكاً للمراهقة بحيث أصبحت لا تستطيع السيطرة على أطرافها التى أصبحت غليظة بالإضافة إلى الخجل من بعض أجزاء برزت من جسدها وترجع أهمية هذه التغيرات العضوية من الناحية السيكولوجية الى ما لها من تأثير فى الوضع الأجتماعى للمراهقة وما يترتب على ذلك من إثارة اهتمامها بذاتها الجسمية

والنفسية. ودفعها إلى العمل على تغيير عاداتها وعلاقاتها وأنماط تكيفها بوجه عام. فقد أجرى لاثام La Tham بحثاً للكشف عن مدى الارتباط بين النضج البيولوجي وسلوك الزعامة لدى المراهقات بمدينة بتسبورج وتتراوح أعمارهن بين ١١، ١٧ سنة وقسم الزعامة إلى نوعين زعامة اجتماعية وزعامة رياضية وحاول أن يكشف عن أثر النضج البيولوجي في كل من هاتين الزعامتين، فأنتهى إلى أن له تأثيراً واضحاً في الزعامة الرياضية. أما في الزعامة الاجتماعية فليس له تأثير يذكر. وفي بحث نشره ديموك Dimock أنتهى إلى القول بأن الحالة الجسمية لدى المراهق مرتبطه بشعوره بكفاءته الشخصية، وأن المراهقة المعتدلة في نموها الجسمي أكثر قدرة على التكيف من المراهقة المتأخرة في النمو. فثمت إذاً ارتباطاً ما بين التغيرات الجسمية التي تطرأ على المراهقة وبين سلوكها الاجتماعي.

إن الملاحظة العابرة للمراهقة في أسرتها أو في مدرستها تكشف عن مدى تغير المعاملة التي تلقاها من الراشدين نتيجة لظهور هذه التغيرات الجسمية المصاحبة للمراهقة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الاستطالة المفاجئة للأطراف وتغير أبعاد الجسم بوجه عام يثير بذاتها في السلوك الحركي للمراهقة بعض الأضطراب حتى يعيد تنظيم عاداتة الحركية بما يلائم هذا النمو الجديد. وإذا تخيلنا أثر هذا الأضطراب الملحوظ في نظرات المحيطين بها. أمكن لنا أن نتصور الأثر العميق ويتلخص هذا الأثر في تنبيه «الشعور بالذات» إلى درجة بعيدة وبذلك تكون هذه الخبرات ذات المنشأ الجسمي هي الدافع الأول لنمو الفردية في المراهقة. لكنها ليست الدافع الأوحد. بل ربما لم تكن الدافع الرئيسي. إنما النواة التي تنسج البيئة الاجتماعية حولها مشاكل المراهقة. من ذلك يتضح أن التغيرات الفسيولوجية الداخلية والخارجية مسئولة بشكل مباشر أحياناً وبشكل غير مباشر أحياناً آخرى عند حالة القلق والأضطراب التي يجتازها المراهقة في بدء مراهقتها. كما أنها مسئولة عن ظهور حاجات ورغبات معينة لديها لا تلبث أن تؤثر في نظرتة للآخرين وتقيمها لهم فالمسألة إذاً مسألة مستوى ارتقائي في النمو البيولوجي للفرد تتفاوت شدة بروزه وحدة مشكلات التكيف التي ترتبط به من بيئة أجتماعية الى أخرى(٩).

النمو العقلي:

تتميز فترة المراهقة بنمو القدرات العقلية ونضجها. وتسير الحياة العقلية من البسيط إلى المعقد أي من مجرد الإدراك الحسي والحركي الى إدراك العلاقات المعقدة والمعاني المجردة. ففي مرحلة المراهقة ينمو الذكاء العام وكذلك تنضج الإستعدادات

والقدرات الخاصة وتزداد قدرة المراهق على القيام بكثير من العمليات العقلية العليا. كالتفكير والتذكر والتخيل والتعلم. ومن خصائص النمو العقلى أنه يظل مستمراً، حتى سن السادسة عشر ثم يتوقف هذا بالنسبة للطفل المتوسط أما متفوقوا الذكاء فإن نموهم يستمر حتى سن العشرين. ومن أبرز خصائص النشاط العقلى فى فترة المراهقة أيضاً أنه يأخذ فى البلورة والتركيز حول نوع معين من النشاط كأن يتجه المراهق نحو الدراسة العلمية أو الأدبية بدلاً من تنوع نشاطه وإختلاف اهتماماته وكذلك من خصائص هذه الفترة نمو قدرة المراهق على الأنتباه لمدة طويلة. كذلك تنمو القدرة على التعلم والتذكر، فبعد أن كان تذكره آلياً أى تذكراً يقوم على أساس السرد الألى دون فهم لعناصر الموضوع يصبح تذكيراً يقوم على أساس الفهم وعلى أساس ادراك العلاقات القائمة بين عناصر الموضوع الذى يتذكره. كذلك يقوم على أساس استنباط علاقات جديدة بين عناصر الموضوع وفى هذه المرحلة أيضاً يصبح خيال المراهق خيالاً مجرداً، أى مبنياً على أساس استخدام الصور اللفظية وعلى المعانى المجردة.

النمو النفسي والاجتماعي:

يتأثير النمو النفسى والاجتماعى للمراهق بالبيئة الإجتماعية والأسرية التى يعيش فيها فما يوجد فى البيئة الإجتماعية فى ثقافة وتقاليد وعادات وعرف واتجاهات وميول يؤثر فى المراهق، ويوجه سلوكه ويجعل عملية تكيفه مع نفسه ومع المحيطين عملية سهلة أو صعبة(١٠).

التغيرات الوجدانية:

أما التغيرات الوجدانية فتتصف بحدة الأنفعال حيث يغضب ويثور المراهق لأسباب تافهة كما يمتاز الأنفعال بالتقلب وسرعة التغير.

وبحكم نضج الوظائف الجنسية لدى المراهقات والمراهقين فإن الميل نحو الجنس الآخر يأخذ فى الظهور كذلك تتكون عاطفة توكيد الذات فى هذه المرحلة حيث يحدد المراهق لنفسه نمطاً معيناً من الشخصية ويبدأ فى الاعتداد بنفسه والثقة فيها فيهتم بهندامه وبمظهره ويدين المراهقين بالولاء الشديد لجماعة الأقران والأصدقاء ومما يميز الحياة الوجدانية لدى المراهقين الشعور بالشك والارتياب فى القيم الاجتماعية والدينية السائدة. ومصدر هذا الشك رغبة المراهق فى التحرر على السلطة الأسرية وسلطة المجتمع والسلطة الدينية، لأنه يريد أن يبنى لنفسه قيمة ومعاييره الشخصية التى تقوم على أساس أقتناعة هو لا أساس التلقين من الغير ويميل المراهق لا إلى نقد هذه القيم وحسب ولكن لنقد آبائه ومدرسية أيضاً محاولاً إيجاد الخطأ فى تصرفاتهم.

وهنا نجد أن كثيراً من التساؤلات تجول وتصول فى ذهنه عن أصل العالم وحقيقة الكون وجوهر الألوهية وحقيقة الرسل وغير ذلك من المسائل الميتافيزيقية ويعترى المراهق حالات من القلق والتوتر والشك نتيجة لرفضة القيم التى سبق ان تلقاها وقبلها قبولاً عن طيب خاطر فى المرحلة السابقة. ويظل على هذا الحال حتى ينتهى به الأمر إلى الإيمان والوصول الى تكوين وأى نهائى فى المشكلات التى أزعجته. كما تتسع حاجات المراهق وتزداد فيصبح فى حاجة الى التقدير الأجتماعى.

مشكلات المراهقة وعلاجها:

ومن أهم المشكلات التى يعانيها المراهق الأصابة بأمراض النمو مثل فقر الدم وتقوس الظهر وقصر النظر، وذلك مرجعه أن النمو السريع المتزايد فى جسم المراهق يتطلب ذلك تغذية كاملة وصحية حتى تعوض الجسم وتحده بما يلزمه للنمو. وفى الغالب ما لا يجد المراهق الغذاء الصحى الكامل الذى يتوفر فيه جميع عناصر الغذاء الجيد. ولذلك يصاب ببعض هذه الأمراض. ولذلك يجب العمل على توفير الغذاء الصحى الكافى للمراهق أما حالات تقوس الظهر فإنها تنتج من العادات السيئة فى ثنى الظهر والإنحناء أثناء الكتابة والقراءة. وكذلك قصر النظر ينتج من أتباع عادات سيئة خاصة بالقراءة عن قرب. ولذلك يجب تنبيه المراهق إلى أضرار هذه العادات ومساعدته على تجنبها.

ومن أبرز المشاكل التى تظهر فى مرحلة المراهقة الأنحرافات الجنسية مثل الجنسية المثلية أى الميل الجنسى لأفراد من نفس الجنس وعدم التوافق مع البيئة، وانحرافات الأحداث من اعتداء وسرقة وهروب تحدث هذه الانحرافات نتيجة لحرمان المراهق فى المنزل والمدرسة من العطف والحنان والرعاية والاشراف وعدم اشباع رغباتة. وكذلك نتيجة لعدم تنظيم أوقات الفراغ.

كذلك من المشكلات الهامة التى تظهر فى المراهقة ممارسة العادة السرية نتيجة لنضج الغدد الجنسية واكتمال وظائفها ولا ينبغى أن يكون توجيه المراهق للابتعاد عن هذه العادة قائماً على أساس التخويف والتهويل فى اضرارها ولكن ينبغى أن يكون أساسه التبصير المستنير والاقناع والتسامى بها Sublimation وتحويلها إلى أنشطة إيجابية بناءة. كما يمكن التغلب عليها عن طريق توجيه اهتمام المراهق نحو النشاط الرياضى والاجتماعى.

وينتج عن النمو السريع فى أعضاء جسم المراهق أحساسه بالخمول والكسل والتراخى، كذلك يؤدى سرعة النمو إلى أن تصبح المهارات الحركية عند المراهق غير

دقيقة فقد تسقط من يد المراهـق الكوب التى يحملهـا دون ان يكون ذلك نتيجة أهمـال أو تقصير ومع ذلك يلقى الكثير من اللـوم والتأنيب من جانب الكبار.

ومن بين المشكلات النفسية أيضاً التى تظهر فى المراهقة أنه كثيراً ما يعترى المراهق حالات من اليأس والحزن والألم التى لا يعرف لها سبباً فالمراهق إذا تصرفوا كأطفال سخر منهم الكبار وإن تصرفوا ككبار انتقدوا أيضاً. وعلاج هذه الحالة يكون بقبولهم فى مجتمعات الكبار واتاحه الفرصة أمامهم للأشتراك فى مناشطهم وتحمل المسئوليات التى تتناسب مع قدراتهم.

ومن المشكلات التى تتعرض لها الفتاة في هذه المرحلة شعورها بالقلق والرهبة عند حدوث أول دورة من دورات الطمث فهى لا تستطيع أن تناقش ما تحس به من مشكلات مع المحيطين بها من أفراد الأسرة، كما أنها لا تفهم طبيعة هذه العملية ولذلك تصاب بالدهشة والقلق. إن إحاطة الأمور الجنسية بهالة من السرية والكتمان والتحريم تحرم الفتاة من معرفة كثير من الحقائق التى يتمكن أن تعرفها من أمها بدلاً من معرفتها من مصادر أخرى.

ومن الملاحظ فى هذه المرحلة أن الفتاة يعتريها الخجل والحياء وتحاول إخفاء الاجزاء التى نمت فيها عن أنظار المحيطين، وينتج عن تعليقاتهم على مظاهر النمو هذه وعلى التغيرات الجديدة شعور الفتاة بالحياء والخجل وميلها للانطواء أو الإنسحاب ولذلك ينبغى أن ينظر الكبار لهذه التغيرات على أنها أمور طبيعية وعادية.

ومن المشكلات الوجدانية فى مرحلة المراهقة الفرق فى الخيالات وفى الأحلام اليقظة التى قد تسغرق وقته وجهده وتبعدة عن عالم الواقع. كذلك يميل المراهق والمراهقة إلى فكرة الحب من أول نظرة فيقع أو تقع فى حب معتقد أن هذا حب حقيقى ودائم ولكنه فى الواقع ينقصه النضج والاتزان وكثيراً ما تنتهى الزيجات التى تتم فى سن مبكرة بالفشل لأنها لا تقوم على أساس من النضج الوجدانى ولا تستند إلى المنطق السليم.

كذلك تتمتاز المراهقة بحب المخامرات وارتكاب الأخطار ويمكن توجيه هذه النزعة نحو العمل والرحلات والاشتراك فى مشروعات الخدمة العامة.

وفى العصر الحالى ظهرت نزعات وفلسفات تتصف باللامبالاة عند المراهقين الأوربين كما هو الحال فى جماعات الهيبز وغير هذا وليست هذه السلبية إلا تعبيراً على ثورة الشباب وسخطه على المجتمع.

وعلى كل حال فإن المراهق يميل إلى التقليد الأعمى وإلى البدع والموديلات الجديدة ولذلك ينبغى توجيه المراهقين وجهة ايجابية تتفق مع فلسفة المجتمع العربى وأهدافه.

كذلك يقع على رجال الدين والثقافة والاعلام مسئولية تزويد المراهقين بالحقائق والمعلومات المقنعة التى تثبت إيمانهم وتحميهم من نزعات الإلحاد والشك.

ويعبر الدكتور أحمد عزت راجح عن الصراعات التى عانى منها المراهق على هذا النحو:

١- صداع بين مغريات ا لطفولة والرجولة.

٢- صداع بين شعوره الشديد بذاتة وشعورة الشديد بالجماعة.

٣- صداع جنسى بين الميل المتيقظ وتقاليد المجتمع أو بينه وبين ضميرة.

٤- صداع دينى بين ما تعلمه من شعائر وبين ما يصوره له تفكيرة الجديد.

٥- صداع عائلى بين ميله إلى التحرر من قيود الأسرة وبين سلطة الأسرة.

٦- صداع بين مثالية الشباب والواقع.

٧- صداع بين جيله والجيل الماضى.

وقد تزخر مرحلة المراهقة عند الشعوب المتحضرة، بكثير من الأزمات النفسية والمشاكل السلوكية. خاصة فى شطرها الأول الذى يلى مرحلة الطفولة، ثم تخفت حدة هذه الأزمة تدريجياً حتى يصل المراهق السوى فى نهايتها إلى درجة كافية من الأتزان الأنفعالى والنضج الاجتماعى ومن علامات هذه الأزمة.

١- شعور المراهق بالخوف والقلق لأنه قادم على عالم جديد يجهله، وليس لديه من الحكمة والخبرة ما يستطيع به أن يشق طريقة فيه. ثم أنه يخشى طغيان دافعه الجنسى فيفلت الزمام من يده.

٢- تقلبات مزاجية ظاهرة: فإذا بالمراهق يترجح سريعاً بين التحمس والفتور، بين الأقدام والأحجام، بين السيطرة والخنوع، بين الخشونة والميوعة، بين الرحمة والقسوة، بين المحافظة والتطرف، بين الروية والاندفاع، بين الضحك والبكاء دون سبب واضح.

٣- ظهور مشكلات سلوكية من أخطرها التمرد والعدوان أو الأنسحاب والهرب المادى أو النفسى من العالم.

ولا نريد أن نقول أن كل مراهق يمر بأزمة على هذه الدرجة من الشدة فمن المراهقين من يستجيب لمرحلة المراهقة استجابة واقعية موفقة لا افراط فيها ولا

تفريط. انما يتوقف نوع الأزمة وشدتها على عوامل كثيرة منها الاستعداد الفطرى للمراهق ونوع التربية التى يتلقاها فى الطفولة وبجانب هذا كله تتمثل إحدى المشكلات الأعظم أهمية فيما يتعلق بالتصنيفات العمرية النوعية فى المعالجة الإجتماعية للمراهقين ونحن نجد بصورة أو بأخرى فى المجتمعات الإنسانية مصطلحاً خاصاً يعبر عن تلك الفترة (فترة المراهقة) أو يثبت الإعتراف بها فى أبنيتها الإجتماعية، ويبرز هذا إلى حد بعيد مادامت هناك بينات متزايدة على أن هذه الفترة المتمايزة فى دورة الحياة هى فترة مميزة لها خصائصها وسماتها الفسيولوجية الخاصة.

ونجد فى هذا المجال أن أعمال ميلز Mills بعنوان «العقم الفسيولوجى للمراهقة» وأعمال أشلى مونتاجيو Ashley - montague بعنوان «المجئ إلى الوجود بين سكان أستراليا الأصليين» قد بينت أنه فى حالة على الإنجاب وهى فترة عقم قد تستمر طويلاً لما يقرب من ثلاث سنوات وهكذا فإن الطبيعة تتيح فى بعض المجتمعات الإنسانية فترة زمنية للتودد إلى الجنس الآخر وتحسس الخبرة الجنسية التى تعوقها محاذير حدوث الحمل وما يرتبط به من مسئوليات.

ولأهمية تلك النقطة بالنسبة لنمو شخصية الفرد والتكيف الاجتماعى الناجح كبالغ. يبدو من المثير للعجب أننا لا نجد فى كل المجتمعات إعرافاً رسمياً بتلك الفترة التى تفصل بين بداية البلوغ الجنسى وظهور القدرة على الإنجاب فى إنساق فئاتها العمرية النوعية.

ومهما يكن من شئ فإننا نجد نوعاً من الأختيار المفروض فى المجتمعات المختلفة بين قبول حقيقة وإحلال القدرات التى تنطوى عليها تلك الفترة منزلة خاصة. وتصنيف المراهقين فى فئة معينة من بينها المجتمع. وهو ما نجده مثلاً فى بولينيزيا حيث يميز المراهقون بشكل قاطع عن فئتى الصبية والبالغين وهم يعفون من كثير من المسئوليات الاجتماعية والأقتصادية وكذلك الفتيات. وهذا يعنى أن هناك وضعاً متمايزاً لمرحلة المراهقة فى الهيئة الإجتماعية، ويتشابه هذا الوضع بصورة أو بأخرى مع ما نجده على الأقل فى الطبقات العليا فى المجتمع الأمريكى حيث نجد الأدوار الاجتماعية لخريجى الجامعة تتفق فى مدى مسئولياتها مع ما يناط بفئة العمر المعروفة بمصطلح Kaioi فى جزر بولينيزيا.

ولكننا بوجه عام نلاحظ أن الاعتراف بالمراهقة والمراهقين كفئة متمايزة وأن التحديد الثقافى لوظائفهم وتحديد إتجاهات البالغين تجاههم لا يزال يتطلب مزيداً من التقصى فى الدراسات الأنثروبولوجية المقبلة.

ولكننا نستطيع القول بأننا نجد فى المجتمعات التى ترفض أن تعترف رسمياً بالمراهقة أن الرفض يأخذ واحدة من صورتين. حيث نجد مركز الفتى والفتاة بأنماط خضوعه وإعتماده على البالغين قد يتسع (إلى أعلا) ليتضمن فترة المرهقة، أو نجد أن مركز البالغ مع تعدد التزامات الإجتماعية قد يمتد (إلى أدنى) ليشمل تلك الفترة. والمثال الواضح للحالة الأولى يأتى من تلك المجتمعات التى نجد فيها الأشخاص الصغار وهو ما يصدق على البنات أكثر من البنين – يظلون فى حالة من الأعتماد على الأبوين. خاضعين لسيطرتهم الصارمة حتى يحين وقت الزواج وهو ما يبدو بصورة جلية فى الثقافات الإسلامية. أما الحالة الثانية فهى تتمثل فى تلك المجتمعات التى يتوقع فيها من الطفل أن يضطلع بمسئوليات البالغين منذ لحظة البلوغ وهو ما يمكن رؤيته مثلاً فى بعض المستويات الدنيا فى المجتمع الأمريكى. وهناك الكثير من الإجراءات الطقوسية التى تقوم عند إنتقال الأفراد من فئة الصبية إلى فئة المراهقين ولعلة من الواجب أن نبرز هنا أن طقوس البلوغ تعبر عن الأنتقال إلى فئة المراهقين وليس الدخول فى فئة البالغين. كما يتوقع من الفتيات أثناء فترة حيضهن الأول أن تعملن بجد غير عادى فى مجالات العمل النسائية.

ونحن نجد فى المجتمع الأمريكى مثلاً أن الأدوار المتغيرة للإناث فى مرحلة الطفولة المبكرة حتى الزواج لا تبين عن نقاط تغير أو اختلاف مفاجئ ولكنها على العكس تماماً. حيث نجد أن الإنتقال الحاد يأتى مع الزواج والمسئوليات الاجتماعية العليا بتحولات حادة مماثلة. حيثما يتركن كلياً فهن الجامعية ويواجهن التنافس القاتل فى مجالات العمل الحديثة[11].

أنواع المراهقة:

الواقع أنه ليس هناك نوع واحد من المراهقة فلكل فرد نوع خاص حسب ظروفه الجسمية والاجتماعية والنفسية والمادية وحسب استعدادته الطبيعية فالمراهقة تختلف بأختلاف الأنماط المجتمعية فهى فى الريف تختلف عن المدنية تختلف عن الحضر كما أنها تختلف من بيئة جغرافية إلى آخرى ومن سلالة إلى سلالة، وفى المجتمعات البدائية عنها فى المجتمعات الحديثة. كما تختلف فى المجتمع المتزمت الذى يفرض كثيراً من القيود والاغلال على نشاط المراهق عنها فى المجتمع الحر الذى يتيح لمراهق فرص العمل والنشاط. وفرص إشباع الحاجات والدوافع المختلفة، وعلى ذلك فهناك أشكال مختلفة للمراهقة منها:

١ – مراهقة سوية خالية من المشكلات والصعوبات.

٢- مراهقة إنسحابية حيث ينسحب المراهق من مجتمع الأسرة ومن مجتمع الأقران ويفضل الأنعزال والانفراد بنفسه حيث يتأمل ذاتة ومشكلاته.

٣- مراهقة عدوانية حيث يتسم سلوك المراهق فيها بالعدوان على نفسه وعلى غيره. من الناس والأشياء.

الوضع القيمي والثقافي للمراهقين في بعض المجتمعات:

لقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر فى دراسة مشكلات المراهقة وإن كانت معظم تلك الدراسات تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية وبخاصة دور العائلة فى هذه العملية المعقدة والدور الذى يلعبه الوالدان بالذات فى تربية المراهق وفى اعداده وتشكيله لنمط الحياة فى المجتمع الحديث. كذلك أهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية المراهق وأختلاف الأدوار التى يضطلع بها. والأوضاع التى قد تؤدى إلى انحرافات السلوك لدية. والملاحظ أن معظم الكتابات السوسيولوجية التى تعالج هذه المسائل متأثرة إلى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسى. وإن كان ثمة اتجاه قوى الآن إلى دراسة التنشئة الاجتماعية على أنها عملية تفاعل اجتماعى بكل معانى الكلمة فهى ليست مجرد عملية تلقين أو توجية وتدريب من الكبار للمراهقين. فإن علماء الاجتماع الآن يرون أن هذه العملية لا يمكن أن تؤدى إلى أن يفقد المراهق شخصيته وفرديته. لأن كل مراهق يولد مختلفاً عن غيره من الناحية الفيزيقية. كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماماً عن تلك التى يتعرض لها غيره من المراهقين.

وعلى أية حال، فإنه يمكن القول إن علماء الاجتماع فى مجموعهم يحرصون فى كتاباتهم حول هذا الموضوع على إبراز أثر الظروف والأوضاع الاجتماعية على سلوك المرهقين وتأثرهم بأعضاء المجتمع الآخرين وتأثيرهم فيهم ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسيولوجية تعالج موضوعات مثل أثر العائلة وأثر المدرسة فى المراهقين والعوامل المؤثرة فى سلوكهم كالعنف والتسامح فى التربية وقد أدت هذه الدراسات كلها فى آخر الأمر إلى ظهور سوسيولوجيا التربية أو علم الاجتماع التربوى الذى يحتل فى الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الأجتماع.

وأخيراً فقد أفلح علماء الأنثروبولوجيا فى أرتياد مجالات جديدة وطريقة فى دراسة مشكلات المراهقة وذلك حين بذلوا كثيراً من الجهد والاهتمام بدراسة عمليات التطور الاجتماعى للفرد فى المجتمعات التقليدية. ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان أهمها الاتجاه الذى يعنى بدراسة المراحل

الاجتماعية التى يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد. وبخاصة فى المجتمعات القبلية التى يعتمد تنظيمها الاجتماعى على عامل السن اعتماداً مباشراً، بحيث يتوزع جميع أعضاء المجتمع فى فئات متمايزة كل التمايز، وبحيث تضم كل فئة منها الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة أو طبقة عمرية واحدة. ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة. ويمارسون معاً نوعاً محدداً من النشاط الاجتماعى أو الاقتصادى يتفق مع عمر أفرادها ومع قدراتهم الفيزيقية ويعرف هذا النظام باسم «نظام طبقات العمر». وعلى هذا تعتبر المراهقة فى مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة. تتميز بإرتباط المراهق عموماً بمجتمع النساء كما أن المراهق ينتقل إلى مرحلة الشباب أو البلوغ بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها دراته الجسمية وهى الشعائر المعروفة «بشعائر التكريس». وهذا معناه أن مرحلة المراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية أو فسيولوجية وإنما هى فى المحل الأول مرتبة اجتماعية محددة. والأتجاه الرئيسى الثانى الذى اتجهت إليه بحوث الأنثروبولوجيين فى دراسة المراهقة وأفلحوا فى الإسهام فيه إسهاماً وافراً هو الدراسات المقارنة التى تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة فى معاملة المراهق فى مختلف الشعوب والثقافات وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك وأختلاف نظرة المجتمع ككل إلى كل منهما. والمتاعب أو المشكلات التى يقابلها المراهقين مع الأهتمام بإبراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات. وكانت كتابات العالمة الأمريكية مارجريت ميد Margaret Mead هى أشهر هذه الإسهامات. فكتابات ميد. كما يقول إيڤانز بريتشارد - كتابات «أنثوية بمعنى الكلمة» وعلى الأخص كتابها الشهيد عن «البلوغ فى مجتمع ساموا» Coming of age in Samoa وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيات فى هذا المجتمع البدائى وفى المجتمع الأمريكى الحديث. فالكتاب يهدف فى أساسه الى أن يبين أن مشكلات المراهقة عند الفتيات التى تعتبر ظاهرة عامة أساسية فى الحياة الأمريكية لا توجد فى ساموا. وأن ظهورها يلازم نوعاً معيناً من البيئة الاجتماعية، بمعنى أنها لا تنشأ عن الطبيعة. وإنما تنجم عن القيود التى تفرضها الحضارة الحديثة. وعلى ذلك تشرع ميد فى دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التى تصاحب مراهقة الفتاة فى كلا المجتمعين. وقد أضطرها ذلك إلى ذكر كل ما تعرفة عن الوضع الإجتماعى المحلى الكبير - ولكنها تحرص أشد الحرص أثناء ذلك كله على أن تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكى تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفتاة المراهقة. ونوع رد الفعل الذى يصدر عن هذه الشخصية إزاء التغيرات الفسيولوجية التى يحدثها البلوغ.

والنتيجة التى تنتهى إليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هى أنه لا توجد فوارق بين الفتاة الأمريكية والفتاة الساموية فى عملية المراهقة ذاتها. وإنما تكمن الفوارق والاختلافات فى الاستجابة لها. فالمراهقة فى ساموا تطور رتيب منظم للميول والاهتمامات ومختلف أنواع النشاط. ولا ينجم عنها أى إجهاد أو كرب أو أزمات وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الأهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة. فلا تراودها التأملات ا لفلسفية أو المطالب الجامعة التى يصعب تحقيقها. والواقع أن الفتاة هناك لا تصمح فى أكثر من أن يعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع أكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين، ثم تتزوج من بعد ذلك فى نفس قريتها لتعيش مع أهلها وأقاربها وتنجب عدداً كبيراً من الأطفال.

وعلى العكس من ذلك تماماً تعانى الفتاة الأمريكية المراهقة كثيراً من الإرهاصات والتوتر والإجهاد بسبب اختلاف بيئتها الإجتماعية. فما هى إذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين؟

تعتقد ميد أن أهم الفوارق يرجع إلى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة فى ساموا. فالفتاة الساموية لا تهتم لإنسان معين أو لشئ معين اهتماماً بالغاً شديد العمق. كما أنها لا تبنى آمالاً عريضة على أية علاقة واحدة بالذات. وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن الفتاة لا تنشأ هناك فى محيط العائلة الضيق المحصور، وإنما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر فى محيط الأقارب الواسع الرحب، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الأشخاص، ولا تنحصران فى أفراد العائلة وحدهم. ولكن الأهم من ذلك هو أن الثقافة السائدة فى ساموا ثقافة متجانسة إلى حد بعيد. فهم جميعاً يتبعون نفس معايير السلوك، ويعتنقون نفس المعتقدات الدينية، ويخضعون لنفس القانون الخلقى. وعلى ذلك فليس هناك أى مجال للمفاضلة أو الأختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصداع الداخلى الذى يدور فى النفس عادة أثناء عمية الاختيار بين القيم المختلفة، وما يترتب على ذلك الصداع من سوء التوافق ومن الغصابات.

أما الفتاة الأمريكية المراهقة فإنها على العكس من ذلك تجابة فى بيئتها الأجتماعية أنواعاً عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة، مما يضطرها إلى المفاضلة وإلى الأختيار. والاختيار هو مقدمة الصداع والنضال.

وعلى هذا يمكن القول أن النمو الجنسى الذى يحدث فى المراهقة ليس من شأنه أن يؤدى بالضرورة إلى حدوث أزمات للراهقين، ولكن للت التجارب على أن النظم

الإجتماعية الحديثة التى يعيش فيها المراهق هى المسئولة عن حدوث أزمة المراهقة. وهذا ما أثبته الأبحاث التى أجرتها مارجريت ميد فى المجتمعات البدائية أن المجتمع هناك يرحب بظهور النضج الجنسى، وبمجرد ظهوره يقام حفل تقليدى ينتقل بعده الطفل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة مباشرة وكذلك الفتيات ويسمح لهم بالزواج وتكوين الأسرة ومن ثم يتمكن من اشباع الدافع الجنسى بطريقة طبيعية. وذلك تختفى مرحلة المراهقة فى هذه المجتمعات البدائية الحالية من الصراعات التى يقاس منها المراهق فى المجتمعات المتحضرة.

فالأنتقال من الطفولة إلى النضوج الكامل فى المجتمعات البدائية انتقال مباشر. أما فى المجتمعات المتحضرة فقد اسفرت الأبحاث على أن المراهقة قد تتخذ أشكالاً مختلفة حسب الظروف الإجتماعية والثقافية التى يعيش فى وسطها المراهق. وعلى هذا فالرأى السائد فى أوائل العقد الثالث من القرن الماضى أن أزمة المراهقة شديدة العنف دائماً بغض النظر عن الظروف الاجتماعية المحيطة بالمراهق وكانت التغيرات الفسيولوجية تحتل المكانة الأولى فى تعليل جوانب هذه الأزمة. إلى أن ظهرت بحوث مارجريت ميد وغيرها من الأنثروبولوجين الاجتماعين فى حياة الشعوب البدائية وعاداتهم ونظم التربية لديهم. فأتاحت هذه البحوث للنظرة المقارنة أن تعم وتستشفى أثر البيئة الاجتماعية ومدى نسبية الآراء السابقة حول سيكولوجية المراهقة. إلا أن ذلك أغرى بعض الباحثين بالتضخيم من شأن البيئة الاجتماعية على حساب العوامل الفسيولوجية بشكل تبين فيما بعد أنه ينطوى على كثير من سرعة التعميم(١٢).

فقد ذهب كلينبرج Klineberg فى معارضته لرأى استانلى هول إلى حد القول بأن فى بعض المجتمعات البدائية مثل مجتمع ساموا لا تكاد تواجه الفتاة المراهقة أى صداع أو أضطراب وأنها لتجتاز مرحلة المراهقة فى يسر وهدوء نحو وضع اجتماعى جديد. وقد استند الباحث فى رآية لما ورد عن مارجريت ميد كما ذكرنا. إلا أن مارجريت ميد قد أوردت نصوصاً آخرى لا تبيح هذا الاستنتاج، بل تشير إلى أن المراهقة فى هذه المجتمعات يعتريها بعض صنوف الصداع. وإن لم تكن مماثلة فى شدتها وتعقدها لما تتعرض له المراهقة فى مجتمعات الحضارة الغربية. ففى مجتمع الأرابش Arapesh يتعرض المراهقون لبعض الصداعات التى لا تخفى مظاهرها رغم أن حياة هذا المجتمع يسودها بشكل عام انخفاض فى مستوى التوترات. ويندر أن تظهر فيه اتجاهات عدوانية. وكذلك الحال بالنسبة للمراهقين فى مجتمع التشامبولى Te-chambuli ولو أن نصيب الفتيات من الصراعات أقل من نصيب الفتيان منها. لأسباب

تتعلق بنمط النظام الاجتماعى السائد. فمن هذين المثالين ومن أمثلة أخرى تتضح سرعة التعميم فى الرأى الذى ذهب إليه كلينبرج[١٣] .

إن هناك ميلاً للتمييز بشكل أكثر دقة بين جماعات العمر من الذكور بالمقارنة بالإناث، وربما كان هذا إنعكاساً لما يحتله الرجال من منزلة أكبر وأهمية اجتماعية أبعد مدى فى المجتمعات البدائية. وبجانب هذا كله فإننا نجد إرتباطاً ضئيلاً بين الأعمار الت يحدث عندها الانتقال من فئة إلى آخرى من الذكور والإناث. فيما عدا أن الدخول فى فئة البالغين يميل الى الوقوع فى عمر مبكرة بالنسبة للإناث فى مقارنتهم بالذكور.

وعلى الرغم من أن هناك تفسيراً فسيولوجيا واضحاً لهذه الحقيقة فإن هناك عوامل أخرى قد تتدخل أيضاً. فمن المفهوم طبعاً أن دور الذكر البالغ باعتباره المسئول عن توفير الحاجات المعيشية للأسرة ورئيسها سوف يتطلب عادة درجة أعلى من النضج والخبرة. بالمقارنة بما يتطلبه دور الزوجة. وإن البداية التى يمكن ملاحظتها بسهولة للنضج الجنسى بين الإناث هى دائماً بصورة أو بأخرى علامة على الدخول فى تلك الفئة. وهو ما يصدق حتى فى المجتمعات التى لا تعتبر أن هناك فئة مميزة للمراهقين. حيث نجد أن تحول الأنثى من مركز الصبية إلى «بالغة» يتأخر عادة حتى ولادتها لطفلها الأول.

ولعلنا نجد حتى فى هذه الاختلافات الأولية أن هناك عوامل ثقافية، كما أن هناك عوامل فسيولوجية معترف بها. وتبدو العوامل الثقافية بوجه خاص ذات دلالة واضحة فيما يتعلق بفئة الطفولة التى ترتبط بصفة أولية بذلك الإعتماد الكلى على البالغين حيث يكون الأفراد فى تلك الفئة العمرية لا حول لهم ولا قوة. وتبدو الاختلافات الجنسية ذات أهمية ضئيلة فى تلك المرحلة. وهى حقيقة تنعكس فى معظم المصطلحات المستخدمة فى مناداة أفراد الفئات العمرية النوعية حيث يبدو أن كل اللغات تقريباً تشتمل على لفظ محايد «بلا جنس» للوليد يقابل مصطلح Baby فى اللغة الإنجليزية. ومع أنه توجد مصطلحات خاصة بالأطفال الذكور والإناث فإن ذلك المصطلح المحايد هو الغالب فى معظم الاستعمالات الشعبية. ونجد فى كل المستويات الأعلى فى سلسلة الفئات العمرية النوعية أن التمايز بين المصطلحات الخاصة بكل من الجنسين يبدو عالمياً من الناحية العملية محددة بعوامل ثقافية وأيضاً بيولوجية ومن ثم فإن الأولاد والبنات فى مرحلة ما قبل التعميد يختلفون قليلاً فى إمكانياتهم الفسيولوجية المحددة للعمل والمشاركة الإجتماعية والسبب الأول الذى يرجع إليه يتمايزهم فى كل الأنساق التصنيفية يتمثل فى أنهم يخضعون إبتداء من نهاية مرحلة الطفولة المبكرة In-

facy لتمرينات خاصة مكرسة لإعدادهم لأدوارهم المتنوعة كبالغين ومن ثم فإن تمايز فئات الصبية يبدو تابعاً للاختلافات الفسيولوجية الثقافية بين الجنسين التى تأتى مع البلوغ.

الإتجاهات الرئيسية في تفسير المراهقة:

١- الاتجاه ا لبيولوجي:

يركز هذا الاتجاه على المحددات الداخلية للسلوك. وصاحب هذا الاتجاه ستانلى هول والذى يرى أن المراهقة مرحلة تغير شديد مصحوبة بالضرورة بالتوترات وتكتنفها الأزمات النفسية وتسودها المعاناة والاحباط والصداع وصعوبة التكيف وان التغيرات الفسيولوجية هى العامل الأساسى فى خلق تلك التوترات والصعوبات أى أن صورة المراهقة تفرضها طبيعة النمو وبالتالى يتشابه سلوك المراهقين جميعاً وهى مرحلة ميلاد جديد من وجهة نظر هول.

٢- الاتجاه الأنثروبولوجي:

يركز هذا الاتجاه على المحددات الخارجية للسلوك والمحددات الاجتماعية والثقافية والقيم. وصاحب هذا الاتجاه روث بوكث وميد حيث درست ميد المجتمعات البدائية مستخدمة أسلوب الملاحظة المباشرة للمراهقات وذلك فى قبائل ساموا والأرابيش، وتشمبولى ومؤداها أن المراهقة تتكون وتتشكل بالبيئة الاجتماعية.

٣- الاتجاه المجالي:

ويركز هذا الاتجاه على التفاعل بين المحددات الداخلية والخارجية للسلوك ويتزعم هذا الاتجاه كيرت ليفين ويركز بوجه عام على عامل الصداع أثناء الانتقال من الطفولة الى الرشد. أى من مجال معروف إلى مجال مجهول. حيث يصور كيرت المراهقة بأنها فترة تغير فى الانتخاذ للجماعة ومن طفل إلى مشروع راشد، فلا يستطيع اللعب، ويرتبط بعادات الجماعة وتقاليدها أو هو مجال غير واضح له حتى يسير أغواره وهذا النقص يجعله فى مجال معروفى غير ثابت ويشعره بعدم الآمان بالإضافة إلى فترة التغيرات الفسيولوجية بحاجاتها وإهتماماتها ورغباتها. ويدخل المراهق عالم الكبار بكل تناقضاتة وصراعاتة وقيمة وآرائة ويشبه كيرت المراهقة بالمرحلة الهامشية التى تقف بين حدود الجماعتين «جماعة الأطفال» و «جماعة الكبار» غير متأكد من إنتمائه لأحدهما.

كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الأهمية البالغة

التى تحظى بها الآن مشكلات المراهقة فى مجال العلوم الاجتماعية من ناحية. كما تعكس من الناحية الآخرى مدى الاهتمام العام وبخاصة بين الآباء بالتعرف على خير الوسائل التى يمكن اتباعها فى تنشئة المراهقين. بحيث يتحقق الهدف من التنشئة وهو تنمية مدارك المراهقين، مع الحرص على تحقيق تلاؤمهم مع قيم المجتمع وتقاليده[١٤].

أهم المراجع:

١- إبراهيم وجية محمود - المراهقة - خصائصها ومشكلاتها - دار المعارف، ١٩٨١، ص ٧٠.

٢- على فاع الهنداوى - علم نفس النمو - الطفولة والمراهقة - دار الكتاب الجامعى، ٢٠٠٧، ص ٧٧.

٣- مصطفى سويف - الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى - دراسة ارتقائية تحليلية - دار المعارف، ١٩٥٥، ص ص ٢١٠:٢١٥.

4- Barbara G. Walker, The Women's Ency clopedia of Myths and Secrets, Harper, Row Publishers Ine. U.S.A, 1983, p. 635.

5- William Stephens, the Family in Cross - Cuttural. Perspective by Holt, Rinehart, Winston Inc, U.S.A, 1963, p. 5.

6- Nick Stinnett, James Watters, Relation Ships in Marriage and Family, Macmillan Pblishing Co, Inc. U.S.A, 1977, p. 230.

٧- عبد الرحمن محمد عيسوى - علم النفس الفسيولوجى - دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٤.

٨- عبد الرحمن محمد العيسوى - مشكلات الطفولة والمرهقة - أسسها الفسيولوجية والنفسية - دار العلوم العربية - بيروت، لبنان، ١٩٩٣.

٩- أحمد عزت راجح - أصول علم النفس - المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر، ١٩٧٣، ص ٤٤٤.

١٠- بدر إبراهيم الشيبانى - سيكولوجية النمو - تطور النمو من الإخصاب حتى المراهقة - مركز المخطوطات والتراث والوثائق - ٢٠٠٠، ص ٥٠.

١١- شيفر وملحان - سيكولوجية الطفولة والمراهقة - مشكلاتها وأسبابها وطرق حلها - ترجمة سعيد حسنى العزة - مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ٥٠.

12- Marguret Mead - Coming of in Samoa Itd. 1929, p.p. 61 , 62.

١٣- سيجمون فرويد - سيكولوجية الطفولة والمراهقة - ترجمة مصطفى غالب - دار مكتبة الهلال، ١٩٩١، ص ٥٢.

١٤- كايلن - المراهقة - وداعاً أيتها الطفولة - ترجمة أحمد رمو - منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٩، ص ٩٠.

الفصل التاسع

العلاقة بين الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية

دراسة تحليلية

أولاً: مقدمة

ثانياً: فروع الأنثروبولوجيا المختلفة.

ثالثاً: الخدمة الاجتماعية وممارستها المختلفة.

رابعاً: أوجه التشابه والاختلاف بين الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية.

خامساً: أهم النتائج.

سادساً: ثبت بالهوامش والمراجع مرتبة حسب ورودها في الفصل.

الفصل التاسع
العلاقة بين الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية
دراسة تحليلية(*)

مقدمة:

تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الانسان فى جوانب حياته المختلفة، الاجتماعية، والثقافية ، فضلاً عن الجوانب الفيزيقية له. ومن هنا جاء معني الأنثروبولوجيا بأنها علم دراسة الانسان The Study of Man. وحدث تقارب ولقاء منذ النصف الأول من القرن الماضى بين المتخصصين فى مجالات الخدمة الاجتماعية المختلفة وبين بعض الأنثروبولوجين والذين تقاربت وجهات نظرهم فى السعى لتحقيق الرفاهية للانسان سواء أكان فرداً أو جماعة صغيرة، أو جماعة كبيرة أو فى مجال تنظيم الخدمات الإنسانية والعمل على تنسيقها بين المؤسسات الاجتماعية المختلفة.

وقد ظهر هذا التعاون جلياً عند دراسة المجتمعات المحلية كالمحليات، والقرى، والمدن السكنية الصغيرة وغيرها وقد زادت الدعوة بعد ذلك من أجل التكامل الدراسى والعلمى خصوصاً فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحادى والعشرين فى شكل فرق بحثية تجوب مصر كلها من أجل الوصول إلى النتائج الموضوعية لهذه الدراسات مع استخدام المناهج العلمية ونعطى مثالين على ذلك.

المثال الأول: هو بحث اتجاهات المصريين نحو العمل اليدوى فى مصر حيث دعا التكامل العلمى بين تخصصات الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية والاجتماع للوقوف ومعرفة أهم اتجاهات المصريين نحو العمل اليدوى، ويرجع الفضل فى ذلك لفرق العمل التى شكلها قسم الأنثروبولوجيا من المتخصصين فى مجال الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية والاجتماع، وقد تم ذلك فى العقد الثامن من القرن الماضى.

والمثال الثاني: من الفرق العلمية التى كونها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة والتى توجهت إلى دراسة شمال وجنوب سيناء بتمويل من المركز فضلاً عن بحوث القرية المصرية التى قامت وزارة الشئون الاجتماعية بتمويلها والتى جمعت التخصصات العلمية للأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية، وخير مثال على ذلك هو تنمية القرية المصرية فى أبى صير.

(*) كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى بقسم الأنثروبولوجيا، بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

ويتناول هذا الفصل من الكتاب لأهم فروع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وهى الفرع الاجتماعى، والفرع الثقافيث، والفرع الفيزيقى، ويتناول بالتفصيل فرع الأنثروبولوجيا التطبيقية لأهمية هذه الفروع لدراسى الأنثروبولوجيا ولدراسى الخدمة الاجتماعية.

ويحاول هذا الفصل توضيح العلاقة بين علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والخدمة الاجتماعية وتحديد أوجه التشابه والاختلاف بينهما مع توضيح مجالات الاستفادة بينهما من أجل تحقيق هدف أسمى ونبيل وهو الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى.

ويتناول هذا الفصل الموضوعات التالية:

أولاً: مقدمة توضيح أهمية الموضوع.

ثانياً: فروع الأنثروبولوجيا الهامة.

ثالثاً: الخدمة الاجتماعية وممارستها المختلفة.

رابعاً: أوجه التشابه والاختلاف بين الأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية والاستفادة منهما فى مناهجهما المشتركة.

خامساً: ملخصاً لأهم النتائج.

سادساً: ثبت بهرامش الفصل ومراجعة مرتبة حسب ورودها فيه.

يستخدم الأنثروبولوجين مصطلح Anthropology معرباً من اللغات الأجنبية إلى Anthropos بمعنى الإنسان و Logia ومعناها علم أو دراسة ومن هنا يتضح أن مصطلح الأنثروبولوجيا يعنى دراسة الإنسان.

فالإنسان هو ذلك المخلوق العجيب الذى له دراستنا فى هذا العلم مجالاً هاماً دون تقيد بالزمان والمكان فيقوم المتخصصين فى هذا الفرع بدراسة أجداده وأصوله واسلافه منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا كما أنه يدرس الإنسان فى أى مكان من العالم الذى أصبح بفضل التقدم العلمى قريباً جداً.

قسم الانثروبولوجين (علماء الإنسان) هذا العلم إلى فروع رئيسية بحسب نظرتهم إلى الإنسان على الشكل التالى:

أولاً: النظرة إلى الإنسان باعتباره كائن حى مخلوق ضمن المخلوقات الأخرى فظهر فرع الأنثروبولوجيا الجسمية أو الطبيعية أو الفيزيقية Physical Anthropology.

ثانياً: النظرة إلى الإنسان باعتباره كائن اجتماعى بطبعه يعيش فى جماعات مختلفة ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthroplogy .

ثالثاً: النظرة إلى الإنسان على أساس أنه حامل للثقافة وناقل لها عبر الأجيال ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology .

وسنتناول هذه الفروع الرئيسية بالتفصيل:

أولاً: علم الإنسان الطبيعي أو الجسمي أو الفيزيقي (الأنثروبولوجيا الفيزيقية) Physial Anthropology:

هى دراسة الجانب الطبيعى والفيزيقى فى الإنسان، ودراسة جسمه وتطوره واختلافاته البيولوجية. وهذا الفرع من علم الإنسان يهتم بتوضيح أوجه التشابه والاختلاف والتباين واتجاهات التغير فى الأفراد والجماعات فى الماضى والحاضر. ويرجع الاختلاف والتباين إلى الاختلافات الوراثية وإلى تأثير عوامل البيئة الكامنة فى الوراثة.

يهتم الأنثروبولوجيون الفيزيقيون بالقيام بالبحوث من قبل والدراسات التى تلقى الضوء على كثير من المفهومات التى لم تكن معروفة منقبل والتى تميز مجالات عديدة داخل هذا الفرع الهام من دراسات علم الإنسان. ومن أهم هذه المجالات نذكر مايلى:

دراسة العظام والاسنان – الإيكولوجيا – البشرية – علم الأجنة والنمو – دراسة تكوين الجسم والبنية – البيولوجيا الجزئية – الوراثة البيوكيمانية – الوراثة السكانية – دراسة التطورات الصغرى – دراسة الرئيسيات – الأنثروبولوجيا الفيزيقية التطبيقية .

ثانياً: الأنثروبولوجيا الإجتماعية Social Anthropology:

يعد علم الاجتماع الإنسانى الفرع الثانى من أفرع علم الإنسان، وهذا الفرع يتعامل مع الإنسان باعتبار أنه عضو فى جماعة انسانية، وأنه اجتماعى بطبعه لايستطيع أن يعيش منعزلاً عن الآخرين، إلا فى حالات المرض النفسى الخطير والمرض العقلى.

وتختلف الجماعات التى ينضم اليها الإنسان بحسب نموه نفسه ومن خلال وجوده داخل هذه الجماعات فهو يكون علاقات اجتماعية يمكن تجريد هذه العلاقات الاجتماعية Social Relation فى شكل نظم اجتماعية وانساق اجتماعية أكبر نتعرف عليها عندما ندرس الجماعات الإنسانية المختلفة دراسة مركزة، هذه الدراسة

تساعدنا على الفهم بطريقة أفضل لمكونات البناء الاجتماعى Social Structure لهذه الجماعات الإنسانية المختلفة.

مرت الأنثروبولوجيا بمراحل تاريخية أهمها مرحلة القرن الثامن عشر الميلادى وهذه المرحلة مهدت لظهورها واستفادت من بعض دراسات المفكرين أمثال المفكر الفرنسى Montesquieu فى كتابه روح القوانين L. Esprit des Lois حيث أشار إلى أن المجتمع ونظمه الإجتماعية ترتبط بعضها ارتباطاً وثيقاً ويؤثر بعضها فى البعض الأخر، ولايمكن فهم أى نوع من القوانين إلا فى ضوء دراستنا للعلاقات القائمة بين القوانين المختلفة مثل القانون الدولى، والقانون الدستورى، والقانون الجنائى، والقانون المدنى، كما أنها جميعاً مرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمع معين.

واستفاد التراث الأنثروبولوجى من المفكر سان سيمون Saint Simon الذى يعد بحق أول من فكر فى ضرورة إنشاء علم يدرس المجتمع يقوم على العلاقات الاجتماعية كما نبه إلى ضرورة دراسة الواقع والحقائق Social Facts كما هى وليس التصورات عنها. وأسهم فى ظهور الأنثروبولوجيا فى هذا القرن كل من دافيد هيوم David Hume وأدم سميث Adam Smith حيث نظرا إلى المجتمع على أساس أنه نسق طبيعى.

وقد ظهر فى القرن الثامن عشر الإهتمام بدراسة المجتمع البدائى فصدرت كثير من الأحكام العامة التى أعتمدت على الظن والتخمين نتيجة الاعتماد على كتابات الرحالة والمستكشفين وبعض الكتب الدينية كالعهد القديم.

يعد القرن التاسع عشر الميلادى قرن نشزة الأنثروبولوجيا الاجتماعية حيث صدرت مجموعة كبيرة من الكتب الهامة فى هذا القرن حددت إلى حد كبير معالم الموضوع الأساسى للدراسة نشير هنا إلى أهمها:

القانون القديم Ancient Law للسير هنرى مين H. Main الثقافة البدائية Primitive Cultur للسير ادوارد تايلور E. Tylor، وللزواج البدائى Primitive Marriage لماكلينان Mclennan، والمدينة العتيقة La Cite Antique لفوستيل دى كولانج Fustel de Ulanges وغيرها.

وقد كانت هذه المؤلفات والكتب ثمرة هوايات العلماء ولم تصدر عن تخصصاتهم، وذلك نظراً لعدم ظهور تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعد، وأهم ما يميز القرن التاسع عشر ظهور وإتجاه جديد فى الدراسة وهو تفسير الظواهر الاجتماعية والنظم الاجتماعية من زاوية جديدة لم تكن معرفة من قبل هذه الزاوية هى التفسير

الاجتماعي فعلى سبيل المثال فإن الزواج الخارجي الاغترابى Exogamy لا يرجع إلى أسباب نفسية وإنما يرجع إلى أسباب اجتماعية وهي تأصل عادة وأد البنات عند بعض المجتمعات الإنسانية.

سمي علماء هذا القرن بعلماء المقاعد الوثيرةArmchair Anthropology نظراً لعدم قيامهم بدراسة ميدانية واعتمادهم على أقوال الرحالة ورجال الإدارة من المستعمرين الأوروبين، تميزت هذه الفترة من القرن التاسع عشر بظهور مدرسة النشوء والتطور، وكان يبحث أصحابها عن نشأة وتطور النظم الاجتماعية كالأسرة والدين ، وقد أثارت نتائج الدراسات التي قام بها أصحاب هذه المدرسة الكثير من التعليقات من علماء الأنثروبولوجيا اللاحقين، وذلك بسبب صعوبة دراسة الأصول والبدايات الأولى واهتمام العلماء الآن بالبحث عن وظيفة النظم الاجتماعية والأدوار التي تقوم بها وتأثيرها فـ بالبناء الاجتماعي.

يشهد نهاية القرن التاسع عشر استكمال عناصر الأنثروبولوجيا الإجتماعية حيث قام العلماء بتصنيف المجتمعات على أساس ابنيتها الإجتماعية بدلاً من ثقافتها، وكان لظهور هذا الاتجاه الخطوة الحاسمة لكي تستقل الأنثروبولوجيا الإجتماعية عن فروع الأنثروبولوجيا الأخرى وأصبح موضوعها الأساسي هو العلاقات الإجتماعية وليست الثقافة بجميع عناصرها المادية والمعنوية.

وكان لاستخدام نهج الدراسة الحقلية أو الميدانية Fieid Work الأثر الكبير في بلورة هذا الفرع والهام. ويرجع الفضل في ذلك إلى البعثة الناجحة التي قام بها هادون Haddon لدراسة مضايق توريس Torres Straits في المحيط الهادى وأستغرقت عامين من عام ١٨٩٨ حتى ١٩٠٠.

حيث اعتبرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تخصصاً جديداً يقوم على أساس الدراسة الميدانية وهي العنصر الجوهري في تكوين هذا الفرع وتدريب الطلاب وبرغم كل ما تقدم إلى هذه الرحلة من أوجه النقد إلا أنها هيات الأذهان إلى أهمية الدراسة الحقلية فقام علماء آخرون بمتابعة البحوث والدراسات الحقلية أمثال مورجان Morgan وبواس Boas، وريفرز Rivers وسيلجمان Silgman، ومالينوفسكي Malinowski وغيرهم.

ومع بداية الربع الأول من القرن الحالي شهدت الأنثروبولوجيا الاجتماعية فترة التخصص والتوسع والانتشار فقام فريق آخر من العلماء بدراسات حقلية منهم رادكليف براون Radeliffe Brown – الذي درس الإندمان The Andman Islanders كما قام

ملينوفسكى بدراسة جـزر التروبرياند ووضع كتابه الضخمArgonauts of Western Pacific والذى استـمرت دراسـته الـحقلية أكثر رسوخاً ووضـع لها القـواعد والأسس والأساليب التى يجب اتباعها.

وشهد النصف الثانى من القرن العشرين ازدهاراً فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية حـيث بدأ تدريب مـجـمـوعـة كـبـيـرة من الأنثـروبولوجـيـين وانـتـشـرت الدراسـات الأنثروبولوجية الميدانية من ميلانيزيا وبولينيزيا لتتجه لدراسة بعض قبائل السكان الأصليين فى استراليا.وأهتم العلماء بدراسة الجانب السياسى للمجتمعات التى سميت بالمجتمعات البدائية فى أفريقيا ، فدرس إيفانز بريتشارد قبائل الأزاندى والنوير، ودرس فورتس بعض قـبـائل ساحل الذهب (التـاليـرزى Talleris) ، ودرس نادل قـبـائل نوبى Nobe فى نيجيريا وغيرها من الدراسات.

كما قامت كثير من المؤسسات العلمية بمساعدة الباحثين الأنثروبولوجين على القيام بدراساتهم الحقلية فى خارج أوطانهم ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مؤسسة فولبرايت الأمريكية، ومؤسسة فورد الأمريكية، ومؤسسة ورنرجرين الأوروبية وغيرها من المؤسسات العلمية فضلاً عن المنح الكبيرة التى قدمتها الجامعات الأوروبية والأمريكية للباحثين الأنثروبولوجيين.

وظهرت مدارس علمية فى مجال علم الإنسان الإجتماعى من أهمها المدرسة الإنتشارية Diffusionist التى أهتمت بالبحث عن انتشار العلاقات والنظم الاجتماعية التى كثيراً ما تستعار وتنتقل من مكان إلى آخر وبناء على رأى هذه المدرسة فإن تشابه النظم الاجتماعية والعادات فى المجتمعات المختلفة لا ينشأ عن النمو التلقائى الناتج عن تشابه الإمكانيات الاجتماعية والطبيعية للإنسان ، بل قد ينشأ عن الاستعادة وانتشار تلك النظم الاجتماعية من مجتمع إلى أخر.

كما ظهرت أهم مدرسة فى علم الإنسان الاجتماعى وهى المدرسة الوظيفية التى تعد بحق من أقوى مـدارس الأنثـروبولوجـيا الاجـتـمـاعـيـة والتى ينتمى إليـهـا مـعظم الأنثـروبولوجـيين الاجـتـمـاعـيـين فى الـعـالم، وهى تهـتم بالكشف عن وظائف النظم الاجتماعية وينظر أصحاب هذه المدرسة إلى أن المجتمعات الإنسانية لها بناؤها، وهذا البناء يتكون من جماعات وأنساق إجتماعية ونظم اجتماعية وعلاقات اجتماعية يعتمد بعضها على بعض وتتساند وظائفها داخل هذه الأبنية الإجتماعية التى لها طبيعة مستمرة ودائمة رغم التغير الذى قد يحدث داخل عناصرها.

وقد شهدت الفترة التى نعيشها الأن ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية وإهتمامه بدراسة كل المـجتمعات الإنسانية التقليدية والقروية والحضرية بمناهجها وأساليبها

المتميزة، كما شهدت أيضاً تعاوناً بينها وبين فروع علم الإنسان الأخرى بل وبينها العلوم الإجتماعية والإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس.

ثالثاً: علم الإنسان الثقافي (الأنثروبولوجيا الثقافية):

Cultural Anthropology

أما الفرع الثالث من علم الإنسان الثقافى والذى يدرس الإنسان باعتباره كائن ثقافى حامل للثقافة، ويعيش فى كنفها وتحافظ عليه ويحافظ عليها كما أنه ناقل لها عبر الأجيال المختلفة، ونظراً لأن هذا الفرع يهتم بالسلوك الإنسانى فإنه يهتم بماضى الإنسان وحاضره.

والثقافة ذلك الكل المركب الذى يتكون من العرف والتقاليد والمعتقدات والقيم والممارسات وكل ما أوجده الإنسان من اختراعات وابتكارات إلى غير ذلك، ويمكن تمييز جانبين هامين فى الثقافة هما: الجانب المعنوى اللامادى والجاب الأخر ه الجانب المادى الذى يشمل كل مخترعات الإنسان فى الناحية المادية من الحياة.

ويهتم المتخصصون فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ماضى الإنسان، وقد عرفت هذه الدراسة بالدراسات الأركيولوجية، كما يهتم بالوقوف على ثقافة الإنسان الحاضرة فيما يعرف باسم الأثنولوجيا، ويبذل جهداً خاصاً فى فهم الثقافة، وذلك عن طريق ما يعرف باسم اللغويات أو الأنثروبولوجيا اللغوية، وانثروبولوجيا الفن. وسنتناولها بشيئ من التفصيل:

(١) علم آثار ما قبل التاريخ Pre- history أو الأركيولوجيا Archacology:

يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافات القديمة أو الثقافات البائدة التى ليس لدينا عنها تاريخ مكتوب، ويعرف علماء الإنسان الثقافى الأركيوجيا بأنها دراسة الماضى، أو دراسة الإنسان فى عهوده القديمة، وهى تركز على البقايا والمخلفات الثقافية التى تركها الإنسان.

وهناك فرق واضح بين ما يقوم به عالم الآثار التقليدى الذى يبحث فى الآثار التى تركها اليونانيون أو المصريون أو البابليون أو الأشوريون وغيرهم وبين الأركيولوجى لأن الأول يقوم بمحاولة تحقيق وتأكيد التاريخ المدون، أما الأركيولوجى فإنه يعمل فى ظروف مغايرة ويستهدف مادة أكثر غموضاً وإبهاما ويبحث عن البقايا المدفونة للشعوب القديمة ويقوم بإجراء الحفريات المناسبة وله أساليبه الخاصة التى يستخدمها للوقوف على الحقائق الخاصة بماضى الإنسان.

وقد استطاع الأركيولوجى تطوير أساليبه ومناهجه واستخدام العلم من أجل التوصل

إلى حقيقة ما يدرس، فاستخدم التحليلات الكاروبونية وأشعة اكس كما أقام النماذج وقدم الوصف الملائم لأهم خصائص البقايا والمخلفات وبحث وظيفتها وحاول وضع تاريخ دقيق لها بإستخدام عنصر مشع هو الكربون المشع ورمزه ك ١٤ وغيرها من العناصر الأخرى، ثم وضع التصورات المختلفة التى تكشف عن طريق الحياة المتمايزة لهذه الثقافات وعقد المقارنة بينها أو بين الثقافات الأخرى التى عاشت فى زمن مساو لهذه الثقافة في مناطق أخرى من العالم.

ويمكن القول بأن الأكيولوجيين قد قطعوا شوطاً بعيداً من حيث مساهمتهم فى الكشف عن تاريخ الثقافة الإنسانية وأن هدفهم الأسمى هو الوصول إلى المراحل المبكرة من تاريخ الإنسان وتحديد عمره على الأرض.

(٢) الأثنولوجيا Ethnology:

يدرس هذا الفرع ثقافات الشعوب الموجودة وقت الدراسة الأن كما يدرس الشعوب التى لديها تسجيلات مكتوبة لإخباريين عاشوا فى تلك الثقافات.

والأثنولوجى يدرس ثقافة المجتمع أو المجتمعات التى يبحثها ، فيدرس النظم الإجتماعية والسياسية السائدة والدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية، وكذلك المثل العليا والأفكار.

وقد حدث خلط بين الأنثروبولوجيا الإجتماعية والأثنولوجيا فى الماضى أما الآن فقد تم تحديد موضوعات كل منها بدقة.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فرقاً واضحاً بين الأثنوجرافياEthnography والأثنولوجيا، فالأثنوجرافيا هى الدراسة التسجيلية للشعوب دون تحليل لهذه الثقافات أو عقد المقارنة بينها وبين الشعوب الأخرى بينما الأثنولوجيا تهدف إلى عقد المقارنة بين الثقافات حتى نستطيع التوصل إلى ما نسميه بالعموميات Universals أو الى قوانين عامة تحكم السلوك الإنسانى، كما وأن الأثنوجرافيا مرحلة ضرورية فى الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية. ويحاول المتخصص فى مجال الأثنولوجيا دراسة آثار الاتصال بين الثقافات المختلفة وتصنيف هذه الثقافات إلى مجموعات أو مناطق ثقافة فى ضوء مقاييس معينة توضع لتحقيق هذا الغرض.

(٣) الأنثروبولوجيا اللغوية Linguistic Anthropology:

فرع هام من أفرع الأنثروبولوجيا الثقافية يهتم بعنصر حيوى من عناصر الثقافة وهو اللغة، الوسيلة الوحيدة للإتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان كما أنها أداة نقل الأفكار أو التعبير عنها بكلمات أو أشارات أو رموز أو صور أشكال وغيرها.

واللغة ليست اهتمام اللغويين فحسب بل يهتم بهابعض العلماء المتخصصين فى مجالالأنثروبولوجيا اللغوية، وبعض التخصصات الأخرى كالفلسفة والمنطق.

والأنثروبولوجى اللغوى يهتم فى البحث عن أصول اللغات وأشكالها الزمزية ومحاولة إعادة البناء اللغوى لبعض اللغات بغرض الوقوف على المجموعات اللغوية التى تشترك وترجع إلى أصول متشابهة كالمجموعة السامية مثلاً والتى تضم اللغة العربية واللغة العبرية وغيرها.

وينظر الأنثروبولوجى إلى اللغة بإعتبارها كائن حى يولد وينمو ويزدهر ويكبر ويصل إلى مرحلة الشيخوخة كما أنها قد تهاجر من مكان إلى آخر بهجرة أصحابها ومحدثيها.

ودراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم وبتأثيرها على هذه اللغة ومصادر هذه اللهجة وهل هى ترجع إلى لغات أنقرضت؟ كما هو الحال فى بعض لهجاتنا المحلية التى تحتوى على بعض الكلمات من اللغة المصرية القديمة، فيحاول الأنثروبولوجى اللغوى إلقاء الضوء عليها ، كما يدرس تأثير الحروب فى انتشار بعض اللغات وأثر التبادل الاقتصادى والثقافى على اللغة وإلى غير ذلك من الموضوعات التى تهم المتخصصين فى مجال علم الإنسان اللغوى.

انثروبولوجيا الفن:

والفرع الهام الآخر من الأنثروبولوجيا، هو انثروبولوجيا الفن حيث يهتم هذا الفرع بدراسة منتج إنسانى على درجة كبيرة من الإبداع وهو الفن الذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالإنسان منذ الإنسان الأول وحتى الآن.

وتعتمد أنثروبولوجيا الفن على فروع الأنثروبولوجيا الرئيسية الأخرى، فعلى سبيل المثال تعتمد على الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى معرفة التشريح والمقاييس الأنثروبومترية، وهذه ضرورة للمتخصص فى هذا الفرع. كما انها تعتمد على فرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى معرفة أهمية التجمعات الإنسانية، والجماعات المختلفة، والعلاقات الاجتماعية فضلاً عن دراسة النظم الاجتماعية والأنساق الاجتماعية، وقد يسهم النسق الأيكولوجى اسهاماً كبيراً فى معرفة التأثير المتبادل بين الأنساق والبيئة ومعرفة البيئات الايكولوجية المختلفة التى تفيد فى تشكيل اتجاهات المتخصص فى مجال انثروبولوجيا الفن.

أما فرع الأنثروبولوجيا الثقافية فهو فرع هام يستمد منه فرع انثروبولوجيا الفن

المعارف الكثيرة، ومنها دور الفن وعلاقته كمنتج ثقافى مادى أو معنوى، وأيضاً فى مجال الابداع نظراً لأن الفن هو جزء من الثقافة وأن الفن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بها خصوصاً فى جانب الثقافة المادية التى ترتبط بالمنتج الإنسانى الذى يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، كما أنه يساعد فى اكتشاف الإنسان المبدع من الفنانين. فضلاً عن أن فرع الأركيولوجيا من فروع الانثروبولوجيا الثقافية يفيد المتخصص فى مجال انثروبولوجيا الفن حيث يتعلم منه الوسائل والأساليب التى تستخدم فى هذا الفرع من المعرفة فى الوقوف على ماضى الإنسان السحيق، وفى الوقوف على المنتج المادى للإنسان الأول والذى يصل إلى حد الإبداع عند قياسه بمفاهيم هذه الفترة التاريخية السحيقة من عمر البشرية.

أصبح بالإمكان توظيف المعرفة الأنثروبولوجية فى الأغراض العملية المتمثلة فى حل مشكلات الإنسان منذ أن بدأ علم الأنثروبولوجيا فى الظهور وذلك نظراً لأن الفرع التطبيقى من هذا العلم يتعلق بالرفاهية الإنسانية كما تتضمن فكرة القيام ببحوث لا تنطوى على قيمة عملية واضحة فحسب بل يجب أن تثبت فائدتها وإسهامها للرفاهية الإنسانية سواء الآن أو فى أى وقت فى المستقبل.

إن معظم المشكلات الإنسانية تتضمن تغيرات فى السلوك والإتجاهات والنظم والعلاقات ومن ثم أصبح موضوع التثقف ودراسات الإتصال الثقافى لاتنطوى فقط على إمكانية فائدتها بل إن كثيراً من المواقف التطبيقية تسمح بتحكم أدق فى عوامل التغير كما تسمح بتطوير إتجاه الإختبار المعملى للفروض والنظريات، وتتضمن الأنثروبولوجيا التطبيقى معالجة مشكلات الإنسان وتتناول هذا الإنسان من أجل تحقيق أهداف معينة وهذا لا يعنى أن جميع الأنثروبولوجيين يعلنون موافقتهم على وجود فروع للأنثروبولوجيا التطبيقية(٢).

ويرجع اهتمام بعض الأنثروبولوجيين بالجوانب التطبيقية منذ الحرب العالمية الثانية ويعد الموضوع الرئيسى من موضوعات الأنثروبولوجيا التطبيقية موضوع البحوث التى تقوم بها إما منظمات عامة أو منظمات خاصة تهدف من ورائها تحقيق أهداف عملية، وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية نجد أن هذه المؤسسات إما أن تكون على المستوى الفيدرالى أو على المستوى المحلى أو مكاتب دولية والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها الإدارة الزراعية الأمريكية، إدارة الدفاع، البنك القومى، منظمات التنمية الدولية، مكاتب الشئون الهندسية، البنك الدولى، منظمة الصحة العالمية، منظمة التغذية والزراعة، إدارة التخطيط التعليمى، المستشفيات المحلية، وذلك فضلاً عن منظمات خاصة تنفذ أهدافاً عملية وتوجه البحوث الأنثروبولوجية فى مجال التعاون الصناعى وأيضاً فى مجال التخطيط السكانى وغيرها(٣).

نستنتج أن الأنثروبولوجيا التطبيقية أحد فروع الأنثروبولوجيا الهامة التى تهدف إلى الاستعانة بالدراسات الأنثروبولوجية النظرية فى ضبط التغيرات الاجتماعية وتوجيهه فى كثير من المجتمعات الإنسانية، ويجد الإشارة إلى وجود فروق بين الأنثروبولوجيا التطبيقية وفروع الأنثروبولوجيا الأخرى نجملها فيما يلى:

١ – أن الأنثروبولوجيا التطبيقية تدرس الثقافات المعاصرة حالياً وكذا ثقافة الشعوب الحالية بمعنى أن المادة التى يجمعها الأنثروبولوجى التطبيقى لا يبحث عنها فى الوثائق التاريخية أو يستقيها من ذاكرة كبار السن وهذا لايعنى إهمال التاريخ الذى يقدم مقترحات للبحث التطبيقى إلا أنه لايتناول كيفية مواجهة الجماعات المختلفة للمشكلات الاجتماعية.

٢ – تهتم الأنثروبولوجيا التطبيقية بالقيام بالبحوث التى تعالج المشكلات والتى تنبع من حاجات أساسية لدى أعضاء المجتمعات المختلفة.

٣ – الأنثروبولوجيا التطبيقية تبحث وتستخدم نفس الأساليب والمناهج العلمية للأنثروبولوجيا إلا أنها تتخطى حدود علم الأنثروبولوجيا وقد تستعين بالعلوم الإنسانية الأخرى فى حل المشكلات التى تواجه الإنسان(٤).

ويحدد مارفن هاريس Marvin Harris ثلاثة صفات هامة يمكن أن يستمدها الأنثروبولوجى التطبيقى من فروع الأنثروبولوجيا المختلفة وهى:

أ – البعد عن التحيز للثقافة الغربية أو أن يتمركز نحو العلاقات الإثنية والعرقية.

ب – الإهتمام بالأنساق الاجتماعية والثقافية الكلية.

ج – الإهتمام بالسلوك العادى والأحداث العادية للمواطنين إهتمامه بالحياة القائمة على أسس عقلية(٥).

وهناك تعريفات كثيرة للأنثروبولوجيا التطبيقية نشير إلى أربعة منها وهى:

- **التعريف الأول:** تعريف وضعه اليوت شابيل Eliot Chapple حيث يعرف الأنثروبولوجيا التطبيقية بأنها «فرع من الأنثروبولوجيا يهتم بوصف التغيرات فى العلاقات الإنسانية وفى فصل المبادئ التى تضبط هذه العلاقات كما تتضمن إختيار لهذه العوامل التى تحدد إمكانية إحداث التغير فى التنظيم السياسى(٦).

- **التعريف الثانى :** تعريف وضعته لوسى مير Lucy Mair وترى «أن ميدان الأنثروبولوجيا التطبيقية أصبح من الميادين الهامة للناس لأنها تساعدهم فى إتخاذ القرارات الاجتماعية وفى معرفة المعلومات عن السكان والتعرف على العادات والتقاليد المختلفة للشعوب(٧).

- **التعريف الثالث** : يعرفها حسن شحاته سعفان «بأنها العلم الذى يبين كيف يمكن الإستفادة من علوم الأنثروبولوجيا النظرية فى إدارة المجتمعات البدائية وتربيتها والنهوض بها وتطويرها وفى النهوض بوسائل رفاهيتها الاجتماعية فهو مثلاً يشترك فى وضع خطة للتعليم العام فى مثل تلك المجتمعات أو خطة لتهيئة مجتمع ما للحكم الذاتى وكذلك الخطط الاقتصادية ... إلى غير ذلك[٨].

- **التعريف الرابع** : يرى أحمد أبو زيد أن الأنثروبولوجيا التطبيقية فرع متخصص من الأنثروبولوجيا العامة يهدف إلى الاستعانة من الدراسات الأنثروبولوجية النظرية فى ضبط التغير الاجتماعى وتوجيهه فى المجتمعات البدائية والتقليدية، وإن هذا المصطلح حديث نسبياً استعمله لأول مرة رادكليف براون فى مقال له بعنوان الأنثروبولوجيا التطبيقية عام ١٩٣٠ وكان اللفظ الشائع هو الأنثروبولوجيا العملية Practical Anthropology، أما عن أسباب ظهور هذا الفرع من علم الإنسان فيرجع إلى رغبة بعض الحكومات الاستعمارية فى حكم الشعوب والقبائل الخاضعة لها بطريقة لاتتعارض مع القيم التقليدية المتوارثة، وكانت بريطانيا أول دولة استعمارية استعانت بالأنثروبولوجيين فى دراسة الأنساق الاجتماعية والنظم والقيم السائدة فى مستعمراتها فى فترة ما بين الحربين للتعرف على أفضل الطرق والوسائل لتوجيه خططها ووضع مشروعاتها الخاصة لاستغلال الثروة القومية لهذه المستعمرات وقد زاد إهتمام المسئولين عند وضع سياسات التنمية والتخطيط فى كثير من المجتمعات النامية فى السنوات الأخيرة بالأنثروبولوجيا التطبيقية نتيجة لإزدياد الإقناع بأن مشكلات التنمية ليست مشكلات اقتصادية أو تكنولوجية فحسب وإنما هى فى جوهرها مشكلات اجتماعية وإغفال النواحى الاجتماعية كثيراً مما يؤدى إلى إخفاق هذه المشروعات وفى وسع الأنثروبولوجيين أن يبصروا أفراد المجتمع بما لهذه المشروعات من مزايا[٩].

وقد حاولت حكومة الولايات المتحدة الإستفادة من الأنثروبولوجيين وتم ذلك بواسطة مكتب الشئون الهندية ووزارة الزرعة وهيئة صيانة التربة ثم ظهرت بعد ذلك هيئة مستقلة وكان معظم علماء الأنثروبولوجيا العاملين يهتمون بإجراء دراسات وصفية تكشف عن ظروف الجماعات الاجتماعية المختلفة أو أسباب مواجهة البرامج التى تنفذها هذه الهيئات والمشكلات التى تواجهها ولم يكن للأنثروبولوجيين تأثير فى وضع السياسات وفى تحديد طبيعة هذه البحوث التى يجب القيام بها والفائدة التى يمكن تحقيقها من نتائج هذه البحوث.

كما اشترك الأنثروبولوجيون مع غيرهم فى دراسات هاوثورن التى كانت تجرى

على مصنع تابع لشركة وسترن اليكتريك فضلاً عن دراسات أخرى تناولت العلاقات الصناعية وتنظيم المؤسسات كالمستشفيات ومعامل البحوث وقد أدت هذه الدراسات إلى تأسيس جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية فى عام ١٩٤١ ويرى أعضاء هذه الجمعية من الأنثروبولوجيين التطبيقيين ضرورة الاستعانة بعلماء آخرين كما وأنهم ينظرون إلى المجتمع الذى يؤدى وظائفه بكفاءة على أنه مؤلف من أفراد أو جماعات تعمل على التكيف بعضها مع بعض بحيث يمكن إعتبار علاقاتها فيما بينها فى حالة توازن وعندما يختل التوازن بسبب تطورات داخلية أو بسبب مؤثرات خارجية فإن دور الأنثروبولوجى التطبيقى هو إعادة حالة التوازن[١٠].

ويعرض مارفن هاريس لمجموعة من المشروعات التى تمت خارج الولايات المتحدة الأمريكية وعمل فيها الأنثروبولوجيون مستخدمون منهجهم الكلى Holistic ومن هذه المشروعات : التنظيم الإدارى وإعتماده على وجهة النظر الشخصية لهؤلاء الذين يتولون أمور الإدارة رغم وجود وجهة نظر أخرى قائمة على العقل والموضوعية ورغم ذلك فإنهم يفضلون وجهة النظر الذاتية فى الوصول إلى حلول تتعلق بالإدارة.

كما نعطى مثالاً آخر على ما يقدمه الأنثروبولوجى التطبيقى للمرضى الذين يقومون بإجراء جراحات وهم من ثقافات مختلفة ويواجهون أطباء ومتخصصين كثيرين وأجهزة غريبة عليهم لايعرفون عنها شيئاً وهذا ما جعل فوستر G. Foster وبربارا أندرسون B. Anderson يرددان عبارتهما القائلة بأن «قواعد المستشفيات تكون ملائمة فقط وبالدرجة الأولى للهيئة الطبية بالمستشفى ولها جوانب غير ملائمة وتأثير على الصحة وعلى شفاء المرضى[١١].

وكما أشار مارفن هاريس إلى مشروعات زراعية مثل مشروع ڤيكوس Vicos لمزرعة الهاسندا Hacenida[١٢]، والتى تولاها أحد الأنثروبولوجيين التطبيقيين وهو ألن هولمبيرج Allen Holmberg واستطاع أن يطور هذه المزرعة باستخدام أساليب زراعية حديثة وفى تغيير طريقة عمل المزارعين وإعطائهم نماذج عملية يمكنهم الاستفادة منها، وأشار إلى مشروعات أخرى فى هاييتى حيث تم تحويل بعض الغابات إلى أراضى زراعية، وأيضاً مشروعات الثورة الخضراء فى المكسيك ومشروعات علاج الإدمان، ومشروعات القضاء على المشروبات الكحولية والخمور وغيرها من المشروعات التى تهتم بها الأنثروبولوجيا التطبيقية[١٣].

وقد حدد رالف بيلز وزميله هارى هويجر أن عالم الأنثروبولوجيا يستطيع أن يتأكد من أن أى مشروع يستهدف إحداث تغير تكنولوجى عليه :

(١) إن المشروع يتضمن مزايا واضحة يمكن أن يستوعبها الناس المعنيون فعلى سبيل المثال القمح المهجن الذى يدر محصولاً كبيراً قد يبدو أنه يمثل مزايا واضحة للفلاحين المكسيكيين إلا أنه يجب شراء البذور وهو يعنى ضرورة توفير مبالغ نقدية وهو أمر مستحيل وعلاوة على ذلك يصعب إستخدام القمح المهجن فى عمل الفطائر والكعك وهى دعامة طعام الفلاح فضلاً عن أن القمح المهجن لاينتج كمية وفيرة من الطعام الذى يمكن تناوله.

(٢) أن يتم تنفيذه من خلال القنوات السليمة : فإذا ما حدث تجاهل أو معاداة لنفوذ وهيبة القادة المحليين فإننا نتوقع منهم تنظيم معارضة ضد أى تجديد.

(٣) الإفادة من الدوافع القائمة أو الدوافع الجديدة التى يمكن بثها.

(٤) أن يصاحب المشروع تعليق أو توضيح كاف فالمخصبات التجارية قد تستخدم بكثرة بحيث لا تؤدى إلى نتيجة ملحوظة أو تؤدى إلى حرق المحصول.

تلك بعض التعميمات القليلة التى يمكن التوصل إليها ومع ذلك فإن أى أنثروبولوجى لا يستطيع أن يذكر على الفور أو حتى من خلال دراسة تستغرق فترة قصيرة كيف يمكن مواجهة هذه الظروف بدقة ولا يمكن أن تكتشف على الفور القادة الحقيقيين للمجتمع المحلى فقد يبدو الرئيس أو العمدة المنتخب وكأنه الشخص الذى يمكن التعامل معه وقد يكون كبار السن الذين يشكلون مجلساً غير رسمى أو أحد رجال الدين وهذا يعنى أن أى تغير تكنولوجى يتطلب تغيرات فى كثير من جوانب الثقافة(١٤).

ودور الأنثروبولوجى التطبيقى يتضمن القيام بالبحث الذى يهدف إلى تحقيق بعض النتائج العملية وأن تحقيق النتائج المرجوة تختلف من مجال ومن مشروع إلى آخر فقد يكون دور الأنثروبولوجى التطبيقى هو مجرد التعامل مع المعلومات التى تم جمعها لمنظمة تنموية وذلك من أجل إتخاذ قرارات مناسبة، وفى مجال آخر فإن الأنثروبولوجى التطبيقى ربما يطلب منه تقديم برنامج من حيث الإمكانات المتاحة أو وضع بعض التفاصيل عن خطط يمكن أن تحقق الأهداف المرجوة.

وقد يكون الأنثروبولوجى مسئولاً إما بمفرده أو مع فريق العمل عن التخطيط والتنفيذ والتقييم للخطط، وقد يتضمن التقييم مراحل كل مشروع منذ البداية إلى النهاية نظراً لتواجد الأنثروبولوجى معه، وعندما يكون الأنثروبولوجى منوطاً به تنفيذ المشروع فإننا نسميه ممارس الفعل الأنثروبولوجى Practicing Action Anthropology. ومما يجدر الإشارة إليه صعوبة تحديد البحث الذى يهدف نتائج تطبيقية أو البحث الذى ليس له أهداف تطبيقية والقيام بأبحاث لها إهتمام نظرى مجرد من أجل تحقيق أهداف

متماسكة وقوية وقد يستفيد الأنثروبولوجي من خلال النظرية المجردة نفسها فى جوانب تطبيقية إذا ما قدمت مجموعة من المبادئ التى يمكن ترجمتها فى شكل برامج عملية مادامت هذه المبادئ ستحقق النجاح، ولا يمكن أن ننكر أن للأنثروبولوجي التطبيقى أيضًا أهدافه النظرية التى يريد أن يحققها من خلال تجارب تطبيقية (١٥) . وهذا وأن دل على شئ فإنما يدل على أن هناك إرتباطاً وثيقًا بين الجوانب النظرية لعلم الإنسان والجوانب التطبيقية فالنظرية تمد الأنثروبولوجي التطبيقى بالمبادئ العامة التى يمكن تطبيقها فى مجتمعات وثقافات مختلفة مع مراعاة ظروف كل مجتمع وثقافته، كما وأن الأنثروبولوجي التطبيقى الذى لديه الخبرات الكثيرة فى المجالات التطبيقية المختلفة يمكنه إستنباط المبادئ العامة من المجتمعات والثقافات المختلفة التى عمل معها ومن ثم إثرائه للجوانب النظرية فى الأنثروبولوجيا.

ويمكن للأنثروبولوجي التطبيقى القيام ببعض الأعمال الرئيسية التالية:

(١) عرض وتنظيم البيانات اللازمة لإتخاذ القرارات وهذه البيانات مستندة إلى المعلومات وتقديم بيانات جديدة قائمة على أساس إجراء البحوث إذا ما كان ذلك ممكناً وهنا يتعين أن يكون للأنثروبولوجي دور أساسى فى السياسة بمعنى أن عملية تحديد البحوث المطلوبة وكيفية تنفيذها.

(٢) تقدير النتائج الاجتماعية المحتملة للقرارات البديلة ويجب توضيح أن هناك دائماً بديلين على الأقل: التنفيذ أو عدم التنفيذ كذلك كان هناك بدائل للعمل ومن خلال التحليل الدقيق يمكن أيضاً تحديد الأمور التى تساعد القرارات السياسية وأيضاً تلك التى تؤدى إلى عرقلتها وتعطيلها.

(٣) أن يكون له الدور الأساسى إن لم يكن النهائى بالضرورة فيما يتعلق بتحديد الوسائل التى بها يتعين تنفيذ السياسات ويجب أن تكون الكلمة النهائية فى صياغة مشروعات البحوث والمناهج المستخدمة فى إجرائها.

(٤) متابعة المشروعات أو البرامج فى ضوء الأهداف المقررة.

وأخيراً فإن علماء الأنثروبولوجيا يتفقون تماماً على أن مسئوليتهم الأولى هى تحقيق الرفاهية للشعوب التى يدرسونها(١٦) .

وقد أشارت المدرسة البريطانية للأنثروبولوجيا فيما كتبه ريموند فيرث R. Firth إلى أن الأنثروبولوجيا كعلم نظرى مثلها ككل العلوم الأخرى لها تطبيقاتها العملية فدراسة علم الفلك تستخدم فى تحسين الملاحة ودراسة علم الطبيعة تساعد فى تحسين

الهندسة واللاسلكى. ودراسة الكيمياء تساعد فى مجال الصيدلة والطب وعلم الإحياء يفيد فى تحسين الزراعة كذلك فإن الأنثروبولوجيا تساعد فى تطوير المجتمعات المحلية المختلفة وفى معالجة الصعوبات التى تعترض العلاقات الاجتماعية وفى تصميم برامج الشئون الاجتماعية، وقد يختلف دور الأنثروبولوجى الآن عن دوره فى الماضى فهو يقدم مقترحات أكثر من مجرد تقديمه لحلول المشكلات التى يواجهها وقد يضع التحليلات التى توضح أسباب المشكلات وكيفية المواءمة المناسبة التى تخفف الضغوط الكثيرة ويمكن أن توجه الدراسات الأنثروبولوجية وفق أهداف عملية فتقوم بالأبحاث دون أن تخضع لأى ضغوط تواجهنا فى عملنا ويكون هدفنا هو التشخيص والتنبؤ بالنسبة للمشكلات ووظيفتنا أن نستخدم النتائج التى توصلنا إليها من التحليل لتحديد موقفنا الواضح وإذا كنا نطالب الأنثروبولوجيون فى أن يكون له الحرية فى فضل اصدار الأحكام وإذا ما كان الانثروبولوجيون لا يملكون الحلول الحاسمة لكل المشكلات الصعبة التى يواجهونها فإنهم يدركون الحقائق حول البناء والتنظيم وقيم المجتمع ويساعدون أى متخصص يريد أن يحدث تغييراً فى المجتمع وإنهم يشعرون بانتمائهم إلى تخصص له قيمة حقيقية فى فهم وتوجيه الأمور المتعلقة بالإنسان.

وإذا كنا قد عرضنا لموقف الأنثروبولوجيا التطبيقية فى مواجهة المشكلات الإنسانية فى التراث الأنثروبولوجى الغربى الأمريكى والبريطانى ففى مصر محاولات أنثروبولوجية كثيرة وجادة فى المجال التطبيقى أشير إلى إحداها إشارة سريعة فقد أتاحت لى وزارة الشئون الاجتماعية الاشتراك مع الزملاء بالقسم فى القيام بتنمية إحدى القرى المصرية وهى قرية أبى صير باستخدام المنهج الأنثروبولوجى وأساليبه المختلفة والاستفادة من المجالات التطبيقية ولم يكن الغرض هو مجرد عرض نتائج دراسة حقلية تمت على هذه القرية بمعرفتنا وإبداء النصح فى البرامج المعدة وإنما كان الهدف هو إكتشاف الحاجات الأساسية لمجتمع الدراسة والتعرف على الإمكانات المتاحة وإكتشاف القيادات المحلية الجادة سواء أكانت قيادات رسمية أو قيادات شعبية لم تكن معروفة من قبل ويمكن أن تسهم إسهاماً كبيراً فى تنمية القرية المصرية، وكان أحد الأهداف التطبيقية للدراسة هو مساعدة مجتمع الدراسة نفسه على وضع تصورات بالمشروعات دون أن تفرض على المجتمع مشروعات معدة مسبقاً أو جاهزة التنفيذ(١٧).

(٢)

أحاول فى هذا الجزء من البحث إلقاء الضوء على الخدمة الاجتماعية وممارستها المختلفة وذلك من خلال عرض لأهم مجالاتها بشئ من الإيجاز الشديد وذلك نظراً لوجود المتخصصين فى الخدمة الاجتماعية والذين سيتناولون الموضوع بكل تفصيل.

تعد الخدمة الاجتماعية فن وعلم تقديم الخدمات الاجتماعية التى تصمم من أجل زيادة أهمية وقيمة الكفاية غير الشخصية والوظيفة الاجتماعية للناس، أفراد، أو جماعات، وهى مهنة مساعدة تركز كل طرقها على التفاعل بين الإنسان والبيئة وأنها بشير خير للإنسان لأنها تقوم على أساس التطوع أو العمل الحكومى أو على أساس المزج بين التطوع والعمل الحكومى، وبدون الدخول فى التفاصيل فإن وظائف الخدمة الاجتماعية فى المجتمعات الإنسانية المعقدة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً وأنساق خدمات الرفاهية الاجتماعية تترابط بينها رسمياً أو غير رسمى فى طبيعتها ودرجة كفاءتها وعميق وجذورها فى الإنسان نفسه ومجهوداته التى يبذلها لكى يستطيع أن يواجه المطالب المتزايدة والمعقدة للبيئة[١٨].

وتعمل الخدمة الاجتماعية فى مجالات متعددة وهى تستخدم طرقها العلمية لتحقيق أهدافها ويرى غالبية الأخصائيين الاجتماعيين فى أن طرق خدمة الفرد وخدمة الجماعة وتنظيم المجتمع والإدارة والبحث فى الخدمة الاجتماعية هى الطرق الخمسة الرئيسية فى محيط الخدمة الاجتماعية.

ترتكز خدمة الفرد على قاعدة علمية هى فى غالبها علم النفس الفردى والعلاجى كما أنها تتضمن ناحية فنية تعتمد فيها أيضاً على المهارات الفردية للإخصائى الاجتماعى ومقدرته الخلاقة، وإذا أن الأساس فى خدمة الفرد هو المدارس المختلفة فى تفسير السلوك فالمدرسة الوظيفية والمدرسة الفرويدية فإنه يجب ألا نغفل أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية وتأثيرها على الشخصية الإنسانية بجانب العوامل النفسية وألا تعطى لها الأهمية المطلقة فى خدمة الفرد بل يجب الاستعانة بكل العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسية[١٩].

أما خدمة الجماعة فهى طريقة بواسطتها يساعد الإخصائى الاجتماعى الجماعة عن طريق العلاقة المهنية على زيادة كمية الطاقة المبذولة أثناء النشاط الجماعى وتوجيهها لإكتساب أنماط سلوكية تتفق مع أيديولوجية المجتمع للإسهام فى النمو الثقافى للمجتمع[٢٠].

ويرى سيد أبو بكر وزملاؤه أن المرحلة التى تمر بها الخدمة الاجتماعية تضع أمام خدمة الجماعة العديد من القضايا أهمها:

(١) تحديد القاعدة العلمية التى ترتكز عليها خدمة الجماعة بما يتفق مع الإحتياجات المتغيرة للجماعة الإنسانية.

(٢) تحديد أنواع الجماعات التى تصلح لممارسة طريقة خدمة الجماعة معها بنجاح.

(٣) تعديل وتطوير الطريقة بما يوفر لها المرونة فى العمل على أنواع مختلفة من الجماعات.

(٤) إمكان تحرير طريقة خدمة الجماعة من الصبغة الترويحية التى تغلب عليها عند الممارسة الميدانية.

(٥) تحديد الوظيفة التربوية لطريقة خدمة الجماعة بحيث لا تتكرر مع الوظائف التربوية لمهن أخرى كالتدريس.

(٦) تعميق الوظيفة الوقائية للطريقة وجعلها أكثر فاعلية.

(٧) تعميق الوظيفة العلاجية وتحديد دور خدمة الجماعة فى العلاج النفسى بحيث لا يتكرر مع دور مهن أخرى كالطب النفسى.

(٨) وضع نظرية وظيفية للطرق فبدون ذلك الأساس النظرى تصبح لدينا معرفة لانستخدمها أو أهداف لا نعرف كيف نحققها[٢١].

أما تنظيم المجتمع فى الخدمة الاجتماعية فهو طريقة معينة فى محيط الخدمة الاجتماعية وكان فى بدايته مجرد أنشطة يبذلها المشتغلون بالخدمة الاجتماعية ثم تطور مع مرور الوقت حتى تبلور فى طريقة علمية.

ويعرفه عبد المنعم شوقى بأنه مجموعة من العمليات التى تبذل بقصد ووفق سياسة عامة لإحداث تطور وتنظيم اجتماعى واقتصادى للناس وبيئتهم سواء كانوا فى مجتمعات محلية أو إقليمية أو قومية بالاعتماد على المجهودات الحكومية والأهلية المنسقة على أن يكتسب كل منها قدرة أكبر على مواجهة مشكلات المجتمع نتيجة لهذه العمليات[٢٢].

ويحدد المتخصصون فى مجال تنظيم المجتمع أن إخصائى تنظيم المجتمع الذى يحتاج إلى مجموعة من المعارف والمهارات من أجل القيام بممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال تنظيم المجتمع بكفاءة ويضعون المهام الرئيسية التالية:

- الاتصال بالأفراد والجماعات والمنظمات والمؤسسات المختلفة.
- وضع الصورة الحقيقية وتوضيحها فى ضوء المصادر والإحتياجات الخاصة بالمجتمع المحلى.

- تنمية استراتيجية تحليلية قائمة على الأهداف التى تم تخطيطها وفقاً للحاجات والمسئوليات.
- تسهيل عملية تكوين الجماعات.
- تسهيل عملية تنمية هذه الجماعات بكفاءة.
- حل المشكلات والاختلافات بين الجماعات وبين المؤسسات المختلفة.
- التعاون والتفاوض مع المؤسسات والمهن الأخرى.
- البحث ودراسة السياسة الحكيمة مع السياسيين المحليين.
- أن يتم الاتصال مع الأفراد والجماعات والمنظمات المختلفة بطرق الاتصال المتعددة الشفهية أو عن طريق الكتابة.
- العمل كمستشارين بالنسبة للأفراد الذين يطلبون الاستشارية.
- إدارة المصادر مع الاهتمام بدراسة قيمة الوقت وا لميزانيات.
- مساعدة الجماعات المختلفة فى الحصول على المصادر والمنح وتقديم الطلبات الخاصة بالحصول عليها.
- تقويم الاستخدام الأمثل للمصادر.
- تحقيق أهداف الجماعات فى ضوء السياسات الخاصة بالإمكانات المتاحة [٢٣].

ويشير سيد أبو بكر وزملاؤه مجموعة من القضايا فى تنظيم المجتمع أهمها:

(١) تدعيم القاعدة العلمية لطريقة تنظيم المجتمع بمعلومات مستقاه من العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع بصفة خاصة بحيث تصلح تلك المعلومات للاستخدام والتطبيق العملى.

(٢) تمييز الأنشطة التى تتضمنها الطريقة فى محيط الخدمة الاجتماعية.

(٣) إيجاد علاقة واضحة محددة بين طريقة تنظيم المجتمع وتنمية المجتمع ودور الأخصائى الاجتماعى فى برامج التنمية.

(٤) تحديد دور وأهداف الطريقة فى الدول النامية.

(٥) تدعيم الطريقة بحيث تكون أكثر فاعلية فى مواجهة التغيرات السريعة التى تعترى المجتمعات[٢٤].

وتعتبر الإدارة إحدي الطرق الخمسة الرئيسية فى الخدمة الاجتماعى وهى تتميز بوسائل فنية معينة، وتخدم تلك الوسائل الفنية المنظمات المختلفة الموجودة بالمجتمع ولتلك الوسائل الفنية نفس أهمية البرامج التى تقوم بها المنظمات الاجتماعية

وعمليات الإدارة تشمل عملية وضع السياسة، وعملية التنفيذ، وعملية التقييم أما وظائف الإدارة فهى وظيفة التنظيم التوجيهى، والتنظيم الإدارى، والإشراف وكلها عمليات ضرورية لنجاح الإخصائى الاجتماعى فى عمله الإدارى(٢٥).

ولما **كان البحث العلمى هو أساس تقدم العلوم** المختلفة ولما كانت الخدمة الاجتماعية ترتكز على أساس علمى فإنها أصبحت تستخدم البحث العلمى كقاعدة أساسية لها، ووسائل البحث العلمى كثيرة منها المقابلة، والملاحظة، والرجوع إلى السجلات والتقارير فضلاً عن طرق أخرى مثل الملاحظة الإحصائية التى تعتمد على الإحصاءات المختلفة وقد يمر البحث العلمى بمراحل مختلفة كمرحلة الاستطلاع، والدراسة الوصفية، والدراسة التجريبية. ومما لا شك فيه أن هناك مجالات كثيرة فى الخدمة الاجتماعية لإجراء البحوث الاجتماعية(٢٦).

إذا ما رجعنا إلى كتاب المناهج فى الخدمة الاجتماعية Research Mehods for Social Work وهو تأليف آلان روبين Allan Rubin وفى محاولته وضع ملخص للأخصائى الاجتماعى أو طلاب الخدمة الاجتماعية الذين لديهم رغبة فى معرفة واستخدام المناهج الخاصة بالخدمة الاجتماعية تحت مسمى Consumer's Guide to Social Work Research يحدد فيه توجيهاته الهامة فى نقاط أساسية لمن يقوم بإجراء بحث فى إحدى مجالات الخدمة الاجتماعية المختلفة نتناول فيها تحديد المشكلة، وتصميم البحث، القياس، والعينة، التجارب، البحث المسحى، الدراسة الميدانية، التحليل الإحصائى، تحليل المادة، ثم اختيار المادة الخاصة بكتابة تقرير الدراسة:

أولاً : ففي صياغة مشكلة البحث وتصميمه

Problem Formulation and Research Design

يشير الآن روبين إلى ضرورة تحديد الهدف من الدراسة، واكتشاف، ووصف، وشرح والربط بينها وبين السؤال الهام وبوضوح تام ؟ من الذين سينفذ البحث؟ من الذى سيقوم بتمويل البحث ؟ ما هو الدافع للقيام بالبحث والدراسة ؟ وهل النتائج المستنبطة من البحث سيستفيد الباحث منها أم المستفيد منها مقدم التمويل، وما هى وحدة التحليل ؟ وهل هى مناسبة لتحقيق هدف البحث؟ وهل النتائج مناسبة لوحدة التحليل؟ مثال ذلك قيام الباحثين بدراسة المدن والإنتهاء إلى التوصل إلى نتائج مؤكدة حول الأفراد. وهل اعتمد البحث على الملاحظة؟ وإذا كانت المادة العلمية التى جمعت قد تم التأكد من أساليب القياس المستخدمة. وهل يتضمن البحث المعلومات المسحية Survey Data فمثلاً معدلات الجريمة أو الفقر فقد تكون متغيرة من مكان إلى آخر.

ثانيًا : القياس Measurement

ضرورة تحديد المفاهيم Concepls التى يتم دراستها بدقة. تحديد الباحث الأبعاد المختلفة للمتغيرات وهل صارت هذه المتغيرات بطريقة علمية وسليمة عند التحليل وعند كتابة التقرير. وما هى أدلة العمل Indicators التى تم اختيارها كأساس للقياس من الأبعاد المختلفة. وهل يعد المقياس المستخدم عاملاً صادقاً وصالحاً وهل هو مقياس حقيقى؟ وهل تم التأكد من المقاييس المستخدمة؟ ما هو المستوى الخاص بالقياس بكل متغير على حدة ؟ وهل هو اسمى Nominal، أو العددى Ordinal، أو يعتمد على نسبة Ratio وهل المقاييس المركبة التى استخدمت كفهارس، أو مقاييس رقمية Scales أو أنماط؟ وهل هى مناسبة للدراسة، ومن ثم تم اختيارها بطريقة سليمة.

ثالثاً : استخدام العينة Sampling

هل من الضرورى دراسة كل المفردات الخاصة بالدراسة؟ أم يمكن استخدام العينة، هل تم استخدام منهج العينة بطريقة علمية سليمة ؟ ما هو حجم المجتمع الذى يريد الباحث أن يستخدم فيه العينة ؟ ما هى الأساليب العلمية الخاصة بالعينة ؟ بمعنى أى نوع من العينات يريد الباحث أن يستخدمه. عينة عشوائية بسيطة Simple random Sampling أو عينة منتظمة Systematic Sampling، أو عينة عنقودية Cluster Sampling تحديد نسبة العينة بالنسبة لحجم الظاهرة التى يمكن دراستها وإذا كانت الدراسة تحاول إختبار فرض علمى a hypothesis وهل العينة مناسبة لتحقيق صحة هذا الفرض من عدمه.

وإذا افترضنا أن الذين أجرى عليهم البحث ممثلون فى العينة فما هو احتمال الخطأ المتوقع فى حجم العينة؟

هل يمكن القول أن النتائج التى تم التوصل إليها عن طريق العينة تدل على معنى عن السكان أو عن حياتهم بصفة عامة.

رابعاً : التجــارب Experiments

ما هو المتغير الأساسى فى التجربة ؟ ماذا تريد أن تحققه التجربة ؟ وما هو المثير Stimulus الخاص بالتجربة ؟ وما هى المتغيرات الأخرى وهل يمكن قياسها؟ هل تم إختبار المتغيرات الأخرى فى التجربة؟ هل تم قياسها؟ هل استخدمت الجماعة الضابطة فى التجربة الأستخدام الأمثل؟ هل حددت موضوعات التجربة تحديداً دقيقاً؟ هل كان اختيار الجماعة الضابطة فى البحث عن طريق الاختيار العشوائى؟ أو عن طريق النظير Matching؟ هل تمت بطريقة مناسبة ؟ هل قدم الباحث العوامل المناسبة للتجربة مثل الجماعة الضابطة وغير ذلك؟

هل يوجد قياس جيد للمتغيرات Variables؟ هل أعطى الباحث الاهتمام المناسب للمشكلة ؟ هل الدراسة تعتمد على تصميم ثنائى عشوائى Double - blind ؟ ما هى احتمالات الصدق الداخلى؟ تاريخياً معتمداً على نمو الظاهر – الاختبار – الأجهزة – الفحص الإحصائى، الحركة التراجعية Regressions في اتجاه مضاد للاتجاه المألوف، أو التحامل المختار Selection biases، أو الإنتشار، أو التقليد Imitation.

وبالرجوع إلى الصدق الداخلى كيف تؤكد التجربة على أن النتائج سوف تستخدم فى الحياة أو ستمارس فى مواقع الخدمة الاجتماعية الأخرى.

خامساً : البحث المسحي Survey Research

من الضرورى فى البحث المسحى مراجعة كل الأسئلة الخاصة بالعينة وما هى الأسئلة التى ستقدم وتوجه إلى المبحوثين – الاهتمام بأسلوب الأسئلة التى ستوجه إليهم. نوع الأسئلة هل هى أسئلة منتهية (ذات نهاية مغلقة) – لا بد من وجود قوائم مناسبة وشاملة Exhaustive ومتبادلة كلية Mutually Exclusive.

ومما يجدر الإشارة إليه هو أنه إذا كانت الأسئلة مفتوحة فيجب التفكير فى إعداد القوائم حتى يمكن تصنيف الإجابات. ويجب ألا ينجز الباحث أثناء تفريغ «وتكويد» هذه الأسئلة مع ضرورة التأكد بأن كل الأسئلة الخاصة بالمسح واضحة وغير غامضة Unambiguous . هل سيحدث خلطاً بين المبحوثين وما هى التوقعات الإيجابية المطلوبة؟ هل ستكون الإجابات عن الأسئلة زوجية؟ وإذا لم تحدث هل ستكون الإجابات مفيدة ؟ وفى حالة وجود بعض المصطلحات التى ستودى إلى إجابات عكسية فهل كان يرجع ذلك إلى نتيجة لعدم الفهم مما يؤدى إلى وجود إجابات ممثلة وليست مؤكدة. كما يوجه النقد إلى الأسئلة التى أجابتها بنعم أو لا لأن المبحوثين سيجيبون عليها فى ضوء ما يظنون.

وكقاعدة عامة فإنه من الضرورى اختبار كل نقاط الاستفتاء عن طريق توجيه الأسئلة للباحث شخصياً وإذا ما وجد فيها صعوبة فيجب أن يغيرها إلى أسئلة أخرى. ومن الضرورى الاهتمام بتدريب الباحثين لزيادة قدراتهم على جمع المادة الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى أن تكوين تحليل مناسب ووفقاً لهدف البحث العام وتوضيح المتغيرات التى تم تحليلها.

سادساً : البحث الميداني Field Research

فى البداية يجب تحديد المتغيرات الخاصة بالدراسة وكيفية وصفها وقياسها وهل توجد أى صعوبات لصدق المتغيرات من عدمه كيفية تحديد عامل الثقة Reliability وفى حالة نظرة باحث آخر بتصنيفها بنفس الطريقة التى صنفت بها.

ومن الضرورى أن يشمل التصنيف مراجعة المادة التى نلاحظها ومما لا شك فيه أن عملية وطريقة التصنيفات قد تؤثر على النتائج وعلى فروض البحث. وإذا كانت النتائج الموضوعية يمكن اكتشافها وما هى المستويات التى يجب استخدامها ؟ هل يمكن تطبيق النتائج على مجموعة كبيرة من المجتمع؟ وماذا سيتخذ الباحث من إجراءات فى هذا الشأن وما هى أسس هذه الإجراءات؟

عند استخدام منهج المقابلة على أى أساس سيتم اختيار المبحوثين وهل سيراعى في اختيارهم أنهم يمثلون كل الناس فى المجتمع؟ كيف يساهم الباحث ويشترك فى الأحداث التى تتم أثناء الدراسة؟ وهل مشاركة الباحث تؤثر على سير الأحداث نفسها؟ هل يتدخل الباحث شخصياً فى سير البحث؟ وإذا كان هناك تدخل من الباحث فمتى يتدخل ؟ وما تأثير ذلك على الملاحظة ؟ هل يستطيع الباحث تحديد المشاعر الشخصية – إيجابية كانت أم سلبية – حول ما يتم ملاحظته وما تأثير ذلك على الملاحظة وعلى النتائج المستخلصة من ذلك ؟ هل يملك الباحث شخصية ثقافية أو خلفية تساعده فى تفسير ما يتم ملاحظته.

سابعاً : تحليل الإحصاءات الموجودة Analyzing Existing Statistics

يسمى هذا التحليل بالتحليل الكمى لأن نتائجه كمية وليست كيفية ويتم مراعاة من الذى سيقوم بجمع المادة الإحصائية التى سيتم تحليلها؟ هل يوجد أى نقص أو فجوات Flaws فى المادة التى تم جمعها من الناحية المنهجية؟ وما الهدف من جمع المادة وهل سيؤثر ذلك على جمع المادة واختيار وحدة التحليل بالنسبة للمادة ؟ وهل مازال للبحث الحالى ونتائجه المستمدة والمستخلصه منه أى أهمية؟ هل هناك خطورة أو خطأ أيكولوجى مثلاً ؟ هل مازالت طريقة جمع المادة مناسبة للاهتمامات الحالية وما هى المتغيرات التى سيتم تحليلها فى البحث الحالى وهل مازالت المفاهيم المستخدمة بمعرفة الباحث الرئيسى مناسبة وتثير الاهتمام حالياً أم لا ؟

ثامناً : تحليل المادة Data Analysis

وعند تحليل المادة يجب أن نركز على الوسائل الإحصائية التى استخدمت عند التحليل لهذه المادة ومدى مناسبة مستويات القياس للمتغيرات المتضمنة فى البحث. هل قام الباحث بتنفيذ كل التحليلات المناسبة؟ هل تم فحص كل المتغيرات؟ وهل هى ضرورية ؟ ومدى أهميتها وتأثيرها فى النتائج وهل يتم ذلك بطريقة منفصلة بين النتائج المتعلقة بالرجال عن النساء.

وهل من السهولة ملاحظة الارتباطات التى يتم مراجعتها بين متغيرين ويمكن أن يحدث وجود متغير ثالث دخيل Extraneous وهذا المتغير يؤدى إلى أن تكون الملاحظة زائفة ؟

وهل تم اختيار المعنى الإحصائى ؟ وهل التفسير صحيح وصادق ويمكن الثقة فيه ؟ وهل اختلط المعنى الإحصائى بمعانى أخرى مستقلة ؟ وهل النتائج الخاصة بالبحث تصل إلى حقائق مختلفة ؟ هل وجود اختلافات يتم ملاحظتها بين الجماعات وهل هذه الاختلافات كبيرة ؟ أم لا معنى لها وهل توجد مضامين أخرى قد أهملت وما أسباب إهمالها ؟ هل ما نتوصل إليه من النتائج تحتاج إلى اتخاذ خطوات سياسية للاستفادة منها ؟ أم أنها نتائج قياسية تستخدم فى مراجعة البحث. وهل توصل الباحث إلى النتائج الفعلية عند وضعه للنتائج العامة مع مراعاة ألا توجد أخطاء منطقية عند التحليل والتفسير الخاص بالمادة العلمية.

تاسعاً : المادة العلمية المستخدمة في كتابة التقرير Data Reporting

هل وضع الباحث الموضوع الرئيسى الذى يقوم بدراسته نصب عينيه وأمامه ؟ ما هى الإضافة التى يتم الاستفادة منها من هذا البحث ؟ هل هو عمل على تبسيط دراسة أخرى، هل هو ضاعف الاهتمام بمثل هذه الدراسات هل ينبه الباحث فى تقريره النهائى الدراسات الخاصة التى يمكن القيام بها مستقبلاً. هل تم مراعاة وضع التفاصيل الخاصة بالدراسة من ناحية التصميم والتنفيذ وإجراءاته المختلفة.

ومن الضرورى والأمانة العلمية تفترض على الباحث تحديد أوجه القصور أو الخطأ الذى وجدها حتى يتم تلافيها عند تصميم الدراسات والبحوث أو تنفيذها مستقبلاً مع أهمية الإشارة إلى المقترحات والتوصيات التى من شأنها تحسين منهجية البحث فى المستقبل(٢٧).

* * *

(٣)

مما سبق يتضح أن مناهج البحوث التي تستخدم في مجال الخدمة الاجتماعية هى نفسها المناهج التى تستخدم فى كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. ومن ثم فإن مناهج البحوث السابقة يمكن أن تستخدم فى مجال العلم الاجتماعى بفروعه الثلاث، الاجتماع، والأنثروبولوجيا والخدمة الاجتماعية كما أوضحت فى بداية الدراسة.

وقد أشار فينك Fink إلى مجالات ممارسة الخدمة الاجتماعية وحددها سواء أكانت مجالات أهلية أو حكومية فى ثلاثة فوائد رئيسية هى:

أولاً – مجالات الخدمة الاجتماعية للأفراد، والعائلات، والجماعات، والمجتمعات وهى تقدم من خلال المؤسسات الاجتماعية سواء أكانت مؤسسات حكومية أو أهلية أو من خلال التعاون فيما بينها وهذه الخدمات الاجتماعية تساعد على تقوية الحياة الأسرية وتزيد من الوظائف الاجتماعية للأفراد وتمنع أى إنهيار للأفراد أو الجماعات أو فى تنمية المجتمعات وتعضد الأفراد والأسر وهى تنظم مؤسسات وظيفتها الأولى تقديم هذه الخدمات أو عن طريق المؤسسات التطوعية ومؤسسات الرفاهية، خدمة الأسرة ومراكز رعاية الأطفال، ومنظمات خدمة الشباب، والبرامج التى توضح لخدمة المسنين والمعوقين فضلاً عن برنامج العمل الاجتماعى الأخرى.

ثانياً – الخدمة الاجتماعية المقدمة للأفراد والجماعات والمرتبطة ببرامج الصحة والتعليم أو برامج أخرى تقدمها مراكز صحية حكومية أو مراكز تقوم على أساس التطوع وكذلك مراكز التعليم وقد تضم المجالات الآتية:

(أ) منع أو معالجة أو إعادة تأهيل المرضى بأمراض فيزيقية أو عقلية والاهتمام بالمعوقين جسمياً وعقلياً سواء فى المستشفيات أو العيادات فى مجال الخدمات الصحية المركزة أو فى برامج الصحة العامة والتى تهدف إلى منع المرض أو السيطرة عليه.

(ب) فى البرامج التعليمية كالمدارس الرسمية أو المدارس الخاصة أو الفصول الخاصة بالأطفال المعوقين أو فى فصول التدريس المهنى للشباب وللكبار والبرامج التعليمية التى تهدف إلى الوصول إلى تحسن المستوى الاقتصادى والتعليمى.

(ج) فى تصحيح علاج السلوك المنحرف اجتماعياً سواء فى الأحداث أو الكبار والقيام بالدور المناسب فى المحاكم وفى دور الخدمة الاجتماعية الخاصة بالملاحظة أو المراقبة لهؤلاء الأحداث أو فى السجون، ومؤسسات رعاية الأحداث، والمدارس التدريبية وفى المؤسسات التطوعية التى تهتم بإعادة التأهيل والإقامة فى مؤسسات المجتمع التى تعمل على منع الإنحراف.

(د) فى مجال الإسكان فى المناطق الحضرية برامج محددة، وفى مجال الخدمات الاجتماعية للسكان أفراد وجماعات أو هيئات تنمية المجتمع وتنظيمه والبرامج الخاصة بها.

(هـ) فى برامج التأمين الاجتماعى والخدمات المقدمة للأفراد وللأسر.

(و) فى الترويح والبرامج الثقافية.

(ز) فى الصناعة ومنظمات العمل، وفى خدمات الموظفين والأعضاء.

(ح) فى مجال الخدمات العسكرية.

ثالثاً – أنشطة التخطيط الاجتماعية وتنظيم وتنمية السياسة الاجتماعية للحالات البديلة القائمة على جهد الأفراد وذلك لتحقيق ظروف اجتماعية أفضل والقضاء على الظروف البيئية السيئة فى الإقامة وتحقيق الرفاهية للأفراد والأسر والجماعات والمجتمعات المحلية على المستوى القومى أو فى مجال المجتمعات المحلية ومجالس الأحياء والجيرة، ومنظمات التخطيط الاجتماعى ورفع الميزانيات المخصصة لأغراض الرفاهية الاجتماعية أو العمل على زيادة الميزانية القومية المخصصة.

وفى الاهتمام بالدور الذى تقوم به الخدمة الاجتماعية حتى تستطيع القيام بوظائفها الاجتماعية قد يقوم مجموعة من الأشخاص من مهن مختلفة ومن تخصصات عملية أخرى بأدوار مختلفة وهامة إلا أن الخدمة الاجتماعية ستظل لها وضعها الخاص[٢٨].

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً فى تطوير الخدمات الاجتماعية ومواجهتها لمشاكل الجماهير وتحملها مسئولية العمل الاجتماعى كأحد حقوق المواطنين ويمكن تحديد مجالات العمل الاجتماعى فى سبعة ميادين هما:

(١) ميدان رعاية الطفولة.

(٢) ميدان رعاية الأسرة.

(٣) ميدان المساعدات الاجتماعية.

(٤) ميدان رعاية الشيخوخة والمسنين.

(٥) تنمية المجتمعات المحلية.

(٦) ميدان رعاية الفئات الخاصة.

(٧) ميدان الخدمات الثقافية والدينية.

وقد اعتمدت وزارة الشئون الاجتماعية على كثير من المؤسسات الاجتماعية سواء أكانت مؤسسات خاصة أو حكومية فى تقديم خدماتها[٢٩].

* * *

وهناك اختلاف كبير بين الفروع الأساسية لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وهذه الفروع هى : الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو (الطبيعية) والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا التطبيقية، والأنثروبولوجيا الطبية.

وتعتمد هذه الفروع على دراسة الإنسان فى كل مكان (فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية المختلفة) أو فى كل زمان (الإنسان الحالى أو ماضى الإنسان)، كما أن الأنثروبولوجيا ازدهرت بما استطاعت أن تضعه من مناهج وأساليب وطرق بحث ميزتها عن بقية العلوم الاجتماعية.

فالدراسة الحقلية تقوم على أساس إقامة الباحث الدائمة والمستمرة فى مجتمع الدراسة لفترات طويلة يستطيع الباحث من خلالها أن يلم إلماماً كبيراً بكل جوانب الحياة الاجتماعية من : علاقات اجتماعية، ونظم اجتماعية، وأنساق اجتماعية وعناصر أخرى مختلفة تؤثر فى البناء الاجتماعى كما أنه يمكن أن يقف على العادات والتقاليد والقيم والأعراف والقوانين المكتوبة وغير المكتوبة وأيضاً على كل جوانب الثقافة المادية التى أوجدها الإنسان إما عن طريق الإكتشاف أو الإختراع.

ولكى تتم الدراسة الحقلية على أسس سليمة وضع الأنثروبولوجيون المناهج والأساليب الملائمة – التى نشير إليها بشئ من الإيجاز – أهمها : الملاحظة والملاحظة بالمشاركة والمقابلات المختلفة، ودراسة الحالة، ودلائل العمل الميدانى وغيرها، كما استخدمت الأنثروبولوجيا التطبيقية فضلاً عن هذه المناهج والأساليب الأخرى التى استعارتها من علوم النفس كالإختبارات المختلفة أو من العلوم الاجتماعية كالأساليب الإحصائية وبعض المناهج الأخرى باعتبار أن هذا الفرع فى الجوانب التطبيقية للمجتمعات الإنسانية المختلفة[٣٠].

ومما لا شك فيه أن هناك إختلافاً كبيراً بين المناهج والأساليب التى تستخدم فى ممارسات الخدمة الاجتماعية عن تلك المناهج والأساليب المستخدمة فى الأنثروبولوجيا لكن الخدمة الاجتماعية بفروعها المختلفة تتفق فى جميع مجالاتها التى تناولناها بشئ من التفصيل فى الجزء السابق على أن وراء هذه المجالات الإنسان الذى يكون إما فرداً أو جماعة أو مجتمعاً محلياً، وبذلك فهناك إتفاق أساسى فى الهدف، سواء أكان هدف الأنثروبولوجيا، الإنسان الاجتماعى الذى يعيش فى جماعات إنسانية مختلفة، أو مجتمعات محلية أو مجتمعات محلية أو مجتمعات كبيرة، أو الإنسان الثقافى الذى يتميز عن بقية المخلوقات الأخرى بالثقافة التى يكتسبها عن طريق التوارث والتنشئة الاجتماعية والثقافية أو عن طريق الإحتكاك الثقافى بالثقافات الأخرى

المختلفة كما أنه يستطيع أن ينقلها للأجيال الجديدة أو مستخدماً وسائل النقل الشفاهى المختلفة أو الوسائل الحديثة فى النقل.

أما الإنسان الفيزيقى أو الطبيعى الذى يمثل السلالات البشرية المختلفة أو سواء فى الجانب التطبيقى لعلم الأنثروبولوجيا مثل الأنثروبولوجيا التطبيقية أو الأنثروبولوجيا الطبية واللتان تهدفان إلى العمل على رفاهية الإنسان ومواجهة المشكلات الكبرى فى حياته والمعوقات المختلفة التى تواجهه.

ففى رأينا أن العلاقة تكون وثيقة الصلة بالخدمة الاجتماعية بفروعها ومجالاتها المختلفة نظراً لاهتمام الخدمة الاجتماعية أيضاً بالإنسان (الفرد، الجماعة، المجتمع) كما وأن الخدمة الاجتماعية وممارساتها المختلفة كمهنة تستفيد استفادة كبيرة بالجوانب المختلفة من علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) سواء فى مجال المعرفة النظرية التى يتيحها هذا العلم أو المعرفة الاجتماعية لجماعات الإنسانية وللمجتمعات المختلفة، أو المعرفة الثقافية لجوانب الثقافة المتعددة فى الإنسان باعتباره صانع الثقافة الوحيد، أو المعرفة التطبيقية التى يمكن أن تكون الإستفادة من الأنثروبولوجيا التطبيقية والأنثروبولوجيا الطبية كبيراً، كما وأن الأنثروبولوجى التطبيقى يستفيد من الإخصائى الاجتماعى بما يقدمه له من معلومات عن الأفراد أو الجماعة أو عن المجتمع مادام الهدف النهائى لكل منهما هو الرفاهية الإنسانية.

وربما كان مجال تنمية وتنظيم المجتمع من المجالات الهامة لكل من الأنثروبولوجى والإخصائى الاجتماعى فقد أشار سيد أبو بكر إلى العمليات الأساسية لتنمية المجتمعت وتنظيمه نوجزها فيما يلى:

١ – التعرف على المجتمع.

٢ – جمع المعلومات عن المجتمع.

٣ – التعرف على القادة المحليين.

٤ – استشارة سكان المجتمع لكى يدركوا مشكلات مجتمعاتهم.

٥ – مساعدة الأهالى على مناقشة تلك المشكلات.

٦ – مساعدة الأهالى على مواجهة تلك المشكلات عن طريق تقوية ثقتهم فى أنفسهم.

٧ – وضع برنامج للعمل على حل تلك المشكلات بالإعتماد على المواءمة بين الموارد والإحتياجات.

٨ – التعرف على مواطن القوة والضعف فى الموقف عند بدء تنفيذ البرنامج.

٩ – مساعدة الأهالى على المثابرة فى تنفيذ البرنامج.

١٠- التركيز على تعليم الأهالي وتوعيتهم ومساعدتهم على زيادة مقدرتهم على الاعتماد على أنفسهم.

١١- مساعدة الأهالي على متابعة تقييم البرنامج لمعرفة مدى ما حققه من أهداف.

وهذه الوسائل والأساليب لا تغيب عن ذكر الأنثروبولوجي التطبيقي ويستخدمها مع الأساليب الأخرى.

كما وأن الخدمة الاجتماعية يمكن أيضاً أن تستفيد من المناهج والأساليب الأنثروبولوجية كالملاحظة والمشاركة، والمقابلة، ودراسة الحالة، وتاريخ الحياة، والمناهج والأساليب الأخرى التي تعتمد على الإقامة في مجتمع الدراسة وأعلم أن الخدمة الاجتماعية الآن سواء في مجال الفروع المختلفة الأساسية أو البحوث والدراسات الخاصة بها تعتمد على كثير من هذه المناهج والأساليب الأنثروبولوجية العلمية.

أهم النتائج والتوصيات :

في ختام هذه الدراسة أشير إلى أهم النتائج والتوصيات.

أولاً - مما لا شك فيه أن كل العلوم الإنسانية والاجتماعية والخدمة الاجتماعية بفروعها المختلفة تحتاج إلى المزيد من التخصص الدقيق.

ثانياً - ولكن رغم الدعوة إلى التخصص الدقيق للعلوم الإنسانية والاجتماعية والخدمة الاجتماعية فإن هذه العلوم في حاجة ماسة إلى مزيد من التقارب بعضها البعض نظراً لأنها تتعامل مع الإنسان أولاً وأخيراً وهذا ما ظهر في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بالنسبة لمصطلح العلم الاجتماعي.

ثالثاً - ضرورة إعطاء الخلفية النظرية عند إعداد الإخصائيين الاجتماعيين عن الأنثروبولوجيا وفروعها المختلفة وقد أخذت كثير من كليات الخدمة الاجتماعية ومعاهدها بهذه التوصية بينما مازال البعض يعطي بعض المعلومات الأنثروبولوجية من خلال تدريس مادة علم الاجتماع والجمع بينها وبين علم الاجتماع.

رابعاً - إيماناً بأهمية الدور الذي تقوم به الخدمة الاجتماعية وممارستها المختلفة يقوم طلاب الأنثروبولوجيا بدراسة الخدمة الاجتماعية وتنظيم المجتمع في برامجهم الدراسية.

خامساً - إمكانية استخدام المناهج والأساليب الأنثروبولوجية في البحوث الخاصة بالخدمة الاجتماعية نظراً لمواءمة هذه المناهج والأساليب لمجالات الخدمة الاجتماعية

المختلفة فضلاً عن أن العلماء المحدثين فى الخدمة الاجتماعية اعتبروا هذه المناهج مناهج تستخدم فى ميدان الخدمة الاجتماعية كلها.

سادساً – ضرورة تلاحم كل من الأنثربولوجى التطبيقى والإخصائى الاجتماعى المتخصص فى مجال تنمية وتنظيم المجتمع لحاجة كل منهما فى درساتهما وبحوثهما لجهد الآخر.

سابعاً – إن الهدف الأسمى والنهائى للأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة وللخدمة الاجتماعية بفروعها ومجالاتها وممارساتها هو تحقيق الرفاهية للإنسان، هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلا بتضافر الجهود المبذولة فى الميادين والمجالات والجماعات المختلفة لكل من الخدمة الاجتماعية والأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الأخرى.

ثبت بالهوامش والمراجع

(١) انظر المجلة المصرية للعلم الاجتماعى – المجلس الأعلى للثقافة، العدد الأول، ٢٠٠٨.

(٢) محمد محمود الجوهرى وآخرون (المترجمون) لكتاب مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة لمؤلفيه رالف بيلز، وهارى هويجر، ج ٢، مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٧، ص ٨٠٩.

(٣) انظر :

- Chambers, Erve 1985, Applied Anthropology, a Professional Guide, Englewood Cliffs, N. J., Prentice Hall.

- Willigen, John Van, 1986, Applied Anthropology, An Introduction, South Hadley, Mass : Bergin and Gawey.

(٤) فاروق أحمد مصطفى وآخر، ١٩٨٩، دراسات فى الأنثروبولوجيا التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، ص ١١.

(5) Harris, Marvin 1987, Cultural Anthropology, Harper & Row Publishers, New York, p. 353.

(6) Chapple, E., "Applied Anthropology", in Kroeber, ed. Anthropology Today University of Chicago Press, 1953, p. 819.

(7) Mair, Lucy "Applied Anthropology, in I.E.S.S., vol. 1, p. 325.

(٨) حسن شحاته سعفان، ١٩٦٦، علم الإنسان – الأنثروبولوجيا – منشورات مكتبة العرفان، بيروت، ص ٢٦.

(٩) أحمد أبو زيد، المترجم، ١٩٧٥، كتاب الأنثروبولوجيا الاجتماعية لمؤلفه إيفانز بريتشارد، الطبعة الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٤٣.

(١٠) محمد محمود الجوهرى، وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٨١٤ – ٨١٦.

(11) Foster, G. & Anderson B., 1987, Medical Anthropology, New York, Wiley, pp. 170 - 171.

(١٢) الهاسندا Hacienda مزرعة كبيرة تنمو فيها المحاصيل الكثيرة، والتى يديرها مزارعون يقيمون فيها.

(13) Harris, Marvin, Op. cit., pp. 368 - 373.

(١٤) محمد الجوهرى، وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٨١٧ – ٨١٨.

(15) Harris, Marvin, Op. cit., pp. 352 - 353.

(16) Firth, R. 1970, Human Types, Sphere Book, LTD., pp. 166 - 173.

(١٧) فاروق أحمد مصطفى، ١٩٩٠، مقدمة ودراسات أنثروبولوجية، ج ١، دار المعرفة الجامعية، ص ص ٤٢ – ٤٣.

(18) Fink, E., Arther & Others, 1968, The Field of Social Work, 5th Edition, Holt, Rinehart and Winston Inc., New York, p.1.

(١٩) راجع في ذلك سيد أبو بكر وآخرو ن الخدمة الاجتماعية فى النظام الاشتراكى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ص ١٩٣ – ٢٤٢.

(٢٠) أنيس عبد الملك وآخرون، خدمة الجماعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (بدون تاريخ نشر)، ص ٨٤.

(٢١) سيد أبو بكر وآخرون، الخدمة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

(٢٢) عبد المنعم شوقى، ١٩٦١، تنمية المجتمع وتنظيمه، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الثانية، ص ٤٢.

(23) Mostafa, F., & Abass, M., Practice Social Sciences, Dar El Marifa Al Gamia, 2008, pp. 269 - 270.

(٢٤) سيد أبو بكر وآخرون، الخدمة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢٥) مرجع سابق، ص ٣٢٣ – ٣٤١.

(٢٦) مرجع سابق، ص ص ٣٤٢ – ٣٦٥.

(27) Rubin, Allen, Research methods for Social Work Brooks Cole publising Com. London, 1997, pp. 598 - 603.

(٢٨) محمد كامل البطريق وآخر، ١٩٧٥، مجالات الرعاية الاجتماعية وتنظيمها، مكتبة القاهرة الحديثة، ص ص ٥٦ – ٥٧.

(٢٩) سيد أبو بكر حسانين، طريقة الخدمة الاجتماعية فى تنظيم المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، (بدون سنة نشر)، ص ص ٥١٨ – ٥١٩.

(٣٠) راجع الفصل الثالث من كتاب مقدمة ودراسات أنثروبولوجية، فاروق أحمد مصطفى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.

الفصل العاشر

الأنثروبولوجيا الفلسفية :
النشأة والاهتمامات (*)

- مقدمة .
- الحرية والإرادة عند بول ريكور .
- انثروبولوجيا الحرية عند بول ريكور :

أولاً : الحرية والطبيعة :

١- الحرية واتخاذ القرار .

٢- الحرية والفعل .

٣- الحرية وقبول الفعل .

٤- الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر .

ثانيًا : الحرية والمقابلة للخطأ .

ثالثًا : الأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية .

رابعًا : الأنثروبولوجيا ومضمون الأسطورة .

- المراجع والهوامش .

الفصل العاشر
الأنثروبولوجيا الفلسفية
النشأة والاهتمامات

مقدمة:

من المعروف أن تفسير الظواهر المجتمعية Societal ومختلف العلاقات والأحداث التى تظهر على سطح الحياة الاجتماعية كانت محل اهتمام ودراسة من جانب علماء المدرسية الفرنسية للفكر الاجتماعى والنظرية الاجتماعية، والتى تمثلت فى كتابات كل من أوجست كونت August Comte وإميل دوركيم Emile Durkheim ولوسيان ليفى بريل Lucien Levy-Bruhl ومارسيل موس Marcel Mauss ومارسيل جرانيت Marcel Granet، وغيرهم، ولا يتمثل تاريخ الفكر حصرياً فيما جاءت به قرائح الفرنسيين فحسب، وإنما تتمثل تلك الإسهامات أولاً وقبل كل شئ فيما جاء به علماء الفكر والنظرية الاجتماعية الألمان، من أمثال جورج زيمل Georg Simmel، وفيركاندت Vierkandt، وليوبولد ڤون ڤيز Leopold Von Wies، وفرديناند تونيز Ferdinand Toennies، وماكس فيبر Max Weber وكارل مانهايم Karl Mannheim وغيرهم.

قد نتج عن خلاصة هذا الفكر الاجتماعى فرعان رئيسيان فى مجال المعرفة الاجتماعية، هما علم الاجتماع الفلسفى، والأنثروبولوجيا الفلسفية، وفيما يلى نعرض بإيجاز لأهم محاولات علم الاجتماع الفلسفى، ثم نتناول بعد ذلك تفصيلاً الدور الذى تقوم به الأنثروبولوجيا الفلسفية وإسهاماتها فى دراسة القضايا والمقولات الإنسانية العامة.

أولاً: علم الإجتماع الفلسفى Philosophical Sociology:

ويعالج عند جورج زيمل وأنصار المدرسة الصورية فى الفكر الاجتماعى البحث عن الشروط القبلية Apriori Conditions للعلاقات الاجتماعية، وهى نفس المشكلة التى انشغ بها إيمانويل كانط Kant فى محاولته الفلسفية الجادة لاكتشاف «الشروط القبلية» للمعرفة. فمن الشروط الوجودية للمجتمع – وفقاً للمذهب الصورى – هى «صورية الوجود الاجتماعى» على نحو «قبلى»، حيث يتمثل المجتمع بوجود «فراغات» أو «أماكن» يشغلها الأفراد، حين تخلو تلك الفراغات وتتجرد الأماكن عن

(*) كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور محمد عباس إبراهيم، أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

محتوياتها الفردية المسبقة ، ففى المدرسة يشغل الطالب ، مكانه ، الذى أخلاه له الآخرون وهكذا المجتمع والمجتمع المدرسى كمجموعة من ، الفراغات ، أو الصور المكانية ، Spatial Forms التى يشغلها الأفراد .

ومن ثم نجد علم الاجتماع الفلسفى ينشغل بالبحث عن الأبعاد الفلسفية للعلم Philosophical Dimensions of Science الاجتماعى ، أى البحث عن المعرفة أو الابستمولوجيا Epistemology ، أى تنظير المعرفة بالنسبة للعلوم الاجتماعية المتخصصة ، وهنا يكون هذا العلم منصباً على معرفة قضايا الميتاسوسيولوجيا - Meta Sociology أى البحث عن طبيعة الحقيقة Nature of Truth ، والكشف عن حقيقة الواقع Reality فى ضوء الدراسة المركزة للظاهرة الاجتماعية ، كما تبحث الميتاسوسيولوجيا مسألة الإنطولوجيا Ontology ، وهى مسألة فلسفية الأصل تتعلق بأصل الوجود ومصيره من خلال فهم وتحليل الوجود الاجتماعى، أى أنها دراسة التاريخ العقلى Intellectual History للوجود الإنسانى ، وهى المحاولات التى نتج عنها فيما بعد قيام ما يعرف بعلم إجتماع المعرفة The Sociology of Knowledge والذى إنشغل بتجريد الظواهر الاجتماعية عن واقعها المحسوس ، ووضع مقولات ، العقل الجمعى فوق الفردى ، والصورة البنائية ، فوق البناء الواقعى ، ، وما فوق العضوى ، أعلى مرتبة من العضوى ... وهكذا .

ويرتبط بعلم إجتماع المعرفة بصورة وثيقة الإتجاه الفينومينولوجى Phenomenology عند أدموند هوسرل Edmund Husserl ، والذى شاع لدى أتباعه من أمثال ياسبرز Jaspers ، ومارتن هيدجر Heidegger ، وماكس شيلر Max Scheler وديلثى Delthuy ، وبول ريكور Paul Ricoeur ويهدف التيار أو النزعة الفينومينولوجية إلى دراسة القيم الموضوعية بقصد الكشف عن مكنونها ، الجوهرى ، العميق ، وذلك من خلال الوصف الدقيق ، لمعطيات الوقائع ، أثناء تجاربنا المجتمعية المباشرة ، ولاشك أن عمق البحث فى هذا الإتجاه وكثرة تشعبه قد جعلت مفكراً مشهوراً مثل ماكس شيلر كواحد من رواد النزعة الفينومينولوجية لم يستطع أن يخلع رداء الفيلسوف ، حين أراد التمييز بين الإنسان الحقيقى ، أو ، الإنسان الجوهرى Essence Man . وبين الانسان الواقعى Fact Man ، حيث الإنسان الجوهرى عن شيلر ، كائناً إستاتيكياً لا زمنياً ، أما الإنسان الواقعى فهو الكائن الذى يخضع للضرورة والتغير التاريخى ، وهو إذن كائن تاريخى زمانى ، يخضع لفعل التاريخ ، وهو إنسان ديناميكى متغير ، وفق التجربة وحتمية الزمان التاريخى (1) .

ثانياً : الأنثروبولوجيا الفلسفية Philosophical Anthropology :

تأصلت الأنثروبولوجيا الفلسفية ونشأت خلال العشرينات من هذا القرن فى المانيا

أما فى الأربعينات فصارت فرعاً مستقلاً ومبحثاً متمايزاً من مباحث الفلسفة الألمانية ، واحتلت مكانها بين النزعات الفلسفية الحيوية Lebens Philosophie ، والوجودية Existentialism، والفينومينولوجية Phenomenology، وعلى الرغم من أنها كانت غير متماثلة أو متطابقة Not Identical مع توجهات النزعات السابقة ، إلا أنها تتشابه إلى حد ما مع التوجهات المنهجية والبحثية الخاصة بعلم إجتماع المعرفة ، وعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا الفلسفية قد تأسست تاريخياً على معطيات التراث الألمانى ، إلا أنها استفادت من الإسهامات التى قدمها علماء ومفكروا «علم الطبيعة الإنسانية» Science of Human Nature من رواد القرن الثامن عشر. فزاوجت الأنثروبولوجيا الفلسفية فى نزعتها البحثية والنقدية بين الإتجاهات النقدية التقليدية لعلماء عصر التنوير ، وبين تأكيدات أصحاب البراهين والدلائل القاطعة التى سادت على يد أنصار أصحاب « المسلمات » أو « البديهيات » التى لا تقبل الشك والجدل .

ولقد تأثرت الأنثروبولوجيا الفلسفية فى نشأتها الأولى وفى إطار جل إهتمامها بالبحث عن « موقع الإنسان فى العالم» Man's Place in the World بآراء كل من سورين كيركجارد Kierkegaard وكارل ماركس Marx ، ونيتشه Nietzsche ، كما كانت هناك تأثيرات لآراء كل من باسكال Pascal ، وهيدر Herder وجوته Goethe ، وكانط Kant ، وهيجل Hegel ، وفيورباخ Feuerbach فى المقومات الموضوعية والمنهجية لتأصيل الأنثروبولوجيا الفلسفية ونشأتها . فعلى سبيل المثال يعتبر المفكر الألمانى هيردر هو أول الباحثين الذين ربطوا بين البيولوجيا وفلسفة الإنسان ووجد أن الإنسان كائن عاجز Deficient being يسعى إلى تعويض نقصه بواسطة اختراع واستخدام الآلات والأسلحة والتكنولوجيا . أما هيجل وفيورباخ فقد أشار الأول فى نظريته عن الاغتراب إلى نقد المجتمع فقدم الذات عن الموضوع ، وقدم العقل عن البرهان ، أما الثانى ، فيورباخ ، فقد ركز على بناء تصورات ومفاهيم العقل الإنسانى من خلال مقولات تأملية فى وجود الله، والجسد والروح، وهى مقولات لاهوتية Theological ، ولكنها صارت فيما بعد أركاناً أساسية للبحث فى نظرية الثقافة ضمن مباحث الأنثروبولوجيا الفلسفية (٢) .

وقد ركز موضوع البحث منهجياً – لدى المدرسة الفكرة الألمانية – فى مجال الأنثروبولوجيا الفلسفية من خلال ما اصطلح عليه بحثياً باسم Geistewissen Schaften أى البحث فى « علم الطبيعة الإنسانية The Science of Human Nature والذى تأسس فيما بعد بفضل أعمال هوبز Hobbes ، ولوك Locke ، وشافتزبيرى Schaftesbury ، وغيرهم وهى كلها كانت بمثابة مقدمات للبحث فى « علم الإنسان » .

ومن جهة أخرى لا يمكن إغفال الأعمال التى قدمها كل من آدم سميث Adam

Smith والنزعتين النيوتونية Newtonian (نسبة إلى إسحاق نيوتن) ، والبيكونية Baconian (نسبة إلى فرانسيس بيكون) ، وإسهامات كل من المدرستين الإسكتلندية والفرنسية فى الفكر الاجتماعى فى القرن الثامن عشر وخصوصاً على يد كل من فرانسيس هتشكوسون Francis Hutcheson ، وآدم فيرجسون Adam Ferguson وجون ميللر John Millar ، ودوجالد ستيوارث Dugald Stewart وديدرو Diderot وغيرهم . وهى الأعمال والآراء التى تبلورت فيما بعد لدى جون ستيورات ميل John Sturat Mill وآرائه الاجتماعية والتى صارت فيما بعد بمثابة مبادئ هامة فى الأنثروبولوجية الفلسفية من خلال آرائه حول الأسس البيولوجية التطبيقية Empirical Biological Basis [٣] . وهى المحاولات العلمية التى حاولت جاهدة أن تضيق الفجوة بين مفهوم الإنسان ووضعه ككائن طبيعى ، وبين مفهوم الإنسان فى ضوء تأثره بنظامه السوسيو ثقافى .

أما عن إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية وموضوعات البحث فيها فتركز على مسألة وجود الإنسان وتجاربه ، وإنجازاته ومخاوفه ، كما تبحث فى حقائق العلوم التى تسعى إلى الكشف عن طبيعة الفرد وعلاقاته بالوجود الإنسانى ، والارتباط بين نمو الجسم وتطور حالة التفكير عند الإنسان ، كما تبحث فى أهم الخصائص الفيزيقية التى تميز الانسان عن غيره من الكائنات الأخرى ، وهى تلك الدراسات التى تم تصنيفها تحت ما يسمى باهتمامات الأنثروبولوجيا الفسيولوجية Physiological Anthropology والتى تختص بالحدود الطبيعية للإنسان ووظائفها وأيضًا الأنثروبولوجيا العلمية أو الإجرائية Pragmatic Anthropology والتى تختص بتفهم دور الإنسان فى صنع نفسه ، سواء باعتماده على الذات أم باعتماده على آخرين .

ومن هنا فإن الأنثروبولوجيا الفلسفية تهتم بدراسة الإنسان المبتكر أو المخترع للثقافة ، والإنسان المستخدم للثقافة والقيم الثقافية Cultural Values وهنا يركز علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية على ضرورة الاستعانة بالمنهج التأملى أو التخيلى Imaginative كمدخل للبحث ، من أجل إعادة تأسيس ما يعرف بخريطة أو محيط المعرفة Map of Knowledge .

هذا وقد إتسع نطاق ومؤدى البحث فى مجالات وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية فى كل من ألمانيا ، والشعوب الناطقة بالألمانية ، بالإضافة إلى هولندا وأسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، فبرزت إهتماماتهم فى دراسة الجوانب اللاهوتية ، والتاريخية ، والسياسية ، والتشريعية (فى الفقه الاجتماعى) والبيولوجية والفينومينولوجية [٤] . هذا بالضافة إلى الاهتمامات البحثية فى مجالات ما وراء

الطبيعة والوجود ونظرية القيم والأبستمولوجيا ، وفلسفة العلوم ، وفلسفة التاريخ ، وقد توجت إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية من جانب العلماء المحدثين بالبحث فى العلم السلوكى Behavioral Science ونظرية الفعل Theory of Action ، وهى كلها محاولات من جانب العلماء يسعون من خلالها إلى اقامة دعائم ومجالات الأنثروبولوجيا الفلسفية ، كفرع مستقل ومتميز عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى .

ولا شك أن هناك الكثير من علماء الأنثوبولوجيا المعاصرين الذى أسهموا بشكل فعال فى تطور الفكر الأنثروبولوجى وجعلها ذات شأن عقلياً وفلسفياً ، وسعت أعمالهم إلى إلهاب الخيال وتحفيز الذاكرة لدى عدد غير محدود من الأنثروبولوجيين العاملين فى مجال أنثروبولوجيا المعرفة والأنثروبولوجيا الرمزية (٥) ، فبدأت تلك الأعمال فى إعادة النظر فى الطريقة أو الكيفية التى تعاملت بموجبها النظريات الأنثروبولوجيا مع موضوعات مثل ، البناء الإجتماعى ، والقرابة ، والطقوس ، والأساطير ، ونظم المعتقدات ، واللغة ، والرمز ، والفن ، وغيرها .

وتركز الصفحات التالية من هذا العمل على الجهود التى قام بها المفكر الفرنسى بول ريكور Paul Ricoeur من خلال نقاشاته وحواراته مع قضايا الحرية وإرادة الإنسان والعلاقة بين الخير والشر مستعيناً بالأسطورة واللغة الأسطورية ورمزيتها كدالة حية على ما تحتويه المخيلة البشرية من تراث ثقافى .

- **في الحرية وإرادة الإنسان :**

أياً كانت المنهجية التى قدمها المفكر الفرنسى بول ريكور Paul Ricoeur (٦) لعمله الرئيسى فى نظرية ومعالجته لفلسفة الإرادة Philosophy of Will ، فإنه لا يمكن النظر إلى إسهاماته بأنها أعمال تقليدية مثل ما كان عليه الحال منذ القديس بولس Saint Paul وغيره من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وخصوصاً نظرتهم حول « رمزية الشيطان » ، والرمزية الأسطورية والدينية الغربية ، وهو الأمر الذى خلق حالة من التفاعل الجدلى Dialectical لمفاهيم الحرية ، والعبودية ، والإحتمالات المثالية ، والقيود الواقعية المفروضة ، والخطأ والسمو ، والحرية وعلاقاتها بدرجات اقتراف الشر ، وهى المبادئ والبدايات التى شكلت أساساً موضوعياً ومنهجياً للدراسة .

ورغم تقليدية الموضوعات المطروحة وتصدى البعض من المفكرين لدراستها إلا أن مناقشات بول ريكور أن يجعل المناقشات والمعالجات فى محتوى الطريقة المنهجية Methodological القائمة على تصنيف الاحتمالات الجوهرية للانسان فى سياق ما يسمى بالإرادة The Will ومن خلال بنية الجبر Involuntary والاختيار Voluntary مع وجود خاصية القابلية للخطأ والتأويل (التفسير) القصدى للخطأ الفعلى ، ويرجع

سبب إختيار بول ريكور لموضوع الإرادة ليؤكد لنا شدة إرتباطه بموضوعات مذهب الفينومينولوجيا Phenomenology الفرنسية .

ومن المعروف أن أدموند هوسرل Edmund Husserl الفيلسوف الألماني هو الذي حاول تأسيس قاعدة فكرية وفلسفية تستند إلى الظاهراتية أو ما يطلق عليها الفينومينولوجيا Phenomenology للتفسير وتكون ذات أسس معرفية أو ابستمولوجية Epistemological في خصائصها [٧] . وجاء المفكر الفرنسي جان بول سارتر J.P.Sartere ليغير هذه الطريقة [٨] من التأمل إلى الفعل على عكس هوسرل الذي استند إلى الطريقة الظاهراتية ليبحث ويكشف عن أسس الفكر Thought والأعمال الأولية للوعي أو الإدراك الإنساني Consciousness في ضوء التطابق المتميز والمثالي والمتفرد لكل من التصورات والواقع والتي أطلق عليها هوسرل بطريقة مبحث ذاتية الجوهر للموضوعات Eidetic Method وهي الطريقة التي حاول مارتن هيدجر Martin Heidegger التركيز عليها ، والبحث في أسسها محاولة الوصو إلى أبعد من هذه الأفعال الجوهرية للوعي من أجل تأسيس قاعدة أونطولوجية Ontological تتواءم من خلالها التصورات التأملية مع المعطيات الكونية [٩] . وقد قبل « سارتر » هذا التمايز الأساسي الذي قدمه «هيدجر» بين الأفعال الشعورية والإنغماس في البنونة أو الجوهر Being ، والتي أشار إليها هيدجر بأنها أفعال محتملة وممكنة .

في الوقت الذي ركز فيه سارتر متبنياً وجهة النظر والمنهجية الهيجلية (نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيجل) Hegelian – على مناقشة العلاقات القائمة بين كل من الكينونة في ذاتها Being - in - Itsef والكينونة من أجل الكينونة Beign - for - Itself من خلال النشاط أو الفعل العدمي nihilistic الذي أدى إلى الانقسام أو الفصل بين الكينونة Being التي في ذاتها In - Itself واللاشيئية Nothingness التي هي من مصادر الوعي والإدراك الإنساني.

وهنا يتضح التمييز بين سارتر وهوسرل عند هذه النقطة فهو عند هوسرل يكون الوعي أساساً تأملياً وعقلانياً ، في حين عند « سارتر » يكون الوعي عملاً وفعلاً نشطاً ، أي أن الوعي صانع لذاته ، وهنا تكون المشكلة الجوهرية لدى الإنسان وفقًا لهذا المنظور هي مشكلة الحرية Freedom ، لأنه لكي يصبح الوعي كما هو عليه What it is ? فمن الضروري أن يتحرر من موضوعية الكينونة في ذاتها Being - in - Itself لكي تصبح كينونة من أجل ذاتها Being - in - Itsef .

وبالتركيز على مشكلة إرادة الإنسان فقد جعل بول ريكور الحرية الإنسانية هي القضية الأساسية لنزعته الفكرية مما جعله واحداً من بين الذين يقفون في قلب

المناقشات الفينومينولوجية (مذهب الظاهراتية) فهو مثل سارتر اختار أن يتعامل مع الوعي من وجهة النظر الفاعلة Active ويبدو أنه قبل بهذه الفكرة بعد تعديلات في توجهاته الفكرية لاسيما وأن المبحث الرئيسي لدى ريكور ينصب على مشكلة الإرادة الإنسانية والتي تفهم الحرية في محتوى الطبيعة لا في رفضها .

من جهة أخرى فقد اختار بول ريكور في دراسته عن الإرادة أن يسير وفقاً لما جاء به ميرلو بونتي Merlew - Ponty بأن ترتكز دراسة هذه الظاهرة للإدراك على أساس التأمل المسبق Pre - reflexive عن العالم ، وهذا لا ينفي أن الإرادة تتحقق من ذاتها ، ولكن في تعاون مع مبدأ الجبرية أو اللاإختيارية (١٠) . والعالم والطبيعة ، وكما وجد ميرلو بونتي أن الإدراك أو الوعي يحدث في قلب العالم Midst of the World ، وجد بول ريكور ن الحرية في قلب الطبيعة ، وهي التي تمثل التأملات الأولية أو القبلية لظاهراتية العالم أو الجسم أو حتى اللاارادية أو لجبرية .

وقد علق بيير تيفيناز Pierre Thevenaz . في كتابه بعنوان ما المقصود بالظاهراتية ؟ على كل من سارتر وميرلو بونتي بقوله أن فكر سارتر موجه تماماً مثل فكر ميرلو بونتي نحو تحليل وتفسير شدة الترابط بين الفعل والتاريخ ، وهو ما سار عليه علماء المدرسة الفرنسية (أنصار المذهب الظاهراتي) الذين ارتموا بشدة في أحضان التاريخ . وهنا قد لا يكون الأمر غريباً عندما يختار بول ريكو ، الإرادة ، كوضوع للتفسير الفلسفي ، مقرونة ، بالحرية ، كموضوع فلسفي / أنثروبولوجي حيث تقدم موضوعات وقضايا الحرية عنده نفسها كموضوعات أساسية في توجهه الفكري ، وهنا يتفق ريكور مع علماء الأنثروبولوجيا بأن محتوى هذا الموضوع هو النظرة الشمولية والكونية Global للإنسان وأن هذا الموضوع ينال أهمية خاصة من خلال منهجية مبحث الجوهر أو التفرد الذاتي Eidetic ، والوجودية والتفسيرية والتأملية .

ومركزية قضية الحرية في فلسفة ريكور للإرادة تفترض ثلاثة أسس للتفسير هي :

١- الحرية والطبيعة .

٢- الحرية والقابلية للخطأ .

٣- الحرية والخطأ .

فتركيز الإنسان على مشكلة الحرية ليس عملاً ترفياً أو مختزلاً ، لاسيما وأن مبدأ ريكور عن الحرية هو على النقيض من سلبية وإنكار ورفض سارتر لها ، ولهذا فهي في مبدأ ريكور نوع من التأكيد على الايجابية والشمولية والضمنية أيضاً ، ولذلك فإن نقاش ريكور ينصب على أن الفهم الكافي للحرية يمكن وصف فقط كحرية يتم معرفتها

بالطبيعة ، حرية تعتبر من الناحية الواقعية إمكانية الخطأ ، حرية فى مواجهة مع حقيقة الخطأ .

ويتضح مما سبق أن المحتوى الكلى لهذه المناقشات يكمن فى أن الحرية هى مادة جوهرية للأنثروبولوجيا الكونية Global Anthropology – والنابعة من عولمة الإنسان – حيث أن الحرية وتوابعها فى النهاية لها صلة باللغة الأسطورية– الرمزية Mythic - Symbolic Language ، فالحرية وحدودها تشكلان الأساس الأنثروبولوجى للغة الأسطورة – الرمز ، لأنه إذا كانت لغة الأسطورة – الرمز والأنثروبولوجيا الفلسفية مرتبطتان بعضهما البعض فى فكر ريكور ، فإن هذا الارتباط سيعتمد فى النهاية على وظيفة Function الحرية . ونتيجة لذلك، ولكى نفهم دور Role الحرية وحدودها فى علاقتها بالرموز والأساطير ، فمن الضرورى أن نتصور أنثربولوجيا الحرية Anthropology of Freedom وحدودها فى العمل البنائى الكلى أو العمل الاستدلالى Constructive عند بول ريكور .

أولاً : الحرية والطبيعة Freedom and Nature :

من المعروف أن مبدأ ريكور للحرية تم تصوره وتطوره فى ضوء محتوى أو عمل بنائى وظيفى / استدلالى كما ورد فى كتابه المجلد الأول بعنوان : فلسفة الإرادة ، حيث ذكر بأنها ليست حرية نابعة من القلق بمفهوم سورين كيركجارد Soren Kierkegaard ، ولا هى حرية نابعة عن الرفض والسلبية بمفهوم سارتر، ولا تدعمها دقة الحركة الكوزمولوجية Cosmological الكونية كما جاءت عند هيجل Hegel (١١) . فمبدأ الحرية الذى قدمه ريكور يمكن فهمه على أنه ليس رسالة عادية عن الحرية أو ارتباط الحرية بالإرادة كما جاء فى كل من التفسيرين الأوغسطينى Augustinian (نسبة إلى القديس أوغسطين) واللوثرى Lutherian (نسبة إلى المناضل الزنجى مارتن لوثر كينج) ولكن ريكور قصد بذلكأن يستبعد من المناقشات – منذ البداية – إرتباط الحرية بمشكلة العبودية للعاطفة (كالرغبة الجنسية) والقانون ، وعندئذ يكون الفهم الأصلى للحرية المعطاة فى فكر ريكور هى حرية الوضوح والتميز المنهجى لجوهر Eidetic الإرادة فى ضوء محتوى العمليات الإختيارية واللاإرادية (الجبرية)، وهنا يقدم ريكور مبدأ الحرية ، ليس كمبدأ مستقل ولكن يقدمه من خلال علاقته بالطبيعة المعتمد عليها والمتحد معها، وهنا يكون جوهر منهجه هو التبادلية Reciprocity بين الإرادة (الإختيار) واللاإرادة (الجبر) فلكل منهما دور وظيفى تجاه الآخر يدى إلى نتيجة ثالثة ، فالتلقائية الجسمية ، والعادات ، والتأملات التلقائية ، والحاجات والانفعالات ... الخ ، إنما تقدم لنا أساساً وأولويات لأى نشاط إرادى ممكن فعله .

إذن المناقشة الأصلية والجوهرية عند ريكور لمبدأ الإرادة هي مناقشة منظمة تحت فعل « أراد » والذي يحتوى على ثلاث حركات أو مراحل إختيارية : فـا أنا أقرر Idecide ، أنا أحرك جسمي ، أنا أوافق فالحركات الاختيارية مؤكدة بفعل الإرادة ، ففي كل حركة من الحركات السابقة نجد مثالاً منفصلاً – لكنه إنفصال نسبى – فالحركة الاختيارية تتضمن إرتباطاً إجبارياً طالما أن الإجبار يقدم أسباباً للاختيار ، في حين أن الاختيار يقدم تركيزاً على الإجبار ، وهنا يكون من الضرورى الأخذ في الاعتبار هذه المراحل أو اللحظات أو الحركات الثلاث في عملية الإرادة لفهم مبدز ريكور الأصلى عن الحرية في محتوى أو مضمون الإرادة .

وفيما يلى نضع بين يدى القارئ النص التالى كما جاء في كتاب ديفيد راسموسين David M. Rasmussen أستاذ الفلسفة والأنثروبولوجيا الفلسفية بالكلية الجامعية في بوسطن بعنوان : اللغة الأسطورية – الرمزية والأنثروبولوجيا الفلسفية . والذى يشير إلى خلاصة رؤية ريكور للإرادة والحرية ، والنص كما نعرضه دون ترجمة منا هو :

The Central theme of Ricoeur's thought. From the point of view of his attempt to constract a philosophical Anthropoloy, is Freedom and its Limitations. Although Ricoeur originally considered freedom in relationship to nature, Later he turned to Myth and Symbol as Phenomena Constitutive for the experience of freedom and its limitation .

ومن خلال المناقشات الخاصة بالحرية والطبيعة والإرادة تتضح لنا بعض النقاط التالية :

١- الحرية وإتخاذ القرار Freedom and Decision :

يشير تحليل وتفسير الإرادة تحت أى ظرف إلى حالة إتخاذ القرار الذئ يدل على فعل ما في الحاضر والمستقبل ، وهو الفعل الذى يعتمد على الإنسان نفسه وتحت سيطرته وإرادته وهنا تظهر النية أو القصدية في مشروع فعل الحاضر والمستقبل ، ولكن مع شرط إضافى لا يمكن التغاضى عنه وهو أن الذات أساس وجوهر قبل التعامل مع الوعى أو الإدراك الإنسانى والذى قد يكون في بعض الأحيان تأملات قبلية - Pre reflexive مزيفة ، وبدلاً من تلك التفسيرات الطبيعية لحالة إتخاذ القرار في ضود السببية ، فإن بول ريكور قد ربط إتخاذ القرار بالدافعية Motivation ، ورفض التفسير الذى يجعل الدافع موجوداً في سبب أو حالة منفصلة عن القرار ، كما تجنب ريكور التفسير الأخلاقى البحت للدافعية ، والذى قد يربط عملية إتخاذ القرار بمخطط أو

مخططات تفسيرية قد تخفى حالة الاستدلال الفعلى للقرار ، فالقرار كما نراه من منظور الفرد مرتبط بحالة الإنتساب إلى الذات Slef - Imputation والدافعية فى ضوء النشاط التبادلى بين القيود الجوهرية للحرية وإرادة الإنسان ، وأن كل منهما لا ينفصل عن الآخر .

وهنا تكون الجبرية Involuntary من أجل الإرادة ، والإرادة موجودة بسبب الإجبار ، وأنه مجرد وضع القرار فى حالة النية أو القصد فإننا نكون قد دخلنا لى مجال الاختيار Voluntary ، والذى يمكننا بدوره من اكتشاف الأسلوب الذى يكون فيه الإجبار الكونى أو الجسدى أو المادى Corporeal (أى الهيولى) أساسًا للفعل الاختيارى، وينظر بول ريكور إلى العلاقة المتبادلة بين الحاجة والرغبة فى تحقيقها وبين الخيال على أنها أساس لتلك العلاقة التبادلية بين الاختيار والجبرية ، لاسيما وأن الخبرة الجسدية أو المادية أو الحسية عموماً تصبح قاصرة بدون فعل من الإرادة كى يم إشباع الحاجات الحسية ، كما أن الإشباع فى ضوء تلك العلاقة التبادلية لقيم الجبر والاختيار يتم تحقيقه على أنه لذة وسعادة ، فموضوع الحاجة وتحقيقها تسلية بالرغبة والإرادة ، وغالباً ما يتم تقييمه على أنه خير ، فى حين يقيم الألم على أنه شر ، وينظر إلى الألم على أن مصدره فى الخوف وليس فى الحاجة .

ولا شك أن بول ريكور بنظرته السابقة يحاول أن يوسع من طريقته المنهجية الكلاسيكية فى مثالية التميز أو التفرد Eidetic للتفسير ، لتشمل الجبرية الجسدية أو المادية كجزء من العالم التأسيسى Constitutive الفطرى للخبرة والمعنى Meaning .

فالتعريف المبدئى للحرية هى ليست الحرية التى تم تكوينها وتأسيسها باعتبارات ذهنية أو عقلانية وإختيارية بحتة ، وإنما أيضًا بتفسيرات واعتبارات قبل عقلانية - Pre Rational وجبرية Involuntary ، وعند وضع هذين الجانبين المتناقضين كما يبدو ، فإن مجمل هذا الوضع يبدز فى رسم تعريف إجرائى للحرية التى تحاول أن تشتق رؤية ليست كونية (كوزمولوجية) بهذا المعنى. وهنا يكون بول ريكور قد سار وفق مدلول هوسرل فيما يتعلق بإعادة التقييم الفيلومينولوجى للثنائية التقليدية بين الحرية العقلية والضرورة الموضوعية ، حيث اعتقد هوسرل فى ميتافيزيقا جديدة ، وأنطولوجيا جديدة يمكن أن تشتق من المنهجية الظاهراتية (الفينومينولوجيا) ، لأنه مجرد ترك الإنسان لمجال الإتجاه الطبيعى ، فإنه يكتشف أن الثنائية المتلازمة والمتأصلة للخبرة العادية هى مجرد ثنائية مزيفة .

ورغم أن مبدأ الحرية حتى الآن عبارة عن رسم تخطيطى Sketchy ، إلا أنه من الواضح أن بول ريكور يعمل وفق رؤية منهجية متسعة يحاول أن يكتشف من خلالها

المناطق الحسية (المادية) دون أن يقع فى مأزق (مصيدة) بناء كوزمولوجى يؤيد الثنائية وعليه فإن تصور اللحظة الأولى لفعل الإرادة ، هو فعل القرار ، وهنا يتم تقديم مبدأ الحرية لتكون نقيضاً للتعريف الكوزمولوجى للحرية .

٢- الحرية والفعل Freedom and Action :

منذ اللحظة الأولى التى يتخذ فيها الفرد القرار تعد هى بمثابة فعل «للإرادة» أو عمل « للإرادة » الإنسانى ، ذلك لأن الإقدام على اتخاذ القرار إنما يعنى بدء نشاط الإرادة وتحديد بدايتها ، وهنا يصبح القرار نوعًا من المعنى الدلالى Semantic الأجوف أى الخالى من ما يضيف الوفاء به ، ألا وهو الفعل الإرادى للإنسان والذى يكشف ويؤكد على الحرية الاختيارية للفعل والتى يصبح معها إتخاذ القرار قد وصل إلى غايته ، وأبسط الأمثلة على ذلك كما يراها بول ريكور للحركة الإرادية هو « أنا أحرك جسمى » أى إنتقال حركة الإرادة من المثالية إلى الإرادة الفعلية المقرونة بنية استحضار الفعل Presence of Action والمنجز بواسطة الذات ، وهنا تأكيد على ما يشير عملياً إلى اطلريقة التى يربط فيها الفرد ذاته بالأشياء .

وقد أدت تصورات الفعل فى علاقاته بالأشياء – عند بول ريكور – إلى القول بأهمية مبدأ النفعية البراجماتية Pragmatic لتلازم الفعل والإرادة والعمل Correlate of doing ففى المثال السابق لا يكون الجسم هو موضوع الفعل بل هو وسيلة أو أداة الفعل Organ أى أن الجسم يكون متضمناً ومستغرقًا فى عمليتى إتخاذ القرار وفعل الإرادة حتى تستكمل العمليتان ويمكن إتمامها .

ومن هذا المنطلق نجد اهتمامًا من جانب العلماء فى ابراز العلاقة بين كل من الفكر الفلسفى والفكر الفينومينولوجى من أجل التغلب على المشكلات التى تواجه تفسير ثنائية الظواهر لاسيما تلك الفجوة بين الحقائق العقلية والمادية ، فادخال الجسم Body – من منظور الفكر الفلسفى الأنثروبولوجى فى دراسة الحركة الاختيارية إنما يمثل قدراً من التغل أو على الأقل فهماً لقضية ثنائية الجبر والاختيار ، فالفرد يكون قادراً على تحويل الفعل الإجبارى إلى فعل إختيارى ، وذلك فى ضوء وجود ثلاث أسس للحركة الجبرية فى نطاق وحدود الفعل المضاد وهى : أداء المهارات الفطرية والمكتسبة – الحركة وفلسفة وفن أدائها – العادة أو روتينية وتلقائية الأفعال .

فأداء المهارات يرتبط بشدة بالمبدأ العلمى العلمى الموضوعى وهو إنعكاس لما نملكه من مهارات فطرية ومكتسبة ، حيث تشير المهارة المؤداة – من وجهة نظر بول ريكور « بأنها نمط بدائى لسلوك جسمنا فى علاقته بالأشياء المدركة »، أما الحركة وفلسفة وفن أدائها فترتبط بمدى شدة أو ضعف الانفعال أو العاطفة emotion والتى

يمكن تحديدها فى ثلاثة أنماط أو أنواع من العواطف هى : عاطفة التعجب Wander وهى نوع من التوحيد الأولى الإنفعالى لكافة جوانب الوحدة الأساسية (للحوافز والنزوات) الجسمية والاختيارية ، وعاطفة الصدمة Shock والتى تفهم على أنها مزعجة وغير مريحة وخصوصاً فى الحالات الشديدة من الخوف والألم حيث تؤدى الصدمة إلى التقليل جداً من طاقة «الإرادة» ومن ثم يحدث التشتت Disunity وعدم الإتحاد بين الإرادة والفعل. فانفعالات الصدمة تؤدى إلى ضعف « الاختيار » بينما انفعالات التعجب فى أقصى شكلها المجر هى رغبة تؤدى إلى تجميع كل ما هو إجبارى داخل حدود الفعل ، وأخيراً عاطفة أو إنفعال النزوة Passion (كالرغبة الجنسية مثلاً) وهى عادة تكون بمثابة الإنفعال والشور المتماسك فى ذاته .

أما العادة Habit فتشير إلى المجال الثالث للتلقائية الجسدية، والتى بمقتضاها تصبح الحركة والفعل الاختيارى شيئًا ملموساً ومدرك Inform ، فالعادة هى بمثابة الأسس والثوابت الدالة على وحدة الجبر والاختيار على مستوى التلقائية الجسمية أو الجسدية ، وهنا تتميز العادة عن المستويين الآخرين (المهارات – والحركة) باعتمادها على التعلم، فالعادة مكتسبة ومن خلال عملية الاكتساب تصبح لدى الإنسان طبيعة ثانية تسمح للذات بتأدية المهارات والتى بدونه (العادة) لا يمكن للمهارات أن تنجز وتؤدى، فالعادة تطبيع مفيد للشعور والوعى والحرية ، والعادة مكتسبة بفضل تطبيق الإرادة الإنسانية على الطبيعة الكونية للإنسان والتى هى مجال الجبر والإلزام ، ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن كلا من هوسرل وريكور ومن خلال نظرتهما وتحليلاتهما الفينومينولوجية فقد حاولا التوفيق بين ثنائية العقل والجسم ، وهى تلك الثنائية الموجودة فى الكوزمولوجية الكلاسيكية .

٣- الحرية والقبول Freedom and Consent :

إن النشاط الكامل للإرادة ليس مجرد قرار ، ولا مجرد فعل ، إنما يرتبط باللحظة النهائية فى الفعل الثلاثى للإرادة وهو القبول أو الموافقة Consent فالقبول هو أكثرها أهمية فى عملية الإرادة لأن القبول يوضح صعوبة قضية العلاقة بين الحرية Freedom والضرورة ، والتعامل مع قضية القبول أو الموافقة ليس أمراً سهلاً لاسيما فى ظل التفرغ الثنائى العام والمطلق بين الحرية والضرورة التى يؤيدها الوجوديون المحدثون ، حيث دشن سورين كيركيجارد Kierkegaard تلك المعضلة Dilemma بهدف التأكيد على التفرد الثقافى المطلق بين الحرية والضرورة ، واقترح أن مشكلة الإنسان مرتبطة بوجوده العالمى (الكونى) ، ويأتى مشروع كيركيجارد للوجودية بمثابة تحرير للإنسان من ارتباطه بالعالم (الكونى) لكى يتأكد من إمكانات وجوده الخاص. ويظل الأمر ، ويبقى على جان بول سارتر Sartre أن يعيد تأكيد هذا الشقاق الراديكالى

(الأصولى) بين الحرية والضرورة بعمل وإقامة تمييز بين الكينونة فى ذاتها Being - in - itself (الضرورة) ، والكينونة من أجل ذاتها Being - for - Itself (الحرية) أما بول ريكور ومن منطلق إهتمامه بالتغلب على قضية الثنائية الابستمولوجية ورغبة منه فى دمج الجسم المتجسد Marcel فإنه يرى القضية لا من منظور ثنائى راديكالى (أصولية الحرية والضرورة) ولكن من منظور التوفيق بينهما ، إذن يصبح القبول أو الموافقة هو حركة الحرية نحو الطبيعة لكى تصبح متحدة مع ضرورتها وتمويلها فى ذاتها .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة – كما يبدو فالقرار النهائى للحرية والضرورة فى الموافقة والقبول من المنظور السيكولوجى هو أمر حتمى وجبرى Determinism أما من وجهة المنظور الفلسفى فليس بالضرورة إنتصار الجبرية على الاختيار ، حيث تكون الموافقة أو القبول – من وجهة نظر بول ريكور ذات صلة بعناصر ثلاثة رئيسية هى الشخصية Character والوعى أو الإدراك Consciousness والحياة Life فالشخصية يتم تعريفها على أنها الأقرب للإرادة ، فهى التى تقيد الإنسان بإتخاذ كل قرار ما ، وإنت كل فعل للإدارة ممكن ومحتمل وغير متوقع بسبب خصوصية الشخصية فى مدى قدرتها على إستكمال القرار، وحيث أن الفرد ليس حراً فى أن يكون شخصاً أو فرداً آخر، وليس حراً فى أن يغير شخصيته وفقاً لرغبته، فإن هذا هر أحد جوانب الضرورة، أى أنه جانب الإجبار الذى لا يمكن تغييره أو تعديله، ورغم إعجاب بول ريكور بعبارة ديموقريتس Democritus الذى قال أن شخصية الإنسان هى قدرةMan"s Character is his fate إلا أن ريكورز لم يرغب ببساطة فى صياغة تفسير حتمى للشخصية لأن الشخصية هى موضع حرية الإنسان(١٤) .

أما عن حالة الشعور أو الوعى وحالة اللاشعور واللاوعى Unconscious ومدى علاقتها بدرجات القبول أو الموافقة على ممارسة الفعل من جانب الإنسان فتمكن فى مدى وعينا وإدراكنا بحالة اللاوعى واللاسعور والتى إنطبعت لدينا فتكمن فى مدى وعينا وإدراكنا بحالة اللاوعى واللاشعور والتى إنطبعت لدينا تفسيراتها إجرائياً بأن حالة اللاشعور هى تلك التى لا نشعر بها، بل وصل الأمر بالبلعص إلى تفسير ما نملكه من شعور بإنه مجرد إحساس مزيف، وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة أخير ألا وهى «رفض صدق الشعور أو الوعى» وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يرى أن اللاوعى هو مجرد حدود وقيود الحرية، وهنا يكون اللاوعى هو الطرف الثلاثى للعلاقة مع كل من الحرية والوعى، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يوجه إنتقادته لتفسيرات سيجموند فرويد فى الجوانب التالية:

أ- إن واقعية realism فرويد تثير شكاً فيما يتعلق بواقعية خبرة الوعى، فمن وجهة النظر المنطقية تصبح تلك الواقعية مزيفة طالما أن الفكرة الأساسية فى تفسير اللاوعى تؤكد حالة الوعى، حيث يجب على الفرد أن يكون على وعى (شعور) بالخاصية الجوهرية (اللاشعور) لكى يضمن تفسيره، وعليه فإن مبحث فرويد بأن اللاوعى يسود على الوعى إنما هو أمر يثير التساؤلات.

ب - يرتبط بهذه الواقعية Realism السببية Casulism أو العلية ميل إلى تفسير الحقائق فى ضوء خبرة اللاوعى بطريقة عليةـتختص بللأشياء والوقائع وليس من حيث خبرة اللاوعى الذاتى الرئيسية المجردة فالقضية هنا تنصب على لغة العلية أو السببية، وليس لغة القصد أو الفعل العمد لحالة اللاوعى أى أنك «تشعر» أولاً ثم تشرع فى الفعل، وهى حالة الإنسان الأنثروبولوجى الكونى أو العولمى فيزيقيا وحضارياً، أما لغة السببية أو العلية فتشير إلى الأشياء المادية المتجسدة فى الفيزياء الذهنية Mental physics، وهنا تكمن صعوبة لغة السببية بسبب رفضها للحرية، وتصبح السببية هدفاً مساوياً للدافعية الغير حرة بصورة مطلقة، وهى محاولة من جانب ريكور للفهم الصحيح للعلاقة بين الحرية والطبيعة.

ج - إن مشكلة الشعور أو الوعى تكمن فى أصلها الوراثى Genetic أو النشوئى التطورى، أما اللاوعى فقد إكتشفه وأكد عليه فرويد رغم علمه بالمبادئ الوراثية للتفسير، فالمشكلة هنا هى كيفية محاولة تفسير الأشكال العليا من الوجود بأشكال دنيا وهو ما يرفضه بول ريكور الذى يدعم مبدأ الحرية ويرى أن تصديق مبدأ اللاوعى فى التفسير إنما هو ضربة قاضية للحرية، أى أنه قراءة فى إتجاه معاكس لكل من الشخصية والإرادة، وهنا يصبح فهم اللاوعى - من وجهة نظر ريكور - بأنه شرط للحرية، وإذا تم فهم الشخصية على أنها ضرورة أى أنها أقرب إلى الإرادة وأنها «قدر الإنسان» فإن الحياة هى التى تلى الشخصية ثم اللاشعور أو اللاوعى(١٥).

ويمكن تحليل الحياة Life من خلال ثلاث مراحل أساسية هى:

- البناء الفيزيقى، وهى المكونات البيولوجية ووظائفها والتى غالباً تحد من حرية الإنسان، حتى وإن كانت هذه الوظائف ليست محكومة بواسطة الحرية، فالجهاز العصبى، وجهاز الغدد الصماء وغيرها إنما يحتاج إلى قليل من الإرادة لكى تعمل بصورة صحيحة وكبناء فالحياة شرط للإرادة والوعى بصفة عامة، فالعلاقة التلازمية بين الإنسان والطبيعة - والتى قد تفسر فى بعض الأحيان بأنها زيف فى الكوزمولوجية الكونية للبشر - يمكن تفسيرها وحلها بواسطة دور الإنسان الفرد.

- النمو الفيزيقى، وهو المجال الثانى الذى تتعرض فيه قضية الحرية والحتمية

للتناقض وهى عملية ليس للحرية سيطرة عليها ربما على الإطلاق، فالنمو ليس من صميم عملى كفرد، ولكنى أعرف النمو كحقيقة قاطعة. فحقائق النمو يمكن تصورها على أنها تصور وراثى نشوئى تطورى جيناتى، ومعها نمو الشخصية، ومحدودية العمر وهى كلها جوانب للحتمية أو الضرورة التى ما على الحرية سوى الإذعان لها.

– النشأة أو الميلاد: وإذا كانت الحرية محدودة بالحياة كبناء ونمو، فهى أيضاً محدودة بالنشأة والميلاد طالما أن كل مخلوق متأمل ومفكر Cogito ليس لديه سيطرة على أصله، فالميلاد ظاهرة لا يمكن للوعى أن يدركها وبما أن الميلاد والوراثة عمليات تسبق الفرد فإن – حالة الموافقة أو القبول إنما يتم تقديمها كعامل وما على الحرية سوى الإذعان بالموافقة والقبول.

٤ - الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر:

وهنا وعلى حد قول بول ريكور نكون قد إقتربنا أكثر فأكثر من محتوى وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية والتى هى فى نظره كل ما يمكن التعبير عنه بالإتجاهات والخصائص المادية لسلوك الإنسان بما ف يذلك الإرتباط القائم بين لغة الأسطورة ودلالاتها الرمزية القادرة على تجسيد الأحداث والأفعال والأفكار والتصورات والتأملات العقلية، ولكن السؤال الهام ليس فى محتوى أو مضمون الأنثروبولوجيا الفلسفية بما فى ذلك ما يقره علماء الأنثروبولوجيا التقليدية حول أنثروبولوجيا الجسم وفلسفة ومغزى وجوده، وإنما السؤال الأساسى يكمن فى مشكلة محتوى الطريقة المنهجية الخاصة بالبحث فى تلك المسائل الجوهرية والتى عبر عنها أدموند هوسرل بأنها بحث فى مثاليات وجوهر Eidetic الأشياء، ومن بينها البحث فى جوهر إرادة الإنسان وحريته، والعمل على حل قضية الثنائية الأبستمولوجية (لنظرية المعرفة) القائمة على ثنائية الجسم Body والعقل أو الذهن Mind.

والجسم كجانب مؤسس للمعرفة مثله مثل العقل لأنه على أساس الجسم العقلى يتم تكوين القرارات وإصدارها، فالحرية والإرادة الإنسانية لنشاط وسلوك الإنسان تتشكل بواسطة الجسم (أى الطبيعة)، وهذا يكون الجبر مرتبطاً بالإختيار، كما هى ثنائية الجسم والذهن، ومن ثم يكون بول ريكور قد إحتوى الحرية داخل الطبيعة، أى الإرادة داخل الجسم، وفى ضوء ذلك الشمول يمكن إدراك النظرة الكونية أو العولمية Global تجاه الإنسان الجوهر، مع الأخذ فى الإعتبار حتى أنه مع هذا التصور الشمولى لنشاط الإنسان فإن الحرية محدودة وفقاً لنشاط الفرد وتفرده الذاتى عن غيره من أقارنه من بنى البشر، وعليه فإن الحرية البشرية لا يمكن إخضاعها ببساطة لضرورة الجسم أو الطبيعة الفيزيقية، فخبرة الإنسان الواقعية على التحطيم والتدمير والشر تجعله يتحرك

نحو السمو مما يعبر عن بعض التناقض الواضح والحيادى – إلى حد ما – بين قضية الحرية والجسم أو الإرادة والطبيعة، فالإنسيابية داخل إنسانية الإنسان وإدانة الإنسان الظاهرة للشر هى التى تدعم قضية الحرية فى أفعاله ونشاطاته، وهنا يأتى دور الأنثروبولوجيا الفلسفية التى تسعى وتهتم بالفهم الكامل للحرية (فى ضوء خاصيتها الكونية أو العولمية).

ثانياً : الحرية والقابلية للخطأ Freedom and Fallibility

إن حركة الإنتقال من الوصف إلى حالة مبحث مثالية وجوهر Eidetic الأشياء إلى الوصف الوجودى هى الحركة من القيود التى تفرضها الطبيعة أو الجسم الفيزيقى للإنسان إلى قيود وحدود تفرضها القابلية للخطأ، من خلال الخاصية المتجسدة لحرية الإنسان والمتضمنة فى حصيلة معلوماته اللغوية والإتصالية وحدودها، ومحتوى التحليل الوجودى لدى الإنسان، فهى منهجياً تنصب على وجهة النظر الكلية للإنسان أو عولمة الإنسان «وكونتة»، وتعامله مع مبدأى السمو والخطأ والخير والشر، وقد فسر إدموند هوسرل وأتباعه وفقاً لطريقته الفينومينولوجية نشاط الإنسان بأنه تشييد وإقامة للتأمل والإنعكاس Reflection الصادر عن الجسم، حيث يقوم الجسم بوظيفة الإعلان والإعلام بالإرادة، ولكن هل هذا التأمل كلياً وشمولياً أم مجموعة من التأملات تلك قضية أخرى إنشغل بها بول ريكور، ووجد وفقاً للوصف الوجودى أن هناك فرضاً بأن الإنسان هو الذى يعمل كأساس فلسفى للتأمل المتميز ذو الدلالة، ويمكن للأنثروبولوجيا الفلسفية فى تصورها لعولمة الإنسان أن تنظر إلى موضوع الحرية والطبيعة فيضوء إهتمامها بمجال أخلاقيات الإنسان ودرجات سموه وتجنبه من الوقوع فى الخطأ، وهو أمر لا يتوقف عند وعى الإنسان بالحرية، ولكن من خلال خبرة الإنسان ذاته.

ويظل هناك سؤال هام مؤداه : كيف يكتشف الفرد الحرية كجانب مكون للوعى الإنسانى؟ ويجيب بول ريكور على هذا السؤال بقوله أن الحرية لا تفهم إلا فى علاقتها التبادلية مع الشر، والتى هى رؤية أخلاقية عن هذا العالم، وهذا التفسير يعتبر المفتاح للطريقة التى يجب أن نتناول بها موضوعات السمو والخطأ وطبيعة العلاقة التبادلية بينهما.

ومن هذا المنطلق تهتم الأنثروبولوجيا الفلسفية بموضوع الحرية فى علاقته بدرجات القابلية للخطأ من جانب الإنسان، لا سيما الإنسان الخطأ أى الإنسان اللامعصوم Fallibleman وهو الذى يستعيد معنى القابلية للخطأ والبحث عن موقعها فى خبرة الإنسان التأملية عن ذاته، وهى المهمة التى يتم تنفيذها فكرياً وأنثروبولوجيا تحت مسمى الحرية، وعموماً تكون حركة الإنسان اللامعصوم نحو الحرية محكومة بثلاث جوانب هى: درجة المعرفة، ومستوى الفعل، ودرجة حدة الوعى والإدراك، ويدعم القول السابق ما يلى:

١ - النزعة الإفتراضية Hypothetical :

وهى القائمة على أساس أن الإنسان بطبيعته هش وعرضة لإقتراف الإثم، وأنه ليس هناك تطابق للإنسان مع ذاته، وهى تلك الفرضية التى توضح أن القابلية للخطأ هى خبرة معرفية، وعمل وشعور داخل الشعور.

٢ - نظرية المعرفة والقابلية للخطأ :

إن مستوى المعرفة أو ما يعرف فلسفياً بالإتجاه التكوينى الأبستمولوجى لدى الإنسان يتوقف على مدى عملية التأمل المعرفى والخبرات بصورة جادة، ومن ثم يمكن فهم الخاصية التكوينية لمستوى الوعى، وهى حالة المراحل الأولى للفكر والتكوين الفكرى التى تحدث عنها علماء الأنثروبولوجيا الأوائل أمثال إدوارد بيرنت تايلور ولويس مورجان، وليفى بريل، ومارسيل موس، وكلود ليفى ستروس وغيرهم، وعليه يكون مستوى الفعل والممارسة مطابقاً لمستوى الوعى والإدراك، وأن محدودية الفعل والنشاط تتوقف على محدودية درجات الوعى، وهنا يصبح محكوماً على الفكر إما بالإنشطار وإما بالإنغلاق، حيث تكون البداية للفكر ووفقاً لوجهة النظر الأنثروبولوجية «بالإدراك»، فالإدراك هو شئ قد تبدأ به المعرفة (الأبستمولوجية)، ولكنه شئ آخر أن تفهم أو تقوم بالتأمل لما أدركت، وهنا نكون فى حاجة إلى الوظيفة ذات الدلالة والمعنى للغة، وقد ساير بول ريكور، إيمانويل كانط Kant فيما يسمى «بالتركيب المتسامى للخيال البحت» وهو أن يطلق الإنسان خياله الحسى من أجل الإدراك مثال ذلك، فأنت حين تدرك شجرة فإنك تتلقى سلسلة من البيانات الحسية حول: شكلها، ولونها، وأوراقها، وثمارها، وإرتفاعها، وسمك فروعها وأغصانها، وفوائدها... وهكذا، وهى أمور تأخذ الإنسان إلى كشف عالم الثنائية المحدود واللامحدود، وتبقى أمام الإنسان فى بناء فكره الفلسفى الأنثروبولوجى أن يفرق بين ما يرى ويدرك، وبين ما يفهم لفظياً ويدرك بمستوى الفهم والدلالات اللغوية من خلال الخيال.

٣ - الفعل والقابلية للخطأ :

بينما يسعى المفكر الفلسفى فى مجال الأبستمولوجى لإدراك مشكلة الأساس العقلى والفكرى للوعى نجد أن الأنثروبولوجى الفلسفى ينظر إلى الأبنية الذهنية للإنسان ومدى قابلية الإنسان للخطأ من خلال الفعل والممارسة، وهى لا شك خاصية التفاوت والقفز من المعرفة إلى الفعل والإنتقال من النظرى إلى العملى، وهو ما يؤكده بول ريكور فى كتابه بعنوان الإنسان الخطأ Fallible Man وهى النواحى العملية المرتبطة بشخصية الإنسان، ولكن مع ذلك فإن بول ريكور لم يتجاهل مبدأ الخيال المتسامى(١٦). الذى يسعى من خلاله الإنسان إلى تكوين «الإحترام» وهو ما أكد عليه

بول ريكور نفسه فى كتابه بعنوان الحرية والطبيعة Freedom and Nature حيث يرى أن الشخصية العملية هى ضرورة شديدة الإلتصاق «بالإرادة» فشخصية الإنسان وفقاً لهذا الوصف هى حدوده وقدره(١٧) . وإن كان فى هذا القول شئ من التحفظ، لا سيما وأنه لا يجب النظر إلى الشخصية على أنها شئ مطلق، أو حالة من الإنغلاق، وإنما الشخصية هى أيضاً حالة من الإنفتاح الذى يجعل الحرية ممكنة.

٤ - الشعور Feeling :

هنا تكون كلمة الشعور أو الأحاسيس أو التأثر ذات إختلاف إلى حد ما فى طبيعتها مع كلمة الشعور أو الوعى Consciousness، فهى تشير إلى عد تنازلى فى أحاسيس ورقة مشاعر الإنسان فهو يسمو من حالة الشعور بصفة عامة (وهى الوعى) إلى حالة الشعور بالذات (وهى المشاعر والأحاسيس Fellings) أو بمعنى آخر يتدرج الإنسان من النظرى إلى العملى إلى العاطفى، وهنا يتطور فكر الأنثروبولوجيا الفلسفية، ويصبح ذا تعبير أكثر داخلية Inward، وأكثر رقة بل وأكثر قابلية للإنكسار أو الإنشطار Fragile لأنه إنتقل مع المشاعر إلى مجال القلب، وهنا نقترب من تفسير فكر الإنسان ومشاعره المرتبطة بمبادئ اللذة والألم، واللذة والسعادة والفضيلة والرذيلة، والخير والشر. وهنا يصبح الإنسان مهيئاً أنثروبولوجيا للتعامل مع القضايا الغيبية والأسطورية والرمزية ومدى دلالاتها الوظيفية فى ضوء الفكر الفلسفى الأنثروبولوجى، والذى يسعى إلى تحليل المكون الأساسى للخبرة التى يشعر بها الإنسان، ومدى الصلة فى تركيبه وتكوين وتشكيل المعرفة لديه، وبين النشاط أو الفعل، ومدى المساحة الفاصلة بين المعرفة والفعل والتى تعرف بخليط المشاعر أو الأحاسيس.

ثالثاً : الأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية وإقتراف الخطيئة :

يتضح من كل ما سبق أن موقف المفكر الفرنسى بول ريكور Paul Ricoeur ومن خلال بحثه فى مضمون الأسطورة والرمز واللغة تجاه الظاهرة التأملية وقد تم تحليله وتفسيره من خلال وجهتى النظر التأملية العقلية وحرية الفعل وممارسة الإنسان لسلوكياته فى إطار ومضمون الخبرة السابقة لديه من رصيد المعرفة المختزن، وهو الأمر الذى تسعى الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى تبنيه كمبحث فكرى / عملى يحقق «عالمية وجود الإنسان المفكر» وفى ضوء ما يمكن أن يطلق عليه بالأنثروبولوجيا العولمية التى تستند إلى الدعائم الأربع المتمثلة فى الأسطورة Myth الرمز Symbol والحرية Freedom والإنسان سواء المعصوم أو اللامعصوم Fillible Man من إقتراف الخطيئة.

وعليه تصبح الأنثروبولوجيا الفلسفية فى حاجة ماسة إلى الإستعانة – وفقاً لوجهة

نظر بول ريكور – بمبحث مثالية الجوهر Eidetic Method من أجل تحقيق فهم جيد للحرية المعلنة والمقننة والمشروعة، والمحدودة فى نفس الوقت من قبل الطبيعة البشرية والإلهية، كما تسعى الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى الإستعانة بمبحث الطريقة والمذهب الوجودى والذى يقدم فهماً للحرية المعدلة فيضوء القابلية للخطأ، ورغم هذا التوجه المنهجى المذهبى فى البحث فى القضايا الفلسفية التى تهم الإنسان الأنثروبولوجى إلا أن بعض المفكرين الأنثروبولوجيين يرون بأن التعامل مع الحدود الواقعية للحرية لابد وأن يتم من خلال تفسير «الخطيئة والشر»، فهى مجالات شديدة الغموض من جهة، وهى غنية فكرياً وعملياً من جهة أخرى لارتباطها وإتصالها بمسارات الرمزية السحرية والدينية، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يخصص جانباً كبيراً من كتابه بعنوان «فلسفة الإرادة» لتوضيح الرؤية العالمية (العولمية) للإنسان فى ضوء الظاهرة التأملية والأخذ فى الإعتبار رمزية الأسطورة والإنسان فى إطار لغة الرمز والأسطورة، وهى اللغة ذات المستوى الخاص جداً عند بول ريكور والتى أشار إليها فى تعريف إجرائى بأنها لغة الإعتراف Avowal والإقرار والمجاهرة بمضمون الوعى أو الشعور الأسطورى / الرمزى، ولهذا يرى بول ريكور أن هذه اللغة الإتصالية لهذا النوع من بنية الفكر الإنسانى / البشرى هى لغة قد تكون سابقة عن لغة الفكر الفلسفى الحديث والمعاصر، بل والفكر الفلسفى الغابر فى القدم، وعلى هذا الأساس نجد أن بول ريكور يحاول أن يشيد لنا إطاراً بنائياً من الفكر الإنسانى مدعوماً بوحدة العقل والوعى والشعور الإنسانى فى ذاته وفى كينونته، القابلة للخطأ، وفى حدود التعامل مع الإمكانات Possibilities المتاحة فقط.

ويشير بول ريكور إلى ثلاثة أنواع من اللغة الإتصالية فى حالة تفسير الخطية أو الشر، وهى:

١ – اللغة الأساسية المرتبطة بالرموز، وهى الأكثر جوهرية ومركزية للتعبير عن الخطيئة أو الشر، كلغة التمرد والعصيان، والكفر، والزنا، والسرقة، والكذب ... وغيرها.

٢ – لغة التفسير الرمزى فى الأسطورة والتى تعتمد على الرموز الجوهرية داخل الأسطورة، مثل حالة جبروت الأب فى أسطورة أوديب.

٣ – ثم تأتى بعد ذلك لغة التفسير الفلسفى والتى تعتمد على التأملات Hermeneutics أساساً فى تناولها لمشكلة الشر.

ولهذا يتضح أن الرمز هو أكثر العناصر تعبيراً عن الشعور بالخطيئة والشر، فمناقشة التوجه إلى أسبقية الرمز على أنه الأصل، تعنى أن المناقشات الفلسفية العادية إنما تكون مجردة وتأملية للغاية، ولا تستطيع تحقيق التعليل الأساسى الذى يعطيه الإعتراف

الدينى مثلاً عن الشر والخطيئة فى لغة الرمز، وعليه فإن التفسير بواسطة الإستعانة بالتعبيرات التلقائية فى مثل تلك الحالات قد يكون أجدى من الإستعانة بالتعبيرات التأملية، كما ركز بول ريكور من جانبه على ضرورة البحث فيما وراء التعبير العقلانى الغربى الزائف للكشف مباشرة عن المواجهة فيما بين الشعور أو الوعى مع الشر، وأن مبدأ الخطيئة الأولى أو الأصلية هو مبدأ عقلانى فى مظهره فقط. وقد إستند هذا التفسير لأصل الشر والخطيئة إلى التعاليم التى سادت خلال الفترة الغنوسطية Gnostic Period (المذهب الغنوسطى) عند النصارى الأقدمين والذين كانوا يعرفون بأصحاب مذهب العارفين، وهو مذهب مسيحى يعتقد بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية ويرون بأن الخبرة الإنسانية السابقة – والتى تشكلت سابقاً – هى نفسها التى تسهم فى التفسير، بل هى وحدها القادرة على تنمية الشعور بالوعى والتفرقة ما بين الخير والشر، والصلاح والخطيئة وكل ذلك فى ضوء مبدأى الحرية والإرادة، وهنا تتعرض الحرية كمبدأ لأكثر إختباراتها الراديكالية Radical (الأصولية)، وفيما يلى عرض لبعض النقاط التى تشير إلى تلك الإختبارات:

أولاً: الرمز والإرادة المستسلمة:

جاء من خلال إهتمامات بول ريكور بالبحث عن الرمز Symbol فيما أسماه بالأنثروبولوجيا العولمية Global Anthropology أن رمز الشر وجد بسبب الإرادة المستسلمة The Servile Will والتركيز على التحليل الفينومينولوجى Phenomenological أى المحسوس Perceptible ذو الصلة بالظواهر الطبيعية Natural Phenomena القابلة للملاحظة والمشاهدة لا على أساس التأمل فى ذاته، لأنه حتى فى مبدأ قابلية الإنسان للخطأ، فإن مبدأ الإرادة المستسلمة يكون متوفراً لديه ولكن بطريقة غير مباشرة وتلك الحقيقة وحدها تبرر الدراسة الرمزية التى تنقل الفرد من إمكانية القابلية للخطأ إلى الخبرة الحقيقية (أو الفعلية) للخطأ المعترف به لغوياً، ولفهم هذه النتيجة حول رمزية الظواهر المحسوسة، علينا من الضرورى أن نتناول الرموز نفسها فى هذا السياق كما يلى:

١ – بقعة أو وصمة الشر Stain أو «التلطخ» بالخطيئة والذنب، وهنا تكون الرموز أكثر مناسبة للإعتراف بالشر، حيث يكشف تحليل «تلطخ» الإنسان بالذنب عن سمتين الأولى موضوعية بأن التلطخ بالذنب شئ يسبب الفساد أو العدوى أو التلوث، وحتى فى التعبير اللغوى نفسه Stain يأتى عكسها لغوياً Stainless بمعنى الصافى أو اللامع أو غير المتلطخ وقد إنتقل هذا المعنى إلى وصف بعض المعادن لشدة لمعانها وصفائها وغير قابليتها للصدأ أو التلطخ بالتلوث، وتلك السمة تشير إلى المذنب كالزانى والفاسد والكاذب والكافر أو الملحد وغير ذلك.

أما السمة الثانية للتلطخ فهى ذاتية وهى تشير إلى «الذنب» نفسه أو الشر نفسه كشئ مرعب ومخيف كالكفر والإلحاد والزنا، والسرقة والنجاسة وغيرها، وعندئذ يأتى المفهوم الرمزى ليشير إلى الخاصية المزدوجة للتلطخ (موضوعياً وذاتياً) وعليه لابد من تنقية النفس من الخوف والرعب التى ترمز له هذه البقعة.

٢ – الخطيئة Sin حيث رمزية إقتراف الإثم أو الذنب ذات علاقة قديمة بالخطيئة، وبغض النظر عن المفهوم التاريخى لإقتراف الإنسان للذنب فإن الخطيئة موجودة كونياً، وأن الإنتقال من النجاسة أو التدنس Defilement إلى الخطيئة أمر مستمر، وقد يكون غير مستمراً (متقطعاً) وقد نظر بول ريكور إلى الخطيئة بأنها حالة من تمزق العلاقة التعاقدية بين الإنسان وخالقه، ولهذا فالخروج عن الإيمان بالوحدانية أو الإله الواحد Monotheistic يعرض الإنسان للعقاب الإلهى، وهكذا تظل رمزية الخطيئة موضوعياً وذاتياً أمراً لا نهاية له طالما وجد الإنسان بمفهومه الأنثروبولوجى (العملى).

٣ – الذنب Gult يشير الذنب إلى كمية متصلة من النقاط الخارجية والداخلية التى تربط بين كل من التلطخ والخطيئة والذنب، وقد وجد بول ريكور أن الذنب يعد من أكثر النقاط داخلية (فى نفس الإنسان) ومن أكثرها راديكالية (أصولية) أيضاً. فالنجاسة تعبر عن مواجهة الإنسان للشر، وبذلك يتأكد أسبقية الشر عن مواجهة الإنسان له، كما أن الخطيئة لدى الفرد تعبر عن نفس المواجهة فى صورة «الشعور غير السعيد» وهكذا عندما يرتبط الذنب بالإعتراف بالشر فإن الأمر يرتبط مباشرة بتطبيق وتطور «قانون العقوبات» وهنا يرى بول ريكور أن تعزيز الذنب يعد بداية لدخول الإنسان فى دائرة الإدانة، والتى قد تسمح بالإستناد إلى تبريرات «الضمير» وهنا يتم فهم المعنى الكامل للقانون والذنب أمام القانون.

وهكذا فتحت المبادئ السابقة المجال للمناقشة فى إمكانية وصول الفرد لمبدأ الحرية الحبيسة Captive Freedom أو المقيدة أى الأسيرة، وهى قضية كبرى للبحث فى الحرية فى علاقتها بالإنسان الأنثروبولوجى العملى، ولكن رغم عدم وضوح الفكرة العقلانية للإرادة Will والحرية، إلا أن هناك دلالات أنثروبولوجية متضمنة فى بعض الرموز ذات الأبنية المتشابهة، وهى التى تلخص البناء الأساسى لرمزية الشر فى إرتباطه بالإرادة المستسلمة أو الحرية الحبيسة فيضوء الخصائص التالية:

١ – إن الخطيئة أو النجاسة توضح أن الشر ليس عدماً Annihilate، وأنه واجب الوجود لأنه شئ يتم عمله وتحقيقه سواء من المنظور البشرى أو الإلهى.

٢ – ينظر إلى الشر على أنه شئ يأتى للإنسان من خارجه، أى أنه شئ مقدم الوجود على وجود الإنسان، وبذلك يكون للشر بناء يشارك فيه الإنسان.

٣ – ينظر إلى الشر على أنه شئ معدى Infects أى مفسد نظراً لأنه ظاهرة معدية.

وتتضح رمزية تلك الخصائص من خلال النظر إلى الإنسان ومدى قابليته للخطأ، نظراً لأن الشر هو الذى يحيط بحرية الإنسان. وهو الذى يعترض الإنسان ويفسده، وبالتالى يحد من قدرته على الخير الذى قد يختاره، وقد نظر علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى الأساطير باعتبارها تمثل الفكر البدائى للرموز بأنها ذات أهمية بالغة فى تفسير الحرية وعلاقتها بإقتراف الشر.

رابعاً: الأنثروبولوجيا الفلسفية والأسطورة:

يخطئ من يظن أن الأساطير ما هى إلا حواديث وحكاوى تروى من الناس إلى الناس دون هدف من ورائها سوى قطع الوقت والقضاء على وقت الفراغ بالتسلية، كما يخطئ من يظن أن الأساطير ما هى إلا خرافات وخيالات غير حقيقية لا يستجيب لها سوى البلهاء والدهماء والأطفال، ولكن واقع الأسطورة وتاريخها ينبئ بغير ذلك كله، فهى تراث إنسانى خالد قامت على أساسه آداب وفنون عالمية، ويأتى ذلك فى ضوء مرافقة الأسطورة للإنسان منذ نشأته فى الكون ولا تزال ترافقه حتى الآن، وأيا كانت الأسطورة بألوانها المختلفة ونماذجها المتباينة ما بين الآلهية، أو البطولية أو الغرامية أو الفكاهية إنما تمثل جزءاً من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلاً بعد جيل، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانباً حيوياً فى تكوينهم الثقافى وحياتهم الاجتماعى (١٨).

وأغلب الأساطير تدور حول إقامة وإنشاء حياة أفضل للإنسان، وهى محاولات ظهرت ونشأت مع نشوء الإنسان وتطوره، يفسر بها أهم المشكلات التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون، ويحاول بواسطتها أن يجتاز الفجوة والهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به، فيحاول عن طريقها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله، ولماذا يقع الشر؟ وكيف ينتصر الخير؟

وإذا كانت الأسطورة تحوى كماً وحجماً لا بأس بهما من الغموض والأسرار التى تكتنف معنى وإستخدام مصطلح الأسطورة Myth والحكاية الأسطورية Legend وأيا كانت علاقتها بالحقيقة التاريخية أم أنها تتسم بطابع أسطورى غير جدير باليقين، إلا أن إستخدامنا لمفهوم الأسطورة وتحليلها أنثروبولوجيا وفلسفياً إنما ينطوى على معايير وظيفية لا يمكن إنكارها أو التغاضى عنها، ذلك أن الأسطورة إنما هى نتاج المخيلة الإنسانية Human Memory ، تنبثق من موقف محدد لتؤسس شيئاً ما، ومن هنا جاء الإختلاف فى وجهات النظر حول تعريفها ونماذجها المختلفة والوظيفة أو الوظائف التى تؤديها.

ولما كانت الأسطورة أكثر إرتباطاً بتفسير العلاقة بين الشر والخير، فقد جاءت مناقشات بول ريكور Paul Ricoeur حول تعريف الأسطورة باعتبارها فكراً بدائياً للرمز إنما تتضمن أبعاداً وأنماطاً متباينة من المناقشة الرمزية تتفرع بدورها إلى قضايا أساسية أكثر شمولية من مضامين الرمز ذاته، ولهذا يترتب عليها تحليلات وتفسيرات أكثر إكتمالاً وشمولية للقضية الأساسية عنده - ريكور - وهى العلاقة بين الحرية والشر، ولهذا ينظر ريكور إلى تعريف الأسطورة بأنها تتضمن القضايا والأسس التالية:

١ - إن الأسطورة تحكى وتروى فى سياق تاريخى يتحدد من خلاله مفهوم الإنسان والإنسانية، فيصبح كل منهما نموذجاً تاريخياً لحالته ودالته.

٢ - إن الأسطورة تحكى قصة أو راوية تجمع بين الخرافة والتاريخ.

٣ - تحاول الأسطورة شرح الأحاجى Riddles وتفسير لغز Enigma التاريخ الإنسانى، وأن يوضع داخل القصة أو الحكاية شرح وتفسير للمشكلة أو القضية الخاصة بالإنسان.

هذا وقد وقف بول ريكور منذ البداية موقفاً حاسماً فى نظرته إلى الأسطورة ووظائفها والتى نظر إليها بأنها لا تقل عن الرمز فإنها تخبرنا بالفكر المتضمن فى الذاكرة البشرية أو الإنسانية، وهو بذلك يقف موقفاً معارضاً من ميرسيا إلياد Mircea Eliad الذى يرى أن الأسطورة تتضمن موقفاً كاذباً وغير حقيقى Falsity، أما ريكور فينظر إليها بأنها حديث ذو معنى، فالأسطورة فى رأيه، ومن خلال النمو الفكرى (التأملى) يمكن لها أن تتأكد وتستمر وأن تفسيرها المناسب يجعلها فى أفضل صورة من مجاورة المعرفة الروحية[١٩]. وهذا التجاور - فى رأى ريكور - أصبح بمثابة الأساس الأخلاقى Axiological لتنظيم رؤى الأسطورة فى سياق تاريخ الفكر الفلسفى الغربى، والذى ينصب إعتراضه الرئيسى لتفسير الأسطورة بأنها تتعارض مع العقلانية التى تم إكتشافها منذ مرحلة ما قبل السقراطيين Pre-Socratic فى الغرب، ومن هذه المرحلة التاريخية فصاعداً فإن الأسطورة تقدم صورة مزيفة للعقلانية، وهو النقد الذى لم يقبله بول ريكور لأنه من وجهة نظره هو بمثابة نقد إفتراضى، وهو خطير جداً ليس للأسطورة فحسب ولكن للمعرفة الروحية أيضاً، وما يريده ويهدف إليه ريكور هو «فك» الأسطورة عن المعرفة الروحية، وأن الأسطورة عنده تعمل بمثابة «رأوى» للمعرفة[٢٠].

ودراسة الأسطورة عند بول ريكور لا تتركز على دراسة الأسطورة بصفة عامة، وإنما ينتقى أساطير ذات خصائص معينة لها علاقة بمفهوم الشر فى حياة الإنسان فيأخذها بمثابة نماذج رمزية يحدد فى ضوئها أصل الشر وتاريخه وغايته (نهايته). وتتحدد تلك الأساطير فى أربعة أنماط - عدة - هى: أساطير الخلق Creation، والسقوط أو الفناء Fall، والتراجيديا Tragedy، الطرد والنفى أو الإبعاد Exille،

فأساطير قصة الخلق تسعى إلى تفسير أصل الشر، الممتد من أصل الأشياء، حيث تبحث هذه القصة فى حقيقة الأساطير، وحقيقة خالق الأساطير نفسه (الإنسان) منذ نشأته، حيث عاش أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار، فكانت أعاجيب الكون التى لم يستطع إدراكها إدراكاً علمياً، فتوهم لها تفسيراً، وتخيل لها أصولاً ووقائع يرتاح إليها فتزول حيرة نفسه، ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الإنسان هى أساطير الخلق، وسوف نعالج موضوع تاريخ الأساطير وأنماطها أنثروبولوجياً فى عمل علمى آخر، حيث لم يكن هدف العمل الذى بين أيدينا والخاص بالأنثروبولوجيا الفلسفية : وبحثها فى الحرية وإرادة الإنسان هادفاً لهذا الجانب من التفصيلات – أما أساطير السقوط – كما يراها بعض علماء الغرب فى سقوط آدم – فتشير إلى الأحداث اللاعقلانية فى تاريخ الإنسانية، أما أساطير التراجيديا فتشير إلى الذنوب والأخطاء باعتبارها – فى نظر ريكور – غير مترادفة مع الفعل اللاعقلانى أو مع الحقيقة الواضحة للوجود، وعليه فإن علاقة الذنوب والأخطاء بالحرية هى علاقات متزامنة فى ضوء الضرورة، وأخيراً يشير ريكور إلى أسطورة الروح المطرودة The Myth of Exilled Soul والتى تفصل الروح عن الجسم وهى الأسطورة التى انشغل بها التفكير الإنسانى، وعنها نبعث فكرة الثنائية فى البحوث الأنثروبولوجية فركزت على الرؤية البنيوية للإدانة الآلهية، كما جاءت فى سفر الخروج، والطرد البابلى اليهودى من أرض كنعان إلى بابل كأسرى، وغيرها من الأساطير ذات جوانب الثنائية، فكل من الرموز والأساطير تهتم مباشرة بالحرية نفس إهتمامها بالشر، وأن مناقشات الرمز والأسطورة تنصب على التفسير الكلى والشمولى لمبحث الحرية والإرادة، وهو فى نهاية الأمر دراسة للإنسان أو الفرد الذى يسود ويسيطر على كل موضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية.

المراجع والهوامش :

(١) للمزيد فى ذلك أنظر كل من:

- قبارى محمد إسماعيل، الإتجاهات المعاصرة فى مناهج علم الاجتماع، دار الطلبة العرب، بيروت، ١٩٦٩، ص : ٤٤٥ - ٤٤٧.

- Karl Mannheim, Essays on Sociology of Knowledge, Routledge & Kegan Paul, London, 1962, pp. 7 - 9.

(٢) أنظر عرضاً لتاريخ ونشأة الأنثروبولوجيا الفلسفية وإهتمامات البحث فيها وأهم روادها من علماء الفكر والفلسفة والإجتماع والأنثروبولوجيا فى :

- Philosophical Anthropology, in Encyclopedia of Philosophy Edited by : Paul Edwards, The Macmillan Company & The Free Press, New York, 1967, Vol. 5, pp. 159 - 166.

(٣) للمزيد حول إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية بالجوانب البيولوجية للإنسان، لا سيما ما يتعلق منها بأنثروبولوجيا الجسم، ووحدة المخ البشرى ... أنظر فى ذلك:

- Stuart F., Spicher, (ed); The Philosophy of the Body, Quadrangle Books, Chicago, 1979.

(٤) من العلماء الذين إهتموا بشكل خاص بالتحليلات الفينومينولوجية للثقافة، عالم الإجتماع الأمريكى بيتر بيرجر Peter L. Berger حيث إهتم بالنظرية الإجتماعية وعلم الإجتماع الدينى وعلم إجتماع المعرفة، كما ركز فى دراساته على إظهار المعانى والرموز التى يشترك فيها الأفراد فى تفاعلاتهم الذاتية والموضوعية، من خلال التنوع الكبير للنتاجات الثقافية المختصة بوصف الوقائع الإجتماعية بإعتبارها مواقف تكون البشرية فيها عملية مستمرة من الخلق والإبتكار وإعادة الخلق والإبتكار مرة أخرى، وهكذا تتمثل صورة الثقافة بأنها إنسيابية، أما صورة المجتمع فهو أزلى فى الحركة رغم تغيره، وهو نفس الإتجاه الذى تشكل منهجياً لدى كل من ماكس فيبر M. Weber، والفيلسوف الإجتماعى الأمريكى النمساوى الأصل الفريد شوتز، والألمانى يورجين هابرماس، والإنجليزية مارى دوجلاس، والفرنسى ميشيل فوكو، والأمريكى تالكوت بارسونز خصوصاً ما جاء فى مؤلفه الأخير بعنوان «بناء الفعل الإجتماعى، والنسق الإجتماعى وللمزيد أنظر فى ذلك:

- Robert Wuthnow and Others: Cultural Analysis: The Work of Peter L. Berger, Mary Douglas, Michel Foucoult and Jurgen Habermas, Routledge and Kegan Paul, London, 1984, (1987).

(٥) عبد الله عبد الرحمن يتيم، كلود ليفى ستروس: قراءة فى الفكر الأنثروبولوجى المعاصر،

الكتاب الشهرى للمشروع الثقافى الخيرى، إصدارات بيت القرآن، المنامة، البحرين، ١٩٩٨م، ص ١٥٣.

(٦) للمزيد حول الآراء والتصورات التى قدمها المفكر الفرنسى بول ريكور Paul Ricoeur لفلسفة الإرادة أنظر ما يلى:

- Paul Ricoeur, "The Hermeneutics of Symbols and Philosophical Reflection" International Philosophical Quarterly, II, No. 2, 1963.
- ...., Freedom and Nature: The Voluntary and the Involuntary, Trans., By, : Erazim V., Kohak, Northwestern University Press, Evanston, 1966.
- ...., The Symbolism of Evil, Trans. by, Emerson Buchanan, Harper and Row, London, 1967.

– بول ريكور Paul Ricoeur مفكر فرنسى معاصر ينتمى إلى مدرسة التفيسرات أو التأويلات الثقافية Cultural Hermeneutics للتراث الفينومينولوجى، كما يعد واحداً من أتباع المدرسة الفرنسية الظاهراتية، ينتمى فى فكره إلى مدرسة فلهلم ديلثى Wilhelm Dilthey وإدموند هوسرل Edmund Husserl له مواقف مضادة للتفسيرات الماركسية والبنيوية، والفرويدية، وربما كان ذلك راجعاً لتمسكه بمذهبه البروتستانتى، والذى يجعله يفسر الثقافة من منظور غربى، ويرى أن التراث الثقافى والحضارى يعيش فى ضمير المفسر، ولكنه يتساءل: من هو المفسر؟ وما هو الشئ المفسر؟ وما هو دور الذاكرة والخيال فى ذلك؟ وإن كان ريكور يعطى أهمية منهجية للذاكرة وما تحمله عن ماضى الثقافة ثم إسترجاعه عند الحاجة، أما الخيال فيأتى فى المرتبة الثانية، وربما قد يكون لا قيمة له عندما لا يحقق فائدة منهجية.

(٧) إتخذت المعرفة أو الأبستمولوجيا Epistemology على يد أنصارها طرقاً ومذاهب عدة منها على سبيل المثال:

أ – الإستدلال المعرفى Rationalism ويمثله رينيه ديكارت وأنصاره فى إطار من الشك المنهجى، على إعتبار أن الشك المنهجى عملية فكرية بحتة، فأنا أشك إذن أنا أفكر، أنا أفكر إذن أنا موجود، وهنا تكون دائرة الوجود تابعة لدائرة الفكر، أما إستدلاله على وجود الله فهو يقر بأن هناك كائن لا متناهى وأن هذا الكائن اللامتناهى موجود (الله) وهنا أيضاً تسبق دائرة الفكر دائرة الوجود. أما عن إثباته المعرفى لوجود العالم فهو ينكر وجوده المادى، ويثبت فقط أن وجود العالم ما هو إلا

فكرة هندسية ذات إمتداد هندسى ليس إلا. وهكذا يؤكد أنصار المذهب العقلى بزعامة ديكارت أن الوصول إلى الحقيقة لا يتم إلا عن طريق العقل وعن طريق العقل وحده، وأن كافة الأفكار والتصورات موجودة فطرياً – أودعها الله – فى العقل منذ ميلاد الإنسان.

ب – الاستدلال المعرفى التجريبى Empiricism وهو القائم على فلسفة الملاحظة والتجريب، وأهم رواده جون لوك Locke وديفيد هيوم Hume وأنصارهما وهم يعارضون وجهة النظر العقلية فى الاستدلال المعرفى ويؤمنون بأن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة وليس العقل، وهاجموا فكرة فطرية التصورات الديكارتية، وذهبوا إلى أن العقل يولد صفحة بيضاء خالية من النقش، والخبرة والمعرفة، وأن العقل يكتسب معارفه عن طريق الحواس، وإن كانت هذه المدرسة الفكرية قد أخذت فيما بعد بالأفكار الحسية Sensations والأفكار التأملية Reflection واستخرجت منها أفكاراً مركبة تجمع بين الحسى والتأملى.

– راجع فى ذلك:

- Locke, J., An Essay Concerning Human Understanding, London, 1690.
- Hume, D., An Inquiry Concerning Human Understanding, London, 1748.

ج – مذهب الظاهراتية Phenomenology والإستدلال الإيمانى فالظاهراتية مذهب فلسفى مصحوباً بهدف أنطولوجى (وجودى) كونى وإذا كانت الفلسفة العقلية لا تعنى إلا بالفكر المجرد، فالظاهراتية هى شكل من أشكال الوعى الصاعد إلى أعلى النشاطات العقلية والروحية فالتجربة الدينية لا يمكن أن ترتبط بتلك الحقيقة كما يقدمها لنا المذهب العقلى، وكان أول من إستخدم مصطلح الفينومينولوجيا هو العالم الرياضى الفلكى جوهان هنرى لامبرت Lambert فى كتابه «الأورجانون الجديد» ثم إستخدمه كانط Kant ليعبر به عن عالم الظواهر فى مقابل الحقائق ثم جاء إدموند هرسول Edmund Husserl (١٨٥٩ – ١٩٣٨) وطور من مفهوم الفينومينولوجيا فى كتابه بعنوان Ided, General Introduction to Pure Phenomenology حيث أن الفينومينولوجيا عنده هى إقامة مذهب فلسفى وصفى يصف بإسهاب وعمق كافة الموضوعات فى ماهيتها كما يراها المشاهد نفسه.

د – المعرفة الإجتماعية والأنثروبولوجية وهى محاولات علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا من أجل تحديد مفاهيم المقولات الرئيسية فى حدود الإستدلال المعرفى برد تلك المقولات وإرجاعها إلى مصادر وأصول إجتماعية فقد حدد إميل

Eidetic : (Ger. Eidetisch) In Husserl: Of or Pertaining to an eidos or to eide. Eidetic Existent: Anything falling as an example within the ideal extension of a valid eidos, e. g., an ideally or urely possible individual, (Purely) eidetic judgments: Judgments that do not posit individual existence, even thoug they are about something individual, Eidetic necessity: an actual state of affairs, so far as it is a singularization of an eidetic universality. E. G., This color has (This) brightness, so far as that is a singulariztion of all eidetically possible examples of color have brightness, Eidetic possibility : See Eidos, Eidetic reduction: See Phenomenology.

– تترجم بأنها طريقة منهجية بحثية فى مثاليات جوهر الأشياء – وهى من إجتهاد المؤلف – لاسيما وأن كلمة لم نعثر لها على ترجمة عربية فى غالبية المراجع والقواميس المتداولة، وتعود الكلمة كما جاءت فى القاموس الفلسفى إلى المفكر الألمانى أدموند هرسرل والتى عبر عنها من خلال الوجود فى ذاته، والمثالية فى ذاتها، والعدالة فى ذاتها، الفردية فى ذاتها، تفرد الألوان فى طبيعتها، تفرد الظواهر فى ذاتها، لدرجة أن علماء النفس الألمان أمثال قد رستخدموا المفهوم بمعنى منذ عام ١٩٢٢ .

(١٠) للمزيد حول آراء ميرلو بونتى أنظر:

- M. Merleau - Pontym: Phenomenology of Perception, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

(11) Pierre Thevennaz, What is Phenomenology? (ed.), James M., Edie, Quadrangle Books Inc., Chicago, 1962.

(١٢) سورين كيركجارد S. Kierkegaard (١٨١٢– ١٨٥٥) مفكر دانمراكى الأصل يعتبر المؤسس الأول للوجودية المسيحية، يرى أن الإنسان فى سعيه للبناء المعرفى ينتقل من الحسى إلى الأخلاقى ثم إلى الدينى، وأن الإنتقال من الحسى إلى الأخلاقى قد يتم تلقائياً مقروناً بتطور الإنسان ونموه. أما الإنتقال من الأخلاقى إلى الدينى، فلا تتم إلا بواسطة قفزة عاطفية هائلة إلى المجهول، يلتمس فيها الإنسان أن يكون بين يدى الله .. ويؤمن به.

– راجع فى ذلك:

– على عبد المعطى محمد، سورين كيركجارد : مؤسس الوجودية المسيحية، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، الإسكندرية.

(13) David M., Rasmussem, Mythic - Symbolic Language and Philosophical Anthropology: A Constructive Interpretation of the Thought of Paul Ricoeur, Martinus Nijhoff, The Hague, Netherlands, 1971, pp. 51 - 59.

– والمعروف أن ديفيد راسموسين قد حصل على درجة الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة شيكاغو عام ١٩٦٨ وقام بالتدريس فى جامعات Drake والكلية الجامعية ببوسطن Boston College بالولايات المتحدة، كما عمل لفترة رئيساً لتحرير مجلة التأويلات أو التفسيرات الثقافية Journal Cultural Hermeneutics.

(14) Ibid., pp. 87 - 91.

(١٥) أنظر فى ذلك:

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op. cit., p. 397.

(١٦) أنظر فى ذلك:

- Paul Ricoeur, Fallible Man, Translated by : Charles Kelbley, Henry Regenry, Co Chicago, 1965, pp. 74 - 78.

(١٧) أنظر فى ذلك:

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op. cit., p. 86.

(١٨) سليمان مظهر، أساطير فمن الشرق، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الصحافة، ١٩٩٧، القاهرة ، ص ٩ – ١١ .

(19) Mircea Eliade, Myth and Reality, Harper and Row, New York, 1963, p. 64.

(٢٠) أنظر فى ذلك:

- Paul Ricoeur, The Symbolism of Evil, Op. cit., pp. 164 - 171.

– محمد حسين دكروب، أنثروبولوجيا الحداثة العربية: منطلقات نقدية، معهد الإنماء العربى، بيروت، ١٩٩٢م.

المحتويات